بيان

النَّظْم في القرآن الكريم

الربع الثاني من سورة الأعراف حتى سورة الكهف

محمد فاروق الزين

محمد فاروق فارس الزين

بيان
النَّظْم في القرآن الكريم
الربع الثاني
من سورة الأعراف (٧)
حتى
سورة الكهف (١٨)

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٠٧,٠١١
الرقم الدولي : ISBN:1-59239-374-8
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: بيان النظم في القرآن الكريم/الربع الثاني
التأليف: المهندس محمد فاروق فارس الزين
التنفيذ الطباعي: دار الفكر -دمشق
عدد الصفحات: ٥٩٢ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف
الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
توزيع دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الحجر ١٥/٩٠-٩٣]

المحتويات

الموضوع	الصفحة
❁ مقدمة الربع الأول والثاني والثالث	٩
❁ مقدمة الربع الرابع	١١
❁ سورة الأعراف	١٩
❁ سورة الأنفال	١٢٦
❁ سورة التوبة	١٧٢
❁ سورة يونس	٢٥٨
❁ سورة هود	٣١٠
❁ سورة يوسف	٣٥٩
❁ سورة الرعد	٤١٠
❁ سورة إبراهيم	٤٣٣
❁ سورة الحجر	٤٥٤
❁ سورة النحل	٤٧٢
❁ سورة الإسراء	٥١٦
❁ سورة الكهف	٥٥٩

مُقَدِّمَة

الربع الثاني

القرآن الكريم منظومة متسلسلة من أوله حتى آخره، وهذا التسلسل ينطبق على الآيات القرآنية في كل سورة على حدة، كما ينطبق على ترتيب السور جميعاً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، وقد بدأ المؤلف في كتابه بيان النظم في القرآن الكريم بالربع الرابع منه، أي من سورة غافر (٤٠)، وحتى سورة الناس (١١٤)، ونشره في كتابه (بيان النظم في القرآن الكريم)، ثم صدر بيان النظم في الربع الأول منه، أي من سورة الفاتحة (١)، حتى سورة الأنعام (٦)،

وفي هذا الكتاب بيان النظم في الربع الثاني منه، أي سورة الأعراف (٧)، حتى سورة الكهف (١٨)، وسوف يتبعه صدور الربع الثالث منه، إن شاء الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

جماد أول ١٤٢٥ – تموز/يوليو ٢٠٠٤

محمد فاروق الزين

البريد الإلكتروني faruk@zein.org

مراجع الكتاب:

١- رسالة القرآن - محمد أسد The Message of the Quran, Muhammad Asad

٢- تفسير المنار - الشيخ محمد رشيد رضا.

٣- التفسير الكبير - الرازي.

٤- الكشاف - الزمخشري.

٥- روح المعاني - الألوسي.

٦- تفهيم القرآن - سيد أبو الأعلى المودودي.

٧- جامع أحكام القرآن- القرطبي.

٨- معاني القرآن الكريم - عبد الله يوسف علي.

٩- أنوار التنزيل- البيضاوي.

* * *

مُقَدِّمَة

الربع الرابع

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت ٤١/٤٤]

تتسم معظم تفاسير القرآن الكريم بأنها تفسر القرآن آية آية بالتجزئة، كما لو كانت كل آية من الآيات مستقلة بذاتها عما قبلها وعما يليها، دون كثير اهتمام بترابط الآيات بعضها مع بعض، ودون التركيز على النظم القرآني المحكم، لدرجة أن البعض، في تجاهل واضح للنظم، قد يعتقد أن ليس هنالك من علاقة بين ترتيب الآيات وبين معانيها، ولا شك أن هذا الأمر وقف عائقاً بين بعض المستشرقين وبين فهم القرآن حتى أنهم توصّلوا إلى استنتاجات خاطئة من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم أو غير منتظم أو غير محكم، وأدّى هذا الأمر ببعضهم إلى محاولة إعادة ترتيب القرآن بحسب ترتيب النزول الزمني في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذه الصعوبة ليست مقتصرة على المستشرقين وحدهم بل تعم الكثير من المسلمين أنفسهم، ناهيك عن حديثي العهد بالإسلام منهم.

والمعروف أن للإعجاز القرآني الكثير من الوجوه اثنان منها على الأقل له علاقة بالنظم، الوجه الأول أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبوية بحسب الظروف المرحلية للبعثة وطبقاً لمتطلباتها في كل مرحلة من مراحلها، وكان الوحي يبيّن للنبيّ ﷺ عند نزول كل آية موضعها الصحيح من السورة الخاصة بها، كما كان يبيّن له ترتيب

السور على النحو الذي نعرفه اليوم مما لا يطابق الترتيب الزمني للنزول، وبالتأكيد فإنّ ذلك لم يكن اعتباطاً، لأن القرآن لم ينزل فقط كي يوافق المتطلبات المرحلية للبعثة النبوية وحدها، وإنما نزل كي يلائم كل العصور والأمم وليس لوقت أو أمة بعينها، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء ١٠٦/١٧]، وما يدل أن ترتيب الآيات والسور في المصحف ذو مغزى لا يمكن التغاضي عنه في تفسير القرآن الكريم، وقد أقر غالبية الفقهاء بإعجاز القرآن من هذه الزاوية لكنهم لم يتجاوزوا هذا الإقرار إلى الاستفادة منه في التفسير، بل إن غالبية المفسرين لم يركزوا على هذه النقطة.

فالوجه الثاني من هذا الإعجاز المذهل أن النبي الذي لم يكن يمتلك أي وسيلة من وسائل التحرير والتعديل والتنقيح، ولا أدنى وسيلة من وسائل التقانة المتاحة اليوم في هذا المضمار، وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً من بعثته، ما يجعل من المستحيل أن يستطيع من تلقاء نفسه ترتيب القرآن على النحو المُحكَم الذي نعرفه، والمُغاير لترتيب النزول الزمني، وبحيث يكون القرآن مناسباً لكل العصور، مما يدل على أن ترتيب المصحف الذي نعرفه توقيفي من الله تعالى،

فهنالك إذن نقطتان لا يمكن التغاضي عنهما: الأولى أن تعريف السورة بهذه الكلمة: (سورة) يعني أنها بمثابة سور يحيط بموضوع معين أو مواضيع مترابطة، وبمعنى أن كل سورة ذات محور يدور حوله موضوعُها أو مواضيعها، ولولا ذلك لما كان هنالك مبرر لتقسيم القرآن إلى سور، ولكان كله سورة واحدة من أوله إلى آخره، ولا بد لكل قارىء للقرآن أن يلاحظ أن لكل سورة قرآنية شخصيتها المختلفة عن الأخرى، وهذا الأمر يبدو شديد الوضوح عندما ينتهي المرء من قراءة إحدى السور وينتقل إلى الأخرى، ومن هنا يبدو أحد جوانب التحدي القرآني للكفار أن يأتوا بسورة من مثله، والنقطة الثانية أن ترتيب

السور التوقيفي يقتضي أن لهذا الترتيب مغزى لطيفاً لا علاقة لـه بطـول السـورة أو قصرها، وهو ما اجتهد الكاتب في بيان ارتباط السور المتتالية بعضها ببعض.

وإذا قرأ أحدهم القرآن دون محاولة التركيز على النظم فقد تبـدو لـه الآيـات مفككة المعاني، غير أن وضع كل آية في نصابها الصحيح مـن السورة ودراسـة تعلقها بما قبلها وما بعدها يلقي المزيد من الضوء على معناها بما لا يقبل الخطأ.

وليس من شك أن بعض المفسرين فطن لهذا الموضـوع، ولكـن تصديهـم لـه كان جزئياً كما هي الحال في التفسير الكبير للرازي (المتوفّى ٦٠٤هـ/١٢٠٨م) الذي حاول أن يجد العلاقة أحياناً بين بعض الآيـات وبعضهـا الآخـر أو العلاقـة بين نهاية بعض السور وبداية السورة الـتي تليهـا، كمـا بـذل الألوسـي (المتوفّـى ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) في تفسيره (روح المعاني) ذات المحاولة الجزئيـة، غـير أنهمـا معاً لم يستفيدا من إحكام النظم في تفسيرهما للسور القرآنيـة كـل علـى حـدة، ولا للقرآن بمجمله، وقد وردت هذه المحاولة الجزئية أيضاً في تفسير المنار للشـيخ محمد رشيد رضا،

وقد لفت الإمام الزركشي (المتوفّى ٧٩٤ هـ/١٣٩٢م) في كتابه (البرهـان في علوم القرآن) النظر لهذا الموضوع، إذ عرّف النظم بعبارة: «معرفة المناسـبات بين الآيات» فكتب: «وهذا النوع -من معرفـة المناسـبات بـين الآيـات- يهملـه بعض المفسّـرين أو كثـير منهـم، وفوائـده كثـيرة»، وكتـب أيضـاً: «قـال بعـض مشايخنا: قد وهمَ من قال لا يُطلب للآي الكريمـة مناسبة، لأنهـا علـى حسـب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف مرتّبة سوره كلها وآياتـه بالتوقيف، والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أوّل شيء عن كونهـا مكمّلـة لمـا قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلهـا؟ ففـي ذلـك علـمٌ جـمّ» وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»، ونقلَ عن الشـيخ أبي الحسن الشهرباني قولَه: «أوّل مَن أظهر ببغداد علم المناسبة و لم نكن سمعناه

من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (المتوفّى ٣٢٤هـ/٩٣٦م) وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول إذا قُرِيء عليه: لِم جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة» انتهى.

وقد بذل محاولة متكاملة في هذا الصدد الإمام برهان الدين إبراهيم ابن عمر البقاعي (المتوفّى ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) في تفسيره الذي سمّاه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وذكر في مقدمته: «هذا كتاب عُجاب، رفيع الجناب، في فنٍّ ما رأيتُ مَن سبقني إليه » فلم يخلُ من التصنّع والتكلّف.

ومن جهة أخرى لا بد أن يلاحظ المرء أن القرآن الكريم قد لا يستنفد موضوعاً من المواضيع في مكان واحد أو في سورة واحدة، بل يعود إليه في أكثر من سورة بما قد يعطي الانطباع أن هنالك تكراراً في المواضيع، غير أن التمعن في ذلك يبين أن الموضوع يتم بحثه في كل مرة من زاوية مختلفة عن الأخرى أو متممة لها وبما قد يتناسب مع محور السورة موضوع البحث، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم بتصريف الآيات كما في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٤٦/٦]، وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام ٦٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ١٠٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء ٤١/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء ٨٩/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف ٥٤/١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الفرقان ٥٠/٢٥].

وهنالك أيضاً آيات الأحكام التي لا يسردها القرآن في موقع واحد أو سورة واحدة، بل نرى هذه الآيات متداخلة مع النص القرآني في مواضع مختلفة، فالنصوص القرآنية ليست بمجرد أحكام، والقرآن كتاب دعوة للإسلام، وهو أيضاً كتاب دين ودنيا مما يفسر هذا التداخل، فحياة الإنسان وحدة متكاملة لا يمكن فصل النواحي الروحية فيها عن النواحي الحياتية المعيشية.

وتبدو مبالغة بعض المفسرين في الاعتماد على (أسباب النزول) سبباً مهماً، من جملة أسباب أخرى، في تفكيك النص القرآني أو توهم تفككه، والانصراف عن نظمه المحكم وبالتالي عن معانيه، فغالباً ما تعطي أسبابُ النزول الانطباعَ بتفكك النص مع أن واقع السور يشهد بعكس ذلك.

معظم أسباب النزول جُمعت في مؤلَّفين، الأول كتبه أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفى ٤٦٧هـ/١٠٧٥م)، والثاني كتبه جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١٠ هـ/١٥٠٥م) - وهي مدوّنة كملاحظات بأسفل صفحات تفسير الجلالين-، علماً أن بعض هذه الأسباب - القصص- مذكور في كتب السيرة والمغازي، كما هي مذكورة أيضاً في كتب التفاسير المأثورة، ويعطي الواحدي النيسابوري أسباباً للنزول لبعض الآيات الواردة في ٨٣ سورة من مجموع سور القرآن الكريم ، في حين أن السيوطي يعطي أسباباً للنزول لبعض الآيات في كافة سور القرآن الكريم -عدا الفاتحة-، فالأسباب في مجموعها لا تغطي سوى قسمٍ قليلٍ من القرآن، وقد أُحصيَتْ الآيات التي لها أسباب نزول عند الواحدي النيسابوري فوُجد عددها /٥٩٩/ آية من مجموع آي القرآن الكريم البالغ عددها /٦٢٣٦/ آية أي بنسبة مئوية من المجموع أقل من عشرة بالمئة، ومع ذلك يعتبرها البعض ضرورة لا بد منها لتفسير القرآن! .

واليوم يرى بعض العلماء أن أسباب النزول ضعيفة الإسناد في معظمها، وحتى ما كان منها ذا إسناد جيد -وهو أقل القليل- فإن البعض منها قد يناقض

بعضها الآخر، وفي الأغلب يجب النظر إلى الأسباب كتطبيقات لما نزل من القرآن الكريم، وليس كأسباب نزول، وفي ذلك كتب الإمام الزركشي في (البرهان، الجزء الأول ص ١٢٦) : «وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها ».

والنتيجة أنّ أسباب النزول يمكن أن تؤخذ في الاعتبار فقط عندما تشير الآية أو الآيات إلى أحداث تاريخية معينة، انظر الملحق (أ) – في نهاية الربع الرابع – الذي يبين المناسبات التاريخية لنزول بعض النصوص القرآنية، وفيما عدا ذلك يلزم التمحيص بها والتعامل معها بحذر شديد.

كما يبين الملحق (ب) – في نهاية الربع الرابع – أسماء الأعلام من مؤرخي السيرة والفقهاء وكتّاب الحديث والتفاسير وأسباب النزول، وأسماء الخلفاء المعاصرين لهم، لإعطاء فكرة عن بعد الفترة الزمنية –أو قربها– لهؤلاء الأعلام من البعثة النبوية الشريفة بما يتناسب مع العمل الذي كانوا بصدده.

وقد كتب أبو حامد الغزالي في مؤلّفه «إحياء علوم الدين» أن حُجُب فهم القرآن أربعة، أي التي تحجب فهم القرآن الكريم عن قارئه،

أولاً: حين ينصرف همّ القارىء إلى تحقيق الحروف ومخارجها، وهذا يتولّى حفظُه شيطان يصرفه عن معاني كلام الله، فلا يزال يحمله على ترديد الحروف يخيل إليه أنْ لم تخرج من مخارجها، فيكون تأمّله مقتصراً على مخارج الحروف، فأنّى تنكشف له المعاني؟.

ثانياً: حين يكون القارىء مقلّداً لمذهب سمعه بالتقليد وجَمُد عقلُه عليه وتعصّب له.

ثالثاً: حين يكون مصرّاً على ذنب، أو متّصفاً بكِبْر، أو مبتلىً بهوى في الدنيا.

رابعاً: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأنّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعدَه من النار، فهذا أيضاً من الحُجُب العظيمة.

ومن كل ذلك تنطلق محاولة هذا الكتاب لبيان النظم القرآني وبالتالي المعاني القرآنية، وقد بدأ الكاتب بالربع الأخير من القرآن الكريم، ويتضح الغرض من الكتاب في ثلاث مواضيع:

١-بيان ارتباط السور القرآنية بعضها مع بعض.

٢- بيان موضوع كل سورة أو ما اصطلح على تسميته محور السورة الذي تدور حوله.

٣- بيان النظم في الآيات لكل سورة على حدة.

وفي العصر الحديث، وفي الباكستان تحديداً، قام أحد علمائها وهو مولانا أمين احسان إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧) بمجهود كبير بهذا الصدد في مؤلفه الضخم المكون من ستة آلاف صفحة والذي سمّاه (تدبُّر القرآن)، غير أنّه كتَبَه بلغة الأوردو، ولم يترجم حتى الآن إلى أية لغة أخرى فلم يصل إلينا.

وقد لفت نظري الأخ الكريم المهندس نزار الكردي، الذي تضاهي معارفُه الفقهية علومَه الهندسية، أنّ كوْن ترتيب السور والآيات القرآنية توقيفي من الله تعالى، أي الترتيب إلزامي غير معلّل، مما يعفي المرء من البحث عن علّة مصطنعة عندما تنتقل السورة من موضوع لآخر قد لا يبدو هنالك رابط بينهما، وهو ما اصطنعه الشيخ برهان الدين البقاعي في كتابه "نظم الدرر" في كثير من الحالات، وكما هي الحال مثلاً عندما يتم الخلط بين واو العطف و واو الاستئناف بين بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف ١٨/٩٩]، فالواو في قوله:

(وَتَرَكْنَا) واو الاستئناف وليست واو العطف إذ هي ابتداء لموضوع جديد بعد انتهاء قصة ذي القرنين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

شوال ١٤٢٣هـ - كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢م

محمد فاروق الزين

البريد الإلكتروني faruk@zein.org

* * *

سورة الأعراف -٧-

مكية

يعود اسم هذه السورة لعبارة -الأعراف- التي وردت في الآيتين (٤٦) و (٤٨)، وهنالك شبه إجماع أن السورة مكية بكاملها، وقد نزلت الأعراف قبل سورة الأنعام مباشرة، أي في السنة الأخيرة من إقامة النبي ﷺ في مكة، قبل هجرته إلى المدينة، وأما سبب تأخر نزول الأنعام فهو مبني على ما هو معلوم من التدريج في تلقين الدين ومراعاة استعداد المخاطبين فيه، وفي الأعراف قصص النبيين الذين بُعثوا إلى الأمم البائدة، وقصة موسى مع قومه، وإظهار العبر منها بما يدور حول محور السورة، والفرق ظاهر بين ما يراعى من الترتيب في دعوة المشركين وقت البعثة، وما يراعى في تلاوة المؤمنين للقرآن بعد ذلك.

ارتباط السورة بما قبلها

في أواخر سورة الأنعام المتقدمة قرأنا قولَه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٥٥]، وتفتتح سورة الأعراف أن القرآن ذكرى للمؤمنين، وإنذار للكفار: ﴿الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف ٧/١-٢]، وفيه تفصيل كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين والعقائد، ومشتمل على العلم اليقيني لعالَم الشهادة والغيب: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ٧/٥٢]،

وقد ختمت سورة الأنعام أن الله تعالى رفع بعض الناس فوق بعضهم درجات ليختبرهم فيما آتاهم من العلم أو الغنى أو المقدرة أو السلطة: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام ٦/١٦٥]، وتبدأ سورة

الأعراف بأنهم مسؤولون عن ذلك: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ٦/٧]،

وفي سورة الأنعام قرأنا نفي الجبرية وذم التقليد بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام ١٤٨/٦]، وفي هذه السورة أنهم يعتذرون عن ارتكاب الفواحش بالتقليد: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٢٨/٧]،

وفي سورة الأنعام بيان ما يحرم أكله: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام ١٤٥/٦]، وفي هذه السورة تحريم الفواحش عموماً: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٣٣/٧]،

محور سورة الأعراف

تركيز السورة على موضوع الدعوة إلى الإسلام وطريقتها وأسلوبها ومسؤوليتها، وخاصة لمن هم على معرفة -أصحاب الأعراف-، وأن حرية الفكر والقدوة الحسنة تمهد الطريق لها، وأن الإيمان مغروس في بني آدم بالفطرة، سوى أن الاستكبار والإعجاب بالنفس يفسد الفطرة، ويؤدي إلى التكذيب، انظر الآيات (١٣، ٣٦، ٤٠، ٤٨، ٧٥، ٧٦، ٨٨، ١٤٦، ٢٠٦) في ذمّ الاستكبار.

وأنه بعد نزول القرآن الكريم صار المسلمون في موقع المسؤولية للعمل بالقرآن: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦)، كما صار العلماء والدعاة في موقع المسؤولية ليس فقط للعمل بالقرآن، بل أيضاً لإنذار المشركين وتذكير المؤمنين (الآية ١-٢)، وأنّ أصل معصية بني آدم تكمن في الاستكبار والاعتداد بالنفس كما هي حال إبليس: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ في حين الاستكبار يؤدي بصاحبه إلى نقيضه من الذلّ والصَّغار: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)، وأن وساوس إبليس من هذا القبيل تعمل في بني آدم بكل وسيلة: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧)، فإذا اجتمع التكذيب بالآيات مع الاستكبار كانت النتيجة حبوط العمل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠)،

وأن هنالك بين الناس مَن هم على مستوى عالٍ من المعرفة – على الأعراف- ، يستطيعون التمييز جيداً بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، والإيمان والكفر، ولكنهم غير ملتزمين ولا مكترثين للعمل الصالح فلم يتحمّلوا مسؤولياتهم، غير أنهم في الوقت نفسه لم يصدّوا عن سبيل الله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦)،

وأن دأب المؤمنين الحرص على حرية الرأي بما يهيىء المناخ الفكري لانتشار الدعوة بالقناعة وبالقدوة الحسنة: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)، على النقيض من الكفار الذين يخشون الحرية الفكرية خوفاً من انتشار الدعوة: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (٨٨)،

وأن حمل الرسالة السماوية مسؤولية تتطلب من التضحيات (٦)، لكن بني إسرائيل ظنّوا الرسالةَ استعلاءً وتمييزاً لهم على غيرهم من الأمم فاستكبروا حتى لاقى موسى منهم أشد العنت: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩)، فمن شأن الاستكبار أن يصرف أصحابه عن بلوغ الحقيقة وسلوك الرشد: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٤٦)،

ولكن الله تعالى يمهل الناس لأنّ رحمته وسعت كل شيء وهي تنال خاصة مَن اتّبع رسالة خاتم الأنبياء والرسل: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٦-١٥٧)،

وأن الإيمان مغروس في بني آدم بالفطرة، فمَن تفسد فطرته بالركون إلى الدنيا يغفل وينحرف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٢-١٧٤)، وأن الوحي الذي نزل على الأنبياء ليس سوى تذكرة بهذا الميثاق الفطري، ولذا سمّي الوحي ذِكراً، انظر الآيات (٦٣) و (٦٩)،

ثم تبين السورة خلاصة جامعة لمكارم الأخلاق في طريقة الدعوة، وفي حسن التعامل مع الناس وفي التيسير وترك التشدد ونفي الحرج والرفق واللطف والتسامح وترك الغلظة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)،

ومن آداب الدعوة، الاستماع لما في القرآن من الحجج البيّنات، استماع تفهّم وتفكّر واستيعاب، وفي ذلك عودة إلى الآية (٣) من السورة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)، ثم تعود للتذكير أن الاستكبار والإيمان لا يجتمعان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦)،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المص﴾ (١)

١- الله أعلم بمراده ، راجع شرح آية [البقرة ٢/١].

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

٢- ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ الكتاب هو القرآن، والحَرَج هو ضيق الصدر، وأصله من الحِرج ذي الشجر الكثيف الذي يضيق المرور فيه، والمعنى لا يضيق صدرك -أيها النبي، أو أيها الداعية- عن إنذار الكافرين بالقرآن، وتذكير المؤمنين، والذين لديهم قابلية للإيمان، وقالوا أيضا إن الحَرَج هو الشك، لأن الشاكّ يكون ضيّق الصدر، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو أيضاً عام لجميع المؤمنين في كل العصور، والواضح أنّ الحَرَج أو الشك ليس في كون القرآن منزلاً منه تعالى، فذلك ليس موضع حرج ولا شك من النبي ﷺ ولا من المؤمنين، فالضمير في ﴿مِنْهُ﴾ غير عائد للكتاب، وإنما الحَرَج المنهي عنه هو في الإنذار والتذكير، لأنّ الهدف الذي تنص عليه الآية ذو شقّين.

أولاً: بلاغ وإنذار الكفار الذين يرفضون الوحي القرآني، لقوله ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي بالكتاب المنزل.

وثانياً: تذكير المؤمنين كي يهتدوا بهداه، لقوله ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليكون القرآن ذكرى للمؤمنين، وهكذا يعود الضمير في ﴿بِهِ﴾ إلى الإنذار والتذكير،

فيكون تقدير الخطاب: كتاب أنزل إليك لتنذر به، وليكون ذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج من الإنذار والتذكير، أما سبب تقديم النهي عن الحَرَج، على الإنذار والتذكير، فقد ذكر الرازي أن الإنذار والتذكير لا يتم إلا إذا انتفى الحرج من الصدر أولاً، والمعنى لا يضيق صدرك من تكذيب المكذبين، ومن المهم ملاحظة وصف القرآن بأنه ذكرى، من حيث إنه تذكير بالميثاق المأخوذ على بني آدم، المذكور في الآية (١٧٢) من هذه السورة،

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

٣- انتقال الخطاب من الرسول والدعاة، إلى الناس عامة: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها الناس ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من الوحي القرآني ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من البشر فتولّوهم أموركم وتطيعوهم بحسب هواهم، وفي التحليل والتحريم وفي الابتداع، ولا تتخذوا من البشر آلهة ولا قدّيسين ولا باباوات كما فعل النصارى، ولا تتخذوا منهم أولياء متوهمين أنهم بصلاحهم يقربونكم إلى الله زلفى، ولا تعتقدوا، أيها المؤمنون، أنّ آراء العلماء ملزمة للناس فتلتزموا بها كما لو كانت قرآناً منزلاً أو سنّة نبوية، فالعلماء والأمراء لا يُتّبعون لذواتهم وآرائهم، ولكنّ الاتّباع هو للقرآن والسنة حسب علمهم وتفسيرهم وشرحهم، وما على العلماء إلاّ بيان ما أنزل الله وتبليغه وإرشاد الناس لفهمه ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما أقل تذكّركم لهذه الحقيقة، وما أكثر اتخاذكم أولياء من دون الله،

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤)

٤- فعندما تغفل المجتمعات عن الوحي الإلهي، وتغتر بالرخاء المادي، وبالأمن

والسلطة التي قد تتمتع بها، وتظن أن ذلك علامة على استحقاقها، وتشعر أنها في منتهى الاطمئنان والتحكم في دنياها، ،مستبعدةً العاقبة والحساب، تكون نتيجتها الطبيعية إلى زوال: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ القرية في عرف القرآن هي المجتمع، ويجيء البأس بياتاً بمعنى ليلاً والناس نائمون مطمئنون، أو هم قائلون أي خلال فترة القيلولة، والمغزى أنهم في منتهى الغفلة، والأمثلة على ذلك كثيرة كما سوف يرد بالتفصيل بالآيات (٥٩-١٧١)،

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥)

٥- ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ما كان قولهم إلاّ الندم والحسرة والمعذرة بعد فوات الأوان، وهي الأمم والمجتمعات التي غفلت، ثم تدهورت وأصابها الانحلال والفساد والاضمحلال، والأمم قلّما تشعر بعاقبة ذنوبها قبل وقوع العقوبة، ولا ينفعها بعد ذلك قول العارفين أنهم كانوا ظالمين،

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦)

٦- ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ المسؤولية متحققة بعد نزول الرسالات السماوية، ولا يفيد الأمم والمجتمعات الندم أو ادّعاء الجهل، فهي مسؤولة عن أعمالها بعد أن جاءتها الأنبياء والرسل بالنذر والذكرى ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ فما على الرسل إلاّ البلاغ، انظر شرح آية [المائدة ١٠٩/٥].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧)

٧- ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أصل القصّ تتبع الأثر، والمقصود يُعرض على الناس سجل أعمالهم المحفوظ عليهم، يُحاسبون به وقت البعث ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عمّا كانوا يعملون في الحياة الدنيا، انظر آية [الإسراء ١٣/١٧-١٤]، وآية [القيامة ١٤/٧٥-١٥]،

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨)

٨- ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي العدل الحق يكون يومئذٍ، فتسوّى مظالم الدنيا يوم الحساب ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ثقلت موازين أعماله، بالإيمان والأعمال الصالحة ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والنعيم المقيم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩)

٩- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ خفّت موازين أعماله، لأن الباطل خفيف لا قرار له ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتهالكهم على الدنيا والمادة والجاه والزعامة فلم يتورعوا عن شيء في سبيلها ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يظلمون أنفسهم نتيجة كفرهم بالآيات، وإنكارهم الحساب والآخرة،

ونظيره قوله تعالى ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ١٢/٦]، وقوله تعالى ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف ١٠٥/١٨] أي لا تكون قيمة لأعمالهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠)

١٠- خلاصة الآيات المتقدمة (٢-٩) في نزول القرآن والإنذار والتذكير به، ووجوب اتباعه دون غيره، والتذكير بهلاك المجتمعات السابقة التي كفرت بالوحي واطمأنّت إلى الرخاء والدعة، وعدم جدوى ندمها وحسرتها في العاقبة، ومسؤولية الناس عن أعمالهم، وأن العدل يوم الحساب يقتضي محاسبة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولمّا كان افتتان الناس بالرخاء المادّي هو سبب فسادهم وانهماكهم في الشهوات، فهذه الآية تبين قلّة الشاكرين من الناس رغم النعم التي يرفلون بها:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ بأن منحهم تعالى العقول كي يتعلّموا ويعملوا، ويتمكنوا من ثروات الأرض ويسخّروها لمعيشتهم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ فقد جعل تعالى في الأرض وسائل المعيشة ابتداءً ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾

الأكثرية لا تقرّ بالنعم ولا تؤدي حقها، لأنّها تظن أنّما حصلت على هذه النعم باستحقاقها وجدارتها لا غير، والشكر يكون بالعبادة والعمل معاً، ومن الشكر استخدام النعم باعتدال وتعقل، بما لا ينعكس سلباً على الإنسان وعلى بيئته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١)

١١- هذه الآية بداية لقصة الخلق تأتي بعد مقدمة الآيات (١-١٠)، لبيان استعداد الإنسان للخير والشر، وقد تكررت قصة الخلق في القرآن الكريم في سبع سور هي: (البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ص)، في كل سورة منها تُعرض القصة من زاوية مختلفة، وتُبدي حكمة أو حكم معينة، ومغزى جديد أو أكثر، وفي هذه السورة تأتي القصة بعد بيان نعمه تعالى على البشر: كإنزال الوحي، ومسؤولية الإنسان، وجعل أسباب المعيشة والتمكين له في الأرض، ومع ذلك فالأكثرية لا تشكر النعم، لأنّ وساوس الشيطان تحرفها عن الصراط (الآية ١٦)، ومن تمام نعمه تعالى على الإنسان أن علّمه الأسماء كلها [البقرة ٢/٣١] وأسجد له الملائكة، وكرّمه بالحرية والعقل، وأمكنه من الخيار بين الخير والشر:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يلاحظ الترتيب في الخطاب: الخلق ثم التصوير، يشير من جهة إلى خلق الجنس البشري عامّةً وتطوره أولاً من سلالة من طين، لقوله جلّ ثناؤه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر ١٥/٢٦] أي من الطين المتولّد من الطين الأسود المتغيّر على مرّ السنين، وقوله عزّ من قائل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٢]، وثانياً نلاحظ الإشارة إلى تطور خلق الإنسان الفرد، عندما يُخلق نطفةً في رحم أمّه ثم يتطوّر إلى صورته الكاملة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤]،

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ تأخير الكلام عن آدم إلى ما بعد الإشارة إلى خلق الجنس البشري دلالة أنّ آدم بهذا المعنى رمز للجنس البشري بأكمله، فالمراد به نوع الإنسان، والسجود ليس لشخص آدم وإنما لجنس البشر، أما مغزى سجود الملائكة فلأن الله تعالى جعل العلم أشرف من العبادة (البيضاوي)، وقد علّم آدمَ الأسماء كلّها في حين جهلتها الملائكة، وأما استكبار إبليس ومعصيته فكناية عن عجز الإنسان عن إخضاع روح الشر تماماً، وعجزه عن إبطال خواطر السوء من أفكاره، انظر شرح آية [البقرة ٢/٣٤].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢)

١٢- (قَالَ) تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ حسدَ إبليسُ آدمَ على تكريمه بسجود الملائكة له، وظنّ أنه أفضل من آدم بالخلق، في حين لم يقدّر أفضلية الإنسان بالعلم والمعرفة بعد أن تعلّم الأسماء كلّها [البقرة ٢/٣١]، وقول الشيطان: أنا خير منه، شائع في دنيا الناس يقولها كثير منهم، ويتجلّى بهذا القول مرض الإعجاب بالنفس، والاستكبار والتكبر، ورفع النفس إلى درجة لا تستحقها، وينتج عنه الحقد على الآخرين، ويصيب العقلَ بالغفلة.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ وهو هبوطه من المنزلة التي كان عليها في الملكوت الأعلى ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأن أهل السماوات متواضعون خاشعون ﴿فَاخْرُجْ﴾ من الجنة ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الذليلين، فجعله تعالى على نقيض ما أراد من التكبر، والآية تبين أن الاستكبار سبب للمعصية، وسيرد بيان ذلك بتفصيل في الآيات (١٣، ٣٦، ٤٠، ٤٨، ٧٥، ٧٦، ٨٨، ١٤٦)،

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الإنظار هو التأخير، والمعنى أنّ إبليس طلب إمهاله في الحياة إلى يوم البعث، والانظار ليس فقط في الزمن، وإنما في إعطائه الفرصة كي يستمر في تمرده ومحاولته إغواء البشر، والمحصّلة من تمرد إبليس كون الإنسان على استعداد للشر، إلى جانب استعداده للخير.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (١٥)

١٥- ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى طلبه، وفي سورة الحجر حدد تعالى المهلة: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٨/١٥]، والمغزى من إنظار إبليس أن يكابد الإنسان وساوسه، فيتمكن من حرية اتخاذ القرار، وما في ذلك من تكريم له، ورفعه إلى مستوى المخلوقات الأدبية،

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦)

١٦- (قَالَ) إبليس ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ بسبب وقوعي في الغيّ لأحتهدنّ في إغوائهم، ونسب الإغواء إليه تعالى لأنّ من سننه أن يكون الغيّ نتيجة لازمة للمعصية، والغيّ هو الخيبة أو الضلال أو الفساد ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ خاب إبليس وأحبط بنتيجة معصيته، انظر الآية (١٣)، وهو في النتيجة سيقعد بالمرصاد لإضلال من يستطيع من الناس،

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧)

١٧- ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ بأساليب واضحة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وبأساليب خفيّة ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ لأحتهدنّ في إضلالهم من كل الجهات الممكنة، وهي جهات معنوية، وبجميع الوسائل الممكنة، فمُغريات الشر محيطة بالناس من كل جانب ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أكثرية الناس على الجحود، لا تشكر الله ولا تؤدي حق النِعَم، وقد أعطى الله تعالى البشر إرادة

واختياراً حرّاً يصعدون بهما إلى مصاف الملائكة إن شاؤوا، أو يهبطون بهما إلى درك الشياطين، وذلك مغزى عصيان إبليس ومحاولته غوايـة النـاس، والوسوسـة الشيطانية لهم،

﴿قَالَ اخْـرُجْ مِنْهَـا مَذْءُومًـا مَدْحُـورًا لَمَـنْ تَبِعَـكَ مِنْهُـمْ لَأَمْـلَأَنَّ جَهَنَّـمَ مِنْكُـمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨)

١٨- (قَـالَ) تعـالى ﴿اخْـرُجْ مِنْهَـا مَذْءُومًـا﴾ اخـرج مـن مـنزلتك محقـوراً ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً مُبعداً ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُـمْ﴾ وهـم الذيـن يتّبعـون وسـاوس إبليـس فيضلّـون ويُضلّـون ﴿لَأَمْـلَأَنَّ جَهَنَّـمَ مِنْكُـمْ أَجْمَعِـينَ﴾ مـن الشـياطين وتابعيهم.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْـثُ شِـئْتُمَا وَلا تَقْرَبَـا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

١٩- ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْـتَ وَزَوْجُـكَ الْجَنَّـةَ﴾ اقتضـت الحكمـة الإلهيـة أن تكون الجنة دار الاختبار المؤقت للإنسان لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّـكَ لِلْمَلائِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٢/٣٠]، فلـم تكـن سـوى مرحلـة سـبقت هبوط الإنسان إلى الأرض، بمجال خلافته، سواء كان الهبوط مادياً أو معنوياً،

﴿فَكُلا مِنْ حَيْـثُ شِـئْتُمَا﴾ لأنّ الأصـل في الأمـور الحـلّ ﴿وَلا تَقْرَبَـا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ النهي عن الاقتراب من الشجرة كناية عـن جعـل الإنسان حرّاً في الاختيار بين الصواب والخطأ، انظر شرح آية [البقرة ٢/٣٥].

ومن جهة ثانية، ليس في القرآن، كما في كتب اليهود، أنه تعالى خلق حـواء من ضلع آدم، وما رُوي في هذا المعنى مأخوذ من الإسـرائيليات، وحديـث أبـي هريرة في الصحيحين ((إن المرأة خلقت مـن ضلـع أعـوج)) ليـس سـوى كنايـة، كقوله تعالى ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء ٢١/٣٧]، بدليـل تتمـة الحديـث ((فإن ذهبت تقوّمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء)) والمغزى لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة، انظر تفسير المنار،

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أصل الوسواس الهمس الخفي، و وسوسة الشيطان للبشر هي ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم القبيح ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ أي ليبدي لهما طريق المعصية، لأنه كان موارى عنهما قبل ذلك، والسوأة ما يسوء الإنسان ظهوره، فهي بهذا المعنى نتيجة معصيتهما، وإذا أضيفت السوأة إلى الإنسان فقد يراد بها العورة الفاحشة، لأنه يسوءه ظهورها بالفطرة، ما لم تفسد فطرته، وقد يراد بها المنظر الذي يسوء ناظره كقوله تعالى ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة ٣١/٥] أي منظر أخيه المقتول، وقال الرازي أيضاً أن بدوّ السوأة كناية عن سقوط الحرمة وزوال الجاه عن المرء، وقال الألوسي إنها كناية عن إبداء الأمور الرذيلة لدى المرء، المعتبرة عورات عقلاً ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ تكونا بمنزلة الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ يكون لكما الخلود إن أكلتما من شجرة الخلد والملك، لقوله ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ [طه ١٢٠/٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أقسم لهما إنه من الناصحين، وقيل المعنى أنه أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها، ويلاحظ أن ليس في الآيات ما يشير إلى أن حواء هي التي أغرت آدم بالمعصية بل الواضح من صريح الآية أنّ إبليس أغراهما معاً، وما يروج بخلاف ذلك فمن الإسرائيليات المذكورة في كتب اليهود بقصد الحطّ من منزلة المرأة.

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ في المعصية، ودلّى الشيء تدلية أي أهبطه شيئاً فشيئاً، وهو من دلّى الدلو في البئر، والمعنى ما زال إبليس يخدعهما بالوساوس لترغيبهما بالأكل من الشجرة، ثم أقسم إنه ناصح لهما، حتى أسقطهما في المعصية، وحطّهما عمّا كانا عليه من البراءة وسلامة الفطرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ الغُرور ما يُغرّ به، والمعنى أنه خدعهما بالباطل ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ بنتيجة المعصية، لأن بدوّ السوأة، أي الخيبة والضلال والفساد والبؤس، نتيجة طبيعية ولازمة للاختيار الخاطئ -المعصية-، والعوام تقول "فلان انكشف" أي انكشفت رذالته ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يجعلان ورقة على ورقة لستر السوأة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ بما أودعت في عقولكم من التفكير والمحاكمة وإدراك المعقولات ﴿عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ في روح المعاني أنها شجرة الهوى، ويحتمل أنها رمز للحدود التي وضعها الخالق، عزّ وجلّ، تجاه شهوات ورغبات الإنسان الجامحة، ممّا يمكّن الإنسان من اختيار طريق الخير أو الشر ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بالوساوس السيئة التي يدخلها في عقولكم.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بطاعة وساوس الشيطان ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ بعد أن عرفنا ضعفنا وعجزنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بتوفيقنا وهدايتنا والتوبة علينا بعد أن تُبنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنفسنا، والمغزى أن التوبة لبني آدم مفتوحة، وأنّ الإقرار بالذنب والاستغفار وطلب الرحمة من الله والتوبة وإنابة كلمّا وقع الإنسان في الذنب.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ إلى الأرض من المنزلة التي كنتم عليها في الجنة، ويلاحظ أنّ الهبوط لم يكن عقاباً لأنه تعالى قبل توبة عبده آدم قبل ذلك [البقرة ٣٧/٢]، وأنّ سكنى آدم وزوجه في الجنة مؤقت أصلاً لقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٢/٣٠]، ومن جهة ثانية يلاحظ عودة الخطاب من صيغة المثنى إلى الجمع، فيتصل الخطاب مع الآية (١٠) وأوّل الآية (١١) من هذه السورة، لكون آدم وزوجه رمز للبشرية جمعاء ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وهي العداوة في ذرية آدم، وقيل بل العداوة بين الشيطان وبني آدم ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ لكم استقرار في الأرض ومتاع تتمتعون به في حياتكم إلى حين تنتهي أعماركم، وهنالك إشارة ثانية لهذا المعنى بالآية ﴿٣٤﴾.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ في الأرض ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ إلى البعث والحساب يوم القيامة.

﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ خطاب للناس كافة ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ ما يستر العورة، والمراد بالإنزال أنه تعالى خلق لهم مادته من صوف وحرير وقطن وغيره، وعلمهم الزراعة والنسج والخياطة، وفي روح المعاني أنه كناية عن لباس الشريعة، ويواري السوآت بمعنى أنه يمنعهم من ارتكاب القبائح والفواحش ﴿وَرِيشًا﴾ وهو لباس الزينة، وسمّي ريشاً استعارة من ريش الطيور، وقيل أيضاً أنّ الريش والرياش هو المال والمتاع والخصب والمعاش، ومنه ترّيش الرجل أي تموّل ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ أي الورع وخشية الله، وسمّاه لباس مجازاً ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لباس التقوى خير لصاحبه ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إنزال اللباس والمتاع ووسائل العيش من ضمن آيات الله الكثيرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلهم يذّكرون نعمه تعالى عليهم فيتّعظون، ويشكرون بالقول والعمل.

﴿يَابَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿يَابَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لا يوقعنّكم في الفتنة بما يمنعكم من دخول الجنة، والفتنة هنا هي الاستمالة بالشهوات، عن طريق الوساوس والإغراء، والمراد لا تغفلوا عن وساوس الشيطان فتنخدعون وتقعون في المعاصي، والنتيجة أن وساوس الشيطان تمكّن الإنسان أن يكون مختاراً لعمله الصالح أو الطالح ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ فسّر بعضهم هذا اللباس معنوياً بمعنى ينزع عنهما لباس التقوى ليوقعهما في المعاصي، وجعله بعضهم الآخر حسّياً ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ فيوسوس لكم من حيث لا تشعرون، وقبيله بمعنى جماعته ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي خلّينا بينهم وبين العمل بوساوس الشياطين، كونهم لا يؤمنون إيماناً حقيقياً، إذ يتّبعون الأهواء، ويتمسّكون بالتقليد وبالعصبية، ثم يحاولون إيجاد المبررات لضلالهم، كما سيرد في الآية التالية:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الكلام عن غير المؤمنين الذين اتخذوا الشياطين أولياء، المشار إليهم في الآية السابقة، والفاحشة الفعلة القبيحة المتناهية في القبح، ممّا تنكره الشرائع والفطرة السليمة، انظر شرح الآية (٣٣)، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ يعتذرون بالتقليد وأنهم نشؤوا على ذلك، مع أنه تعالى نهى عن التقليد، وأمر بالتفكر بالحجج والدلائل واستخدام العقل ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعتذرون بالجبرية، ويزعمون أن لو شاء الله تعالى ما اقترفوها، وقد تكون الإشارة إلى اليهود، من ضمن غيرهم من الأمم، لأن اليهود يتّبعون كتبهم التي يسمونها مقدسة، ويزعمون أنها وحي، مع أنها من تحرير الأحبار، فهي تحض على القتل والسرقة والغدر وأكل الربا من غير اليهود، وتقرّ بأفظع الفواحش والموبقات والمنكرات وشتى أنواع الزنى والعهر وعمليات الغدر والخداع بالأغيار، أي غير اليهود، وتبرّرها، انظر شرح آية [البقرة ٢/٥٩]، وآية [آل عمران ٣/٧٥]، ﴿قُلْ﴾ لهم

أيها النبي، أو أيها المسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَـأْمُرُ بِالْفَحْشَـاءِ﴾ وهـذا القـول تكذيـب لاعتقادهم عقلاً ونقلاً ، فالعاقل لا يصح أن يصدق ذلك، ولا ينسبه إلى الوحي ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ تكتبـون من عندكم وتنسبونه إلى الله؟ أم تعتذرون بالجبرية، أم تقليد الآباء؟

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قل لهم أيها النبي، أو أيها المؤمن، إنه على النقيض ممّا تدّعون فإنه تعالى قد أمر بالاعتدال والعدل بين الناس كافة بلا تفريق ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقل لهم أيضاً أن يتوجهوا له تعالى وحده دون غيره، عند كل صلاة وكل دعاء، وليكن التوجه إلى الله تعالى بحضور القلب وصرف الشواغل الدنيوية وطرد وساوس الشيطان، ويحتمل المعنى أيضاً تفسير التوجه بشكل حسّي، فيكون الأمر بالتوجه نحو القبلة وقت كل صلاة حيثما كان المرء ﴿وَادْعُـوهُ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّينَ﴾ الصلاة في أصل اللغة عبارة عن الدعاء، فيجب أن يكون الدعاء مع الإخلاص ﴿كَمَـا بَدَأَكُـمْ تَعُودُونَ﴾ اعلموا، وكونوا على يقين، أنه كما بدأكم بالخلق، فلا بدّ من المعاد إليه للحساب، وهذا أدعى إلى الإخلاص في الدعاء.

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٠)

٣٠- كما بدأكم بالخلق، فلا بد من عودتكم إليه يوم الحشر، وعندئذ تكونون فريقين: ﴿فَرِيقًا هَـدَى﴾ وهو الفريق الذي تقبل الهدي الإلهي وما جاءت به الرسل، وعمل به ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَـةُ﴾ وهو الفريق الذي اختار الضلال وكذّب بالآيات والرسل، أو صدّقها ولم يعمل بها ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهو السبب الذي من أجله حقّ عليهم الضلالة أنهم قبلوا وساوس الشياطين وعملوا بها، فكأنهم ولّوا الشياطين أمورهم من

دون الله، فلم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل، وفي ذلك إشارة للآية (٣) في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾،

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هم فوق ذلك معجبون بأنفسهم، ويحسبون أنهم مهتدون بالتقليد لأقوامهم، وبما توسوس لهم الشياطين، كما يحسب أتباع الديانات السابقة أنهم مهتدون دونما حاجة لبعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

٣١- بعد أن أوجزت الآيات (١١-٣٠) قصة الخلق وبيان ما يترتب على الإنسان من الضلال والغواية بنتيجة قبوله وساوس إبليس في التقليد وارتكاب الفواحش، تنتقل السورة لبيان أن الأصل في الأمور الحلّ إلا ما خصّه الدليل من المحرّمات: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي وقت كل صلاة، وأخذ الزينة ستر العورة واللبس اللائق والنظافة، على النقيض من الفواحش المشار لها بالآية (٢٨)، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من الطيبات المباحة بقدر الحاجة ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ نهي عن تناول مقدار كثير يضر المرء ولا يحتاج إليه، ونهي عن الإسراف في الإنفاق، وحضّ على الاعتدال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يحب المسرفين في كل شيء، لأن الإسراف يخالف الفطرة، ويجلب الضرر في الأبدان والنفوس والأموال.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ لأنّ الأصل في المنافع الحِلّ، وجميع أنواع الزينة والطيبات من الرزق مباحة إلا ما خصّه الدليل، وقالوا إن المراد بالزينة جميع أنواعها، ويدخل تحتها اللباس والنظافة، وما يُشتهى من أنواع المآكل والمشرب، والطيب والحليّ والمركب

والمسكن، بلا إسراف ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تكون لهم وحدهم يوم القيامة دون غيرهم، أما في الحياة الدنيا فتكون لهم ولغيرهم من الناس، لقوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة ٢/١٢٦]،

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقوم يعلمون الحكمة منها، ويعلمون طبائع البشر، ومصالحهم، والفطرة التي فُطر الناس عليها.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ على النقيض مما يزعمون من تحريم الزينة والطيبات التي أخرج لعباده، فإن المحرّم حقاً هو الفواحش من أعمال الناس الكسبية، لا من هباته ونعمه تعالى الخلقية عليهم، وفي ذلك عودة لموضوع الآية (٢٨)، والفواحش جمع فاحشة، وهي كل ما جاوز الحد مما تستقبحه الفطرة السليمة والعقل الراجح، والمقصود بها المعاصي الكبيرة، ومنها الزنا واللواط وشدة البخل والربا الفاحش والقذف بالفحشاء والبذاءة المتناهية والغش وأكل مال الآخرين والصد عن سبيل الله، والآية تنهى عن الفواحش الظاهر منها والباطن، والمعنى لا يكون لديكم مقاييس أخلاقية مزدوجة، فلا يخفف من الفاحشة كونها سرّاً، بل قد يكون ذلك سببا لانخداع الناس بمرتكبيها، كما أنّ الجهر بالفواحش في حد ذاته يُعد فحشاً لأنه يشجع الفساد في المجتمع، ويفسد الأفراد من ذوي الفطرة السليمة،

﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ حرّمهما، والإثم المعصية التي تضر بصاحبها، والبغي ما يضر بحقوق غيره ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مما لا يبرره الحق،

﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ كأن يجعلوا له شركاء من الأوثان أو الأنبياء أو الأولياء، وكابتداع التثليث عند المسيحية، مما لا تقوم عليه حجة بينة من الوحي، ولا من العقل السليم،

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ كابتداع البدع، والقول في الدين بالرأي والظن، وإسناد الرأي الاجتهادي إلى الله تعالى وادّعاء أنه حكم الله، وافتراء الكذب على الله، وعلى أنبيائه، كما فعل أحبار اليهود في كتبهم بالعهد القديم، المحشوة بمختلف أنواع الفواحش والمنكرات التي ينسبونها إلى أنبيائهم لكي يبرروا لأنفسهم ارتكابها، ويسمون كتبهم مقدسة، ويوهمون الناس أنها كلام الله، انظر شرح آيات [الأعراف ١٦٩/٧] و [آل عمران ٣/٣، ٧٥].

ثمّ ذكر تعالى في الآية التالية النتيجة التي تؤول إليها الأمم التي ترتكب هذه المحرّمات، وهي مجيء أجلها بغتةً أو خفية.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ فمن الأمم السالفة مثلاً من انتهى أجلها وهلكت بغتة بتكذيبها ومعاندتها الرسل، كهلاك أقوام نوح وعاد وثمود ولوط ومدين وغيرهم، وكان هلاكها بعد مهلة محددة نتيجة إصرارها على المكابرة والجحود، والاستهزاء بالرسل والتحدي، وطلب الآيات الخارقة، وهذا النوع من الإهلاك انتهى ببعثة النبي الأحمد ﷺ الذي لم يُبعث لقومه خاصة وإنّما بُعث رحمة للعالمين،

وهنالك من الأمم الأخرى من ينتهي أجلها بدخول عوامل التفسخ والانحطاط فيها، وانتشار الظلم والشرور والموبقات والاغترار بالترف والمادة، والتاريخ مليء بنهوض وارتفاع أمثال هذه الأمم ثم انهيارها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بالنسبة للنوع الأول من الأمم البائدة فقد جاءها أجلها بغتة، دون تقديم ولا تأخير، بعد انتهاء مهلتها كما هو مذكور من قصصهم في القرآن الكريم، والنوع الثاني منها يجيء أجلها وفقا لسنن الاجتماع البشري، فالأمم تمر بمراحل النمو والرشد والشيخوخة، حتى إذا نخرتها الأمراض الاجتماعية، وفق سنن الأسباب والمسببات، حان أجلها وانهارت كما حدث للاتحاد السوفيتي وغيره في العصر الحديث،

ومعنى ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أنه عندما يستشري الفساد والضعف والتفسخ، ويفوت أوان الإصلاح، تصبح النهاية محتومة فلا يمكن تأخيرها، و معنى ﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أن النهاية لا تجيء مبكرة طالما هنالك أمل يرجى في الأمة، وفي الصلاح والإصلاح، أما الساعة المذكورة في الآية فلا يقصد بها الساعة المعروفة بمعنى جزء من أربعة وعشرين من اليوم، وإنما هي إشارة إلى جزء صغير من الزمن المطلق،

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥)

٣٥- ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ اتصال الخطاب مع الآية (٢٤)، والمعنى أن الله تعالى بعد أن جعل خليفةً في الأرض من ذرية آدم، بعث لهم الرسل من أنفسهم ليكون ذلك أدعى لاستجابتهم، والخطاب أيضاً متصل مع الآية السابقة لكونه وعظ في اتباع الرسل قبل مجيء الأجل بغتةً أو خفيةً ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يبلّغون الناس الوحي الذي نزل عليهم ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ اتّقى المعصية وقام بصالح الأعمال ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سعادة الدنيا -والآخرة- مرتبطة بالاهتداء بالدين وبالعمل به، انظر آيات [طه ٢٠/١٢٣-١٢٤]، وأما كون الدنيا للكفار أيضاً -في بعض الأزمنة- فلأنه تعالى جعل فيها سنناً وأسباباً ومسببات مَن أخذ بها وصل إلى مبتغاه منها، ولو مؤقتاً، كافراً كان أو مؤمناً، ولو جعلها للمؤمنين خالصة دون غيرهم لبطل التكليف والاختيار والاختبار، ولصار الإيمان قسراً.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الذين كذّبوا بالآيات المنزلة على الأنبياء والرسل، أو كذّبوا بعض الرسل أو أحدهم، واستكبروا عن اتباع الآيات التي جاءت الرسل بها، وعن اتباع النبي ﷺ، حسداً له على الرئاسة -كما يفعل اليهود- وتفضيلاً لأنفسهم

عليه وعلى قومه، فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها، ولا نزال نرى اليوم الكثير من الشعوب تأبى الاهتداء بالإسلام استكباراً وعلوّاً، كما استكبر اليهود وأحبارهم عن اتباع النبي ﷺ لأنه عربي، ولأنهم يرون أن النبوة يجب أن تكون محصورة بهم، والاستكبار متكرر عند المكذّبين منذ معصية إبليس وتكبره، الآية (١٣)، وكما سوف تبين الآيات ﴿٤٠، ٤٨، ٧٥، ٧٦، ٨٨، ١٤٦، ٢٠٦﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إشارة إلى الذين كذّبوا بالآيات واستكبروا عنها راجع أيضاً شرح آيات [الأنعام/٢١-٢٤]، ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الكتاب بمعنى المكتوب، والمغزى أنهم ينالون نصيبهم المكتوب لهم في الحياة الدنيا من الأرزاق والأعمار، كما في الآية (٣٢)، رغم ظلمهم وافترائهم، لا يُحرمون منها، تفضّلاً منه تعالى، ولإعطائهم الفرصة كي يتوبوا ويصلحوا ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ وهم ملائكة الموت الموكّلون بقبض أرواحهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لم يتوبوا ولم يصلحوا في حياتهم، رغم الفرص التي أتيحت لهم، والنعم التي أُغدقت عليهم، فيُقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أين الذين كنتم تدعونهم غير الله لقضاء الحاجات ودفع المضرّات؟ ادعوهم لينجوكم الآن ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عنّا ولا نرجو منهم أي منفعة ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا يعبدون المادة، ويلهثون وراء الدنيا، ويدعون ما لا يستحق الدعاء، من شركاء وآلهة مزعومين وزعماء وأوثان وقدّيسين وأمورات وأضرحة.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يقول لهم تعالى ادخلوا في النار مع الأمم التي بادت من قبلكم بنتيجة تكذيبها الآيات واستكبارها عن الحق وافترائها الكذب على الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلّت بسبب الاقتداء بها، فيلعن الأتباعُ قادتهم الذين أضلّوهم، واللعن الدعاء بالإبعاد من الرحمة ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي أدرك بعضهم بعضاً في النار واستقرّوا بها جميعاً ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ﴾ المتأخرين منهم منزلةً، وهم الأتباع والرعاع، قالوا عن أولاهم منزلةً، وهم القادة والزعماء والرؤوس، ويحتمل المعنى أيضاً أنّ أولاهم الذين تقدّموهم في الزمن، فاقتدى بهم أخراهم الذين جاؤوا في أزمان لاحقة، واتّبعوا سنن من سبقوهم في الضلال ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا﴾ دعونا إلى الضلال وأمرونا به، والمعنى أنهم اعتذروا بالانصياع لغيرهم وبالتقليد، مع أن التقليد وإهمال دور العقل باطل، وقد نهى عنه القرآن في آيات كثيرة، أمّا الانصياع لأوامر الرؤوس في معصية الله فليس سوى عبودية وإذلال وتحقير للإنسان الذي كرّمه تعالى بحرية الخيار ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ لكلّ منهم عذاب مضاعف بسبب ضلالهم، وإضلال غيرهم من الناس، من حيث كانوا قدوة لغيرهم.

﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يتنصّل القادة والزعماء من الذين قلّدوهم واتّبعوهم، كما يتنصّلُ السابقون من اللاحقين، فيقولون لهم ضللتم، كما ضللنا، بمحض اختياركم فتحملون المسؤولية كما نحملها ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ لأن العذاب هو النتيجة الحتمية لما كسبتم من الأعمال، فهو من كسب أيديكم، والمسؤولية فردية، ولا يعذركم أنكم ضللتم بسبب غيركم، ولا يحملون المسؤولية عنكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ استكبروا عن الإيمان بها، وهم المشار إليهم في الآية (٣٦)، ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لا تُقبل أعمالهم الصالحة ولا تُرفع، ولا يُقبل دعاؤهم، لأن التكذيب والاستكبار قد أحبطاها ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ كناية عن استحالة دخولهم الجنة، وقُرئت الجُمَّل، أي الحبل الغليظ، لاستحالة دخوله ثقب الإبرة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ إذ توصلوا لهذه النتيجة بإجرامهم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)

٤١- ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ جمع غاشية وهي ما يغشى الشيء أي يغطّيه، والمعنى أنّ جهنم محيطة بهم، وهي كقوله تعالى ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة ١٠٤/٨]، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأنهم جمعوا بين التكذيب بالآيات والاستكبار عنها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الذين قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ تأكيد على يسر الدين وسهولته، لأن الوسع ما يقدر عليه الإنسان في حال السعة والسهولة، وأما أقصى الطاقة فيسمّى جهداً لا وسعاً، قال الرازي: "غلط من ظنّ أنّ الوسع بذل المجهود" ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ النتيجة الطبيعية لمن آمن وعمل صالحاً بما في الوسع بلا جهد.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ وهم أصحاب الجنة المشار إليهم آنفاً، والغِلّ هو الحقد والحسد، لأنه يتغلغل في القلب، وإزالة الأحقاد من قلوبهم من تمام السعادة الروحية والراحة النفسية وصفاء القلوب في الجنة، لأن السعادة مع الحقد والحسد لا يجتمعان ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ تكون كل النعم في متناولهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الحمد لله الذي هدانا ببعث رسله، ووفّقنا لهديه، والمعنى أن الإنسان لا يمكنه التوصل إلى الهداية إلا باتباع الرسل والوحي ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ والحقيقة لا يمكن التوصل إليها إلاّ عن طريقهم ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بنتيجة ما كنتم تعملون من العمل الصالح في الحياة الدنيا.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لجعل المستقبل في تأكيد وقوعه كالذي وقع بالفعل ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ لأنّ ربّنا وعدنا الجنة فوجدناها حقّاً، فهل وجدتم وعد ربّكم للناس حقّاً؟ ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أقرّ أهل النار بالحق بعد فوات الأوان ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ التأذين في اللغة النداء بالإعلام، والأذان للصلاة إعلام بها وبوقتها، والمعنى أن أعقبَ ذلك الحوار إعلامٌ بأن الظالمين مبعدون من رحمة الله، وهم الموصوفون في الآية التالية:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥)

٤٥- الظالمون كانوا في الحياة الدنيا على ثلاثة أنواع: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصدّون الناس عن قبول الدين الحق، ويحاولون صرفهم عنه، سواء بالقسر والإكراه، أو بالترغيب والإضلال بالدعاية الباطلة والوسائل المقنّعة، وهي أكبر المحرّمات، لأنها أول ما وصف بها تعالى أصحاب النار، فهؤلاء الناس لا يكتفون أنهم ضالّون بل يعملون جاهدين على إضلال غيرهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يبغون سبيل الله، أي الطريق إليه، معوجّة، لأنهم يريدون إفساد الدين الصحيح بالشرك، وبالتشكيك، وبالتضليل بالوسائل السافرة والباطنية ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ ومن هؤلاء الظالمين، الضالين المضلّين، مَن يكون كافراً بالآخرة، ينكر البعث والحساب،

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب، والحجاب قد يكون حسّياً أو معنوياً، وأمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ الأعراف، بصيغة الجمع، تطلق على أعالي الأشياء، ومفردها عرف، ومنه عرف الديك وعرف الفرس، ويسمّى المرتفع من الأرض عرفاً لأن الواقف عليه يستطلع ما دونه فيصير على معرفة به، أو لأنه يمكن تمييز المرتفع ومعرفته من بُعد، ومنه المعرفة، والعُرف ضدّ النُكر، والمعرفة هي منبت العُرف، فيقال فلان على معرفة أي على علم، ورجالٌ على الأعراف يعرفون كُلاً بسيماهم، أي أنهم على معرفة وبصيرة وحسن تمييز بين أهل الجنة وأهل النار،- وهو قول الحسن البصري والزجّاج، ذكره الرازي- والواضح أنهم فريق ثالث غير أصحاب الجنة، وأصحاب النار، فهؤلاء الناس كانوا في حياتهم على مستوى عالٍ من المعرفة، يستطيعون التمييز جيداً بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، والإيمان والكفر، ومع ذلك كانوا غير مكترثين، لم

يميلوا بشكل جازم نحو الحق أو نحو الباطل، ولكنهم في الوقت نفسه لم يصدّوا عن سبيل الله، ولم يقفوا في طريق الخير، فاستوت حسناتهم وسيئاتهم ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ لأن أصحاب الأعراف، رغم معرفتهم مسبقاً بالنعيم الذي يؤول إليه أصحاب الجنة فإنهم لم يعملوا بالعمل المؤدي إليها، لكنهم يطمعون بدخولها رغم تقصيرهم السابق، والمقصود من قوله تعالى ﴿رِجَالٌ﴾ أنهم أشخاصٌ قد يكونوا من الجنسين، وليسوا رجالاً بالتحديد دون النساء، بدليل قوله سبحانه في الآية (٤٨): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً﴾ أي أشخاصاً من أصحاب النار.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لكي يعاينوا مصير أصحاب النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعد أن فاتتهم الأعمال التي تبعد العذاب عنهم.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أصحاب الأعراف ينادون أفراداً من أصحاب النار يعرفونهم بسيماهم، أي يعرفون أنهم قاموا بالأعمال التي أدّت بهم إلى النار، فيقولون لهم: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي ما أغنى عنكم جمعُكم للمال، ولا أغنى عنكم جمعُكم الكبير وكثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وما أفادكم استكباركم عن قبول الحق، ولا استكباركم على الناس.

﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ تتمة كلام أصحاب الأعراف إلى أصحاب النار، وهم يشيرون إلى أصحاب الجنة ممن كان أصحاب

النار يستكبرون عليهم في الدنيا، ويأنفون من مشاركتهم في الدين، وربما هزئوا بهم، مما ينمّ عن منتهى الضلال الذي كانوا فيه ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فقد قيل لهؤلاء الناس ادخلوا الجنة، والمراد أنه تعالى يحث أصحاب الأعراف في الدنيا على العمل بعمل أصحاب الجنة واللحاق بمنزلتهم، وأن الجزاء على قدر الأعمال، والتقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق أحداً عند الله إلاّ بسبقه في العمل، ولا يتخلف إلاّ بتخلفه في العمل.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الإفاضة من الفيض أو من الفائض، أو من فيضان النعيم الذي يعيش فيه أصحاب الجنة، وفيه معنى الكثرة ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لإفادة الخيبة التامة لأمثالهم في الآخرة، ثم إنه تعالى وصف هؤلاء الكافرين بقوله:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١)

٥١- ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ جعلوا اللهو واللعب ديناً لهم، لكثرة ما أضاعوا الأوقات فيما لا طائل منه ولا فائدة، ويحتمل المعنى أيضاً أنهم جعلوا من الدين أضحوكة فيلهون ويلعبون بالهزء منه وبالسخرية من معتنقيه ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ طمعاً في كثرة المال ورغد العيش وعلوّ الجاه وطول العمر، حتى صاروا محجوبين عن الدين، مستغرقين في طلب الدنيا ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ كان من عاقبة نسيانهم اليوم الآخر، وجحودهم الآيات، ألاّ يستجيب تعالى لدعائهم في الآخرة، والجحود هو الإنكار مع العلم، فكأنهم، بغلبة الدنيا عليهم، أنكروا الدين والآيات مع علمهم بصحتها.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو القرآن ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ فيه تفصيل كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين والعقائد، والكتاب على علم، أي مشتمل على العلم اليقيني لعالَم الشهادة والغيب، وليس علم الظن والتخمين ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهو هدى ورحمة للذين لديهم استعداد للإيمان، وفي ذلك عودة الخطاب لأول السورة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ ينظرون أي ينتظرون، والتأويل هو المآل أو عاقبة الأمر، والمعنى ماذا ينتظرون حتى يؤمنوا بالقرآن؟ هل ينتظرون ما تؤول إليه الأمور؟ أي تحقق ما وُعدوا به، والمآل يكون تدريجياً في تحقق ما أخبر به القرآن عن الغيب، وقد يكون موتهم، ثم يكون التأويل النهائي يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ يومئذٍ تزول كل شبهة لدى الذين نسوه أي لم يلقوا إليه اهتماماً، وما اهتدوا به ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ يتمنّون شفاعة الشفعاء لأن ضلالهم في الدنيا زيّن لهم شفاعة مَن يعبدون من دون الله ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أيقنوا بعد فوات الأوان أنّ النجاة والسعادة لا يكونان إلا بالإيمان المقترن بالعمل الصالح، وليس بالاعتماد على شفاعة الشفعاء ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وأي شيء أكبر من خسارة النفس ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ تبيّن لهم ضلال ما كانوا يفترون من شفاعة من يعتقدون من الشفعاء، كالأولياء والأحبار والقديسين وكبار رجال الدين، والمسيح الذي افتدى خطاياهم سلفاً بزعمهم، فركنوا إلى ذلك في حياتهم الدنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤)

٥٤- بعد أن ذكر تعالى حال الكفرة وشركهم، احتجّ عليهم بقدرته بلا حدود وبمخلوقاته، ودلّهم بذلك على أن لا معبود سواه، فقال عزّ شأنه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ السماوات بصيغة الجمع لأنها إشارة إلى الكون بكامله شاملاً بلايين المجرّات والنجوم والكواكب ممّا لا حصر له، والأرض بصيغة المفرد وهي الكرة الأرضية التي نعيش عليها، ولا يمنع ذلك أنّ الأرضين كثيرة بدليل قوله تعالى ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق ٦٥/١٢]، وسبب ذكر الأرض بالمفرد لأن باقي الأرضين مشمولة في تعبير السماوات، انظر آية [الأنعام ٦/١]، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الأيام بمعنى الحقب الزمنية، وليست أيام أرضنا المكونة من ٢٤ ساعة، وفي العربية يشير تعبير اليوم لحقبة زمنية طالت أم قصرت، كقوله تعالى ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج ٧٠/٤]،

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن مقدرته تعالى المطلقة في الخليقة، وحرف ﴿ثُمَّ﴾ لا يعني الترتيب الزمني بالضرورة، فقد يفيد معنى العطف، راجع إعراب القرآن للزجاج، ونلاحظ أن الاستواء على العرش تكرر في القرآن سبع مرات في كل مرة يُذكر فيها خلق الكون، وهي [الأعراف ٧/٥٤]، [يونس ١٠/٣]، [الرعد ١٣/٢]، [طه ٢٠/٥]، [الفرقان ٢٥/٥٩]، [السجدة ٣٢/٤]، [الحديد ٥٧/٤]،

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ الإغشاء والتغشية إلباس الشيء بالشيء، والمعنى أن الليل يزحف على النهار فيغطيه تدريجياً في إحدى جهات الكرة الأرضية، في الوقت الذي يكون النهار زاحفاً على الليل فيغطيه تدريجياً في الجهات الأخرى، واللفظ يحتمل الحالتين معاً، وفيه دليل على كروية الأرض ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ الحث هو الإعجال، والمعنى أن الليل والنهار يتابع أحدهما الآخر باستمرار وعجلة، حتى يعود أحدهما إلى موقعه السابق كل ٢٤ ساعة ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ خَلَقَ جميع الأكوان منقادة خاضعة لأمره ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ فهو تعالى الخالق، والمدبّر المتصرّف بخلقه ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الرازي: للبركة تفسيران: أحدهما البقاء والثبات، والثاني كثرة الخيرات والآثار الفاضلة، وكلاهما لا يليق إلاّ بالحق سبحانه.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥)

٥٥- بعد أن بيّن تعالى التوحيد، وأنه المتفرّد بالخلق والأمر، أمر عباده أن يدعوه مخلصين متذللين فقال عزّ شأنه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ المراد من الدعاء السؤال والطلب، والدعاء العبادة لقوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، أي هو الركن الأعظم في العبادة، على نحو "الحج عرفة"، لأن الداعي يكون مدركاً ضعفه وعجزه ونقصه، ويعلم أنه تعالى متصف بالقدرة والكمال وأنه يسمع الدعاء ويستجيب، فالدعاء لذلك من أعظم العبادات ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ التضرّع الابتهال وقيل هو الخشوع والاستكانة، وخفيةً أي في السر، والمعنى ادعوا ربّكم متضرعين مبتهلين، ومسرّين في الخفاء، والأولى بالعبادة إخفاؤها صوناً لصاحبها عن الرياء، وحفظاً لعمله من البطلان، وقيل إذا بلغ صاحبها درجة من الصفاء وقوة اليقين بحيث يأمن على نفسه من الرياء كان الأولى إظهارها لتحصل فائدة إقتداء الغير به ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء، والمعنى تحريم دعاء غير الله تعالى، ومن دعا غير الله فقد أشرك، وقالوا أيضاً إن رفع الصوت بالدعاء وترك التضرع، من الاعتداء المنهي عنه في الآية.

﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أي بعد أن كانت صالحة كما خلقها تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة ٧/٣٢]، وإصلاحها الأعظم كان ببعث الرسل وختمهم بالنبي ﷺ لهداية الناس وإصلاح عقائدهم وأخلاقهم وانحرافاتهم، فلا تفسدوا في الأرض بالتخريب وبالظلم وبالخروج

والانحراف عن الدين، وابتكار الشرائع الوضعية ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ليكن دعاؤكم بين الخوف والرجاء، ولا تقطعوا أنكم إذا اجتهدتم فقد أدّيتم حق ربّكم، ويحتمل المعنى أيضاً أن من لا يدعو ربّه تضرّعاً وخفيةً، وخوفاً وطمعاً، يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنّ أثر رحمة الله -بحذف المضاف- قريب من الذين يدعون ربهم، وهم محسنون في عبادتهم وأعمالهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٧)

٥٧- تتمة الخطاب من الآية (٥٤)، والمعنى إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يرسل الرياح: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قالوا إنّ الرحمة بهذا المعنى هي المطر، لأنه تعالى جعل من الماء كل شيء حي، فالرياح تسوق السحاب وتبشر بهطول المطر ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً﴾ عندما تحمل الرياحُ السحابَ المثقل بالرطوبة -لأنّ الإقلال حمل الشيء، واشتقاقه من القلة لأن الحامل يستقل ما يحمله أي يعدّه قليلاً، ومنه قولُهم: جهدُ المُقلّ أي الحامل- ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لأحل بلد ميت من شدة العطش، أو إلى بلد ميت، والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل أنواعها ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ وهو مغزى الآية، لأنّ القادر على إحياء الأرض الميتة وإخراج النبات والثمار منها، قادر أيضاً على إحياء الموتى يوم الحساب ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ التشابه بين الحالتين، والمعنى كيف تذهلون عن معجزة إحياء الأرض الميتة؟ وأنتم تنكرون البعث؟

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، والمعنى أن المطر إذا نزل على الأرض الطيبة نبتت فيها الخيرات ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ البلد الذي خبُثت أرضه، كالأرض السبخة، لا يخرج نباته إلا نكداً، أي شحيحاً عسراً قليل الخير، وقد لا يخرج إلا الأشواك والأعشاب الضارة ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ بمثل هذا الشرح وضرب الأمثال نبيّن الآيات للناس الذين يقدّرون نعمة الهداية حق قدرها، وقيل إن هذا مثل ضربه تعالى للمؤمن والكافر، وقد شبّه نزول القرآن على البشرية بنزول المطر، وشبّه ذوي العقول المنفتحة والصدور التي تتقبل الحق، بالأرض الخصبة، وشبّه ذوي الأفق الضيق والعصبية بالأرض القاحلة السبخة، لأنهم صممّوا على التقليد والكفر، ولا يرغبون البحث الجدّي والموضوعي عن الحقيقة، فالهدي الإلهي لا يفيدهم مثلما لا تفيد المطر الأرض السبخة.

والآيات التالية (٥٩-١٧١) توضح هذه النقطة بقصص تاريخية من النبوّات التي نزلت على خمس من الأمم البائدة وهم قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، بالإضافة لبني إسرائيل، وهي في الوقت ذاته تأكيد على موضوع الآيات السابقة لجهة التكليف و توحيد الألوهية، ووجوب النظر في الدلائل، كما هي تأكيد على موضوع الآيات (٤-٥) و (٣٤-٣٦) إن آجال الأمم، بغتةً أو جهرةً، مرتبطة باتّباع هدي الرسل:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩)

٥٩- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ كلّفهم بالعبادة وأمرهم بالتوحيد، ويحتمل من الخطاب أن قوم نوح لم يكونوا منكرين لوجود الله ولا جاهلين به، ولا معارضين لفكرة عبادة الله، ولكنهم ابتلوا بالشرك، فنشأ عندهم العديد من الآلهة المزيفة اعتبروها إما مستحقة للعبادة بذاتها كما يعبدون الله، أو أن هذه الآلهة وسطاء وشفعاء لهم

عند الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، وما يسبقه من عذاب يوم الطوفان.

قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠)

٦٠- ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ الملأ هم كبار القوم، قيل لأنهم يملؤون صدور المجالس، وتمتلئ العيون من تكرار رؤيتهم، كما قد تمتلئ القلوب منهم هيبة ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ كما هي العادة، يرى الملأ في الأنبياء خطراً على زعاماتهم ومصالحهم الاقتصادية والسياسية، إضافة أنهم نشأوا على التقليد، فاتهموا نوحاً بالضلال المبين، ثمّ عابوا عليه أن جميع من تبعوه من ضعاف القوم وصغارهم، انظر آيات [هود ١١/٢٧] و[الشعراء ٢٦/١١١]، ويحتمل أنهم اتهموه بالضلال المبين بعد أن رأوه يعمل في إعداد سفينته على اليابسة، مع عدم وجود أي أثر للماء في المنطقة.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)

٦١- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على النقيض من كوني ضالاً فإني على الطريق الصحيح، لأني رسول من ربّ العالمين، والمعنى أن الضلال بكُم، ووظيفتي هدايتكم.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ وما على الرسول إلاّ البلاغ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ما هو في صالحكم، ولا أكرهكم على شيء، ولست عليكم بحفيظ ولا وكيل ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ لأن الإنسان لا يتوصّل إلى العلم الصحيح فيما يتعلق بالدين، وعالم الغيب، والآخرة، إلا عن طريق الوحي الإلهي، لا عن طريق الظن والتخمين والنظريات.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ ما وجه العجب أن يأتيكم الوحي والعلم على لسان رجل منكم، مع معرفتكم مسبقاً بصدقي وأمانتي منذ زمن طويل؟ وقد لبثت معكم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً [العنكبوت ١٤/٢٩]، وسمّى الوحي ذكراً لأنه تذكير للناس بالعهد الذي أخذه تعالى على بني آدم عندما أخذهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على ربوبيته، انظر الآية 172﴾، ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾ لينذركم حساب يوم القيامة وعاقبة الكفر والشرك، ولتتقوا عذاب الدنيا والآخرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فتعرفون طريق السعادة وتنالون رحمة الله بدخول الجنة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كان من نتيجة تكذيبهم أن أغرقهم تعالى بالطوفان، وأنجى نوحاً والمؤمنين معه، والواضح من الآية -خلافاً لكتب اليهود- أن الطوفان لم يكن عاماً بل اقتصر على الذين أصروا على التكذيب بالآيات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ وهو سبب تكذيبهم: أنّ التقليد وحب الدنيا أعميا بصائرهم عن رؤية الحقيقة، ثم حقّ عليهم العذاب لما انقطع منهم الرجاء.

يلاحظ أن قصة نوح -وغيره من قصص الأنبياء- تكررت في القرآن بعدّة مواضع، والسبب أنّ القصص القرآنية ليست مقصودة لذاتها، فهي ليست لمجرّد التأريخ وسرد الحوادث، ولكن القصد منها العظمة والحكمة، ومن ثمّ عندما تتكرر القصة في عدة سور فإنها في كل مرة ترد ضمن سياق ومغزى جديد يتناسب مع موضوع السورة، فيظهر جانب جديد منها، وتُبدي حكمة أو حكماً معينة لم تكن في باقي السور، وفي كل مرة يكون التركيز على الجانب من القصة ذي العلاقة بمحور السورة مع إيجاز جوانبها الأخرى وترك بعضها الآخر، فمثلاً في قصة نوح المذكورة أعلاه نلاحظ الإيجاز الشديد في بيان

مراحل بعثة نوح: فالآية (٥٩) تلخص بعثة نوح ودعوته، والآية (٦٠) تبيّن رأي قومه في الدعوة وتكذيبهم إياه، والآيات (٦١-٦٣) تلخص حجج نوح على قومه، وأخيراً تبين الآية (٦٤) إصرار الكفار على موقفهم وعاقبة تكذيبهم، وهو المغزى المقصود، أما معاناة نوح الطويلة مع قومه فقد وردت في سورة هود، ويلاحظ التشابه الكبير بين بعث الرسل عليهم السلام وبين بعثة النبي ﷺ، فالرسل جميعاً تلقوا الرفض والاضطهاد، وتحمّلوا المعاناة من أقوامهم، كما تشابهت الاعتراضات ضدّهم، وصبروا جميعاً حتى كانت العاقبة بهلاك الكفار ونصر الرسل على أعدائهم.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد نبيّهم هود -وهذه القصة الثانية- والمقصود من كونه أخاهم أنه منهم، والعرب تسمّي رجل القوم أخاهم، كقولهم أخا العرب، وقوم عاد سكنوا الأحقاف وهي الواقعة بين حضرموت وعُمان، وانتشر سلطانهم على البلاد من حولهم حتى بلغ الخليج الفارسي شرقاً والبحر الأحمر غرباً، وقيل امتد سلطانهم شمالاً حتى الشام، وقيل حتى العراق، وبلغت حضارتُهم في وقتها مبلغاً عظيماً حتى وصفها تعالى بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر ٨/٨٩]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ كلّفهم بالعبادة وأمرهم بالتوحيد، وهي كدعوة نوح وبقية الرسل لأقوامهم ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عواقب الشرك والفساد، وهي الهلاك العاجل أو الآجل.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي المصرّون على الكفر منهم، وسيرد في الآية (٧١) أنهم لن يؤمنوا في المستقبل ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ اتهموه بضعف العقل لأنه نهاهم عن عبادة آلهتهم وأوثانهم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وأضافوا عليه ظنّ الكذب لادعائه أنه رسول من الله.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على النقيض مما تظنون بي من ضعف العقل وضحالة الفكر، فإن الموضوع في منتهى الجدية لأني رسول من ربّ العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ مهمة الرسول هي البلاغ، وهو مجرّد ناصح أمين لهم، غير مسيطر.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ سمّى الوحي ذِكراً لأنه تذكير لهم بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم، راجع [الأعراف ٧/١٧٢]، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ما وجه العجب أن يبعث تعالى رجلاً منكم ليدعوكم إلى عبادته وحده؟ ولينذركم عواقب الضلال ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ فاعتبروا بعاقبة تكذيب الرسل ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ وقد زادكم تعالى من بين مخلوقاته قوةً ومنعةً ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ فاذكروا نِعَم الله بالشكر والطاعة والعمل الصالح ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح هو الفوز والبقاء والنجاة، والتوصل إلى الفلاح يكون عن طريق الشكر والعمل.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وهو تأكيد أنهم مؤمنون بالله، ولكن يعتقدون أن له شركاء يشفعون لهم عنده، وهم أيضاً مصرون على التمسك بالشركاء المزعومين تقليداً لآبائهم، والنتيجة أنهم يفضّلون التقليد على المعقول ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ رفضوا

مهلة التوبة التي منحها تعالى لهم كي ينظروا في العلم والدلائل قبل انقضاء الأجل.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١)

٧١- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ الرجس هو القبيح المستقذر حسّياً أو معنوياً، والمعنى أن عبادتكم الآلهة المزعومة وإصراركم على الشرك قد لوّثَ نفوسكم بالخبث والقذارة الروحية، وقوله ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ يفيد تحقق الرجس على أصحابه نتيجةً حتمية للإصرار على الشرك وتحدي الرسول، ومنه قوله تعالى :﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة ٩/٩٥]، وقوله تعالى :﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس ١٠/١٠٠] أي الذين لا يستخدمون عقولهم، وقوله تعالى :﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة ٩/٢٨]، فيكون الرجس والنجس بمعنى واحد، غير أن الزمخشري فسّر الرجس بالعذاب، لأنهم رفضوا الإمهال الذي يمنحه تعالى لعباده للتوبة فلم يبقَ إلا وقوع العذاب بهم ﴿وَغَضَبٌ﴾ أي ما يترتب على غضبه تعالى من العذاب، واستخدام الفعل الماضي في وقوع الرجس والغضب يفيد أن لا مردّ له بانتهاء مهلة التوبة ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ هذه الأسماء والمسمّيات من الأوثان والآلهة التي ابتكرها آباؤكم وقلدتموهم فيها، كيف تجادلون بصحتها مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله عليكم فيها حجة ولا برهان بل هي من اختراعكم، وما جعل تعالى بها من حول ولا قوة وليس فيها أي معنى للألوهية ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام والآلهة المزعومة ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ننتظر معاً عدم استمهالكم ونتيجة طلبكم وقوع العذاب بكم بقولكم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي لَمَّا جاء أمره تعالى أنجى برحمته هوداً ومَن كان معه من المؤمنين ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قطع دابرهم، هو استئصالهم عن آخرهم، لأن دابر الشيء آخره، قال جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦٩/٦-٧]،

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على قوله ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والمعنى أنهم كذّبوا بآياته تعالى وما كانوا ليؤمنوا لو بقوا، وذلك من شدة إصرارهم على الضلال، ونظير ذلك قوله عزّ شأنه: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون ١٠٩/٥] أي في المستقبل.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود نبيّهم صالحاً - وهذه القصة الثالثة- وتعبير أخاهم لكونه منهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أمرهم بعبادة الله وحده كما هي دعوة جميع الرسل لأقوامهم ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ليتبيّن لكم الحق من الباطل، والبيّنة هي الوحي الذي نزل عليه والدلائل على صحة التوحيد والنبوّة التي جاءهم بها، والمعنى أن التقليد ليس عذراً ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ آية بمعنى علامة أو معجزة، وقوله ناقة الله بمعنى أن الخلق كله لله كما يقال عبد الله وأرض الله، وقيل لأنه لم يكن للناقة مالك من الناس ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهي الآية أو العلامة التي أشار إليها: أن يتركوا ناقة الله تأكل من أرض الله الواسعة ولا يتعرضوا لها بسوء، وأن يكون شرب الماء قسمة بينهم وبينها، انظر آية [القمر ٥٤/٢٨]، وأنذرهم العذاب الأليم في حال خلافهم.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ خلفتم عاد في الحضارة والعمران والقوة، وكانت العرب تطلق على ثمود اسم عاد الثانية، وكانت في زمنها من أعظم البلاد وأكثرها تقدمًا وحضارةً، وامتدت أراضيها من شمال الحجاز-الحِجر- حتى الشام، وقد اكتُشفت نقوش آشورية تعود إلى عهد سرجون الثاني ملك آشور (٧١٥ق. م) تذكر أنهم خضعوا لسلطة الآشوريين لفترة من الزمن، ويبدو أن مدينة البتراء الصخرية المكتشفة في الأردن منذ عهد قريب تعود إليهم، أي إنهم النبطيون الذين اصطدموا مع أنتيحوني الأول أحد خلفاء الاسكندر عام ٣١٢ ق.م، ثمّ في عام ٨٥ ق.م. وصلت دولتهم إلى دمشق تحت حكم ملكهم الحارثة، وتكرر ذلك عام ٣٦ ميلادية أيام ملكهم الحارثة الرابع، ثم هزمتهم روما في عهد الإمبراطور تراجان عام ١٠٥ ميلادية ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سكنتم وتمكنتم فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كانوا يبنون القلاع في السهول وينحتون البيوت في الجبال، ولا تزال بيوتهم المنحوتة في الجبال في مدائن صالح -شمال الحجاز- وفي البتراء في الأردن موجودة إلى اليوم مزينة بالنقوش والكتابات شاهدة لهم على مستوى الحضارة التي وصلوها ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ اذكروا نعم الله عليكم أن وصلتم إلى هذه المرحلة من الحضارة والتمكن في الأرض، والذكر يكون بقبول الهداية الإلهية والعمل بمقتضاها ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لأن الإفساد في الأرض نقيض ذكر النعم الإلهية.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بعض المستضعفين آمن بالنبي صالح، في حين أن الملأ من ثمود استكبروا، وهذه الظاهرة تكررت في تاريخ بعث الرسل، لأن كبار القوم ينظرون عادة إلى

بعثة الرسول على أنها تهديد لزعاماتهم ولمصالحهم السياسية والاقتصادية ولعاداتهم الاجتماعية كالرقيق واستعباد الناس، وحتى لو أيقنت نفوسهم ضمنياً برسالة النبي فإنهم يجحدونها خوفاً على مراكزهم ودنياهم ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قالوها تهكماً، أي هل تعلمون ذلك علم اليقين؟ والمغزى أنهم لا يقوّمون دعوة صالح من حيث صلاحها وسموّ أهدافها، ممّا لا يستطيعون إنكاره، ولكنهم يطلبون البرهان المادي على تلقيه الوحي؟ وهذه الحجة يلجأ إليها الماديّون في كل الأزمنة ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ بما معناه أن العقل والدلائل -لغير المكابر- كافية للإيمان.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ تعبير عن إصرارهم وإغلاق بصيرتهم، وأنهم يعملون بما يمليه عليهم الإصرار على الكفر، وهو عقر الناقة كما سيرد في الآية التالية:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ كناية عن ذبحها، لأن العقر هو قطع قوائمها، وكانوا قبل الإسلام يتبعون هذا الأسلوب الوحشي في نحر الناقة فيقطعون قوائمها قبل نحرها لتموت في مكانها ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتوّ هو التمرد، والمعنى تحدّيهم الآية التي جاءهم بها نبيهم ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رفضوا مهلة التوبة والنظر في الرسالة والعلم والدلائل.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يبدو أن الرجفة التي أخذتهم كانت زلزلة أرضية، ويحتمل أنه تبعها انفجار البراكين وسيلان الحمم البركانية فطغت على ديارهم، ولا تزال بقايا الحمم -اللافا- منتشرة شمال الحجاز إلى اليوم ولا سيما على مقربة من مدائن صالح، ويطلقون عليها اليوم اسم الحَرّة، وهي الأراضي

المغطاة بالحمم البركانية المتصلبة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ خامدين موتى بلا حراك.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

٧٩- ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وهي العبرة من القصة أن ما على الرسول إلاّ البلاغ والنصيحة، وهم لا يحبون الناصحين وليسوا طلاب حقيقة، بل يغلقون بصائرهم عنها ولو أنتهم.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)

٨٠- ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً -وهذه القصة الرابعة- وقد وردت بمزيد من التفصيل في سورة هود الآيات [هود ١١/٦٩-٨٣]، ولوط ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ولد مثله في أور كلدان، أنظر شرح [الأنعام ٦/٧٤]، ثم استقر لوط بعد هجرته في شرق الأردن وبُعث فيها ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ والفاحشة هي اللواط اشتق العرب لها اسماً من لوط، عليه السلام، لأنه نها قومه عنها، وكانوا يقطنون شرق الأردن على مقربة من البحر الميت، ويسمى أيضاً بحيرة لوط، والخطاب مرتبط بالآيات (٢٨-٣٣)، ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ لأنها منافية للفطرة التي فطر الناس عليها.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١)

٨١- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي تجاوزتم حدود الفطرة وحدود الشريعة، وحتى البهائم لا تقوم بهذا العمل، فالإسراف هنا بمعنى الهبوط تحت البهيمية.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)

٨٢- ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ قالوا ذلك تكبراً وتعنتاً، أي أخرجوهم من مجتمعكم، لأن القرية بمعنى المجتمع، وقد

أرادوا إخراج من نهاهم عن هذه الفاحشة، أي لوط والمؤمنين به، للسبب المذكور في تتمة الآية: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وهو إقرار منهم أن هذا العمل ينفي عن صاحبه الطهارة المعنوية والحسية، وأنه على أية حال قد غلبت عليهم شهوتهم دون-البهيمية، ولا يريدون الاستماع للتوبيخ أو النصيحة، ويحتمل أيضا أن يكون قولهم على سبيل التهكم.

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣)

٨٢- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ بعد إصرار القوم على المعصية حقّ عليهم العذاب، انظر آيات [هود/٧٧-٨٣]، أنجاه تعالى مع المؤمنين به، ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ لم تؤمن به امرأته، وقررت البقاء مع قومها الشواذ، ولذا كانت من الغابرين، أي من الهالكين معهم.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

٨٤- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وهو مطر الإهلاك نزل بهم لقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود/٨٢/١١]، وقد تكون الحجارة التي قذفت بها البراكين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وهي العبرة من القصة في عاقبة الأمم التي تشيع فيها الفواحش المناقضة للفطرة والشريعة، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم ٥٣/٥٣].

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً- وهي القصة الخامسة -وأخاهم بمعنى أنه منهم، أمّا منطقة مدين فتمتدّ من شمال غرب الحجاز نحو جنوب فلسطين على شاطئ البحر الأحمر وحتى البحر الميت، وغرباً لتشمل جزءاً كبيراً من شبه جزيرة سيناء، وقيل إن نفوذهم امتد شرقاً في بعض

الأوقات حتى الفرات، ومدين المدينة تقع بين معان وخليج العقبة، وهي على ملتقى طرق القوافل التجارية التي كانت تتنقل بين الحجاز ومصر، وبين العراق ومصر، وقيل إن أهاليها، وهم أصحاب الأيكة، من سلالة مدين وهو ابن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثالثة قيتورا، ولذا سميت المدينة والقبيلة باسمه، وتجار مدين هم الذين وجدوا يوسف -بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام- في البئر ثم باعوه عبداً في مصر (سورة يوسف)، والظاهر من القصص الخمسة السابقة أن نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً بُعثوا بهذا الترتيب التاريخي، والواضح أيضاً أن شعيباً جاء بعد إبراهيم -الذي كان عمّ لوط-، وقد شكّك عبد الله يوسف علي أن يكون شعيب هو حمو موسى عليه السلام أو أن يكون معاصراً له كما هو شائع في التراث، فالمعروف أن بين بعثة إبراهيم وبعثة موسى حوالي ثمانية قرون من الزمن، في حين أن بعثة شعيب لم تتأخر بعد إبراهيم ولوط بأكثر من قرن أو قرنين من الزمن، أما الحروب التي قيل إنها نشبت بين قبائل مدين وبين بني إسرائيل، بعد دخول بني إسرائيل إلى سيناء وفلسطين، فيبدو أن الذين اشتركوا فيها من بقايا القبائل الرحل الذين قطنوا مناطق مدين بعد هلاك قوم شعيب بزمن طويل ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعاهم إلى التوحيد ونبذ الشرك ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهي التي أيّد بها تعالى نبيّه شعيباً، وقد تكون الوحي الذي نزل عليه والدلائل على صحة التوحيد والنبوّة التي جاءهم بها ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ بناءً على ما جاءكم من البينة من ربّكم انتهوا عن أكل حقوق الناس، فالإيمان يجب أن يترتب عليه العدالة في المعاملة، والظاهر أن الغش والاحتيال في المعاملات الاقتصادية والتجارية وبخس الحقوق كان فاشياً بينهم، وأن نظامهم الاقتصادي كان قائماً على ذلك، مع تغليفه بمسميات قانونية وعملية، فكان أول ما نهاهم شعيب عن ذلك، بعد أن نهاهم عن الشرك ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ لا تفسدوا في الأرض بتخريب الأحوال المعيشية الطبيعية وبالظلم والعدوان ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد أن بعث الله

الرسل وأمر بمكارم الأخلاق، وسخر لكم الطبيعة وجعلها لكم في أحسن تكوين، وفي عصرنا الحاضر يشمل المعنى أيضاً النهي عن تلويث البيئة وتخريبها ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ إشارة إلى كل ما أمرهم به ونهاهم عنه، ويتلخص في أمرين: التوحيد، وحسن المعاملة وترك الإيذاء ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إي إن كنتم مؤمنين حقاً كما تدّعون، لأنه سبق بعث الرسل فيهم منذ زمن إبراهيم عليه السلام، ولأنه مع الكفر والشرك لا ينفع شيء.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)

٨٦- يلاحظ روعة الإيجاز في الخطاب، فالظاهر أنه بعدما أمر شعيب قومه بالتوحيد وأظهر لهم البيّنة ونهاهم عن أكل الحقوق واستغلال الآخرين وأمرهم بكف الأذى، آمن بعض الناس برسالته، فتآمر الملأ من كبار القوم خوفاً على مكاسبهم من الضياع وعلى نظامهم الفاسد من الانهيار، وصاروا يتوعّدون المؤمنين بكل السبل ويصدّون الناس عن شعيب، فوجّه شعيب خطابه إلى الملأ قائلاً: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي تتوعّدون المؤمنين بالتهديد وتصدّونهم عن شريعة الله ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تخترعون لشريعة الله اعوجاجاً بإلقاء الشبهات عليها واختراع العيوب والنواقص، وتشويه الدين في أعين الناس ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ اذكروا نعم الله عليكم إذ جعلكم كثيري العدد والمال، وزادكم قوةً بعد أن نشأتم من ضعف وقلّة ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ اعتبروا بالأمم البائدة من حولكم كأقوام نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وفيه أيضاً إشارة لمضمون الآية (٣٤) بمجيء آجال الأمم المفسدة في وقتها.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ الكلام استمرار لخطاب شعيب إلى الملأ المستكبرين من قومه، وفي

هذه الحال يكون معنى ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي دعوا المؤمنين على حالهم، ولا تُكرهوا غيركم على عقيدتكم، واتركوا الناس أحرارًا تختار ما تراه صالحاً لأن الأصل في الأمور حرية العقيدة، وإن كنتم تعتقدون أنكم على حق فإنه لا يصح إلا الصحيح.

ويحتمل المعنى أيضاً أن شعيباً التفت بالخطاب إلى القلة المؤمنين من أتباعه فنصحهم بالصبر وتحمل التضحيات والمشاق حتى يجيء أمر الله ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وحكم الله قد يجيء في زمانهم، أو بعدهم بجيل أو بأجيال، بتطور منطق الأحداث، وحكمُه تعالى يكون بحسب سننه في خلقه بأن ينصر من الناس من هم أقرب إلى العدل والإصلاح في الأرض، وهو خير الحاكمين لأن حكمه الحق.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (٨٨)

٨٨- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ على النقيض من حرية العقيدة التي دعاهم إليها شعيب في الآية السابقة فإنهم مصرّون على الإكراه، والنتيجة أن الدعوة والنصح والنقاش الموضوعي والمنطق الحسن لم ينفع مع المستكبرين من كبار القوم، ولم يقبلوا هذا الأسلوب، فبدلاً من الاستجابة لعرض التسامح وحرية الفكر الذي قدّمه شعيب لهم، هددوه بإخراجه ومن معه من مجتمعهم إن لم يلتزموا بالملّة التي ورثوها عن آبائهم وهي الشرك ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي كيف يجوز إكراه البشر على ملّة أو عقيدة لا يؤمنون بها؟ فإنّ الله تعالى قد خصّ بني آدم بالتكريم لجهة حرية الفكر والخيار.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ المعنى أن الدخول في ملّتكم يقتضي منّا أن نكذب على أنفسنا ونشرك بالله ما لم ينزّل به سلطاناً ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ بعد أن أوضح لنا تعالى بطلان ملّتكم، وأنزل علينا الوحي والبيّنات والدلائل ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ إن كنّا صادقين مع أنفسنا، بعد كل هذه الدلائل، وفي ذلك إشارة للآية (٣٧)، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ بعد النفي القاطع لاحتمال دخوله ومن معه في ملّتهم، ردٌّ الأمر إلى المشيئة الإلهية وهي في علم الغيب، وليس المعنى أنه تعالى قد يشاء أو يريد ذلك منه، وإنما ذلك تواضع من شعيب وإقرار بضعف الإنسان تجاه المشيئة المطلقة ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمجيد له تعالى لانفراده بعلم الغيب ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ بعد أن استنفد شعيب كل الأسباب في إقناع قومه، وبعد إصرارهم على الكفر، وتهديدهم له وللمؤمنين معه بالإخراج أو العودة في ملتهم، كان التوكل على الله الملاذ الأخير لشعيب والمؤمنين معه ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ إعراض تام عن مفاوضتهم بعدما ظهر له من مكابرتهم وجحودهم، والاستفتاح هو الاستنصار، فهو يرجو الفتح من الله كي يظهر الحق من الباطل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ تمجيد له تعالى.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (٩٠)

٩٠- ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ بعد أن يئس الملأ من استجابة شعيب لهم ، التفتوا بالخطاب إلى المؤمنين من جماعته، فأنذروهم أنهم سيخسرون مكانتهم ومعيشتهم وأرزاقهم في المجتمع إن هم أصرّوا على اتّباع شعيب، والمعنى أنهم لم يكتفوا بإصرارهم على الضلال، بل تجاوزوه لمحاولة إضلال المؤمنين وحرمان شعيب من مؤيديه، وهو السهم الأخير الذي حاولوه، ويفيد انقطاع الرجاء والأمل من إيمانهم بشعيب، وانتهاء فترة الإمهال والتوبة لهم، ويلاحظ روعة الإيجاز وتسلسل الحوار الفكري بين شعيب ومناوئيه.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٩١)

٩١- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الأرضية، ولا تزال بقايا الحمم البركانية في أراضي الحَرّة ماثلة إلى اليوم شاهدة على ذلك، وفي آية [الشعراء ١٨٩/٢٦] أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ويبدو أن الرماد البركاني انتشر في الجو كالضباب حاجباً عنهم الشمس ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هامدين موتى بلا حراك.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ اختص الهلاك بالذين كذّبوا شعيباً، ويبدو أن شعيباً والمؤمنين معه غادروا المنطقة قبل وقوع العذاب لقوله في الآية التالية أنه تولّى عنهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ هم وحدهم كانوا الخاسرين، خسروا دنياهم وآخرتهم وهو الخسران العظيم، وتبيَّن ضلال زعمهم للمؤمنين عندما قالوا لهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (٩٠).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ قبل هلاكهم بعد أن يئس من استجابتهم ﴿وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ فقد أمرتكم بالتوحيد ونهيتكم عن الشرك والفساد ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ ما هو في صالحكم ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ لأنهم أصروا على الكفر وأهلكوا أنفسهم بالتعامي والاستعلاء عن الرسالة، ولم يستفيدوا من فرصة الإمهال والتوبة قبل نزول العذاب.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤)

٩٤- بعث الرسل، والتكذيب، تكرر في كثير من الأمم، ولم يقتصر على الأنبياء الذين سبق ذكرهم، وأنه بعد التكذيب، أخذهم تعالى بالبأساء والضراء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ فكذّبوا به، ولا يشترط أن يكون التكذيب مقتصرا على العصر الذي بُعث فيه الأنبياء، وإنما قد يحصل التكذيب بعدهم أيضاً، أي في الأزمنة التي تلي بعثتهم ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾

البأساء: البؤس والفقر، والضراء: الضرر والمرض، وتقدير الخطاب أنه تعالى ما أرسل من نبيّ، فكذّب به قومه، إلاّ أخذهم بالبأساء والضراء ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي كان الغرض من أخذهم بالبأساء والضراء أن يتضرعوا لله، بمعنى يبتهلوا ويخشعوا ويتواضعوا ويذعنوا لرسالاته.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ السيئة كل ما يسوء صاحبه، والحسنة ما يستحسنه، والمعنى أنه تعالى جعل لهم الرخاء مكان البأساء والضراء، لعلهم يشكرون النعم ﴿حَتَّى عَفَوا﴾ حتى كثروا وتكاثرت أموالهم ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ اعتبروا تعاقب الشدائد والرخاء أمراً طبيعياً لا علاقة له بعواقب أعمالهم وذكراهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ بعد أن انقضت مهلتهم و لم تنفع معهم رسالات الرسل، و لم يذكّرهم تعاقب المحن والرخاء بشيء ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ دون أن يخطر ببالهم أي شيء من المكروه، لشدة غفلتهم عمّا جاء به الرسل.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا﴾ بما جاءت به الرسل ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الكفر والشرك وسوء الأخلاق ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ليسّرنا عليهم الخيرات والرخاء والصحة من كل جانب ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرسل والوحي ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كانوا يكسبون من أعمال الشر.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ماذا يتوقعون بعد تكذيبهم الرسل؟ هل يأمنون مجيء العذاب وهم غافلون عمّا ذُكّروا به؟ في إشارة واضحة لمصير الأمم البائدة من قبلهم.

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)

٩٨- العذاب جهاراً وهم منهمكون بالجري وراء الدنيا فيما لا طائل منه؟ أو يلهون بأمور الدنيا لأنها لعب ولهو لأمثالهم؟ وفي ذلك عودة لموضوع الآيات (٤-٥)،

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)

٩٩- ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ اطمأنّوا لأنفسهم وأمنوا تدبيره الخفي المؤدّي بهم إلى ما لا يحتسبون ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين يظنون أنهم في مأمن من التدبير الإلهي والخطة الإلهية التي هي سنة الله في مخلوقاته، فيعتمدون على حولهم وقوتهم لا غير، ويطمئنون لأنفسهم، ولا يعرفون خالقهم، فيترتب على ذلك بالضرورة أن يكونوا من الخاسرين.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

١٠٠- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ هذه هي العبرة من قصص الأقوام السالفة، والمعنى أو لم نبيّن للذين يرثون الأرض، وهم الذين بقوا بعد هلاك من سبقهم من الأمم، واستخدام الفعل المضارع في ﴿يَرِثُونَ﴾ دلالة على التكرار في نمط الأمم السالفة، وهو من السنن الكونية ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي يصيبهم من العذاب، بسبب ذنوبهم، كما أصاب الأمم من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وهي النتيجة الحتمية الطبيعية التي تلحق بهم بسبب إصرارهم على الذنوب، فتشغلهم الدنيا ويغفلون عن الحقيقة ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ وتكون النتيجة أنهم لا يسمعون القرآن والمواعظ سماع تفهّم وتفكّر واعتبار، انظر الآية (٢٠٤)، والآية التالية تفيد مزيداً من إيضاح ذلك،

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١)

١٠١- ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ أي تلك الأمم والمجتمعات ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ وقد قصصنا عليك منها خمساً، قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، ومدين ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بآيات واضحات ومعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ما كان لديهم الاستعداد للإيمان بما كذّبوا به قبل مجيء الرسل، إذ اعتادت نفوسهم على ما هم عليه من التقليد والعصبية والمعصية ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي بسبب إصرار الكفار على كفرهم، تغفل عقولهم عن الحقيقة، وتعمى بصيرتهم، وكما هو أسلوب القرآن في العديد من الآيات فإن الله تعالى ينسب الطبع على القلوب إلى ذاته العليّة، مع أن ذلك من كسب الناس أنفسهم وفق سننه تعالى في خلقه.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أكثرهم لا يتّبعون ما جُبلت عليه الفطرة من توحيد الخالق وطاعته، ولا ينظرون في الدلائل والحجج والآيات، وقد تكون الإشارة للعهد المشار له في الآية (١٧٢)، ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣)

١٠٣- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الأنبياء الذين جرى ذكرهم ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾- وهذه القصة السادسة -وفي حين أنّ القصص السابقة ركزت على بعث الرسل لمناهضة الشرك والفساد في أقوامهم، وأن كلّ تلك الأقوام قد بادت، فإن قصة موسى تختلف من حيث أنه بعث لدعوة الفراعنة إلى عبادة الله من جهة، ولتحرير وهداية بني إسرائيل من جهة ثانية، وتتضمن القصة أيضاً ضياع بني إسرائيل في صحراء التيه بسيناء، وضياعهم الأسوأ عن تعاليم موسى وعن فحوى بعثته، وفشلهم المتكرر، وإثبات عدم جدارتهم بحمل الرسالة الإلهية، ضياع بني إسرائيل وفسادهم وإفسادهم الذي لا يزال مستمراً

إلى اليوم، بعد أن رفضوا آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام، ثم رفضوا بعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ظلموا أنفسهم على علمهم بها، أي بالآيات، أو ظلموا بكفرهم بها، لأن الكفر ليس إلا تخريب للنفس، ولا يضر إلاّ صاحبه ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ انظر أيها القارئ، أو أيها السامع، عاقبة الفراعنة وأمثالهم من المفسدين من بني إسرائيل، والمغزى أن الإفساد والفساد نتيجة حتمية للكفر الذي هو ظلم للنفس، ويلاحظ أنه في آية واحدة تم إجمال بعثة موسى من بدايتها حتى نتيجتها، لبيان العبرة الرئيسية منها قبل الدخول في التفصيل.

ويشمل معنى ﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بني إسرائيل أنفسهم، وليس فرعون فقط، لأن سيرة بني إسرائيل غاصة بأمثلة من عنادهم وإفسادهم، كالتذمر من رسالة موسى (الآية١٢٩)، وطلبهم منه أن يجعل لهم آلهةً أصناماً (الآية١٣٨)، وعبادة العجل الذهبي (الآية١٤٨)، وطلبهم أن يروا الله جهرةً [النساء: ١٥٣/٤]، وقولهم لموسى ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة ٢٤/٥]، وإفسادهم في فلسطين (الآية١٦٣)، والعدوان على شريعة السبت (الآية١٦٣)، وافتراء الكذب على الله وإضاعة التوراة الوحي، وتحرير غيرها من عندهم (الآية١٦٩)، وارتكاسهم المتكرر إلى الوثنية تماما هو موثّق في كتبهم قبل غيرهم، وعبادتهم آلهة بعل الكنعانية، انظر آية [الصافات١٢٥/٣٧]، ومن عواقب عملهم أنهم صاروا كأمثال القردة الخاسئين (الآية١٦٦)، والناس تسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة (الآية١٦٧)، وتشريدهم في الأرض أمماً مبعثرة (الآية١٦٨).

ومن المهم ملاحظة الإسهاب في قصة موسى وبني إسرائيل، الآيات (١٠٣-١٧١) أي ٦٨ آية، في حين أن قصص الأقوام الخمسة من قبلهم وصفها تعالى جميعاً بالآيات (٥٩-٩٣) أي ٣٤ آية، والسبب أن الأقوام الخمسة الأولى قد انقرضت، وقد بيّن لنا تعالى العبر من عاقبة سلوكها وهلاكها، في حين أن إفساد بني إسرائيل لا يزال باقياً على مر الأيام حتى عصرنا الحديث، وهذا من

إعجاز القرآن وكشفه عن الغيب، ومن العبر الكثيرة في قصة بني إسرائيل تعريف المسلمين بطبيعة عدوهم وخبث نفوسهم وغدرهم وحقدهم وافترائهم على الحق، وعدم إقامة أي وزن لعهودهم مع الغير، وهي عِبر فائقة القيمة يلزم أن يستوعبها المسلمون في التعامل مع عدوهم اليوم.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كان المصريون زمن الفراعنة يعبدون الشمس، وكانت في لغتهم تسمّى "رع"، وكانوا يعتبرون فرعون تجسيداً للإله-الشمس، وممثله على الأرض، لأن لقب فرعون يعني ابن الإله-الشمس، وهو لقب كان يطلق على كل ملك من ملوك مصر -كما كان لقب كسرى يطلق على كل من ملوك الفرس-، وقد عاصر موسى فرعونين: الأول هو رمسيس الثاني ويلقّب فرعون الاضطهاد، لشدة اضطهاده اليهود في مصر، وهو الذي كان يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿الآية ١٢٧﴾، وقد وُلد موسى في عهده وتربّى في قصره، والثاني: منفتاح ابن رمسيس الثاني الذي بُعث موسى في عهده، ويسمى فرعون الخروج، لأنّ بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهده، وهو الذي غرق في البحر الأحمر أثناء مطاردته بني إسرائيل، وكان حكم هذين الفرعونين خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وفي هذه الآية (١٠٤) يقول موسى لفرعون أنه رسول من ربّ العالمين، والمعنى أن لهذا الكون ربّاً، وهو ربّ العالمين جميعاً، بمن فيهم فرعون مدّعي الألوهية، وأن ربّ العالمين وحده يستحق العبادة.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٠٥)

١٠٥- ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاّ الْحَقَّ﴾ يترتّب على كوني رسول من ربّ العالمين أني لا أقول عنه إلا الحق، فلا أفتري عليه الكذب، ولا مجال للزعم بأني ساحر، ولا طالب زعامة، وهذه مقدمة لإقناع فرعون بما

سوف يقوله :﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بمعجزة قاهرة برهاناً على ما أقول، والخطاب صار بصيغة الجمع لأنه موجّه إلى فرعون ومن معه من الملأ، وهم الوجهاء وكبار القوم ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهي النتيجة الثانية التي أراد موسى أن يصل إليها، بعد أن شرح لفرعون أن لهذا الكون ربّاً، والمراد إطلاق بني إسرائيل من العبودية حتى يذهبوا مع موسى إلى الأرض المقدسة، وقد كانت الفترة بين دخول يوسف عليه السلام مصر ودخول موسى عليه السلام حوالي أربعة قرون، لأن يوسف دخلها خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد خلال حكم الهكسوس، ودخلها موسى خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

﴿قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠٦)

١٠٦- ﴿قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ أي بعلامة أو معجزة ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ وهو تشكيك من فرعون بمجيء الآية ﴿إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ومزيد من التشكيك في صدق موسى، كما أن هذا القول، في مجمله، ينم عن سخرية فرعون من إدعاء موسى واستخفاف به.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ثعبان مبين أي ظاهر واضح في كونه ثعباناً حقيقياً تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها خيالاً، وقد لعب الثعبان دوراً كبيراً في أساطير قدامى المصريين، فقد كان عندهم رمزاً للظلام والرعب، إذ زعموا أن رع -الشمس الإله- حقق نصراً على الثعبان أبوفيس Apophis ، في إشارة إلى انتصار نور الشمس على الظلام، وهكذا فقد كان لتحول عصا موسى إلى ثعبان تأثيره الكبير في عقلية المشاهدين، لأن موسى تمكن من السيطرة على الثعبان وإعادته عصا، الثعبان الذي بصعوبة تمكن إلههم رع من هزيمته، وقد أورد بعض المفسرين قصصاً إسرائيلية غريبة عن حجم الثعبان وضخامته، والألوف الذين قتلهم، وردود فعل فرعون تجاهه، ولا شك أن مثل هذه القصص من روايات الزنادقة أو الإسرائيليات،

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٠٨)

١٠٨- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أخرجها من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً نورانياً مضيئاً ساطعاً، وقد تكون رمزاً لنور نبوّته، وهي الآية الثانية التي جاءهم بها موسى فأذهلتهم، فلو كان الثعبان قد أثار عندهم أي ريبة أو توجس بالشر أو شعوراً بالرعب، فهذا النور قد دحض أي ريبة من هذا القبيل لأنه معاكس لما يرمز إليه الثعبان عندهم.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ كان للآيتين اللتين جاء بهما موسى تأثيرهما الكبير على فرعون وملئه، كما سوف يظهر من تتمة الآيات، ولكنهم مالوا إلى المكابرة وقرروا تفسيرهما من منظار السحر الذي اعتادوا بوساطته أن يتلاعبوا بعقلية الجماهير، ويلاحظ أن هذا القول منسوب إلى الملأ من قوم فرعون، لأن الملأ في مثل هذه الأحوال يداهنون كبيرَهم، وقلّما يخلصون له النصيحة، وفي سورة الشعراء أن فرعون قال ذلك أيضاً، ويحتمل أنه قاله ابتداءً، ثم وافقه عليه كبار القوم كما هي عادة الحاشية من موافقة الطغاة.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (١١٠)

١١٠- أتمّ فرعون كلام الملأ، وادعاءهم أن موسى ساحر عليم، بقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ بعد أن نسبوا السحر إلى موسى، أضاف فرعون زعمه أن موسى جاء طالباً الملك والزعامة، ولا يوجد سبب واضح لذلك سوى أن موسى ادعى النبوة وطلب منهم تحرير بني إسرائيل وإطلاقهم من مصر، وقد رأى فرعون أنه لو قبل نبوّة موسى لترتّب عليها نسف نظامه الاجتماعي والسياسي من أساسه، لأن فرعون لم يكن حاكماً سياسياً فحسب، بل جمع لنفسه ادعاء الألوهية، كما أن تحرير بني إسرائيل قد يزعزع نظام العبودية عنده، وقد يشجع باقي العبيد على التمرد والثورة، وقد تكون النتيجة

إخراج الطبقة الحاكمة من مصر، وهو ما تخوّف منه، والنتيجة أنّ فرعون وملأه لم يحاولوا فهم وتقويم دعوة موسى من حيث حدارتها وقيمتها الحقيقية، بل فكّروا بمنظار الحكم والاستبداد، فلم يروا في دعوة موسى سوى تهديدٍ لزعاماتهم ومراكزهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فرعون وملأه تشاوروا وقالوا لبعضهم البعض ماذا تشيرون؟ قال الزمخشري: تآمر القوم وأتمروا مثل تشاوروا، ويحتمل أن يكون هذا قول فرعون لحاشيته بمعنى ماذا تشيرون عليّ؟ وبعد أن توصل الجمع إلى الرأي وجهوا اقتراحهم إلى فرعون قائلين:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١)

١١١- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أرجئه، وأرجئ أخاه، والإرجاء هو التأخير، فالمعنى أخّر أمرهما ولا تفصل به الآن ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أرسل من أعوانك في مدائن ملكك، يجمعون لك من السحرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (١١٢)

١١٢- ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ممّا يدل أن السحرة في ذلك الزمن كانوا كثيرين، وأن فرعون كان يعتمد عليهم في تضليل الجماهير، وقد أراد أن يحشر تجاه موسى كل ساحر عليم بلا استثناء ليضمن أن تكون له الغلبة، وقد ورد الكثير من الإسرائيليات عن عدد السحرة الفعلي مما هو واضح بطلانه، ولا جدوى ولا فائدة من تتبعه ولا معرفته.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣)

١١٣- ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد أن تم جمعهم وحشرهم عنده ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ وهو دليل أن فرعون وملأه كانوا في حالة من الذعر والارتباك جعلت السحرة يتجرؤون ويفرضون شروطهم في طلب الأجر في حال تمكنوا من التغلب على موسى، وتفيد الآية من جهة ثانية أن السحر ليس سوى تمويهٍ واحتيالٍ ولا ينطوي على أي فعل حقيقي، فلو لم يكن

كذلك لما كان السحرة بحاجة إلى فرعون وأمواله، ولتمكنوا بسحرهم من الحصول على مبتغاهم دونما حاجة للغير.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١١٤)

١١٤- ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لم يكن فرعون في حالة تسمح له بالمساومة والتعجرف، فقد وجد في موسى تهديداً حقيقياً، ولذا أضاف إلى موافقته بإحزال الأجر للسحرة أن وعدهم بمناصب عالية في ملكه، وأن يجعلهم من المقربين إليه إن تغلبوا على موسى، فلما اطمأنوا لذلك خاطبوا موسى قائلين:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (١١٥)

١١٥- ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ تركوا الخيار لموسى، ربّما لشدة ثقتهم بمقدرتهم على التغلب عليه، فقد ظنوا أنه مجرد ساحر مشعوذ على شاكلتهم.

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٦)

١١٦- ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ أراد موسى منهم أن يبدؤوا بإظهار قصارى مقدرتهم وسحرهم لكي يقوم بإبطاله بعد أن يكون الناس قد انضبعوا لما رأوه من فائق مقدرتهم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي خيّلوا لهم خلاف الحقيقة قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه ٢٠/٦٦]، ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أوقعوا الرهبة في نفوسهم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ بأن جعلوا الناس تعتقد بصحة ما أرادوه من تحول حبالهم إلى ثعابين.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧)

١١٧- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي ألهمناه إلقاء العصا ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الإفك اسم لما يؤفك أي يُصرف ويُحوّل عن شيء إلى غيره، فهو قلب الشيء عن وجهه، ويستعمل في التلبيس وقلب الحقائق، ومنه

قبل للكذب إفك، لأنه مقلوب عن وجهه، وقوله ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يصرفون الأمور عن حقيقتها، وهو أن السحرة جعلوا الناس يتخيلون الحبال والعصيّ أنها تتحرك وتسعى، أما العصا فهي ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تتناوله وتزيله بسرعة وتظهر بطلانه، وقد ذكر الشيخ رشيد رضا في المنار عن الشيخ محي الدين بن عربي أنه ترتب على إلقاء عصا موسى أن رأى الناس تلك الحبال والعصيّ على حقيقتها لا تسعى ولا تتحرك، ولو أنها ابتلعتها -كما يظن البعض- لبقي الأمر ملتبساً على الناس، ولكان قصارى ما في الأمر أن كلاً من السحرة وموسى قد أظهر أمراً غريباً كان أحدهما أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم، ولكن عصا موسى أزالت أحابيل السحَرة بسرعة وهو معنى اللقف، والخلاصة أن السحر العظيم الذي جاء به السحرة لم يكن سوى إفكاً، أي خيالاً وكذباً ليس من الحقيقة في شيء، وقد نصّت الآية أنّ عصا موسى قد لقفت الإفك وأبطلته -و لم تلقف الحبال والعصي-، والدليل قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس ٨١/١٠].

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨)

١١٨- ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر الحق وتبيّن ووقع مكان الباطل فأزاحه ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر، لأنّ السحر في حقيقته باطل غير ذي فعل حقيقي.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ (١١٩)

١١٩- ﴿فَغُلِبُوا﴾ والكلام عن فرعون والملأ الذين معه، لأن موقف السحرة كان مختلفاً كما سوف يرد في الآية التالية، و لم يقل غلبهم موسى، لأن ذلك لم يكن من صنع موسى أو حذاقته وإنما كان من الله تعالى، وقوله ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم الذي ضمّ كبار القوم وغيرهم من الناس الذين حُشِروا ضحى في يوم عيد لهم وزينة من مواسمهم، حيث ضرب لهم موسى موعداً في

ذلك اليوم، كما هو مذكور في سورة طه ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ طه ٢٠/٥٩]، ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي انقلب فرعون وملؤه من مستكبرين إلى صغار أذلاء في نفوسهم، بعد أن كانوا مستعلين واثقين من أنفسهم.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (١٢٠)

١٢٠- ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لأن السحرة كانوا أدرى من غيرهم بحقيقة ما حدث، فقد أيقنوا أن ما شاهدوه لم يكن تخيلاً ولا خداعاً مما اعتادوا أن يحتالوا به على الناس، وعرفوا أن ما قام به موسى معجزة حقيقية من عند الله لا يقدر السحرة ولا غيرهم على مثلها، ولذلك لم يبق في نفوسهم أدنى مكانة لفرعون ولعظمته الدنيوية، ولم يتمالكوا أنفسهم أن وقعوا ساجدين مؤمنين بنبوّة موسى لِما تبين لهم من ظهور الحق بالمقابلة مع تفاهة السحر، وهو مغزى تجهيل الفاعل في قوله ﴿وَأُلْقِيَ﴾.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١)

١٢١- ﴿قالوا آمنّا بربّ العالمين﴾ إشارة لقول موسى في الآية (١٠٤) إنه رسول من ربّ العالمين.

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٢٢)

١٢٢- ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ رب العالمين الذي دعا إلى الإيمان به موسى وهارون.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢٣)

١٢٣- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ﴾ بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قبل أن آمركم ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أنتم وموسى تآمرتم وتواطأتم على هذه الخطة وعلى هذه النتيجة سلفاً ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ وهو ما كانوا اتهموا به

موسى من قبل (الآية ١١٠)، أي إن غرضكم، أنتم وموسى، إخراج المصريين من مصر لكي يكون لكم فيها الملك والحكم مع بني إسرائيل، ويبدو أن اختلاق هذا الاتهام من قبل فرعون كان موجهاً للاستهلاك المحلي لكي يحشد لنفسه تأييد عامة المصريين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد بما سوف ينزله في السحرة من العقاب والتعذيب، كما هو مذكور في الآية التالية:

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٤)

١٢٤- ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يبدو أن عدد السحرة كان كبيراً (الآية ١١٢)، ويحتمل أيضاً أنّ عدداً كبيراً من المصريين انضم إليهم، لأن تعبير ﴿لأُقَطِّعَنَّ﴾ بتشديد حرف الطاء و ﴿لأُصَلِّبَنَّكم﴾ بتشديد حرف اللام يشير لوجود أعداد كبيرة منهم، فالتقتيل غير القتل، والتقطيع غير القطع، والتصليب غير الصلب، إذ تدلّ على التكثير، وقد استُخدم التعبير نفسه بالآية (١٢٧)، وقوله ﴿مِنْ خِلافٍ﴾ أي لأجل خلافكم ومعاندتكم رأيي وأمري، انظر آية [المائدة ٣٣/٥].

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ (١٢٥)

١٢٥- ﴿قَالُوا﴾ أي السحرة ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ المعنى أنهم غير مبالين بما يحل بهم في هذه الحياة الدنيا من انتقام فرعون ما داموا على الحق، كما يحتمل أن يكون ضمير الجمع في قوله ﴿إِنَّا﴾ للسحرة وفرعون معاً، فيكون معنى قولهم أن الحكم الفصل بينهم وبين فرعون لله وحده، وفي ذلك تعريض بفرعون وادعائه الربوبية.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٦)

١٢٦- تتمة خطاب السحرة لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ ما تعيب علينا، ولا تكره منّا، سوى الإيمان بالله، وهذا هو ذنبنا عندك، ولكن كوننا على الحق لا يوجب النقمة والانتقام، بل يقتضي العكس:

أن يحذو فرعون حذوهم، ولهذا فقد التفتوا، بعد أن يئسوا من استجابة فرعون، إلى التضرع إلى ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو تضرّع بإنزال كامل الصبر عليهم استعداداً لما يتوقعونه من المحنة والبلاء، كما لو كان الصبر في إناء فيفرغ بكامله عليهم ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ دعاء بتثبيتهم على الإيمان، مستسلمين لله، مذعنين له وحده دون غيره.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧)

١٢٧- بعد أن تبيّن للجميع أن السحرة غير عابئين بتهديد فرعون، بادر كبار القوم إلى تحريضه على موسى وعلى أتباعه، نفاقاً وخوفاً على مراكزهم، فقالوا له: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أتتركهم ليفسدوا عليك حكمك في مصر؟ إما بإدخال المصريين في دينهم، أو بجعلهم تحت سلطتهم يأمرون بأمرهم، وفي الحالتين تكون النتيجة زوال الحكم الفرعوني ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ ويتركك ويترك آلهتك هو وقومه ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي سنعمل على إفناء بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم، وتعبير التقتيل هنا أيضا يدل على التكثير والتدريج، أي حتى ينقرضوا ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ نستبقي نساءهم أحياء يتزوجهنّ المصريون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ بهذه الطريقة نقهرهم ونسيطر عليهم، والواضح أن فرعون قرر ترك موسى وعدم إيذائه تجنباً لاستفزاز من والاه من المصريين.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨)

١٢٨- عَلِمَ موسى بما دار بين فرعون وملئه من الكيد لبني إسرائيل، أو أنه توقع هذا الكيد بعد أن خلّى فرعون سبيله، فقال لقومه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ على ما يحل بكم من المحن، وما سوف يحل بكم نتيجة الثبات على عقيدتكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وليست

لفرعون فقط، والدنيا دوّل ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبة الحسنة تكون للذين يتقون الله بمراعاة سننه في أسباب إرث الأرض، كالاتحاد، والعمل، والعدل، والتزام الحق، والصبر على الشدائد، والاستعانة بالله، وإقامة شرعه، والمغزى إذا سرتم على هذه الأسس وفق نظام سننه تعالى في خلقه كانت العاقبة الحسنى لكم.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩)

١٢٨- كان توهّم بني إسرائيل أن الظفر على فرعون يتم بلا عمل ومن دون تضحيات، وأنّ مجرّد بعث النبي موسى بينهم يضمن النصر لهم، فقالوا لموسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي لم نستفد شيئاً من بعثتك، فقد كنّا نتحمّل أذى فرعون قبل مجيئك، ثمّ تفاقم هذا الأذى بعد مجيئك، وفي هذا القول نوع من الوقاحة من جانب بني إسرائيل، وهو في الوقت نفسه مقدّمة لما سوف يلقاه موسى من العنت والمعاندة منهم، وقد قالوا له بعد ذلك في سيناء: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة ٥/٢٤]، انظر أيضاً آيات [البقرة ٢/٢٤،٦١]، وآيات [المائدة ٥/١٢-٣٢]،

﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي نرجو الله تعالى أن يهلك عدوكم فرعون، ويجعلكم خلفاء في فلسطين، والمقصود من تعبير ﴿عَسَى﴾ إفهامهم أنه يلزمهم التقوى والعمل الجاد وتحمل المشاق كي يصلوا إلى مبتغاهم ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنه تعالى يحكم عليكم وفق أعمالكم، هل تشكرون النعمة أم تكفرونها؟ وهل تقيمون العدل أم تظلمون؟ وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون؟ وهل تكونون صالحين لحمل الرسالة إلى غيركم؟ وهل تكونون قدوة لغيركم؟ والنتيجة أنه تعالى يحكم عليهم وفق ما يعملون، وليس وفق ما يعلمه بالغيب منهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣٠)

١٣٠- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ السنين جمع سنة، وهي السنة التي يحصل فيها القحط، وهي أيضاً بمعنى السنة الزمنية، وآل فرعون المقصود بهم قومه بمن فيهم كبار القوم وعامتهم، أي أهل مصر في عهده، وهم مؤاخذون بظلمه وطغيانه لأن قوته المالية والعسكرية منهم، وقد خلقهم تعالى أحراراً وكرمهم بالعقل والفطرة التي تميل بالغريزة إلى الحرية والكرامة، فكان حقاً عليهم ألاّ يقبلوا استعباده لهم، وأن يرفضوا جعلهم آلة لطغيانه ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كناية عن شدة الضيق، أي إنّ القحط الذي أخذهم به تعالى لم يقتصر على الحبوب فقط ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلهم يذكرون ضعفهم واعتمادهم على القدرة الإلهية، ويذكرون عجز فرعون وعجز آلهتهم الوهمية.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١)

١٣١- ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ وهو قول آل فرعون، أي هي نتيجة استحقاقنا لا غير، ونحن جديرون بها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ يتشاءموا بموسى ومن معه، لأن التطيّر هو التشاؤم، فيقولون أصابتنا هذه السيئة بسببه، لأنهم قوم اعتادوا الخرافات ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي حظهم عند الله، وعبّر عنه بالطائر لأن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير، فإذا طارت من جهة اليمين تيمّنت وتوقعت الخير، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر، ثم إنهم سمّوا الشؤم طيراً وطائراً، وسمّوا التشاؤم تطيّراً، ولذا قال تعالى في دحض خرافتهم أنّ طائرهم عند الله، أي إنه تعالى جعل لكل شيء قدراً، بمعنى أنه وضع للكون سنناً وقوانين تكون فيها المسبَّبات على قدر الأسباب ونتيجة لها، وقد بيّن النبي ﷺ أن طيرتهم باطلة فقال: ((لا طِيَرة ولا هام))، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أكثرهم لا يعلمون أن

التشاؤم والطيرة باطلة، وأن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢)

١٣٢- ﴿وَقَالُوا﴾ وهو قول آل فرعون لموسى ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إن تجئنا بكل نوع من أنواع المعجزات فلن نصدقك، ولن نتبع رسالتك، وقولهم لتسحرنا بها من قبيل المكابرة والمعاندة، والمعنى أنهم مصرون على اعتبار الآيات القاهرة نوعاً فائقاً من أنواع السحر.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (١٣٣)

١٣٣- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عقوبة لكفرهم وذنوبهم ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ طوفان النيل، ثم الجراد يأكل محاصيلهم، ثم القُمّل وهو السوس يأكل الحنطة والحبوب، ثم الضفادع بكثرة طاغية، ثم الدم وفسّره بعضُهم بالرعاف، وقال آخرون بل انتشر الدم في مياه الأنهار والينابيع ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ أي مبيّنات ظاهرات، ومفصّلات أيضاً بمعنى وجود فاصل زمني فيما بينها الواحدة تلو الأخرى، لإعطائهم الفرصة لقبول الحجة والدلائل والإعراض عن الخلاف والتقليد، وفي ذلك عودة لما هو مذكور بالآية ﴿٩٤﴾، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإذعان للحق ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على الإجرام والذنوب،

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٣٤)

١٣٤- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ شعر آل فرعون بشدة العذاب ﴿قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ من النبوّة ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي في كلّ مرة يقع عليهم نوع من

أنواع العذاب يستنجدون بموسى، ويطلبون منه الدعاء لكشف العذاب عنهم، ويؤكدون له أنهم سوف يؤمنون برسالته من جهة، وسوف يطلقون بني إسرائيل من جهة أخرى.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (١٣٥)

١٣٥- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ مرّة بعد مرّة ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ أي إلى أجل يمكّنهم من الوفاء بوعودهم بالإيمان وإطلاق بني إسرائيل ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ بوعودهم في كلّ مرة، وهذا دأب الخاطئين في كل الأزمنة.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦)

١٣٦- ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بعد إعطائهم كل الفرص لرؤية الحقيقة وإمهالهم للتوبة ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وهو غرق فرعون وجنوده في البحر الأحمر، في أثناء مطاردتهم موسى وبني إسرائيل ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم بالآيات وكفرهم برسالة موسى ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ قبل بعثة موسى وبعده، غفلوا عنها إطلاقاً قبل بعثته، ثم غفلوا عن صحتها وعن معناها بمعنى قلوبهم رغم تذكيرهم بها.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧)

١٣٧- ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كانوا مستضعفين في عبودية فرعون لهم، ولأن فرعون كان يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض فلسطين، بارك تعالى فيها بكثرة بعث الأنبياء بها، أورثهم مشارقها ومغاربها، وليس معنى ذلك أنها صارت ميراثاً أبدياً لهم فذلك مخالف للواقع التاريخي، وللمذكور في تتمة هذه السورة (الآيات ١٦٦-١٦٨)، راجع أيضاً شرح آية [المائدة ٥/٢١]، وقد عاقبهم تعالى بالنفي من فلسطين بعد أن عاثوا فيها الفساد، ولم يدم ملكهم

فيها سوى أربعة قرون، من بداية ملك طالوت حتى سقوط القدس بيد نبوخذنصّر، راجع شرح آية [المائدة ٥/٢٣]؛

وقوله ﴿الأَرْض﴾ لا يعني أكثر من فلسطين، وهو شبيه بقوله تعالى على لسان يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ [يوسف ١٢/٥٥] وقصد بها مصر، وقوله تعالى مخاطباً نبيّه ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء ١٧/١٣٧] وقصد بها مكة،

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهي تحريرهم من فرعون بعد بعث موسى فيهم ونزول الرسالة السماوية عليهم ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بنتيجة صبرهم، والمغزى تذكير بفائدة الصبر ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ كان الدمار في مصر لكثرة المصائب التي حلت بهم (الآية ١٣٣)، وبنتيجة تحرير بني إسرائيل من عبوديتهم، ثم غرق فرعون وجيشه في البحر.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨)

تسرد الآيات (١٣٨) وحتى الآية (١٧١) قصة موسى وبني إسرائيل في صحراء التيه:

١٣٨- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ وهو البحر الأحمر عند خليج السويس، ما بين السويس والإسماعيلية، جاوزوه إلى شبه جزيرة سيناء، وقيل إنّ العبور كان عند البحيرات المرّة، والملاحظ أن موسى بعد عبور البحر لم يتجه مباشرة نحو فلسطين، وإنما اتخذ مع قومه مساراً نحو الجنوب محاذياً شاطئ خليج السويس، لأن موسى كان يعرف حق المعرفة أن قومه لم يكونوا وقتئذ على مستوى من النضوج الفكري، والإيمان اليقيني، والاستعداد النفسي، والسمو الروحي، ما يمكّنهم من دخول الأرض المقدسة، وذلك واضح من خطابهم له في الآية (١٢٩)، فأراد أن تنقضي عليهم مدة من الزمن في سيناء قبل بلوغ هدفهم

﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يعكفون من الاعتكاف، أي كانوا مواظبين على عبادة أصنامهم، وقيل أن هؤلاء القوم من المصريين العاملين في مناجم النحاس، وقيل إنهم العماليق المذكورين في كتب اليهود الغنصرية "المقدسة" التي ابتكروها والتي تحضّهم على إبادة الأغيار، كزعمهم أن الرب قال لهم "امحوا ذكرى العماليق من تحت السماء" (سفر التثنية٢٥/١٩)، وزعمهم أنه قال لهم أيضاً "اذهبوا وابطشوا بالعماليق ودمّروا تدميراً تاماً كل ما يملكون، ولا تبقوا منهم أحياء، بل اذبحوا الرجال والنساء والأطفال والرضّع والبقر والخراف والجمال والحمير" (سفر صموئيل الأول١٥/٣)،

﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ تاقت نفوس بني إسرائيل إلى تقليدهم، لشدة ما اعتادوا على وثنية المصريين خلال مدة عبوديتهم حتى انحطّ مستواهم الفكري، وهذه بادرة الارتكاس الثانية منهم بعدما قالوا لموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا بالآية (١٢٩)، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ جئتكم بالحقيقة وبرسالة التوحيد والآيات البيّنات، وتصرّون على الزيف والوهم،

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٩)

١٣٩- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ العاكفين على الأصنام ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ التبار الهلاك، والتتبير الإهلاك، والمعنى أن طريقة هؤلاء مقضي عليها بالهلاك، وسوف تقودهم إليه لا محالة ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كانوا وما زالوا، عملهم زائف لا يمت إلى الحقيقة، فهو أيضاً زائل ومضمحل تماماً، وهذه الآية تبين قاعدة عامة عن مآل جميع المشركين والمبطلين في كل العصور.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠)

١٤٠- ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أطلب لكم معبوداً غير الله تعالى؟ وهو رب العالمين! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بأن أنزل عليكم هدايته، واختاركم لحمل رسالته، والواضح أن التفضيل لم يكن مطلقاً، وإنما بتحميلهم مسؤولية أثبتوا عدم جدارتهم بها.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤١)

١٤١ - ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ واذكروا إذ أنجيناكم من آل فرعون، فكيف تنكصون إلى الوثنية؟ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ عذاب العبودية ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ تقتيل الأبناء الذكور وترك الإناث، تمهيداً لإفنائهم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء هو النعمة أو المحنة، وأصله الاختبار، ولمّا كان اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمحنة، وتارة بالمنحة أطلق عليهما معاً.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢)

١٤٢ - ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ المراد بالليلة في كلام العرب ما يشمل الليل والنهار معاً، فهي بمعنى يوم وليلة، ويحتمل أن تفصيل الميقات بثلاثين ليلة مضافاً إليها عشراً، أن موسى أمضى الثلاثين يوماً الأولى في التهيؤ الروحي بالاعتكاف والصيام والتعبّد بحيث كان مستعداً لتلقي الوحي في الأيام العشرة التي تلتها ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لأنه سبق لموسى أن رأى ميلاً من قومه إلى عبادة الأصنام، راجع الآية (١٣٨).

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣)

١٤٣ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ رأى

موسى ما حلّ بالجبل فخرّ صعِقاً، والصعق بمعنى الغشيّ وليس الموت، لأنه بعد ذلك أفاق ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد على أن طلبه الرؤية لم يكن نابعاً من عدم إيمانه وقوله ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بمعنى أكثرهم إيماناً وأولهم من قومه.

﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤)

١٤٤- ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ اختاره الله تعالى وفضله على الناس، لأن الصفوة هي النخبة، وقد اختصّه تعالى من دون الناس بأمرين: الرسالة، والتكليم بلا واسطة ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ من الوحي، أي تمسّك به واعمل به ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ بالقيام بما يتطلبه ذلك، من العلم والعمل.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥)

١٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في أمور دينهم، من المواعظ من جهة، وتفصيل أحكام الشريعة من جهة ثانية، ولعل الحكمة من كتابة الوحي في الألواح أن بني إسرائيل كانوا قوما بدائيين لا يؤمنون إلا بمشاهدة العين، ولم يكونوا ذوي رقيّ فكري أو روحاني، ولذلك كانت المعجزات المادية العديدة على يد موسى كفلق البحر وغيره مما تلمسه الحواس، ورغم ذلك فقد لقي موسى عليه السلام منهم أشد العنت ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ تمسّك بما كتبنا فيها، واعمل بها بعزيمة ونية صادقة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ بعد أن ذكر تعالى أنه كتب لهم في الألواح من كل شيء، أمرهم أن يأخذوا ويعملوا بأحسن ما يستطيعون فهمه من معناها البديهي، بحسن نية وبلا تنطع، ولا تتبع للدقائق الصغيرة مما اشتهر به بنو إسرائيل، ومما يمنع المخادعة والفتاوى الملتوية واستخدام الحيل الشرعية مما اشتهر به أحبارهم وذوو النوايا السيئة منهم إلى اليوم، فإن الله

لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ سوف تشاهدون عاقبة العصاة الذين لا يتّبعون الوحي ولا يعملون به، بل يكذّبونه ويتكبرون عنه، كما سوف يلي تفصيله في الآية التالية، وقد يكون في ذلك كشف عن الغيب، أي إنه تعالى سوف يريهم المآل الذي ينتهون إليه بسبب فسوقهم، ويحتمل المعنى أيضا أنه تعالى سيكشف لهم أحوال الفاسقين الداخلية، والتعاسة والمصاعب التي يعيشونها، والمآل الذي ينتهون إليه، فلا ينبغي أن يغرّ المؤمنون بظواهرهم الخارجية من الترف والرفاه.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾

١٤٦- تتمة الخطاب من الآية السابقة، بعد نزول الوحي على موسى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كالذين يظنّون أنهم الشعب المختار، وقد طفت عليهم مشاعر العرق المتفوق والعنصرية المنغلقة والاستعلاء على بقية البشر، وتصنيف الناس إلى صنفين: يهود وأغيار أي غير يهود، ويبيحون لأنفسهم استعباد الأغيار أبد الدهر، انظر (سفر لاويين٢٥/٣٩-٤٦)، ويأمرون بتقتيلهم وإبادتهم، انظر (سفر صموئيل ٣/١٥) و (سفر التثنية ١٩/٢٥، ١٦/٢٠)، والحاخامات يقولون: أفضل الأغيار اقتله، ويعتبرون كل نساء الأغيار بغايا، ولحومهم كلحوم الحمير، وعقوبة الاتصال الجنسي معهم كعقوبة خطيئة الوصال مع الحيوانات، وشهادة الأغيار غير مقبولة في المحاكم الحاخامية لأنهم كَذَبة بالفطرة، ويعتبرون أنّ تقاضي أكبر قدر من الربا منهم واجب ملزم، ويبيحون الغش والخداع والاحتيال في التعامل معهم، بل وسلب ممتلكاتهم، ويحرّمون إقامة الأغيار في أرضهم أو مد يد العون لهم، وغير ذلك كثير ﴿الموسوعة التلمودية، ميشناه توراة، انظر إسرائيل شاحاك﴾، وهذه الوصايا من ضمن ٦١٣ واجباً دينياً ملزماً عندهم صدرت في كتاب سموه:"كتاب التربية "طُبع مرات عديدة بدعم مالي من

الحكومة الإسرائيلية، وهو الكتاب الأكثر شعبية في إسرائيل من هذا النوع في الوقت الحاضر.

فمن سننه تعالى في خلقه أنّ من شأن مثل هذا الكبر والضلال، بل أقل منه بكثير، أن يصرف أصحابه عن النظر في الحق والآيات، ولمّا كان تعالى قد سنّ قوانين الكون بكاملها فإنه ينسب الصرف عن الآيات إلى ذاته العلية، وإن كان ذلك نتيجة طبيعية لسلوك الإنسان وخياره الحر، وذلك مكرر في العديد من آيات القرآن الكريم، انظر شرح آية [البقرة ٧/٢]، والآية استمرار لما سبقها بمعنى أن مآل الفاسقين الموصوفين في الآية السابقة، هو الضلال عن الآيات ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ تعمى بصائرهم عن الحقيقة، وقد رأى بنو إسرائيل منذ خروجهم من مصر الكثير من الآيات، كفلق البحر، وتظليل الغمام عليهم في سيناء، ونزول المن والسلوى ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ وهو ما جاءهم به موسى ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ كاتباع ما يزعم أحبارهم أنه وحي، والإشارة أيضاً عامة لمن يعتقدون أن الفكر هو المقياس الوحيد للحق والباطل، وللخير والشر، وللصحيح والخطأ، ويرفضون الخضوع للمقياس الأخلاقي المطلق، وهو مقياس الوحي ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ذلك الصرف عن الآيات وعدم الإيمان بها، وعدم اتخاذ سبيل الرشد، واتخاذ سبيل الغيّ، كل ذلك بسبب اختيارهم التكذيب بالآيات على التصديق بها، وبسبب كونهم غافلين عن حقيقتها، وتركيزهم على المادة والأهواء والشهوات، فاجتمع عندهم التكذيب والغفلة معاً، وهذه الآية قاعدة اجتماعية عامة ليست مقتصرة على بني إسرائيل، ثم بيّن تعالى في الآية التالية عاقبة أمثالهم:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

١٤٧- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الملاحظ أن كتب اليهود، أي العهد القديم ومن ضمنه ما يُزعم أنه التوراة التي حررها

أحبارهم ليس بها أي ذكر للآخرة باستثناء سفر دانيال، ومن شأن هذا الإنكار أن تحبط أعمالهم، أي يبطل ثوابها، فهي بلا جدوى ولا يستفيدون منها ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاؤهم مرتبط بأعمالهم.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨)

١٤٨- ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهاب موسى لميقات ربّه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ وردت الإشارة لعبادة العجل الذهبي في آية [البقرة ٢/٥١]، كما وردت بمزيد من التفصيل في سورة طه [٢٠/٨٣-٩٧]، ويلاحظ أنه في كل مرة تُذكر فيها القصة لا يتم إيراد سوى النقطة أو النقاط الملائمة للموضوع، ولإظهار العبرة أو العبر المناسبة للسياق، وهو ما يلاحظ في جميع القصص في القرآن، لأنّ القصص في القرآن الكريم لا ترد لمجرد التأريخ أو الرواية، وفي هذه الآية نلاحظ المفارقة الحادة بين اعتكاف موسى على الجبل و روحانيته المتناهية وابتهاله إلى الله، وبين فساد قومه وماديتهم وعبادتهم العجل الذهبي في غيابه، وقد كانوا صهروا بعض الحليّ التي أحضروها معهم من مصر وصنعوا منها عجلاً ذهبياً اتّخذوه معبوداً، ويبدو أن الخوار، وهو صوت العجل، كان يصدر عند هبوب الرياح من خلال جسد العجل المفرّغ، وقد حاولوا بذلك تقليد العجل إبيس Apis في معبد الإله المصري عُزيريس Osiris في العاصمة المصرية ممفيس، لشدة تأثرهم بالوثنية المصرية، وقد رأى الألوسي في روح المعاني أنّ كثيراً من الناس اليوم عبيد للذهب والدينار والدرهم، فهي العجل المعنوي لهم، وإن لم يسجدوا لها ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ فلا يستجيب العجل لعبادتهم، ولا يبيّن لهم الحق من الباطل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبوداً ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم، لأن عاقبة الضلال تعود عليهم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء ١٧/١٥].

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩)

١٤٩- ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي لمّا اشتد ندمهم على ما فعلوا، وهي النتيجة الطبيعية للضلال، ويقال للنادم المتحير سُقط في يده مجازاً، بمعنى سقط الندم في يده ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ اعتراف منهم بأنه لا يسعهم بعد الضلال سوى رحمة ربهم.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠)

١٥٠- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ غضبان على أخيه هارون لِما رأى من ضعفه مع قومه وعدم ضبطه لهم، وأسفاً حزيناً على ما بدر من قومه من الكفر والشرك ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ الخطاب بالجمع: لأخيه هارون لضعفه مع القوم، ولقومه بسبب كفرهم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل معنيين: الأول: أجعلتم من أمر ربّكم عجلاً تُعبد؟ والثاني: استعجلتم وأشركتم ولمّا يأتِكم أمرُ ربّكم؟ أو استعجلتم وأشركتم بعدما لقّنتكم التوحيد ونهيتكم عن الشرك؟ أو استعجلتم واستوجبتم غضب ربّكم بهذا الكفر؟ ومنه قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء ٢١/٣٧]،

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ ذُهل عنها من شدة الغضب، وعمّا فيها من الأمر بالحلم عند الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ من شدة غضبه وحزنه، ظنّاً منه أنه قصّر في كفّ القوم عن عبادة العجل ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ اعتذر هارون بالضعف وخوف القتل، وفي آية أخرى اعتذر بالخشية من وقوع النزاع والفرقة بين قومه [طه ٢٠/٩٤]، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فيزداد موقفي سوءاً ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تسوّيني بهم، لأن ما فعلوه كان رغماً عني ولم أقبل به.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١)

١٥١- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ إلقاء الألواح، وما بدر منّي في غضبي ﴿وَلِأَخِي﴾ لضعفه وعدم ضبطه قومه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التي وسعت كلّ شيء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢)

١٥٢- تتمة الخطاب من الآيات (١٤٦-١٤٧): ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ معبوداً، وأصرّوا عليه، أو أصرّوا على الضلال، لأن حكم التالبين مذكور في الآية التالية (١٥٣)، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقهر والتشتت ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الذين يفترون على الله الكذب بإضفاء الألوهية على مخلوقات مادية أو أشياء وهمية، أو بابتداع أفكار وميادئ ينسبونها إلى الله تعالى، والإشارة في الآية غير مقتصرة على قوم موسى وقتئذٍ، وإنما تشمل بني إسرائيل من بعده لقوله تعالى ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ للمستقبل، ولأن الأحبار افتروا الكذب على الله بتأليف كتب من عند أنفسهم وزعموا أنها التوراة ونسبوها إلى الله تعالى، وافتروا فيها أبشع أنواع الكذب على أنبيائهم، ثم افتروا بعدها الكذب على عيسى المسيح، وعلى النبي عليهما الصلاة والسلام، ولا يزالون يفترون جميع أنواع الكذب حتى عصرنا هذا، وقد نالهم من الذلة في الحياة الدنيا عبر العصور ما هو معروف، وقد نصّت آية [المائدة ٣٣/٥] على جزائهم.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥٣)

١٥٣- ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ تابوا وآمنوا بعد عمل السيئات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة والإيمان ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالإيمان والتوبة عن السيئات يستوجبان المغفرة.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤)

١٥٤- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ زال عنه الغضب وعاد ساكناً ﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ يزعم اليهود في كتبهم المقدسة التي ابتدعوها أن الألواح تكسّرت عندما ألقاها موسى في غضبه (سفر الخروج ١٩/٣٢)، وقد يكون في هذا الزعم محاولة تبرير من قبلهم لكونهم أضاعوا التوراة وتلاعبوا بها، والقرآن لا يذكر شيئاً عن تكسّر الألواح، والمعنى أنهاً بقيت سالمة ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي في الكتابة المنسوخة عليها، والنسخ بمعنى الكتابة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هدى من الضلال، ورحمة من الشقاء ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي إنّ الهدى والرحمة مختصة بالذين يخافون ربهم يقيناً.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥)

١٥٥- ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ أي اختار من قومه سبعين رجلاً، -بحذف حرف الجرّ وهو شائع في القرآن، انظر إعراب القرآن للزجاج، الباب الرابع- ويحتمل أيضاً أن يكون تقدير الكلام: اختار موسى قومَه لميقاتنا، بأن يكون المراد من قومه المعتبرين منهم فقط، فيكون قولُه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ بياناً لعددهم، أي اختارهم من نجباء القوم، أهل الاستعداد والصفاء والإرادة، والمعنى أنّ موسى خرج بهؤلاء السبعين لميقات ربّه، ويبدو أنه الميقات المشار إليه في آية البقرة ٥٥/٢، ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وفي سورة البقرة أن الصاعقة أصابتهم عندما طلبوا أن يروا الله جهرةً، ويحتمل أنها أصابتهم بالرجفة حتى أغمي عليهم، وقال الألوسي إنها رجفة البدن واقشعرار الجسد وارتعاده لشدة الرهبة ﴿قَالَ﴾ بمعنى الدعاء ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ من قبل، أي عندما وافقوا قومهم على عبادة العجل، أو عندما تحدّوا موسى وطلبوا أن يروا الله جهرةً ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ما فعلوه من عبادة العجل

والمعاندة ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ الفتنة هي الاختبار المقصود منه إظهار حقيقة المفتونين أو لتصفيتهم وتمحيصهم، والخطاب اعتذار من موسى عمّا وقع من قومه، بمعنى أنّ الحياة الدنيا اختبار وابتلاء للعباد ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ بنتيجة الفتنة يُضِلّ تعالى من خلقه من يشاء الضلال، فيتركه لخياره ولنفسه، ويهدي منهم مَن يشاء الهداية، فيحيطه بتوفيقه ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم بأمورنا في الدنيا والآخرة، لا أحد غيرك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا، لا تؤاخذنا عليها ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بفضلك وإحسانك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ لأنه تعالى يغفر لعباده بمحض الكرم والتفضّل.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦)

١٥٦- ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ وهو تتمة دعاء موسى عليه السلام، فبعد الإقرار أنه تعالى وحده القائم بأمور خلقه، طلب موسى المغفرة والرحمة، ثم أضاف عليها طلب حياة حسنة في هذه الدنيا، من العافية وبسط الرزق، والتوفيق للطاعة، وعز الاستقلال والملك، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول الجنة ونيل الرضوان ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ وقد يكون أنهم سُمّوا يهوداً لهذا السبب، أي تبنا ورجعنا إليك، بعد تفريط سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة العجل، وتقصير خيارنا في الإنكار عليهم، وطلب الرؤية، وتمرد المغرورين ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصاً أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، فهي من صفاتي القديمة الأزلية التي قام بها أمر الكون، والعذاب ليس من صفاتي بل من أفعالي المرتبة على صفة العدل، ورحمتي عامة لكل مخلوق، ولولاها لهلك كل كافر وعاصٍ عقب كفره ومعصيته دون إمهال ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ خاصةً ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي والفجور والفساد والتمرد ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لأنها دلالة على

عدم استيلاء الدنيا عليهم، وهي أيضاً دلالة على ترجمة عقيدتهم إلى أعمال، وفي الآية تعريض بشدة حب اليهود للدنيا، وتهالكهم على جمع المال بشتى الوسائل ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنه من دون الإيمان تحبط الأعمال ولا تنفع صاحبها شيئاً، والإيمان لا يكون مقتصراً على الإيمان بالوحي الذي نزل على رسول دون غيره، وإنما الإيمان بكامل الوحي الذي نزل على الأنبياء والرسل، وخاصةً الإيمان بالآيات التي نزلت على خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ بالنسبة إلى من أدرك بعثته، كما هو مبيّن في الآية التالية، وفي الآيات (١٥٧-١٥٨) إحدى العبر الرئيسة في هذه السورة من قصة موسى مع بني إسرائيل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧)

١٥٧- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ استئناف الخطاب من الآية السابقة، والمعنى سأكتب رحمتي للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بالآيات، وهم المتصفون باتباع هدي خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، وفي ذلك حث لبني إسرائيل على اتباعه شرطاً لقبول توبتهم المشار إليها بقول موسى ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾،

﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب، وقيل هذه الصفة نسبة إلى العرب، لأن الأميّة كانت غالبة فيهم، وفي هذا الوصف تنبيه على إعجاز الرسالة، لأن الوحي نزل مشتملاً على المعجز من علوم الدنيا والآخرة، وعلى الأخبار الصحيحة عن الرسل والأقوام الغابرة التي كانت قبل الرسول ﷺ، في حين لم يكن بمقدوره ﷺ أن يطّلع على كتب اليهود والنصارى ولا غيرها، بل إنّ الوحي نزل بتصحيح ما ورد فيها من انحرافات ومتناقضات، فهذه الصفة هي صفة مديح بالنسبة إليه ﷺ، وأما بالنسبة إلى غيره فلا ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ ورد الكثير من البشارات في كتب اليهود والنصارى عن قدوم النبي الأحمد، ومع أن كتبهم التي بين أيدينا مشحونة بالمتناقضات والمغالطات التي أدخلها الأحبار والكهنة والكتبة، فإنها لا تزال تشتمل على شذرات من الحقيقة، ومنها النبوءات الكثيرة عن النبي الخاتم، وقد ورد تفصيل هذه النبوءات في كتاب الأستاذ عبد الأحد داود (محمد في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى)، وإحدى هذه النبوءات الكثيرة ما ورد في سفر (يوحنا ١/١٩-٢٥) أنّ اليهود كانوا بانتظار قدوم ثلاثة أنبياء وهم: إيليا، والمسيح، والنبي المنتظر، ثم إنّ اليهود رفضوا المسيح والنبي المنتظر معاً بعد ظهورهما، ولا يزالون ينتظرون، أما المسيحية فقد أقرّت بالمسيح بمجرد رمز لها، ورفضت النبي الأحمد المنتظر،

﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ما تعرف العقول والفطرة السليمة صوابه، كعبادة الله وحده ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ما تنكره العقول السليمة والفطرة، كالشرك وعبادة الأوثان ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي يستطيبها الطبع، لأن الأصل في الطيّبات الحل، إلاّ بدليل منفصل ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التي اخترعوا في كتبهم كل المبررات لارتكابها حتى أنهم نسبوها إلى أنبيائهم، والخبائث كل ما يستخبثه الطبع ويكون في تعاطيه المضرّة للنفس وللمجتمع، فالأصل فيه الحرمة، إلا بدليل منفصل ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يخفف عن اليهود ما كُلّفوا به، أو كلّفوا أنفسهم به من التكاليف الشاقة عن طريق الأحبار، انظر شرح آية [آل عمران ٣/٩٣]، وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحراك، والأغلال جمع غلّ وهي القيد الحديدي الذي يجمع يدي الأسير إلى عنقه، واستعمالها في الآية من قبيل الاستعارة لبيان ما كان بنو إسرائيل يرزحون تحته من تعسف الشرع الذي ابتدعه أحبارهم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ بالنبي محمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ منعوا العدو منه، حتى لا يقوى عليه عدوّ ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ هو القرآن الكريم، وعبّر عنه بالنور

لظهوره بنفسه في إعجازه وصدقه، فهو أشبه شيء بالنور الظاهر بنفسه، والمُظهِر لغيره ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون الفائزون.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

١٥٨- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ بمن فيهم اليهود، وهذا الخطاب المعترض ضمن قصة موسى قُصد منه التوضيح ومقارنة بعثة النبي ﷺ مع ما سبق من بعث الأنبياء الذين بعثوا إلى أقوامهم خاصة لمعالجة أوضاع اجتماعية معينة لدى تلك الأقوام، بما في ذلك بعثة موسى وعيسى عليهما السلام، في حين أن النبي ﷺ بعث للناس كافة، ورسالته تتخطى الأقوام والثقافات، إلى كل الشعوب والثقافات في الدنيا، وهي أيضاً رسالة صالحة ومقصودة لكل العصور، لكونه ﷺ خاتم الأنبياء والرسل،

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فبعث النبي ﷺ إلى الناس كافة ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ المتفرد والمتصرف بملكه، والمدبّر لخلقه، فلا مستحق للعبادة سواه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قادر على الإحياء والإعادة والحشر ثم الحساب ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأنه بعد هذه الحجج لم يبق للعاقل المنصف إلاّ الإيمان بالله وبرسوله، إذ لن يكون بعده رسول، والخطاب موجّه للناس عامة بمن فيهم اليهود ﴿النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ تكرار الإشارة لأمّيته تأكيداً على الإعجاز، فالرسول لم يكن على خلفية بأي من الثقافات العالمية التي كانت في زمنه أو قبله، كما لم يتفق له مجالسة أحد من العلماء ولا التعلم منهم، لأن مكة لم تكن بلداً للعلماء، وما غاب الرسول عن مكة غيبة طويلة حتى يقال إنه في تلك المدة تعلم العلوم الكثيرة، فكان ظهور هذه العلوم السماوية عليه من أعظم المعجزات ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ تأكيد على وحدة الرسالات والوحي، فهو يؤمن بما أنزل عليه وما أنزل على من سبقه من الرسل ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ اتباع تصديق وقبول وإذعان وعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقيقة إذا أعملتم العقل والتفكير.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

١٥٩- ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يهدون الناس بالحق، وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي المشار إليه في الآيتين السابقتين ﴿وَبِهِ﴾ أي بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ في التعامل مع الناس، وفي آيات [آل عمران ٣/١١٣-١١٤] توجد إشارة إلى أمثال هؤلاء الناس أيضاً، والمقصود أنه مهما كانت الغالبية من القوم على درجة من العصيان والتعصب والضلال، ممّا طبع تاريخ اليهود بشكل خاص على مر العصور، فإنه يوجد دوماً من الناس الأتقياء بينهم، مهما قلّ عددهم، من يهتدي بهدي الرسل ويدخل الإسلام، ويعمل بموجبه، وفي الآية إشارة أيضا أنه تعالى يحاسب الناس فرادى، ولا يأخذهم بجريرة قومهم.

وفي تفسير (أُمَّةٌ) هنا خرافات إسرائيلية نقلها الطبري عن ابن جريج، قال هم سبط من بني إسرائيل ساروا في نفق من الأرض فخرجوا من وراء الصين إلخ.. قال الشيخ رشيد رضا: وابن جريج على سعة علمه وروايته وعبادته شر المدلّسين تدليساً، وأئمة الجرح والتعديل لا يعتدّون بشيء يرويه، ونقل هذه الخرافة كثيرون وبحثوا فيها مباحث لا يستحق شيء منها أن يُحكى (المنار).

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠)

١٦٠- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ من نعمه تعالى على بني إسرائيل أن جعلهم فرقاً متميّزة بعدد أسباط يعقوب الاثني عشر، لكي يتنظموا ولا تقع فيهم الفوضى والهرج والمرج، انظر شرح آية [المائدة ٥/١٢] عن بعث النقباء الاثني عشر فيهم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط، وهي نعمة ثانية من نعمه تعالى عليهم في الصحراء القاحلة،

وتقدير الخطاب: فضرب فانبجست، وحذف المعطوف عليه للإشارة لسرعة الامتثال، حتى كأنّ الإيحاء وضرب الحجر أمر واحد، وأن الانبجاس بأمره تعالى، كأنّ فعل موسى لا دخل له فيه (الألوسي)، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ كي لا يقتتلوا على الماء ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ وهي نعمة ثالثة، لأن بني إسرائيل قضوا أكثر من أربعين عاماً في صحراء سيناء، حيث لا شجر ولا ظل يقيهم أشعة الشمس الحارقة، وقد جاؤوا سيناء بأعداد كبيرة بلا استعداد، فلولا معجزة الماء وتظليل الغمام عليهم لهلكوا ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ طعاماً لهم يقيهم المجاعة في الصحراء، وهي النعمة الرابعة المذكورة في هذه الآية، قال بعضهم إنّ المنّ كان يشبه بذور الكزبرة وكانت تنبت بعد هطول الندى على الأرض ليلاً، وبرحمة الله توافرت لهم أيضا السلوى، وهي طيور السمّان بكميات وفيرة أنقذتهم من المجاعة، وقيل إنها كانت طيوراً مهاجرة من إفريقية ولا سيّما مصر، تصل إلى سيناء متعبة فتقع على الأرض أو تسقط فتؤخذ باليد ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ رزقاً إلهياً بلا تعب ولا عمل ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفران كل هذه النعم المذكورة وغيرها من النعم الكثيرة ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ظلموا أنفسهم بمعصيتهم وذنوبهم، وأنّ عاقبة معصيتهم مقتصرة عليهم لا غير، وضرر الكفر يعود عليهم، راجع أيضا آية [البقرة ٢/٥٧]، ويلاحظ الإعجاز في تحقق هذه النعم التنظيمية والمعاشية لبني إسرائيل في ظروف مناخية شديدة الصعوبة، ومن يزور صحراء سيناء اليوم يدرك ضخامة هذا الإعجاز، إذ حتى في ظروف الحضارة الراهنة يعتبر من الصعوبة البالغة تنظيم وتزويد أعداد كبيرة من البشر بالطعام والشراب والمأوى في بيئة سيناء القاسية لسنين طويلة، أضف إلى ذلك أن اليهود جاؤوا إلى سيناء من غير استعداد ولا تحضير مسبق، ثم إنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب، فكانوا محط العناية الإلهية، كل ذلك مما يزيد من فداحة ظلمهم الذي تشير إليه الآية، بسبب كفرانهم كل هذه النعم الإلهية.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٦١)

١٦١- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ القرية هي المدينة أو المجتمع أو البلد، والعرب تسمّي المدينة أو المجتمع قرية، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف ٣١/٤٣] أي مكة والطائف، أو فارس والروم، وفي هذه الآية يبدو أن الإشارة لفلسطين، والسكن من السكون، فيكون الأمر بالسكنى متضمناً معنى المسالمة والموادعة والمساكنة مع باقي الناس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي تمتّعوا من خيراتها، وهي نعمة خامسة بعد النعم الأربعة المذكورة في الآية السابقة ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي استغفروا ربّكم، وادعوه أن يحطّ عنكم خطاياكم، وتقدير الخطاب: حاجتنا حطّةٌ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ادخلوا فلسطين متواضعين خاشعين لله تعالى، مستغفرين تائبين، وكونوا قدوة لغيركم من الناس حتى يدخلوا في الدين أفواجاً، مثلما دخل النبي ﷺ مكة وقت الفتح، ومثلما فعل المسلمون عندما دخلوا البلدان المفتوحة بعد فجر الإسلام ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ نتجاوز عنها ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نزيدهم إحساناً وأجراً وثواباً.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٢)

١٦٢- بعد تعداد بعض نعمه تعالى عليهم في الآيتين السابقتين، تبيّن الآيات (١٦٢-١٦٩) جحود بني إسرائيل بالإنعام وعقوبتهم عليه ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ عصوا ما أُمروا به قولاً وفعلاً، فبدلاً من دخول فلسطين متواضعين مستغفرين تائبين جديرين بحمل الرسالة الإلهية، انظر آيات [البقرة ٢/٥٨-٥٩]، فقد عاثوا فيها الفساد، وأعملوا في أهلها التقتيل، وارتكبوا من الفظائع والأعمال الوحشية واستخدموا من فنون الغدر والإرهاب في ترويع السكان الآمنين، كل ذلك مما هو مدوّن في كتبهم التي سطّرها أحبارهم،

وأطلقوا عليها اسم العهد القديم، ومن ضمنها ما يزعمون أنه التوراة، بعد أن درسوا ما فيها أي تعلّموه ثم درسوه أي محوه (الآية:١٦٩)، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عقاباً لهم، والرجز هو العذاب، وهو التشريد والتقتيل والاضطهاد الذي لحق بهم على مر العصور انظر [المائدة ٥/٣٣]، ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي بسبب ظلمهم، لأنه تعالى شرّفهم بحمل الرسالة الإلهية فطغوا وتجبّروا.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٣)

١٦٣- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير أنه سبق لأحدادهم تجاوز شريعتهم، وهم قد درجوا على طريقة أسلافهم في المعصية، والقرية حاضرة البحر بمعنى الواقعة على شاطئه، وقيل إنها أيلة -العقبة اليوم- أو طبريّة ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يعتدون أيام السبت بالقيام بصيد الأسماك، وكانت الشريعة الموسوية متشددة في تحريم العمل يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ الحيتان هي الأسماك، كبيرة كانت أم صغيرة، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة، ويبدو أن الأسماك اعتادت ألاّ يتعرض أحد لصيدها أيام السبت فأمنت وصارت تبدو فيها بشكل ظاهر، فلمّا رأوا ظهورها وكثرتها أيام السبت أغراهم ذلك بصيدها ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ لا تأتيهم يوم ينتهكون حرمة السبت ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ نختبرهم لتظهر معصيتهم ظهور فعل ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ كي يكون الجزاء مرتّباً على ظهور معصيتهم وأفعالهم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤)

١٦٤- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ وهي طائفة منهم يبدو أنها لم تشترك في انتهاك حرمة السبت، ولكنها في نفس الوقت لم تعترض ولم تلم الآخرين عليه، وخطابها موجّه إلى طائفة أخرى من الصالحين الذين ألزموا أنفسهم بالوقوف في وجه الخطأ والوعظ ضدّه، وقد سبقت الإشارة إلى أمثال هؤلاء في الآية (١٥٩)، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي ما الجدوى من الوعظ لأمثال هؤلاء الناس المصمّمين على المعصية، فإن مصيرهم الهلاك، والوعظ لا ينفع فيهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لتماديهم في الشرّ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي حتى نعتذر إلى ربّنا بأننا لم نسكت على المنكر، وهو جواب الطائفة الأخرى، والسكوت على المنكر يقارب القبول به، ويلحظ أنه في إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين نوع من التعريض بالسائلين ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سوء العاقبة، أي لعلّ الذكرى تفيدهم أو تفيد بعضهم، فإنّنا نطمع في ذلك ولا نقطع الأمل منه، وهذه الآية ذات مغزى خاص لكل المؤمنين في كل الأزمنة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥)

١٦٥- ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم، لأن النسيان بهذا المعنى مَجاز عن الترك ويشمل عدم المبالاة ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي أنجينا الذين ينهون عن العمل الذي تسوء عاقبته ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد يسبب البؤس ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم المستمر، ولم تذكر الآية مصير الذين تساءلوا عن جدوى الوعظ والتذكير والنهي عن السوء، وسكتوا عن الخطأ، ولعلهم من أصحاب الأعراف المشار إليهم في الآية (٤٦)، إذ كانوا على معرفة بالحق والباطل فلم يفعلوا شيئاً للنهي عن الفساد.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦)

١٦٦- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لمّا تكبروا عن ترك ما نُهوا عنه، رغم العذاب الشديد الذي نزل بهم، ولم يزدهم العذاب إلاّ إصراراً على الكفر والفسوق ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ وردت الإشارة لذلك أيضا في آية [البقرة ٦٥/٢]، قال بعض المفسرين إن أشكالهم صارت تشبه القردة، وقيل بل التحول إلى قردة بالمعنى المجازي، أي صاروا كالقرود مجرّدين من السمو الروحي الذي يتمتع به البشر، وأنه تعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم، فلم يوفّقوا لفهم الحق، وليس أنه مسخ صورهم، وهو شبيه بقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥/٦٢]، ولأنّ الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور البينات فالعرب تقول عنه مجازاً أنه حمار أو قرد ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي ذليلين مطرودين، وهذا العقاب ليس لانتهاكهم حرمة السبت فقط وإنما بنتيجة معاصيهم المستمرة، والدليل على كونهم قردة خاسئين أنّ سلوكهم عبر التاريخ وتجاه غيرهم من الأمم لا يخلو من السمو الروحي فحسب، بل هو سلوك العنصرية المقيتة المحضة، فهم يسمّون باقي البشر أغياراً ويعتبرونهم صنفاً دونيّاً من الناس، ونصّوا على استعبادهم واستغلالهم في كتبهم التلمودية وفي توراتهم وفي كتب العهد القديم التي يسمّونها مقدسة والتي حرّرها أحبارهم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧)

١٦٧- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ تأذّن أي حمل معلوماً، وذلك بعد نزول العذاب البئيس بالذين ظلموا منهم، وبعد مسخهم قردة خاسئين ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي ليسلطنّ على الذين بقوا مصرّين على المعصية منهم، من يعذّبهم في الدنيا إلى يوم القيامة، وقد تكررت الإشارة إلى ذلك في آية [المائدة ٣٣/٥]، وهذه الآية من قبيل الإخبار بالماضي والمستقبل، ومن سوء العذاب الذي حلّ باليهود تاريخياً: أولاً: سقوط مملكة إسرائيل بعاصمتها

شكّيم (نابلس) بيد ملك آشور سرحون الثاني عام ٧٢١ ق.م، ثم سقوط مملكة يهوذا بعاصمتها القدس بيد ملك الكلدانيين نبوخذنصّر عام ٥٨٦ ق.م، ثمّ نفي اليهود إلى بابل الذي استمر قرابة خمسين عاماً، ثم معاناتهم المريرة مئات السنين تحت حكم الفرس واليونان والرومان بعد عودتهم من النفي، ثم بعد أن رفضوا آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام وحاولوا قتله تمّ إجلائهم عن فلسطين عام ٧٠ م على يد القائد الروماني تيطس قبل أن يصبح إمبراطوراً، ثم تمّ تخريب معالم القدس والهيكل تماماً وقتل وشرد من بقي من اليهود على يد إمبراطور روما هادريان عام ١٣٥م، فكان ذلك بداية نفيهم وشتاتهم في أنحاء العالم، ثم كان نفيهم من جزيرة العرب بعدما حاربوا النبي ﷺ وتآمروا عليه، ثم كانت معاناتهم قهر الأمم واضطهاد المسيحية لهم في أوروبة منذ ذلك الحين حتى العصر الحديث على يد النازيين، كل هذا الواقع يعتبر أيضاً مصداقاً لما جاء في آيات [الإسراء ١٧/٤-٨]، ومصداقا لقوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة ٥/١٣] أي أبعدهم تعالى من رحمته، ولا عبرة بإنشاء دولتهم ولم شمل عدد كبير منهم في فلسطين في العصر الحاضر فإن عذاب الله محيط بهم ما داموا على كفرهم ومعصيتهم، والعبرة أن يغير المسلمون ما بأنفسهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للأمم التي تفسق عن أمره وتفسد في الأرض ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨)

١٦٨- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرقناهم تفريقاً شديداً، فهم مبعثرون في أنحاء الدنيا ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ كالمشار لهم في الآية (١٥٩) فلا يأخذهم تعالى بجريرة قومهم ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ دون منزلة الصلاح، ومنهم المغالون في الكفر بالأنبياء وفي الضلال والتعصب ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي إنه تعالى اختبرهم بالحسنات من مختلف النعم ترغيباً لهم، وبالسيئات من الشدائد للترهيب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الصواب فيتوبون.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩)

١٦٩- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ من الأحيال التي جاءت بعدهم ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، يعلمونها على حقيقتها ولا يعملون بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ يفضّلون حطام الدنيا مهما خالفوا الشريعة في سبيل الوصول إليها، والأدنى هي الدنيا لدنوّها أي قربها منهم ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ المعنى سيغفر لنا ما نرتكبه من الشرور والآثام والخطايا، مهما تهالكنا على الحياة الدنيا ومتاعها، وهذا القول ناتج عن اعتقادهم أنهم الشعب المختار وأنهم العرق المتفوق المستعلي على البشر، وأن المغفرة مضمونة لهم بمجرد كونهم من سلالة إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ يصرّون على الذنوب ويعودون إلى مثلها غير تائبين عنها في الوقت الذي يرجون المغفرة ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ ليس في التوراة ما يؤيد اعتقادهم أن ذنوبهم مغفورة مهما بالغوا في المعاصي، فكيف يتحدّون من معتقداتهم التي ابتكرها الأحبار مبرراً شرعياً لتصنيف البشر إلى يهود وأغيار؟ ويبتدعون معايير أخلاقية -غير أخلاقية- مزدوجة، واحدة لهم والأخرى للأغيار؟ ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ درسوا كتاب التوراة وعلموا ما فيه ولم يعملوا به، وأيضاً درسوا ما فيه أي محوه وأضاعوه حتى اندرس، كقولهم درسته الريح أي محته، وقولهم درس الأثر أي زال، وهذا المعنى أقرب لواقع اليهود الفعلي، فالموجود من كتبهم بين أيدينا اليوم معظمه من تحرير الأحبار وافترائهم، وهو غاص بروايات الفحش والمنكرات والتعصب والاستخفاف بالقيم والأخلاق من كتاباتهم، انظر شرح [الأعراف ١٢٩/٧] و [آل عمران ٣/٣] و [المائدة ١٣/٥]، والخلاصة أنهم في آن واحد درسوا ما في الكتاب أي تعلموه، ثم درسوه أي محوه وكتبوا غيره ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي إنهم قد علموا أن ما أعدّه تعالى

من النعيم في الدار الآخرة، للذين يتقون المعاصي، خير من حطام الدنيا الذي يحصلون عليه بالغش والخداع والباطل والربا والرشوة ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ حث على استخدام العقل، لأن العاقل لا يخدع نفسه بظنّ التوفيق بين الكفر والمعاصي وبين المغفرة، كما لا يرجّح الحطام العاجل الزائل على النعيم الدائم.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠)

١٧٠- ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ الذين يتمسّكون بالعمل بما في حقيقة التوراة، وليس كتابات الأحبار، ولا يتمسكون بأوهامهم وتمنياتهم التي تخوّل لهم عمل ما يريدون من الباطل ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ يقيمون العبادات بالإضافة للعمل الصالح المذكور آنفاً ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فهؤلاء يلقون ثواب أعمالهم ولا تذهب أعمالهم سدى، وهم المشار إليهم في الآية ﴿١٥٩﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١)

١٧١- ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ النتق هو الزعزعة، فيكون المعنى أن الجبل تزلزل بهم، انظر آيتي [البقرة ٢/٦٣،٩٣]، وآية [النساء ٤/١٥٤]، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لشدة زلزلته واضطرابه ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي متمسكين بالكتاب عازمين على تحمل ما فيه من التكاليف ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الحكمة والعلم والثواب والعقاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والمعاصي وعواقبها، والدلالة المستفادة من هذه الآية هي عتو بني إسرائيل وتمردهم على موسى حتى أنه لزمهم معجزة نتق الجبل، وغيرها من المعجزات الحسية كثير، حتى آمنوا.

وبهذه الآية تنتهي قصة بني إسرائيل في هذه السورة، ويلاحظ أن العبر المستخلصة منها تنطبق على بني إسرائيل إلى يومنا هذا، من حيث سلوكهم وإفسادهم، رغم كل المعجزات المادية والبينات الفكرية التي جاءتهم، ولذا فإن

المقطع التالي من السورة ينتقل من العهد الخاص المأخوذ على بني إسرائيل، إلى العهد العام المأخوذ على البشرية قاطبة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢)

١٧٢- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي واذكر أيها الرسول ما أخذه الله تعالى من ميثاق الفطرة على الناس عامة، إذ يأخذ الذريّة من الأصلاب قبل ولادتها ويودع فيها فطرة الإسلام وغريزة الإيمان، فجعل ذلك من المدارك الضرورية في عقول البشر ابتداءً ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ المعنى أنه تعالى أوجد في النفوس فطرة الإيمان، وأنّ الإقرار لله تعالى بالربوبية وبالتوحيد مغروس في الاستعداد والفطرة مسبقاً ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أي أوجدنا فيكم هذا الاستعداد المسبق للتوحيد، منعاً لاعتذاركم يوم القيامة أنكم كنتم غافلين عن التوحيد وعن الربوبية، والمعنى أن الاعتذار بالجهل لا يكون مقبولاً يوم القيامة، وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة» وهو مطابق لهذه الآية، والآية أيضاً تفيد حرية الخيار لبني آدم في اتباع الفطرة أو مخالفتها.

وفي ذلك يقول الكاتب السويسري الشهير فريذهوف شون Frithhof Schuon "إن الحقيقة منقوشة منذ الأزل في ذواتنا، وما يفعله الوحي أنه يبلور أو ينشّط بدرجات متفاوتة حسب الحالة، نواة من المفاهيم اليقينية الكامنة في جوهر الفرد، كما هي كامنة في كل مجموعة عرقية، وفي كل مجتمع في التاريخ، وفي الجنس البشري ككل".

ولهذا السبب سُمّي القرآن ذِكراً لأنه يذكّر الإنسان بالعهد الفطري المأخوذ عليه، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ٥٤/١٧]، وكذا كل وحي نزل على الأنبياء كما في الآيات (٦٣ و٦٩).

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣)

١٧٣- ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ كي لا تقولوا إنّا كنّا جاهلين أن شرك الآباء والأجداد باطل ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وكي لا تقولوا نشأنا على ما كانوا عليه وقلّدناهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الاعتذار بالجهل، وبتقليد الآباء والأجداد لا يُقبل، بعدما أقام تعالى عليهم حجة الفطرة ونعمة العقل والبصائر، فعلى الإنسان إدراك التوحيد بعقله، والآية نص واضح ببطلان التقليد.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤)

١٧٤- ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل والإيضاح البليغ، نبيّن لهم الحقيقة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّهم يستعملون عقولهم فيرجعون عن الانقياد للجهل، وعن تقليد ما توارثوه من معتقدات خاطئة، والآيات (١٧٢-١٧٤) دالّة على أنّ من لم تبلغه بعثة رسول لا يُعذر يوم القيامة إن كان مشركاً، أو مرتكباً للفواحش التي تنبذها الفطرة السليمة وتدرك العقول فسادَها، وإنما يُعذر بترك ما جاء به الرسل فيما شأنه ألاّ يُعرف إلاّ منهم، وهو أكثر العبادات التفصيلية (المنار).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥)

١٧٥- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ هذه الآية تضرب مثلاً على ما سبق من أخذ الميثاق على ذرية آدم وإقرارهم بالربوبية والتوحيد سلفاً، والمعنى أتلُ عليهم أيها النبي مَثَلَ مَن أوتي الفطرة السليمة والبصيرة النافذة والعقل، وكانت لديه القناعة الداخلية والمعرفة التامة بصحة الآيات والكتب والوحي، ومع ذلك انسلخ عنها، أي أنكرها لشدة تعلقه بالعصبية والتقليد، أو قَبِلها ولم يعمل بموجبها، بل كان عمله مخالفاً لعلمه، بسبب خداع النفس

والتهالك على الدنيا ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ كان من نتيجة انسلاخه عن العلم واليقين الذي هو عليه أنْ أدركه الشيطان بالوسواس السيئ (الآية ١٧) ﴿فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾ من الضالين المفسدين الخائبين، والواضح أن الآية لا تشير لشخص معين من الناس، وإنما لكلّ من يتجاهل الآيات وينسلخ عنها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦)

١٧٦- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي لرفعناه بالآيات التي عَلِمها واستوعبها، بأن ألزمناه اتباعها طوعاً أو كرهاً، ولكن ذلك مخالف لسنتنا في أن يكون لبني آدم حرية الخيار ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ اختار أن يميل إلى الدنيا وإلى المادة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ مفضّلاً الدنيا والهوى على الالتزام، وعلى تحقيق الذات والسمو الروحي، أو مفضّلاً العصبية والتقليد على الإقرار بالحقيقة ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ سواء عليه إن جاءته الآيات فصار عالماً موقناً بها، أم لم تأته الآيات فبقي جاهلاً، فالنتيجة العملية واحدة بالنسبة إلى أمثاله، لأنه في جميع الأحوال يلهث حريصاً وراء المادة ووراء نزواته ورغباته الدنيوية المباشرة، مثل الكلب الذي يلهث في حالة الراحة أو التعب، أو في حالة الشبع أو الجوع، أو في حالة الشرب أو العطش ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم بنو إسرائيل، جاءتهم الرسالة الإلهية والآيات المعجزات فلم يستفيدوا منها ولم يعتبروا بها، سواء عليهم جاءتهم أم لم تجئهم ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي فاقصص، أيها الرسول للناس مثل هذه القصص البليغة لعلهم يأخذون العبر منها، ولعلهم يراجعون الفكر والعقل فيما ينبغي أن يختاروا من سبيل في حياتهم، ولعلهم يتفكّرون فيما فُطروا عليه من الفطرة السليمة، وترجيح الفكر السليم على الهوى، ولعلهم يتفكّرون في التعامل مع بني إسرائيل، ولعلّ بني إسرائيل يرجعون عن غيّهم.

﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

١٧٧- ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ساء مَثَلاً مَثَلُ المكذّبين بالآيات، لأن من أسوأ الأمور التكذيب بالآيات بعد أن استيقنتها النفوس، انظر آية] النمل ١٤/٢٧]، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أسوأ ما في الأمر أنهم بالتكذيب بالآيات يظلمون أنفسهم قبل غيرهم، والأسوأ أنهم على علم بصحتها، أو لديهم المقدرة على إدراك صحتها.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

١٧٨- ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذه الآية نتيجة منطقية لما سبق من الآيات (١٧٢-١٧٧)، بأن من يختار اتباع الفطرة والآيات فهو المستفيد من الهدي الإلهي، وأما من يختار مناقضة الفطرة والمكابرة وتجاهل الآيات، كما هو مبين في الآية التالية، فيضلّ عن السبيل وتؤول عاقبته إلى الخسران في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩)

١٧٩- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي نشرنا لجهنم لأن معنى الذرء: النشر والبث، ومنه الذاريات أي الرياح، انظر آية [الكهف ٤٥/١٨]، ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أي بنتيجة انسلاخهم عن الآيات (١٧٥)، اختاروا ظلم أنفسهم بالتكذيب بها، مصيرهم إلى جهنم، وهم ذوو الصفات التالية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لا يستفيدون من مَلَكة الفكر في فهم الحقيقة والدلائل والآيات وسنن الله تعالى في خلقه، فهم لا يفقهون ما تصلح به نفوسهم من التوحيد والابتعاد عن الخرافات والأوهام، ولا يفقهون ترك الشرور والمنكرات والحرص على الفضائل وأعمال الخير، ولا يفقهون أسباب النصر على الأعداء من معنوية وأخلاقية واجتماعية ومادية ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لا يبصرون إبصار

اعتبار ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لا يسمعون الآيات والمواعظ سماع تأمّل وتفكّر موضوعي، بل يسمعون سماع جهل أو تعصب وتحيز مسبق، أو يسمعون مجرّد سماع حسّي بلا فهم، والخلاصة أنهم لا يستخدمون ملكاتهم العقلية فيما يفيدهم ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾ لأن الأنعام تجري وراء الغرائز والحاجات الطبيعية فقط، وليست في خيار أخلاقي بين الخير والشر، والصواب والخطأ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن لدى الإنسان من المقدرة على التفكير المجرد، والتمييز بين الخير والشر، ما ليس للحيوانات ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة، أو المستحقون حقاً لصفة الغفلة، لأنهم غافلون عن الحقيقة رغم مقدرتهم على الإحاطة بها والعمل بموجبها، وغافلون عن ذكر الله تعالى وعن دعائه بأسمائه الحسنى، وذلك من فساد الفطرة وإهمال مواهبها من العقل والحواس، بل إن بعضهم يلحد في أسمائه تعالى كما سيرد في الآية التالية:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

١٨٠- ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الحسنى مؤنث أحسن، ومعنى الآية يفيد الحصر، أي إن الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى فقط وليست لغيره، وهي جميع الأسماء الدالّة على الكمال وأحسن المعاني والصفات، وروى الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين إسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة"، وفي سرد الأسماء اختلاف في الروايات، وقد اختُلف في هذا العدد هل المراد به حصر الأسماء الحسنى أو أنها أكثر من ذلك، والجمهور على أنه ليس في الحديث ما يدل على أنه ليس لله تعالى إلا هذه الأسماء، وإنما معنى الحديث أن من أحصاها دخل الجنة، والمتبادر أن ليس المقصود بمجرد الإحصاء العددي لها، وإنما التفكر بمدلولاتها وعدم الغفلة عنها بما يؤدي إلى الإيمان والعمل ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ نادوه بها، في الذكر والثناء والدعاء، كي لا تكونوا من الغافلين المذكورين آنفاً ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ دعوهم ولا تبالوا بهم، ومعنى الإلحاد في اللغة الميل والانحراف عن

الحق والاستقامة، ومن ذلك إطلاق أسماء الله تعالى على الأوثان مثل اللات والعزى ومناة، اشتقوها من الله والعزيز والمنّان، ومن ذلك أيضاً تسميته تعالى بما لا يجوز كزعمهم أنه الأب أو الإبن ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دعوا الذين يلحدون في أسماء الله فإنهم سوف يلقون جزاءهم إنْ في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

١٨١- ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يهدون الناس بالحق ﴿وَبِهِ﴾ بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ في التعامل مع الناس، وهذه الآية عطف على آية :﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾، وكلتاهما تفصيل لقوله تعالى ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)، وقد تقدم مثل هذه الآية في الكلام على قوم موسى (الآية ١٥٩)، وهذه الآية أعمّ إذ تشمل الناسَ قاطبةً في كل الأزمنة والمجتمعات، وبعد البعثة الإسلامية تشمل الذين استجابوا لدعوة الإسلام وعملوا بموجبها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢)

١٨٢- بعد أن ذكر تعالى حال الأمّة الهادية العادلة، أعاد ذكر المكذّبين المذكورين آنفاً في الآيات (١٧٦-١٧٧) لتفصيل كيفية إصرارهم على التكذيب: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم تنفعهم هداية الهادين ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون عاقبة أمرهم، والمعنى أنه تعالى يمهلهم لكي يتوبوا، ولا يعاجلهم بالعقوبة، وقد يغدق عليهم نعم الدنيا فيغرّوا بها وتلهيهم عن شكر المنعم، مع أن النعم مدعاة لشكره تعالى، ولكنهم يغفلون ويظنّون أن النِعم محض استحقاق لهم بجدارتهم لا غير، ويسترسلون في ضلالهم من حيث لا يدرون عاقبة أمرهم، بسبب جهلهم سنن الله تعالى التي مضت في خلقه أن الحق يدمغ الباطل، والاستدراج بمعنى النزول درجة درجة، حتى إذا أخلدت الأمة، أو المرء، إلى الأرض واستغرقت في المعاصي صارت أسفل سافلين فيزول

سلطانها ودولتها، وأما الأفراد فقد يتأخر عذابهم ويُرجأ إلى الآخرة، وقد ينالهم في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣)

١٨٣- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أبقيهم مع إصرارهم على التكذيب، ولا أعاجلهم بالعقوبة، وأطيل مدّة أعمارهم لعلّهم يعودون بالتوبة، لأن الإملاء في اللغة هو الإمهال وإطالة الأمد، ونقيضه الإعجال، والمليّ زمان طويل من الدهر، ومنه قوله تعالى ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم ١٩/٤٦]، أي طويلاً ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ الكيد كالمكر وهو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره، ممّا يخدع المكيد له إن لم يكن فطِناً، فلا يقلع عن المعاصي، وأكثر الكيد احتيال مذموم، ومنه المحمود الذي يقصد به المصلحة، وفي الحديث: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤)

١٨٤- بعد أن ذكر تعالى الميثاق الذي أخذه على ذرية آدم وما أودعهم من الفطرة، وهيّأ لهم سبل الهداية، ورغم ذلك فإن بعضهم أخلد إلى الأرض وكذّب بالآيات، وأنه تعالى يستدرجهم ويملي لهم ويمهلهم، عاد إلى الجواب على شبهاتهم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ والكلام عن مشركي مكة أولاً، وعن الكفار عامةً، والمعنى ما عليهم سوى أن يتفكّروا بصورة موضوعية في سيرة النبي ﷺ حتى يوقنوا أن دعوته الناس إلى الإسلام لا تنطوي على أي نوع من أنواع الجنون، وأن مخالفة أسلوب تفكيرهم وعباداتهم ليست جنوناً، وقوله ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ يوجب ألاّ يكون به أي نوع من أنواع الجنون كما زعموا، وصاحبهم هو النبي ﷺ، والتأكيد على كونه صاحبهم لأنه معروف منذ نشأته في قومه وعرفوا أخلاقه وطباعه وأمانته ممّا يستحيل أن يكون موضع شك، وهو في الوقت نفسه تأكيد على كونه بشراً لئلا ينزلق أتباعه في رفعه فوق منزلة البشر كما سيرد تأكيده في الآية (١٨٨)، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ نذير لهم

عما كانوا غافلين عنه، مبيّناً لهم بالآيات ما عميت بصائرهم أو تعامت عن رؤيته.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥)

١٨٥- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ليتفكّروا في معجزة العوالم والأفلاك التي لا نهاية لها، مع أن العقل لا يدرك منها إلا الشيء المحدود ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وليتفكّروا في مخلوقات الله على اختلاف أنواعها والإعجاز فيها، فكل هذه الأفلاك والمخلوقات لها مُسبِّب، وكان لها بداية، ومن ثمّ لا بد أن يكون لها نهاية، فهي ليست أزلية، ويستحيل أن تكون أوجدت نفسها من العدم، لأن فكرة العدم لا تنطوي على حقيقة، ولا بدّ أن يكون هنالك خالق ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ لعلّ آجالهم اقتربت فيموتون على الكفر والتكذيب، وينتهون إلى الحساب والعذاب، فلينظروا في ذلك ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ لا عذر لهم بعدم الإيمان، بعد هذا القرآن المعجز، فالضمير في ﴿بَعْدَهُ﴾ يعود إلى القرآن، وقد يعود الضمير في ﴿بَعْدَهُ﴾ إلى أجلهم فيكون المعنى أن إيمانهم بالقرآن لا ينفعهم بعد حلول الأجل.

﴿مَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦)

١٨٦- ﴿مَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ أي إنّ مَن يختر الضلال ويصر عليه بعد الإمهال وطول العمر، ولا ينظر في آيات الوحي المعجزة، ولا يتفكّر في دلائل ملكوت السماوات والأفلاك والمخلوقات، ولا يستفيد من مَلَكة الفكر والعقل، فقد أضلّه الله، لأن سنته تعالى في خلقه اقتضت ارتباط المسبَّبات بالأسباب، فإذا كان الأمر كذلك، فمن يهديه بعد الله؟ والنتيجة أن الإضلال ليس جبراً، وإنّما سببُه الخيار الحر لِمن يتعمد إهمال دواعي فطرته ومقدرته المعرفية، راجع شرح الآية ﴿١٧٨﴾ وآية [البقرة ٢/٦-٧]، ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتركهم تعالى لخيارهم ولا يجبرهم على الهداية جبراً، و معنى يعمهون

أنهم يترددون في الضلال والحيرة ويتكرون لأنفسهم من النظريات وأفكار الضلال، وتفيد الآية أيضاً أن هذه النتيجة مترتبة على طغيانهم في الباطل وفي الكفر والشرور.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

١٨٧- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ وهذا من جملة طغيانهم المشار إليه آنفاً أنهم يسألون عن موعد قيام الساعة، ضلالاً أو تشكيكاً بها ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى تثبت القيامة وتحدث؟ لأن الإرساء هو الثبات، ومنه إرساء السفينة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ علمها لا ينال الرسل والمخلوقات، ولا يقدر على إظهار وقتها المحدد إلاّ الله تعالى ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقعها ثقيل على أهل السماوات والأرض لأن فيها هلاكهم وحسابهم، وهو ثقيل على القلوب، ولو علموا موعدها سلفاً لاضطربت أمورهم ولكان علمها ثقيلاً عليهم ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ فلا تمهل، ويفوت أوان التوبة والإصلاح ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك أكثرت السؤال عنها وبالغت في طلب علمها، لأن الإحفاء هو الإلحاح والإلحاف في السؤال ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وحده، لاقتضاء الحكمة ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون الحكمة من إخفائها، أو يتخبطون في طلب موعدها، أو حسابه بزعمهم.

وهذه الآية نافية للروايات عن الفتن وأشراط الساعة وإماراتها، وما في تلك الروايات من المشكلات والتعارض، فالآية تحدد أن الساعة لا تأتي إلاّ بغتةً، وأنهم يسألون الرسول كأنه حفيّ عنها، في حين أن الأشراط الكبرى الخارقة للعادة المذكورة في الروايات تضع الناس في مأمن من قيام الساعة بغتة قبل حدوث الأشراط كلها، فهم ينتظرون قبلها ظهور المسيح الدجال، والمهدي،

ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة إلخ ...، وهذا الاعتقاد لا يفيد الناس موعظةً ولا خشيةً، ولا استعداداً لذلك اليوم فما فائدة العلم به إذن؟ وهل كان النبي ﷺ يريد بالإخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة قرون عديدة إلى أن تظهر هذه الأشراط؟ أم كان يتوقع ظهورها في قرنه أو ما يقرب منه بدليل ما زعموا من تجويزه ظهور الدجال في زمنه؟ (المنار).

وفي قوله تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد ١٨/٤٧]، ﴿فقد﴾ للتحقيق قبل الفعل الماضي، ما يفيد أن أشراط الساعة قد جاءت وانتهت بنزول القرآن الكريم وبعث خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ وهي الأشراط المقصودة، لأن الساعة لا تقوم قبل بعث الرسول إلى البشرية كافة وهو مغزى بعثته ﷺ، فلم يبقَ بعد البعثة الإسلامية إلا انتظار الساعة أن تأتي بغتةً وهو معنى الآية بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد ١٩/٤٧]، فلا نبيّ بعده ﷺ، وقد تكرر معنى مجيء الساعة بغتةً ثماني مرات في القرآن الكريم.

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨)

١٨٨- ﴿قُلْ﴾ أيها النبي لِمن يسألونك عن الساعة ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تأكيد على أن النبي ﷺ بشر، وأن النفع والضرر يكون بمشيئة الله، وليس بمشيئة البشر من رسل وغيرهم ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ علم الغيب عند الله وحده، وليس لمخلوق أن يكون له نصيب مهما كان في الصفات والمقدرة التي اختص بها الخالق ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهي وظيفة الرسول الوحيدة أن يكون نذيراً بالعواقب وبشيراً لمن لديه استعداد للإيمان، وليس من شأنه معرفة الغيب، ولا جلب المنافع ودفع الضرر إلا بموجب ما تقتضيه سنن الله في خلقه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩)

١٨٩- وهنا تعود السورة للموضوع الذي بدأت منه بالآيات (١١-٣٠) عن خلق البشر واستعدادهم للخير والشر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ خلق تعالى البشرَ كلَّهم من أنفس متماثلة فهي من ثمّ نفس واحدة، أي من جنس واحد ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الزوج في اللغة يطلق على الجنسين فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، والمعنى أنه تعالى خلق زوجها من جنسها، فالزوجين من جنس واحد، انظر شرح الآية (١٩) وآية [النساء ١/٤] ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ سكوناً زوجياً، ينتج عنه الاطمئنان والميل والمحبة والأنس ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كناية نزيهة عن أداء الوظيفة الزوجية، أي لمّا تغشى الزوج الذي هو الذكر، الزوج التي هي الأنثى ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ في أول الحمل لا تكاد المرأة تشعر به ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ ثقل حملها وقارب وقت الوضع ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ أي ولداً صالحاً تام الخَلق والخُلق ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إن آتيتنا ولداً صالحاً نقوم لك بحق الشكر قولاً وعملاً واعتقاداً وإخلاصاً، والكلام عام عن جنس الرجل والمرأة، وليس مختصاً بآدم وحواء، وذلك واضح من الآية التالية بأنهما جعلا لله شركاء فيما آتاهما، ومن الآيات التي تليها عن إصرار أمثال هؤلاء على الشرك.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠)

١٩٠- ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ فلمّا آتاهما ولداً صالحاً ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ جعلا لله شركاء فيما آتاهما من الذرية الصالحة، إذ سرعان ما ينسى الأبوان هذه الهبة والمعجزة الإلهية الباهرة التي نتج عنها خلق الحياة في المولود الجديد، وبدلاً من التفكر في هذا الإعجاز الإلهي وشكره تعالى قولاً وعملاً على هذه النعمة، فإنهما يعتادان على المولود الجديد، ويعتبران خلقه أمراً عادياً بديهياً مسلّماً به، وبدلاً من اعتبار هذه المعجزة دليلاً آخر على وحدانية

الخالق فإنهما ينصّران الولد أو يهوّدانه أو يمجسّانه، كما ورد في الحديث، أو يؤمنان ببعض الخرافات والطقوس، أو ينسبان صحة المولود والولادة لأنفسهما وجدارتهما، أو ينسبان ذلك لبعض الأولياء والصالحين أو القديسين، أو يسميان الولد أسماء مثل: عبد الرسول، أو عبد اللات، أو عبد شمس، أو عبد المسيح .. ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزّه شأنه تعالى، وارتفع مجده، عمّا يشركون شركاً ظاهراً بيّناً، أو شركاً باطناً خفيّاً، واستخدام ضمير الجمع هنا بعد ضمير التثنية في الأفعال قبله دليل على أنّ المراد بالزوجين جنس الرجل والمرأة، وليس فردين بعينهما.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١)

١٩١- ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بعد أن استجاب تعالى لدعائهم وخلق لهم الذرية الصالحة، فكيف يشركون به ما يعجز عن الخلق، بل لا يملك لنفسه جلب المنفعة ودفع الضرر، وهو تنبيه على سخافة تفكيرهم.

﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢)

١٩٢- ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ لا يستطيعون نصر عَبَدتهم، ممّن يستنصرون بهم، لأنهم من اختلاقهم أصلاً فهم أعجز منهم ﴿وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ولا يستطيعون نصر أنفسهم ضد أعدائهم، بل إن عَبَدتهم هم الذين يدافعون عن المعبودين ويحاولون حمايتهم، سواء كانوا من الأفراد المؤلهين، أو الأولياء والأضرحة أو القديسين أو الأوثان.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (١٩٣)

١٩٣- ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ إن تطلبوا منهم الهداية والرشاد، وتقدير الخطاب: إن تدعوهم ليهدوكم إلى الهدى ﴿لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم، ولا يستجيبوا لكم، ولا يهدوكم إلى شيء ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ

صَامِتُونَ﴾ الأمر يستوي، سواء طلبتم منهم الهداية، أم بقيتم على صمتكم دون أي دعاء لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤)

١٩٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ذلك قصارى ما في الأمر أنهم عباد أمثالكم، خاضعون لسننه تعالى في الخلق مثلكم، سواء كانوا من الآلهة المزيفة، أو من الأفراد الموهومين، أو قد يكونوا أقل من ذلك: جمادات أو أوثاناً وأصناماً تزعمون فيهم المقدرة على جلب المنافع ودفع المضار ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في زعمكم أنّ لهم مقدرة على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (١٩٥)

١٩٥- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ إشارة إلى الأوثان أو الأضرحة والأموات الذين يدعونهم ويظنون فيهم من خواص الألوهية ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ قل لهم أيها الرسول، ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أنهم شركاء في الألوهية ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ تعاونوا جميعاً على الكيد لي، ولا تمهلوني، والمعنى أنّ الذين تزعمون أنهم شركاء في الألوهية لا يقدرون على شيء، وفي ذلك إشارة أيضاً إلى الذين اتخذوا العجل معبوداً (الآية ١٥٢).

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦)

١٩٦- تتمة خطاب النبي ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ وحده لا أشرك به شيئاً، فهو المتصرف في الأمور والقادر على كل شيء، وأما الذين تدعون من دونه فلا يقدرون على شيء ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ فبيّن به الحق الذي أنا عليه، من

الباطل الذي أنتم عليه ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين العاملين بموجب كتابه، فيتولّى أمورهم ويهديهم ويستجيب لدعائهم.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ (١٩٧)

١٩٧- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ استمرار الخطاب، والمعنى أنّ وليّ الله الذي نزّل القرآن، فلا أبالي بشركائكم الذين تدعون من دونه، فهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فضلاً عن نصركم.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨)

١٩٨- ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا﴾ إن تدعوهم ليهدوكم إلى الهدى لا يسمعوا دعاءكم ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ لأنهم جمادات من أصنام وتماثيل، أو هم بمثابتها إن كانوا أفراداً مولّهين، والمعنى كيف يهدونكم وهم غير مهتدين؟ فإنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فإنهم أقرب إلى الإضلال واستغلال الآخرين.

ويحتمل المعنى أيضاً أن يكون ضمير الغائب عائداً على المشركين والكفار الذين صمّموا على الكفر، أي إن تعرض عليهم الهداية لا يقبلوا، وترى المشركين والكفار ناظرين إليك في الوقت الذي فقدوا بصيرتهم، فلا يفقهون الحجج، غير أن هذا الاحتمال لا يستقيم مع النظم.

﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)

١٩٩- هذه هي الخلاصة في طريقة الدعوة، والتعامل مع الناس، وهي جامعة لمكارم الأخلاق: ﴿خُذْ الْعَفْوَ﴾ أي خذ الميسور من أخلاق الناس ولا تستقصِ منهم، قال الزمخشري العفو ضد الجهد، والأخذ مجاز عن القبول والرضا، أي إرضَ من الناس ما تيسّر من أفعالهم وأخلاقهم، وما أتى منهم، وتسهّل من غير كلفة ولا تداقّهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم، حتى لا ينفروا،

كقوله ﷺ: ((يسّروا ولا تعسّروا))، والمقصود ترك التشدد ونفي الحرج في التكليف، والرفق واللطف في الدعوة وفي المعاملة، والتخلق مع الناس بالخلق الحسن، والتسامح وترك الغلظة والفظاظة ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وهو المعروف الجميل من الأفعال الذي تعارفه الناس من الخير، أي ما يستحسن في العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة، وهو العرف غير المعارض بالنص، ويختلف باختلاف الشعوب والبلاد والأزمنة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا تقابل السفهاء بمثل سفاهتهم، وكنْ حليماً معهم وغضّ ما يسوؤك منهم، وارتباط الآية بما قبلها يفيد أنه يجب معاملة الناس بأسلوب العفو واليسر والإعراض عن الجاهلين، بمن في ذلك المشركين.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠)

٢٠٠- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ مَلْك الغضب بالإنسان إذا استفزّه الجاهلون، المشار إليهم آنفاً، بما يثير الغيظ والغضب، وفي تلك الحالة ينزغه الشيطان ويحثّه على فعل ما لا ينبغي، والنزغ في الأصل إدخال الإبرة أو طرف العصا أو ما شابه في الجلد، وهو مجاز أطلق على وسوسة الشيطان، حيث شبّه الوسوسة والإغراء بغرز السائق في جلد من يسوقه، كأنه الحث على الجهل والمعاصي ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وهو علاج نزغ الشيطان، بأن يلجأ المرء إلى الله تعالى ويستجير به، فيقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، مستحضراً معناها في قلبه، وفي معنى الآية تحذير من الغضب، ولذا كرر ﷺ النهي عن الغضب كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال لرجل طلب أن يوصيه: "لا تغضب" فردّد مراراً، فقال "لا تغضب" ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الله تعالى يسمع الاستعاذة ويعلم ما في الضمير، وهو دليل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلاّ إذا استحضر المرء معناها الحقيقي في القلب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)

٢٠١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الجهالة والغضب ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ مسّتهم وسوسة من الشيطان تغريهم بالحمية الجاهلية وبالغضب وبالمعصية، -والطائف اسم فاعل مِن طاف بالشيء إذا دار حوله- والآية جعلت الوسوسة طائفاً للإشعار بأنها وإن مسّت المتقين فإنها لا تؤثر فيهم، فكأنها طافت حولهم و لم تصل إليهم، وفي ذلك عودة إلى موضوع الآية (١٧)، ﴿تَذَكَّرُوا﴾ تذكّروا ما أمر الله به وما نهى عنه، أو تذكّروا أنّ الطائف من وسوسة الشيطان، أو تذكّروا الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ مبصرون لمواقع الخطأ، مبصرون غير غافلين، يحاسبون أنفسهم، فتزول عنهم وساوس الشيطان، وقد ذكر الرازي أن الطائف من الشيطان يطلق أيضاً على الغضب، وقالوا إن الطيف في كلام العرب الجنون، ثم قيل للغضب طيف، لأن الغضبان يشبه المجنون، وأنه إذا تذكّر الاستعاذة يحصل له الاستبصار والانكشاف والتحلّي، ويتخلّص من وسوسة الشيطان، فيعمل بما أمر الله به من ترك إمضاء الغضب، وترك الإيذاء والانتقام، واختيار العفو،

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢)

٢٠٢- ﴿وإخوانهم﴾ أي إخوان الشياطين، وهم غير المتقين، بالمقابلة مع المتقين المذكورين آنفاً، وتسميتهم إخوان الشياطين مجاز لأنهم مثلهم ﴿يَمُدُّونهم في الغيّ﴾ الشياطين يمدّون غير المتقين، أي يكونون مدداً لهم بتقوية الوسواس والحض على الجهالة ﴿ثم لا يُقصرون﴾ الشياطين لايكفّون عن الوسوسة وإضلال غير المتقين حتى يصرّوا ولا يرجعوا، وفي الوقت نفسه فإن غير المتقين لا يكفّون عن العمل بالمعاصي، أي يزداد المُغوي إضلالاً، ويزداد الغاوي ضلالاً.

ويُحتمل أيضاً أن يكون معنى إخوانهم: الإخوان الجاهلين غير المتقين، فهم يريدون الدخول مع المتقين في جدل ومناقشات عقيمة، وقد يستفزونهم إلى الغضب ولعمل ما لا ينبغي، ويحاولون استدراجهم إلى الخطأ والمعصية، فالذين

اتقوا، إذا مسّهم مثل هذا الطائف من شياطين الإنس والجن، تذكّروا فإذا هم مبصرون غير غافلين عن مواطن الخطأ، فلا يستحيبون للاستفزاز ولا يغضبون، ولا يقصرون عن عمل الخير في كل الأحوال، وهذا واجب المسلمين عامة والدعاة خاصة، فيكون تقدير الخطاب: ومع أن إخوانهم يمدونهم في الغي فهم لا يقصرون في عمل الخير، وقوله ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد أن صاروا مبصرين.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣)

٢٠٣- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ إن لم تأت لهم، أيها الرسول، بالمعجزات المادية الخارقة التي يطلبون، أو لم تأتِ لهم بآيات من الوحي، حسبما يقترحون، وفي الوقت الذي يريدون ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قالوا لمَ لا يجيء بها إن كان رسولاً حقّاً، وهو قول المشكّكين في الرسالة، وقد يكون هذا قولهم مدة فتور الوحي الذي استمر ثلاث سنوات، وهذا من جملة إمداد الشياطين لهم بالغيّ كما هو مذكور آنفاً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي أنني بمجرد بشر عاجز مثلكم، وإنّما أبلّغكم الوحي عن ربّي، وليس لي أن أبدّله أو أحتبيه من تلقاء نفسي ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هذا القرآن المُعجز بمنزلة بصائر للعقول، وحجج بيّنة لمن يستخدم مَلَكة الفكر والعقل، وفي الآية إشارة أنّ ذوي العقلية البدائية في جميع الأزمنة- يصرّون لإثبات النبوّة على مشاهدة معجزات مادية يلمسونها بحواسّهم، عوضاً عن تقويم الرسالة من حيث مضمونها وجدارتها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ القرآن هدى ورحمة للذين يختارون الإيمان.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

٢٠٤- ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي بما أن القرآن بصائر للعقول، وهدى ورحمة للمؤمنين، فاستمعوا لما فيه من الحجج البيّنات، استماع تفهّم وتفكّر، واعملوا بموجبها، فالاستماع بهذا المعنى يكون مَجازاً، أي ليس بمجرّد السماع الحسّي بالأذنين، والخطاب

موجّه للذين يطلبون المعجزات المذكورين آنفاً كما هو موجه للمؤمنين ﴿وَأَنصِتُوا﴾ لكي تمعنوا الفكر بمعانيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لعلكم تعملون بما يوجب الرحمة، إذا كان استماعكم عن تفهم واستيعاب وتفكّر وقبول وعمل، وفي تفسير المنار أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلاّ بكثرة قراءة القرآن واستماعه، وأنه ما آمن أكثر العرب في أول البعثة إلاّ بكثرة الاستماع إليه وفهمه.

وقد ذكر الرازي أن ليس المقصود حمل الآية على ظاهرها بمعنى وجوب الاستماع والإنصات في أي موضع قُرِىء القرآن، لما في ذلك من حرج كبير للمكلّفين، وفي روح المعاني أنه إذا كان رجل يكتب الفقه وبجنبه رجل يقرأ القرآن فلا يمكنه استماع القرآن فالإثم على القارئ، ولو قرأ على السطح في الليل جهراً والناس نيام يأثم، وهذا ينطبق على القراءة من المآذن في هذه الأيام، والنتيجة أنّ الأمر بالاستماع والإنصات لغرض التفكر والتدبّر وإعمال العقل، بعدما جاءت الآية السابقة تقرر أن القرآن بصائر للعقول، وفي هذه الآية أيضاً عودة إلى أول السورة (الآية ٣).

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥)

٢٠٥- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وهو عطف على الاستماع للقرآن بغرض الفهم، والمراد أن يكون الذاكر عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضراً إياها في قلبه، لأن الذكر باللسان وحده بمعزل عن استحضار المعاني يكون عديم الفائدة، مثل سماع القرآن دون التفكّر بمعانيه، وقالوا أيضاً إن الذكر اللساني الساذج لا ثواب فيه أصلاً ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي متضرّعاً، والتضرّع الابتهال ﴿وَخِيفَةً﴾ يكون المتضرّع بين الرجاء والخوف ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الجهر رفع الصوت المفرط، ودون الجهر أن يكون التضرع بين الجهر والمخافتة، وقيل بقدر ما يسمع المتضرّع نفسه ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ صباحاً مساءً ﴿وَلا

﴿تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى، ولا مستغرقاً في أمور الدنيا فتلهيك عن ذكر الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦)

٢٠٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ المقربون منه، وقيل هم الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ مُقرّون له بالعبودية بكل ما في معناها، لا يستكبرون عن عبادته على نقيض الكفار والمشركين، لأنّ الاستكبار يصرف عن الآيات ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ تنزيهاً لله تعالى عمّا لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يسجدون له وحده، لا يدعون غيره، وفي ذلك عودة لموضوع الآيات (١٣و٣٦و٤٠و٤٨و٧٥و٧٦و٨٨و١٤٦).

* * *

سورة الأنفال -٨-

مدنية

نزلت سورة الأنفال في السنة الثانية من الهجرة بعد وقعة بدر، روي عن ابن عباس قوله إنها نزلت في بدر، وفي لفظ: تلك سورة بدر، فقد اشتملت على تحليل كامل لأول مواجهة عسكرية حاسمة بين قوى الإسلام وقوى الكفر، كما وضعت أسس الجهاد الإسلامي التي بموجبها انتشرت دولة المسلمين ودعوتهم - خلال أقل من قرن من الزمن- من أقصى العالم القديم في الصين، إلى أقصاه في الأندلس.

الخلفية التاريخية

خلال شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة وصل إلى علم المسلمين في المدينة أن القافلة التجارية الكبرى التي سبق أن توجهت إلى الشام بقيادة أبي سفيان سوف تبدأ رحلة العودة، وأنها بالتالي سوف تمر بمنطقة المدينة خلال أسابيع، وبالنظر لحالة الحرب التي كانت قائمة بين قريش وبين المسلمين، فقد أخبر النبي ﷺ أتباعه أنه ينوي مهاجمة القافلة لدى اقترابها من منطقة المدينة، ومن ثمّ تسربت إشاعات هذه الخطة فوصلت أبا سفيان، وهو لم يزل في الشام، فاستفاد من ذلك بأن بعث مراسلاً سريعاً إلى مكة يطلب النجدة من قريش، إذ كانت قافلته المكونة من حوالي ألف جمل محملة بأنفس البضائع لا يرافقها سوى حراسة خفيفة من حوالي أربعين رجلاً، فلمّا أحيطت قريش بالخبر حشدت جيشاً كبيراً قاده أبو جهل، ألد أعداء النبي ﷺ وانطلق بالجيش شمالاً يريد حماية القافلة من جهة، ومن جهة ثانية يريد ضرب مسلمي المدينة ضربة قاصمة بزعمه، ومن جهة ثالثة يرهب قبائل العرب بخروجه بهذا الجيش ويُظهر أمامها هيبة قريش

وبأسها، وكان أبو سفيان في هذه الأثناء قد أخذ جانب الحيطة فاتخذ مساراً لقافلته عائداً بمحاذاة ساحل البحر، على أبعد مسافة ممكنة من المدينة.

ولما كانت عادة النبي ﷺ في جميع غزواته وسراياه كتمان خططه المسبقة حتى ساعة التنفيذ، وحتى بعد الخروج بأصحابه من المدينة، وأنه كان أحياناً يخرج بأصحابه من المدينة في اتجاه مغاير لهدفه الحقيقي إمعاناً في تضليل الجواسيس من الكفار والمنافقين، فإن إعلانه العزم على مهاجمة القافلة، وهي لم تزل في الشام، وقبل عدة أسابيع من اقترابها المدينة، مما يدل أن كلام الهجوم على القافلة لم يكن سوى تغطية، وأن الهدف الحقيقي من بث الخبر كان استدراج قريش إلى مواجهة عسكرية حاسمة تنهي حالة الخوف والترقب التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي في المدينة.

كان المسلمون بعد الهجرة يشعرون بتهديد قريش المستمر لهم ويخشون من احتمال اجتياحها المدينة بمساعدة بعض قبائل العرب، وكانت قريش تبعث الحملات للإغارة على المسلمين من وقت لآخر، ومن ضمن ذلك غارة المشركين بقيادة كرز بن جابر الفهري التي وصل بها أطراف المدينة وسلب بنتيجتها من مواشي المسلمين ومتاعهم، ومن جهة أخرى كانت قريش تحرض القبائل المتحالفة مع النبي ﷺ على النكوص ونقض العهود، فلم يكن بوسع النبي ﷺ أن يتخذ موقفاً سلبياً، ولا أن يقف موقف المستضعف تجاه هذا الوضع القلق، وكان يرد على تحدي قريش بتهديد قوافلها التجارية والتعرض لها، ليس بغرض السلب أو النهب ولا بغرض إهراق الدماء، وإنما لإنذار قريش أنه بإمكان المسلمين إلحاق الضرر بتجارتها واقتصادها، وكان يخشى لو اتخذ موقفاً سلبياً أن يتعاظم أمر قريش بتكتل القبائل معها، وتأليب القبائل المتحالفة معه، فأراد أخذ زمام المبادرة بين يديه.

ولو كان النبي ﷺ يريد مهاجمة قافلة أبي سفيان ونهبها، كما قد يُظنّ، لكان كَمَنَ لها فُجاءةً بطريق عودتها من الشام، دون إعلانٍ مسبق، فلا تكون لأبي سفيان الفرصة في طلب النجدة من مكة، ولا في تغيير مسيره نحو ساحل البحر، ولكن إعلان النبي قبل أسابيع من وصول أبي سفيان لمنطقة المدينة أعطاه الفرصة لطلب النجدة من كفار مكة ومن ثمّ حشد قوة كبيرة من قريش.

وفيما كان أبو سفيان مسرعاً بقافلته جنوباً، كان أبو جهل يتجه شمالاً بجيش مؤلف من حوالي ألف رجل كاملي الدروع والسلاح، يمتطون حوالي سبعمئة ناقة وأكثر من مئة فرس، حتى وصل بهم إلى وادي بدر، على قرابة مئة وخمسين كيلومتراً غرب المدينة جنوباً، متوقعاً لقاء أبي سفيان على طريقه المعتاد، ولم يكن يعلم أن أبا سفيان قد اتخذ مساراً بحذاء البحر.

وكان النبي ﷺ يتقصّى الأخبار كعادته، فلما علم بخروج جيش قريش، كما كان يتوقع، جمع الناس واستشارهم، وحثّهم على الخروج للقاء عدوهم، وأخبرهم أن الله تعالى قد وعدهم إحدى الطائفتين (الآية ٧): العير أو النفير: أي قافلة أبي سفيان، أو جيش المشركين، فأبدى عددٌ منهم رغبتهم في الهجوم على القافلة، فتأثّر النبي ﷺ من رغبتهم لأن خطته كانت غير ذلك، فردّد عليهم وقال لهم: إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فظهر الغضبُ على وجه النبي ﷺ، وقام أبو بكر وعمر يحثّان الناس على مجابهة قريش، ثم تكلم سعد بن عبادة عن الأنصار، والمقداد بن عمرو عن المهاجرين، وسعد بن معاذ عن الأنصار أيضاً، كلٌّ منهم مبدياً استعداد أصحابه للمضي فيما يراه النبي ﷺ، فسُرّ النبي ﷺ بكلامهم ودعا لهم بخير، وخرج بالناس من المدينة وفريق منهم كاره لذلك لا يريد القتال (الآية ٥)، وقد جادلوا النبي ﷺ كأنما يساقون إلى الموت وهم ناظرون إليه (الآية ٦)، وتخلف عن الانضمام إلى المسلمين منافقو المدينة والذين في قلوبهم مرض من الأوس والخزرج قائلين: ﴿غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ (الآية ٤٩)

ساخرين من خروج المسلمين لمجابهة جيروت قريش، ومستخفّين بهم لقلّة عددهم وضعف عدّتهم.

كان خروج النبي ﷺ من المدينة على رأس حوالي ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، خفيفي السلاح، قليلي العدة، ستون منهم فقط يحملون دروعاً، ومعهم ما لا يزيد عن سبعين ناقة وفَرَسان فقط يتناوبون الركوب عليها، واتجه بهم نحو الجنوب الغربي، ولو كان خروج النبي ﷺ بهم لغزو قافلة أبي سفيان، كما ظن البعض، لما احتاج إلى هذا العدد من المحاربين وهو يعلم أن حامية القافلة لا تزيد عن أربعين رجلاً، ولو كان يريد القافلة لاتجه نحو الشمال الغربي و لم يتجه نحو الجنوب الغربي لملاقاة قريش،

وفي يوم ١٧ رمضان وصل النبي ﷺ ومن معه إلى بدر ليفاجَؤوا بجيش المشركين يفوقهم في العدّة كثيراً، ويفوقهم في العدد ثلاثة أضعاف، ولو تواعدوا لاختلفوا في الميعاد (الآية ٤٢)، وتلت ذلك اللقاء المواجهة العسكرية الكبرى الأولى بين مسلمي المدينة ومشركي قريش وبنتيجتها انهزم المشركون هزيمة ساحقة، وقُتل سبعون من أكابرهم من بينهم قائدهم أبو جهل، واستولى المسلمون على غنائمهم.

كان من أثر هذه النتيجة الحاسمة أن أيقن المشركون بعدها أن بعثة النبي ﷺ لم تكن حلماً عابراً سرعان ما يزول، وإنما هي بداية لقوة سياسية جديدة، وعصر جديد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل، فقد تحققت مخاوف قريش على نحو حاسم لم يكونوا يتوقعونه، ومع أن وقعة بدر لم تقضِ نهائياً على قوى الشرك في جزيرة العرب إلاّ أنها شكّلت تحوّلاً مهمّاً جدّاً في مجريات الأمور، إذ اتضح بعدها أن قوى الشرك في جزيرة العرب سائرة إلى زوال لا محالة.

كما شكلت بدر نقطة تحول هامة في تفكير المسلمين أيضاً، فيبدو أنه حتى ذلك الوقت لم يكن سوى القليل منهم يدرك المغزى والمضمون السياسي للنظام الإسلامي الجديد، أما بعد معركة بدر فصار بيّناً حتى لدى بسطاء المسلمين

أنهم مقبلون على نظام اجتماعي جديد، وأن مبدأ المقاومة السلبية الذي ميّز السنين الأولى للدعوة قد حلّ محلّه مبدأ أخذ زمام المبادرة والعمل، هذا المبدأ الذي ميّز التاريخ الإسلامي فيما بعد وكان له أكبر الأثر في انتشار الدعوة.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بينت سورة الأعراف الطريقة المثلى في الدعوة إلى الإسلام بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [١٩٩/٧]، تبين سورة الأنفال أن الدعوة تستدعي الجهاد، بمعناه الشامل، للدفاع عن العقيدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٢٤/٨] أي إذا دعاكم إلى الجهاد بمعناه الأشمل.

وفي سورة الأعراف المتقدمة أنّ مَن يغلق عقله سلفاً بالتقليد ينسلخ عن الآيات ويتّبع وساوس الشيطان: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [١٧٥/٧]، ثم في سورة الأنفال أنّ أمثاله كالدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [٢٢/٨]،

وفي سورة الأعراف أن الشيطان يوسوس لبني آدم بشتى الوسائل [١٧/٧]، حتى يصير ولياً للكفار: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٧/٧]، فيحسب الضالون أنهم مهتدون: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [٣٠/٧]، ثم في سورة الأنفال أن الشيطان زيّن لكفار قريش أعمالهم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [٤٨/٨]،

وفي سورة الأعراف أنّ اليهود سينالهم غضب من ربهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [١٥٢/٧]، وكذا في آية الأعراف [١٦٧/٧]، ثم في سورة الأنفال أن اليهود كالدواب، وأنهم لا يحفظون عهودهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ

كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ [٨/٥٥-٥٦].

محور سورة الأنفال

يدور محور السورة حول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)، أي إذا دعاكم إلى الجهاد بمعناه الواسع، لأنّ حياة المؤمنين الحقيقية في الجهاد، والمعنى لا تكونوا كالصمّ البكم الذين لا يعقلون، المشار إليهم بالآية (٢٢)، ولأن الله يحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبه من طول الأجل وأمنيات الدنيا، فالأجل يحول دون الأمل، والموضوع ملحّ جداً لا يحتمل التأجيل والتسويف، فلتكن استجابتكم أيها المؤمنون، لله وللرسول قبل أن يحول الأجل بينكم وبينها ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فتحاسبون على مقدار استجابتكم،

وتنهى السورة المسلمين أن يكون جهادهم لأغراض دنيوية مادية محضة: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [٤٧]، وأن الله تعالى يغير أحوال الأقوام سلباً أو إيجاباً بقدر ما يغيّروا ما بنفوسهم من العقيدة والأخلاق والعمل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٥٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها النبي ﴿عَنِ الأَنْفَالِ﴾ جمع نفل وهي الغنيمة، لمن هي؟ وكيف يكون توزيعها ؟ والسؤال كان بعد غزوة بدر، و النفل في أصل اللغة الزيادة عن الواجب، ومنه صلاة النفل، كقوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً

لَكَ﴾ [الإسراء ١٧/٧٩]، أو الزيادة عن الاستحقاق كقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء ٢١/٧٢]، وهنالك مغزى من استعمال تعبير "الأنفال" في هذه الآية بدلاً من تعبير "الغنائم" الذي سوف يرد في الآية (٤١)، وهو أن المسلم لا يحارب لأجل الغنائم، وإن حصلت غنيمة فتكون نافلة، أي زيادة عن الغرض الذي تم القتال من أجله، فهي نتيجة للحرب وليست هدفاً لها، ولولا تأييده تعالى لعباده بالنصر لما كانت أنفال، والنتيجة أنّ السؤال عن حصصهم من الأنفال لا موجب له أصلاً، فما بال هؤلاء الناس يسألون؟ ﴿قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إن الأنفال لله يقرر حكمها كما سيرد في الآية (٤١)، وللرسول يقسمها بحسب حكمه تعالى، وهي ليست بتصرف المقاتلين، و لم تكن في الأصل هدفاً للحرب، وإنّ من يحارب لأجل الغنائم فهو مخطئ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتقوا عقاب الله ولا تختصموا بشأن الأنفال، وليكن قتالكم في سبيل الله فقط دون متاع الدنيا ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أصلحوا حال ما بينكم حتى تعم بينكم الألفة والمحبة والاتفاق، وانتهوا عن الخصومة والشقاق ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم كاملي الإيمان ينصبّ هدفكم من الحرب بكامله على إعلاء شأن الدين.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢)

٢- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ حقاً ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل الشعور بالخوف والرهبة، والمعنى أن المومن إذا ذُكر الله في الصلاة أو في القلب وغيره، فإنه يستحضر في نفسه عظمة الله وكبرياءه فيقشعر جلده ويحصل الخشوع في قلبه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ زادتهم يقيناً واطمئناناً إذ يدركون بيانها وإعجازها ومدلولاتها ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحده دون غيره، ومغزى قوله ﴿رَبِّهِمْ﴾ أنه هو متولي شؤونهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا يفوّضون أمورهم إلى غير ربهم، ولا يخشون ولا يرجون إلاّ إيّاه، ولا يبقى لهم اعتماد في أمر من أمور الدنيا، بعد اتخاذ الأسباب، إلاّ على الله.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣)

٣- قال الرازي بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة ثلاثة من صفات المومنين: الخشية، واليقين، والتوكل، وهي من صفات القلوب والبواطن، أتبع في هذه الآية من صفات المومنين المتحلية في الأفعال، وهي رأس الطاعات الظاهرة: الصلاة، والزكاة ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ على تمامها، في صورتها وفي أركانها الظاهرة، وفي معناها وروحها من خشوع القلب وحضور معاني التلاوة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينفقون على وجوه البر بعض ما رزقهم تعالى، من زكاة، وصدقات، وصلة أرحام، وإنفاق على الجهاد، لأن تعبير الإنفاق أعم من تعبير الزكاة، ونظير الآيتين (٢-٣) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة ٢/٣].

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤)

٤- ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هم المومنون إيماناً حقّاً، أو هم المومنون بالحقيقة ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب استعدادهم وإيمانهم وأعمالهم، فالله تعالى خلق الناس متفاوتين في الاستعداد والعقول والأعمال والإمكانات، فيكون حسابهم وتكون درجاتهم ومكانتهم عند ربّهم وفق ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام ٦/١٦٥]، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ يتجاوز الله عن سيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في نعيم الجنة.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (٥)

٥- ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ﴾ أي من المدينة أنها سكن النبي ﷺ فهي بيته ﴿بِالْحَقِّ﴾ الخروج لقتال قريش كان موصوفاً بالحق، أي لإحقاق الحق ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ هم الفريق الطامع في سلب قافلة أبي سفيان كرهوا الخروج لقتال قريش، وقد رأى المودودي أن هذه الآية نافية لما ورد في قصص السيرة والمغازي من أن النبي ﷺ وأصحابه خرجوا في الأصل للاستيلاء على قافلة أبي سفيان، مع أنّ الآية في غاية الوضوح أن خروج

النبي ﷺ وأصحابه من المدينة كان لحسم النزاع مع قريش بمحابهة مباشرة مع جيش أبي جهل، والواضح من الآية أنّ الخيار بين الهجوم على القافلة وبين الاشتباك مع جيش المشركين، حُسم قبل الخروج من المدينة ﴿راجع الخلفية التاريخية﴾، ومن الطريف أن الألوسي في روح المعاني تفادى هذا المعنى بطريقة مصطنعة، إذ قال إن جملة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ في موضع الحال، وهي حال مقدّرة لأن الكراهية وقعت بعد الخروج! فاضطر نفسه إلى تقدير الحال للمستقبل لكي يطابق التوهّم الشائع أن خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة كان مستهدفاً قافلة أبي سفيان.

أمّا معنى التشبيه في قوله ﴿كَمَا﴾، أي كما جادل فريقٌ منهم النبي ﷺ في قسمة الأنفال المشار إليها آنفاً، فقد جادلوه أيضاً في الخروج من المدينة، إذ أرادوا سلب قافلة أبي سفيان وهم كارهون لقتال قريش، والمعنى أنّ تفكيرهم في الحالتين كان منصبّاً على الغنائم!

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (٦)

٦- ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ وهم الفريق الذي كان راغباً في قافلة أبي سفيان ﴿فِي الْحَقِّ﴾ أي في قتال المشركين، وأشارت له الآية بالحق، لأنه كان مقدراً له أن يحق الحق ويبطل الباطل ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ بعدما تبيّن لهم الحق، أي بعد ما تبين لهذا الفريق أن حشد جيش المسلمين كان لغرض قتال المشركين وليس لسلب القافلة ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ في خروجهم من المدينة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كانوا يخشون من قلة عددهم وقلة سلاحهم وضعف وسائلهم تجاه قوة قريش وجبروتها واستعدادها، وكانوا بالتالي يرون احتمالات الظفر لصالح قريش، فكأنما يُساقون إلى الموت المؤكد.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧)

٧- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ إحدى الطائفتين: عير أبي سفيان، أو نفير قريش ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وَعَدهم تعالى، على لسان نبيّه، الغلبةَ على الطائفة التي يستقر خيارهم عليها: العير، أو النفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ غير ذات الشوكة قافلة أبي سفيان، إذ لم يكن معها سوى حوالي أربعين مسلحاً، فهي الطائفة التي لا شوكة لها ولا حدة ولا شدة، وهي ما كان يودّه فريق من المؤمنين عندما استشارهم النبي ﷺ قبل الخروج من المدينة ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ بهذه الآية التي أنزلها على نبيّه، ليُثبت الإسلام ويُظهر كونه حقّاً، وهو الهدف الذي من أجله يكون القتال، وليس للمادة الزائلة، أو الفائدة العاجلة التي كان يرجوها فريق من المؤمنين ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ يستأصلهم، فكانت هزيمة المشركين في بدر بداية لاستئصالهم.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨)

٨- ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وهي الحكمة الداعية لاختيار ذات الشوكة ونصر المؤمنين عليها رغم إرادتهم غيرها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٩)

٩- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بعد أن استقر العزم على الخروج لملاقاة ذات الشوكة، أي جيش قريش، ثم التقى الجيشان في بدر وجهاً لوجه، ورأى المسلمون رأي العين تفوق قريش في العدد والعدة، وأصابهم الفزع، استغاث المسلمون ربّهم بدعاء النبي ﷺ ودعائهم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ استجاب لهم تعالى على لسان النبي ﷺ أنه يمدّهم بألف من الملائكة متتابعين، ثم قرأ النبي ﷺ على أصحابه قولَه تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر ٥٤/٤٥]، وقال لهم "كأني أنظر إلى مصارع القوم".

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠)

١٠- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي إن خبر الإمداد بالملائكة لم يكن سوى بشرى تطمئن بها القلوب، فتشعر بالمدد الإلهي الروحاني ويزول الخوف، وظاهر النص القرآني أن الإمداد بالملائكة فائدته التثبيت المعنوي، ولا يفيد اشتراك الملائكة في القتال ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تفيد العدو كثرته وعدّته، إذا صحت النية والإخلاص واتخاذ الأسباب لدى المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في قمع جبروت الكفار، حكيم في نصر من يستحق النصرة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (١١)

١١- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ وهذا من جملة استجابته تعالى لاستغاثة المسلمين، إذ غشّاهم النعاس فأمنت نفوسهم وسكنت، وزال عنهم شعور الخوف، وذهلوا عن الخطر وتفوق العدو ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ وهي نعمة ثالثة في استجابته تعالى للمؤمنين، فقد سبقهم أبو جهل وجيشه إلى وادي بدر واستولى على موضع الماء، في حين وصل المؤمنون بعده وهم على درجة كبيرة من العطش، وأعوزهم الماء للشرب والوضوء، وأصابهم الخوف على قلّتهم إذا استمر الوضع على تلك الحال والقتال لما يبدأ بعد، فأغاثهم تعالى بالمطر دليلاً على تأييده لهم، فحفروا في الأرض أحواضاً سالت إليها المياه فشربوا واغتسلوا وتوضؤوا للصلاة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ نزول المطر وشربهم واغتسالهم ووضوئهم أذهب عنهم وسواس الشيطان لهم بأنهم الفريق الأضعف ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فيثبتها ويوطّنها على الصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ لأن هطول المطر على الرمل جعله أكثر ثباتاً لأقدام مشاة المسلمين في مقابلة فرسان المشركين.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢)

١٢- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أوحى تعالى إلى الملائكة أنه مع المؤمنين، والضمير في معكم عائد للمؤمنين، لأنهم الطرف الذي كان يخاف الكفار، أما الملائكة فلا مجال لخوفهم من الكفار أو من غيرهم، وإنما الخائف هم المسلمون، وعبارة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ استمرار الخطاب الموجه إلى المؤمنين الذي بدأ في الآية ﴿٧﴾، فيكون تقدير الخطاب: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم -أيها المؤمنون-، أو: إذ يوحي ربك إلى الملائكة -أن امضوا المؤمنين- أني معكم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بإعلامهم أنه تعالى معهم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وهو مزيد من التثبيت للمؤمنين، فمن جهة، ألقت الملائكة في روع المؤمنين أن الله تعالى معهم، ومن جهة ثانية أنه ألقى الرعب في قلوب الكفار ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ البنان هي الأصابع، والمعنى اضربوا الرؤوس والأعناق والأيدي والأرجل، فلا يكون الضرب على الدروع التي كان يلبسها المشركون، وهو استمرار الخطاب للمؤمنين من الآيات السابقة، وقد يكون إلهاماً من الملائكة للمؤمنين، لأن الملائكة لم تشترك في القتال كما هو واضح من الآية (١٠)، قال الرازي: "هذا الأمر للمؤمنين، لأنه تعالى ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة، واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه حصل في حق المسلمين جميع موجبات النصر والظفر، فعندئذٍ أمرهم بالقتال".

ومغزى الضرب فوق الأعناق وضرب البنان أن الكفار كانوا يرتدون الدروع، فعند هجوم الفارس من الكفار كان على الراجل من المسلمين أن يبادره بقطع يده أو يضربه على العنق أو فوق العنق قبل أن يشدره الفارس بالضرب.

وقد ذكر الشيخ رشيد رضا في المنار في معرض نفيه روايات اشتراك الملائكة في القتال يوم بدر ما يلي "فإذا كان تأييد الله للمؤمنين بالأمور الروحانية التي تضاعف القوة المعنوية، وتسهيله لهم الأسباب الحسية كإنزال المطر وفوائده

العديدة المعنوية والحسية وإلقائه الرعب في قلوب الكفار لم يكن كافياً لنصرهم على المشركين بقتل سبعين منهم وأسر سبعين حتى كان ألف من الملائكة يقاتلون معهم، فأي مزية لأهل بدر فُضّلوا بها على سائر المؤمنين، وكيف تُعارَض البينات النقلية والعقلية؟ وكيف يقال إنّ السبعين الذين قُتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلاّ باجتماع ألف من الملائكة مع المسلمين الذين خصهم الله بأسباب النصر المتعددة؟ إن في هذا تعظيم شأن المشركين وتصغير شأن أفضل الصحابة وأشجعهم بما لا يصدر عن عاقل" (المنار)، وقال الرازي: الملائكة لم تشترك في القتال وإنما كانوا يثبتون المؤمنين، وإلاّ فمَلَك واحد كاف في إهلاك الدنيا كلها، والدليل على صحة أن الملائكة لم تشترك في القتال قولُه تعالى ﴿وما جعله الله إلاّ بشرى﴾ فالضمير عائد إلى الإرداف، والتقدير: ما جعل الله الإرداف بالملائكة إلاّ بشرى، وذلك ينفي إقدامهم على القتال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣)

١٣- ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك الضرب للكفرة فوق الأعناق، وضرب كل بنان، وهزيمتهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بسبب أنهم فارقوا أمر الله ورسوله وعصوهما، والشقاق بمعنى أنهم صاروا في شق غير شق المؤمنين، والمشاقة أيضا العداوة، لأن كلاً من المتعادين يكون في شق غير الآخر ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في الدنيا، كعقاب المشركين يوم بدر، وذلك غير عذاب الآخرة للمصرّين على الكفر، كما سيرد في الآية التالية:

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤)

١٤- ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وهو المعجّل من القتل والأسر والهزيمة والخزي في الدنيا ﴿فَذُوقُوهُ﴾ سمّته الآية ذوقاً لكونه يسيراً قياساً بالخزي العظيم في الآخرة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرّين على الكفر ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ﴿١٥﴾

١٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ إذا لقيتم الكفار يزحفون زحفاً لقتالكم، ومعنى زحف الجيش زحفاً أي مشى بثقل لكثرته، والزحف أيضاً الجيش الكثيف الذي يُرى لكثرته كأنه يزحف، أي يدبّ دبيباً لأنه يُرى جسماً واحداً متصلاً، فتظهر حركته الكلية بطيئة ولو كانت في الواقع في غاية السرعة ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ المعنى إذا لقيتم الكفار يزحفون لقتالكم، وهم كثر وأنتم قلّة، فلا تفرّوا منهم، والآية استمرار لما قبلها من الآيات، وقد تكون من جملة ما ألقته الملائكة في روع المؤمنين يوم بدر، غير أن حكمها عام لكل الأوقات والأحوال لأنهم قالوا إن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، فهذه هي القاعدة الأولى في القتال، ويُفهم من الآية أيضاً أنه إذا كان التزاحف من الطرفين، أو كان الزحف من طرف المؤمنين، وهم أكثر عدداً وعدّةً من الكفار، أو متساوون معهم، فتحريم الهزيمة والفرار أولى، ومغزى التحريم أنه تعالى يهيىء للمؤمنين، الذين اتخذوا للأمور عدتها، أسباب النصر والتأييد فلا مبرر للفرار، حتى لو كان الكفار عشرة أمثال المؤمنين كما سيرد في الآية (٦٥)، أو مثليهم على سبيل الرخصة الآية (٦٦)، وهذه القاعدة القرآنية مهّدت السبيل فيما بعد للفتوحات الإسلامية، التي امتدت خلال أقل من قرن من أقصى العالم القديم إلى أقصاه، على قلة أعداد المسلمين الذين انطلقوا من الجزيرة العربية، بالمقارنة مع جيوش فارس والروم وبالمقارنة مع عدد سكان البلاد المفتوحة وجيوشها.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦)

١٦- ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ تولية الدبر كناية عن الفرار، لأن الفار يدير ظهره للطرف الآخر، ومعنى ﴿يومئذ﴾ أي يوم القتال ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ تنفيذاً لمناورة عسكرية أو خدعة ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ منضماً إلى

جماعة أخرى من المؤمنين ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من ينهزم من القتال إلاّ لأحد الغرضين المذكورين، فإنه يرجع بغضب من الله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بدلاً من أن يأوي إلى السلامة والأمان كما يظن، يكون قد أوى إلى جهنم، والآية دليل على أن الفرار من الزحف يعتبر من الكبائر، وقد وردت الأحاديث الشريفة بذلك.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

١٧- بعد أن نهى تعالى المؤمنين عن الفرار من الزحف، بيّن لهم في هذه الآية أنهم إن ثبتوا يؤيّدهم بتوفيقه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ يوم بدر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن قتل الكفار تيسّر بمعونة الله ونصره وتأييده وتوفيقه، فلا مجال لفخر المؤمنين بذلك، خاصة بعدما ظهر من فريق منهم الفزع وكراهة الخروج للقاء العدو ومجادلتهم النبي ﷺ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، فلو بقوا على تلك الحال من ضعف المعنويات على قلة عددهم وعدّتهم لكانت هزيمتهم محققة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ والخطاب للنبي ﷺ، ذكرت روايات عديدة أن النبي ﷺ تناول قبل المعركة قبضة من الحصباء أو التراب ورماها تجاه المشركين قائلاً "شاهت الوجوه" أي قبُحت، فكان ذلك إيذاناً ببدء القتال وهزيمة الكفار، قال القرطبي إن تقدير الخطاب: وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى، فقد كان ذلك بنصر الله وتوفيقه، وقد تكون الإشارة لاشتراك النبي ﷺ في القتال فعلياً، ورميه الكفار بالنبال ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ تعالى ﴿بَلاءً حَسَنًا﴾ أي نعمة عظيمة، لأنّ البلاء هو الاختبار، واختباره تعالى لعباده يكون تارة بالمحن وتارة بالنعم، ففي وقعة بدر ابتلى تعالى المؤمنين بنعمة النصر العظيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالهم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

١٨- ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ البلاء الحسن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ بالإضافة للبلاء الحسن فإنه تعالى يضعف كيد الكافرين ومكرهم ومحاولتهم القضاء على دعوة الإسلام.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩)

١٩- وهي خلاصة العبرة من معركة بدر، والآية استمرار مباشر لما سبقها: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها المؤمنون بالدعاء وطلب النصر من الله ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ بأن استجاب الله لدعائكم ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن التكاسل والقعود وعن معصية النبي ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من كل شيء ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى التكاسل والمعصية وإلى طلب الدنيا وزخارفها ﴿نَعُدْ﴾ عن نصرتكم، ونخلّي بينكم وبين عدوّكم، لأن الوعد بالنصرة ليس مطلقاً، بل مشروطاً بالطاعة والعمل وترك الخلاف والمخالفة ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ إذا فاتكم تأييد الله ونصره، فالعبرة ليست بكثرة العدد أو قلّته ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يرفقون القول بالعمل، فهو يستجيب لدعائهم ويهيىء لهم أسباب النصر والتوفيق، ويلاحظ أن هذا التوجيه الربّاني، وإن كان خاصّاً لوقعة بدر، إلا أنّ مغزاه عام لكل الأوقات، وقيل إن الخطاب في الآية للكفار لكنّ ذلك لا يستقيم مع النظم القرآني، فالآيات من الآية ٧ حتى الآية ٢٩ كلها في خطاب المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهي تتمة العبرة السابقة، وتأكيد على لزوم الطاعة وما يترتب عليها من عمل ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ عن النبي ﷺ، والمعنى لا تعرضوا عما جاء به من الإسلام وتعاليمه ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ دعاءه لكم إلى جهاد عدوّكم، أو ، وأنتم تسمعون القرآن وقد صرتم على بيّنة من الأمر، ولم يعد لديكم عذر بالجهل.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بمعنى القبول ظاهراً ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم قبلوا الرسالة بالكلام فقط، دون استيعاب لمعناها، ودون القيام بما يترتب عليها من عمل، أو أنهم قالوا ذلك نفاقاً.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ شرّ من يدبّ على الأرض عند الله ﴿الصُّمُّ﴾ شبههم تعالى بالصمّ، لأنهم لا يريدون سماع الرسالة سماع فهم وتفكّر، بل يسمعون للتشغب والتشويش، وقد اتخذوا منها مواقف مسبقة ﴿الْبُكْمُ﴾ لأنهم لا يقرّون بالحقيقة، أو هم غير قادرين على الإقرار بها ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلم تعمل عقولهم للاستفادة من حواسهم، وهو سبب وصفهم بالدواب.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ استعداداً صالحاً ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ ولكنهم أفسدوا نفوسهم بالبهيمية وسوء القدوة والعصبية والمكابرة والتكبّر، فلم يتركوا لأنفسهم أي إمكانية خير فانتفت إمكانية سماعهم، ولو كان لديهم قليل من الاستعداد للتفكر والنظر، لدخل فهم القرآن في قلوبهم، ولسمعوه سماع تفقّه وتعقّل، ثم سماع اعتبار وعمل ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وهم في هذه الحال التي جعلوا أنفسهم فيها من انغلاق الفكر ﴿لَتَوَلَّوا﴾ لارتدّوا ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن القبول، لأنهم اختاروا الإعراض عن الحق، وأداروا ظهورهم للدلائل، فلا يقبلون الحق ولا ينتفعون به البتة مهما عُرِضَ عليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ إذا دعاكم إلى الإسلام، أو إلى الجهاد بمعناه العام، لأنّ فيهما حياتكم الحقيقية،

فلا تكونوا كالصمّ البكم الذين لا يعقلون، المشار لهم آنفاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي ما في قلبه من الأماني، فيحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبُه من طول الأجل وأمنيات الدنيا، فالأجل يحول دون الأمل، والمعنى: أن الموضوع ملحّ جداً لا يحتمل التأجيل والتسويف، فلتكن استجابتكم أيها المؤمنون، لله وللرسول قبل أن يحول الأجل بينكم وبينها، ولا تتكلوا على ما في قلوبكم من الأماني وتوقع طول البقاء، فذلك غير مؤكّد ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فتحاسبون على مقدار استجابتكم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ الفتنة الاختبار والامتحان بما يشق على المرء فعله أو تركه، أو قبوله أو إنكاره [البقرة ١٠٢/٢]، [التوبة ٤٩/٩]، [طه ٤٠/٢٠]، ومنها فتنة المال والأولاد [الأنفال ٢٨/٨]، والفتنة أيضا المحنة والمعاناة، والاضطهاد الديني [البقرة ١٩١،١٩٣/٢]، [الأنفال ٣٩/٨]، وهي أيضاً الإغراء والغواية والضلال [آل عمران ٧/٣]، وهي الشقاق والنزاع [التوبة ٤٨/٩]،

﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل الأتقياء أيضاً ليسوا بمعزل عنها، فاتقوا الغواية والضلال، والشقاق والنزاع، وما يترتب عليها من المحن والمعاناة، ممّا لا يقع ضحيتها الكفار والظالمون فقط، فالأمّة بكاملها قد تصاب بالضعف والخذلان والانحلال، وقد تزول دولتها، أو يسيطر عليها الكفار، والخطاب استمرار لما قبله من وجوب الاستجابة لله وللرسول، وأنه تعالى يحول بين المرء وأمانيه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمخالفي أمره.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦)

٢٦- بعد أن أمرهم تعالى بطاعة الله وطاعة الرسول، وحذّرهم أنه يحول بين المرء وقلبه، ثم حذّرهم من الفتن، ذكّرهم ببعض نعمه عليهم ممّا قلب أوضاعهم من الضعف إلى القوة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ قليلي العدد في مكة والمدينة

﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بستضعفهم مشركو قريش في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ شبّه المشركين بالطيور الجارحة تتخطّف فرائسها منهم ﴿فَآوَاكُمْ﴾ في المدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ كما في بدر ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من رزق المدينة، وغنائم بدر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شكراً غير مقتصر على القول، بل يتعداه إلى العمل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧)

٢٧- بعد تذكيره تعالى لهم بنعمه عليهم حذّرهم من الخيانة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بإبداء الإيمان والنصيحة والإخلاص للمؤمنين، وفي الوقت ذاته إبطان الكفر والغش لهم، وإفشاء أسرارهم واستغلالهم لمآرب شخصية ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ مع إخوانكم المسلمين ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قبح ذلك، وسوء عاقبته.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

٢٨- بعد أن نهاهم تعالى عن خيانة الدين وخيانة الأمانات، بيّن لهم أن الخيانة تكون بسبب فتنة المال والولد: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فاحذروا أن تؤدي بكم فتنة الأموال والأولاد، إلى خيانة الله والرسول، والمقصود أن تهالك الناس على المادة، ومحاولة ضمان مستقبل الأولاد، كثيراً ما يؤدي بالبعض إلى الخيانة وتجاوز الحدود، وأكل أموال الناس بالباطل، وإنفاق المال في غير ما يرضاه الشرع ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ عند الله أجر أعظم بكثير مما تأملونه في المال والولد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ باتقاء فتنة المال والولد، وباتقاء كل ما يجب بمقتضى الدين والشرع ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ كما حصل يوم بدر، إذ جعله لكم نصراً يفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، وقيل يجعله هداية ونوراً

في قلوبكم، فهو مَلَكَة من العلم والحكمة تميّز بين الحق والباطل، فتمكّن من اتخاذ القرار الصحيح ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم فيتجاوز عنها ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ بأنه يمنّ على المتقين بنعمة الفرقان، وتكفير السيئات وغفران الذنوب.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠)

٣٠- بدأت السورة بخطاب النبي ﷺ، من (الآية ١) حتى (الآية ٦)، ثم انتقلت إلى خطاب المؤمنين، من (الآية ٧) حتى (الآية ٢٩)، فذكّرتهم بنعمه تعالى عليهم بنصرهم في بدر، وفي هذه الآية يعود الخطاب إلى النبي ﷺ لتذكير المؤمنين بنعمه تعالى عليهم عندما تآمر كفار مكة على النبي ﷺ قبل الهجرة:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ أيها النبي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مكة قبل الهجرة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليوثقوك ويحبسوك ويأسروك ويمنعوك من نشر الدعوة ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ تآمرت قريش أن يشترك فتى من كل قبيلة بطعن النبي ﷺ فيتفرق دمه في القبائل كي لا يستطيع بنو عبد المطلب المطالبة بدمه ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، أي إنهم قلّبوا هذه الاحتمالات الثلاثة للتخلص من النبي ﷺ: الحبس أو القتل أو الإخراج ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ المكر السيء ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ مكر الخير، لأن المكر، منه الحسن ومنه السيء، لقوله تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر ٣٥/٤٣]، فالمكر هو التخطيط والتدبير الخفي لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب، وكذلك وقاية الممكور له من السوء، ومنه دعاء النبي ﷺ ربّه: «وامكر لي ولا تمكر عليّ»، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لأن مكره تعالى كلّه خير، ولا يُعتدّ بمكرهم تجاه مكره سبحانه.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١)

٣١- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهو قول طواغيت قريش، لم يكتفوا بالمكر بشخص النبي ﷺ ومحاولة حبسه أو قتله أو إخراجه، بل طعنوا في كلام الوحي وتفاخروا أن لو شاؤوا لقالوا مثله، وهذا الزعم والمفاخرة تكرر منهم دون أن يقدروا على تحقيقه، وقد تحدّاهم القرآن في أكثر من سورة، وقرّعهم بالعجز سنين طويلة، فعجزوا عن المعارضة في ميدان كانوا يعتبرون أنفسهم أسياده ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ وهذا الزعم منهم منتهى المكابرة والعناد، بعد العجز، إذ لو استطاعوا أن يقولوا شيئاً فما منعهم؟ ومغزى الآية غير مقتصر على كفار قريش في زمنهم، بل ينطبق على منكري الوحي في كل الأزمنة.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ وهو تتمة كلام الكفار منكري الوحي ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو دعاء تهكم وتحدّي، ممّا يدل أن كفرهم عناد وكبرياء وعتوّ واستعلاء واستكبار في الأرض، ولو كانوا طلاب حقيقة لطلبوا الهداية من ربهم ولم يطلبوا العذاب.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أيها الرسول، أي إنه تعالى يمهلهم ويعطيهم الفرص للرجوع عن الكفر، ولا يعاجلهم بالعقوبة التي يستحقونها ما دام الرسول ﷺ بينهم يدعوهم إلى الحق، ولم يستنفذ مهمته بينهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ لا يعذبهم مع علمه أن فيهم من يتوب ويؤول أمره إلى الإسلام والاستغفار.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤)

34. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي وما لهم من الحسنات ما يدفع العذاب عنهم؟ ما داموا مصرّين على الكفر، وقد استنفذوا فرص التوبة، وأحبط الكفر أعمالهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ المسلمين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ مجرّد كونهم من ذرية إبراهيم لا يخوّلهم ولاية البيت الحرام كما يدّعون ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك دون غيرهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أكثرهم لا يعلمون أن التقوى هي المعيار الوحيد، وليس السلالة والنسب والمفاخرة بالأجداد.

﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥)

٣٥- وهذا سبب آخر استحقوا به العذاب: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً﴾ صفيراً ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً يصدر عنه الصدى لغرض التشويش على المصلّين، أو تصفيقاً لصدّ النبي ﷺ والمسلمين عن الصلاة، والمغزى أن صلاتهم خالية من كل معنى وروحانية، بل أنهم قصدوا منها الشغب على صلاة غيرهم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب الهزيمة الماحقة التي لحقت بهم في بدر، وقوله ﴿ذوقوا﴾ لأنها قليل في جنب ما هو أدهى منها وأمرّ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بنتيجة كفرهم، وبصدّهم الناس عن المسجد الحرام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦)

٣٦- لم يكتفوا بصدّ الناس عن المسجد الحرام، ولا بالمكاء والتصدية، بل أنفقوا أموالهم أيضاً في سبيل ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليصدّوا الناس عن الإسلام، وعن اتباع خاتم الأنبياء والرسل، وفي زمن البعثة أنفق كفار قريش من الأموال على جيوشهم في بدر وفي أحُد والخندق، أما اليوم فإن المبشّرين من جند الكنيسة ينفقون الملايين لتنصير ضعاف العقول في إفريقية والهند وغيرهما، وينشئون لهذا الغرض المدارس والمؤسسات

الثقافية و"الخيرية" في بلاد المسلمين ليصدّوا أبناء المسلمين عن دينهم بشكل مباشر وغير مباشر ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لأنهم ينفقون المال، ولا يتحقق هدفهم من إضلال البشرية، فلا يتحقق لهم سوى الحسرة والخيبة في الدنيا، عدا عقاب الآخرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ الغلبة النهائية تكون للإسلام بانتشاره بالحجة والإقناع والقدوة الحسنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ فتكون الحسرة الكبرى لهم في الآخرة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يكون من نتيجة أعمالهم أن يميز الله الخبيث من الطيب، فعندما يتم اتخاذ المواقف، ويصر الكفار على كفرهم، وينفقون الأموال للصد عن سبيل الله، يترتب على ذلك فرزهم عن باقي الناس من المومنين ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيصبح الكفار على مختلف طوائفهم وأنواعهم في معسكر واحد ضد المومنين ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ يكون مصير معسكر الكفر إلى جهنم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم بالعناد والمكابرة والعتو والاستعلاء.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المصرّين على الكفر ﴿إِنْ يَنتَهُوا﴾ عن إضلال الناس وعن محاربة الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مجال التوبة مفتوح أمامهم ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى العدوان والصدّ عن سبيل الله وإنفاق الأموال في ذلك ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ بأن يظهر الحق ويزول الباطل،

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وهو مبرّر الإذن بالقتال، أي لمنع الاضطهاد الديني إذا عادوا إلى العدوان كما ذكر في الآية السابقة، وحتى لا يفتنوا الناس عن دينهم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ يكون الناس أحراراً في الدين لا يعذبون بسبب عقيدتهم، ومن ذلك قوله تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦]، وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود ١١/١١٨]،

﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن محاولة فتنة الناس عن دينهم، وتركوا للناس حرية العبادة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وحسابهم على الله.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم ينتهوا عن الاضطهاد الديني، وعن محاولة فتنة الناس عن دينهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ﴾ هو ناصركم ومتولّ أموركم، فقاتلوهم ولا تبالوا بهم ولا تخافوهم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لا يضيع من تولاه، ولا يُغلب من نصره.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

٤١- هذه الآية تفصل وتفسر ما سبق ذكره بالإجمال في الآية (١)، وهي في آن واحد استمرار الخطاب من الآيات السابقة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فإذا غنمتم من شيء بنتيجة القتال، فاعلموا أن توزيعه كما يلي:

﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أنّ كل ما غنمتم من الكفار المحاربين ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ القاعدة أن خمس الغنائم توضع بتصرف الإمام أي القيادة، والباقي يوزع على المحاربين لكونهم من المتطوعين، وليس لهم رواتب أو مخصصات ثابتة، وقد عبّر عن الخمس أنه لله وللرسول أي يُصرف للمصالح

العامة ولشؤون الدعوة إلى الإسلام والمساجد والتعليم الديني وللحكومة ولذوي الحاجات من ضعفاء الأمة، والحكمة من ذلك أن الدولة الإسلامية التي تدير سياسة الأمة لا بد لها من مال تستعين به على شؤونها ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ إيماناً يقتضي منكم التسليم والإذعان لأوامره، أي إيمان عمل وتنفيذ، وليس بالكلام فقط ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ النبي ﷺ من الآيات، ومن التأييد بالملائكة المثبتين لكم في القتال ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ ويوم وقعة بدر، وسمّي فرقاناً لأنه بنصر المؤمنين قد فرق الحق من الباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع القلّة من المؤمنين، وجمع المشركين الأكبر عدداً وعدّةً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بأن ينصر من يشاء من عباده.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢)

٤٢- استمرار الخطاب من الآية السابقة، والمعنى: إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ عندما كنتم مرابطين بجانب الوادي الأقرب إلى المدينة، والعدوة جانب الوادي، والدنيا مؤنث الأدنى، أي الأقرب ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ الكفار في الجانب الأبعد من وادي بدر إلى ناحية مكة، والقصوى مؤنث الأقصى، أي الأبعد ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ الركب هم قافلة أبي سفيان القادمة بالتجارة من الشام، وهم أسفل منكم، لأنهم كانوا على شاطىء البحر، والمسلمون في الجبل بوادي بدر، وكان أبو سفيان قد غيّر طريق عودته وسار بحذاء البحر، بعدما وصلته إشاعة استعداد المسلمين للإغارة على قافلته ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وأهل مكة على القتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لاختلفتم في توقيت مكان وزمان المعركة، فقد كانت هنالك أهداف متغايرة للطرفين، فمن جهة خرجت قريش بجيشها لإنقاذ القافلة وللقضاء على المسلمين قضاء نهائياً، وكان نزولهم في جانب الوادي الذي به الماء وفوق أرض صلبة لا بأس بها، ومن جهة ثانية كان قرار المسلمين

إخلاء سبيل القافلة أصلاً، وبمحابهة قريش قبل أن يلتقوا بهم في بدر، وقبل أن يتبين لهم الفارق الكبير بين قوة وأعداد الطرفين، وأيضاً كان نزول المسلمين في جانب من الوادي لا ماء به، وأرضه رملية تغرز فيها أرجل المشاة ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي أنه تعالى جمع المسلمين مع عدوهم في مكان واحد، على غير ميعاد، ليحق الحق ويبطل الباطل، وليصير الأمر ظاهراً والبراهين واضحة للطرفين، ولا يبقى لأحد من الكفار ولا المؤمنين حجة ولا شبهة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الهلاك والحياة على المعنى المجازي، أي يستمر في الكفر من استمر فيه وهو على بصيرة من أمره أنه على الباطل، فهو هالك بالمعنى المجازي، لظهور الحجة أمامه ﴿وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ لأن الإيمان هو حياة النفوس، انظر آية [الأنعام ١٢٢/٦]، فيستمر المؤمن في إيمانه عن حجّة وبصيرة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لدعائكم واستغاثتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالكم وضعفكم وأنكم تستحقون النصر.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ يبدو أنّ هذه الرؤية كانت وقت خروج النبي ﷺ مع أصحابه من المدينة، أو بعد خروجهم وهم في الطريق إلى بدر، ولم يكن لدى المسلمين أي معلومات محددة عن قوة المشركين، وقد رآهم النبي ﷺ في منامه قليلاً، ويحتمل من مفاد الرؤيا أن بلاء العدو وبأسهم سيكون قليلاً، وليس أنهم قليلون في العدد، فأخبر أصحابه بذلك ممّا شجعهم ورفع معنوياتهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ لأحجمتم وجبنتم عن اللقاء ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ لوقع بينكم النزاع، فمنكم من يقول نطيع الله ورسوله ونمضي للقتال، ومنكم الضعيف الذي تثبط همته بمثل الأعذار التي جادلوا بها النبي ﷺ كما تقدم في الآية ﴿٦﴾، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ سلّمكم من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عليم بما يصيبها من الجزع والقلق الذي

يثبطها عن الإقدام والقتال، أو ما فيها من شعور الإيمان والتوكل والطمأنينة مما يحملها على الشجاعة والإقدام،

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ حيث أنه وقت اللقاء لم يعد هنالك شك في عدد الكفار الحقيقي الذي رآه المسلمون، ولما كان المسلمون في أول اللقاء بغاية الخوف والضعف والقلق وأنهم استغاثوا ربّهم حتى غشّاهم النعاس أَمَنَةً منه، الآية (١١)، وذهلوا عن الخطر المحدق بهم، فيكون مغزى تقليل عدد الكفار في أعين المسلمين مجازاً، أي إن المسلمين بعد ذلك لم يكترثوا لكثرة عدوهم، بعد أن استغاثوا ربهم واطمأنّوا لمدده، وفي الوقت نفسه كان ذلك تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، الآية السابقة، بأن كيد الكفار وبأسهم سيكون قليلاً ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ من جهة ثانية فقد ازدرى الكفار قوة المسلمين الصغيرة لمّا شاهدوها، رغم أنهم رأوها مثليهم رأي العين [آل عمران ١٣/٣]، وخالط نفوسهم الكبرياء والخيلاء والاستعلاء والزهوّ والغرور ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ بنصر الإسلام ومحق الكفر ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فلا ينفذ شيء في العالم إلا بقضائه وتقدير أسبابه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥)

٤٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من أعدائكم الكفار، في القتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ ولا تحدثوا أنفسكم بالفرار، لأن الله تعالى يؤيّد المؤمنين بنصره ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أثناء القتال ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الثبات في القتال، مع الإكثار من ذكر الله تعالى، هما السببان المعنويان للفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ باتباع تعاليم الإسلام في كل الأزمنة ﴿وَلا تَنَازَعُوا﴾ على الدنيا ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ لأن التنازع والفرقة مدعاة للفشل ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ تذهب قوتكم وتزول دولتكم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على ما تلاقون من المصاعب والشدّة، وما تلاقون من بأس عدوكم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالمعونة والتأييد، والله غالب على أمره.

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿وَلا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم كفار قريش خرجوا بجيشهم من مكة بقيادة أبي جهل يريدون البطش بالمسلمين، أو التفاخر بقوتهم أمام العرب، بعد أن علموا بنجاة قافلة أبي سفيان ﴿بَطَرًا﴾ البطر الطغيان في النعمة والغطرسة بها ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ كي يرى الناس قوتهم وبأسهم وكثرتهم فيثنوا عليهم، أي لأجل الثناء والإعجاب والتلبيس على الحقيقة ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصدّون عن الإسلام بحمل الناس على عداوة المسلمين من جهة، وبحرب المسلمين ومحاولة طمس دعوتهم من جهة ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ محيط بهم علماً وسلطاناً فيجازيهم على أعمالهم في الدنيا بمقتضى سننه في الخلق، وفي الآخرة.

والقاعدة العامة التي تفيدها الآية نهي المسلمين، في كل الأوقات، عن الخروج للحرب بطراً ومفاخرةً، أو بهدف تحقيق أمجاد فارغة.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ بوساوسه للمشركين ﴿وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ جرّأهم بوساوسه على المسلمين وعلى حلفائهم، حتى خرج أبو جهل بجيشه متبجحاً يريد أن يُري العرب قوة وجبروت قريش

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ وهو مجاز، لأن الجار عند العرب يدفع عن جاره أنواع الضرر، والعرب تقول أنا لك جار، أي أمنع الغير من الوصول إليك بضرر ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ﴾ رأوا بعضهم بعضاً والتقوا ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ تراجع، والنكوص على العقبين مجاز، والمعنى أن وساوسه في حثّ المشركين وتحريضهم لم تعد ذات أثر وقت اللقاء، لأن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، الآية (١٢)، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا التعبير الرمزي لوساوس الشيطان، وخذلانه أتباعه، كما هي عادته، مذكور بعمومه في آية [الحشر ١٦/٥٩].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهذا القول أيضاً بنتيجة وساوس الشيطان للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، فمن جهة زيّن الشيطان لكفار مكة أعمالهم، وحثّهم على الخروج للقاء المسلمين وألقى في روعهم أن النصر سيكون لهم، ومن جهة ثانية ثبّط المنافقين وضعاف النفوس في المدينة من مسلمي الأوس والخزرج حتى تخلفوا عن الانضمام لجيش النبي ﷺ بغير عذر وقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ استخفّوا بالمسلمين وسخروا منهم لخروجهم قليلي العدد والعدّة في محابهة جيوش قريش وقوتها الكبيرة، واعتبر المنافقون ذلك من قبيل خفة العقل والاغترار بالدين، ولا شك أن هذا القول كان في المدينة قبل الخروج للقتال، ولم يكن عند التلاقي لأن المنافقين لم يشهدوا قتال بدر، وهذه الآية من جملة الأدلة أن المسلمين كانوا قد حسموا أمرهم على لقاء جيش المشركين قبل خروجهم من المدينة، وأنهم لم يخرجوا للهجوم على قافلة أبي سفيان -راجع الخلفية التاريخية- ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في نصر عباده المستحقين الذين اتخذوا للأمور أسبابها ثم توكلوا عليه، وذلك ما لا يعرفه المنافقون ومرضى القلوب.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠)

٥٠- بعد أن ذكرت الآيات الثلاث السابقة حال الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم، وذكرت قول المنافقين ومرضى القلوب الذين سخروا من خروج المسلمين للقتال، تبين هذه الآية كيف تكون حال هؤلاء وأمثالهم من المتكالبين على الدنيا عند الوفاة، وما يعرض لهم من العذاب في أول دخولهم بعالم الغيب: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرسول، أو أيها القارئ، أو السامع ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي لرأيت أمراً فظيعاً، وهو من عالم الغيب الحاصل بأيدي الملائكة الذين يتوفّون الكفار، ولا يقتضي أن يراه الناس الذين يحضرون الوفاة، وقد ذكر الرازي أن روح الكافر إذا خرجت من جسده فهو لكفره لا يشاهد في عالم الآخرة إلاّ الظلمات، ولشدة حبه للدنيا وتمسكه بها لا ينال من مفارقته لها سوى الآلام والحسرات، فهاتان الجهتان هما المراد من قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ لأن الكفار يفزعون لما هم مقبلون عليه من عذاب الآخرة، وهم أيضاً في أشد الحزن والحسرة على دنياهم التي يفارقونها ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وهو قول الملائكة لهم في الآخرة،

ولا يلزم أن تقتصر الإشارة في هذه الآية على قتلى بدر من كفار قريش، إذ لا يمنع انطباقها على وفاة الكفار في كل وقت، خاصة أن الآيات التالية حتى الآية (٥٥) تشير إليهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١)

٥١- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذقتم، وتذوقون، وكراهتكم لقاء الآخرة، وشدة تعلقكم بالدنيا، سببه ما قدمت أيديكم من المعاصي، أي ما كسبته أيديكم في الدنيا فقدمتموه إلى آخرتكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يظلم أحداً من خلقه، لقوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨]، ولأن عاقبة المرء في الآخرة ليست سوى نتيجة طبيعية لما كان عليه في دنياه،

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الدأب هو العادة والمواظبة على الشيء، والمعنى أن دأب هؤلاء الكفار من مشركي قريش وغيرهم، مثل دأب آل فرعون ومثل دأب الأقوام الكافرة من قبلهم ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كان دأبهم جميعاً هو الكفر بآيات الله لما جاءتهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وتلك سنّته تعالى في خلقه، أن يأخذ الكفار بسبب ذنوبهم، وينصر رسله وعباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فلا يفوته ظالم، ولكل شيء أجل، وفي الحديث: ((إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى سنته تعالى التي لا تبديل لها، أن يأخذ الكفار بذنوبهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ وهي نعمه تعالى عليهم ببعث الرسل، وبالهداية، وبالعقل، والنعم المادية، وتمكينهم في الأرض، فإن كفروا تلك النعم بأن لم يستفيدوا منها، ولم يستخدموها بالطريق الصحيح، كان ذلك سبباً لانحطاطهم أو هلاكهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من اتباع العقائد الفاسدة، وما يترتب على فساد العقيدة من تدهور الأخلاق وضلال العمل، وهذه السنّة مطّردة في الأمم فهي قانون اجتماعي، وهي أيضاً في الأفراد، سوى أنها قد لا تكون مطردة فيهم لقصر أعمارهم عن بلوغ أثر التغيير غايته ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المكذّبون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون وما يستحقون.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٥٤)

٥٤- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي إن دأب تلك الأقوام الذين لم يغيّروا ما بأنفسهم، مثل دأب آل فرعون، ومثل دأب الأقوام الذين كانوا قبلهم ممّن كذّبوا بالآيات بعدما جاءتهم، فكان الهلاك مصيرهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كفروا نعمه تعالى فحلّ بهم الهلاك، كما هي سنة الله المطردة في الخليقة ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ كما أهلكنا قبلهم من الأمم بذنوبهم ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ كلّ منهم كانوا ظالمين: كفار مكة، وآل فرعون، والأقوام من قبلهم، جميعهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا غيرهم بالأذى والتحبر، وقد وصفتهم الآية التالية أنهم من شر الدواب:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استخدام الفعل الماضي يفيد أنهم مصرّون على الكفر، والتعبير عنهم بالدواب كونهم لا يستفيدون من ملكاتهم العقلية في التوصل إلى الحقيقة، وليس عندهم الاستعداد للإقرار بها رغم الدلائل والبراهين، وذلك سبب عدم إيمانهم، وهم شرّ من الدواب لأن الدواب لا تملك العقل مثلهم ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بسبب اتخاذهم مواقف مسبقة وجمودهم على التقليد، ومن ثمّ عدم تقويمهم الرسالة الإسلامية من حيث جدارتها وصحتها، وقد وصفتهم الآية (٢٢) بأنهم لا يعقلون، أي لا يستخدمون عقولهم، ثم بيّن تعالى في الآية الآتية أنهم اليهود خاصة:

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦)

٥٦- استمرار الخطاب من الآية السابقة، إن شر الدواب عند الله الذين كفروا، و منهم على سبيل المثال الذين عاهدت من اليهود:

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ أيها النبي، وهم يهود الحجاز من بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر، عقد معهم النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة عهوداً أقرهم فيها على دينهم، وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدأ بنو قينقاع بنقض العهد بعد عودة الرسول ﷺ من

بدر، وهددوه وأظهروا له العداوة والبغي والحسد، وبعثوا إلى حليفهم من الخزرج عبد الله بن أبيّ كبير المنافقين يطلبون منه النصرة والخروج على النبي ﷺ، فبادرهم النبي ﷺ بالحصار وأجلاهم عن حصونهم إلى بلاد الشام،

ثم نقض العهد من بعدهم بنو النضير، بعد وقعة أُحُد، وحاولوا قتل النبي ﷺ، فأمرهم بالجلاء عن المدينة وأن لا يساكنوه فيها، فلمّا أبوا وأعلنوا العصيان وطمعوا بنجدة كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ حاصرهم المسلمون وأجلوهم عن حصونهم وارتحل قسم منهم إلى خيبر وسكن الباقون في أريحا بفلسطين، انظر سورة [الحشر ٥٩/٢-١٧]،

وأما بنو قريظة، فكانوا أشد اليهود عداوة للنبي ﷺ وقد نقضوا العهد وغدروا بالمسلمين إذ حالفوا قريش والأحزاب، أثناء وقعة الخندق، انظر سورة [الأحزاب ٣٣/٩-٢٧]، وفي رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ حاصرهم بعد ذهاب الأحزاب حتى استسلموا وقبلوا أن يحكم فيهم حليفهم السابق سيد الأوس سعد بن معاذ ، فحكم أن تقتل الرجال منهم وتسبى الذرية وتقسم الأموال، فقتل منهم ٦٠٠-٧٠٠ رجل، غير أن رواية ابن إسحاق هذه لا يمكن الوثوق بإسنادها، رغم أن الواقدي وابن سعد نقلاها عنه فيما بعد، إذ لاحظ العالم بركات أحمد في كتابه "محمد واليهود" أن أبا بكر بن شهاب الزُهري، الذي سبق ابن إسحاق في كتابة السيرة، لم يذكر هذه الحادثة، كما لاحظ أيضاً أن اليهود أنفسهم لم يذكروها في تاريخهم، ومن غير الطبيعي وغير المعتاد عند اليهود، ألاّ يكتبوا عن أحزانهم، ناهيك عن تضخيمها في حال حدوثها، ومن الجدير بالذكر أن مجموع قتلى المسلمين وغير المسلمين في جميع حروب النبي ﷺ لم يكد يبلغ الخمس مئة.

وأما يهود خيبر فكان من أمرهم السعي لتأليف الأحزاب، وكانوا سبب وقعة الخندق، فغزاهم النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، وظفرَ بهم بعد حصار شديد لحصونهم، وبذلك زالت قوة اليهود من بلاد الحجاز كلها،

﴿وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يتّقون عواقب غدرهم ونقضهم العهود، ولا يتقون عواقب إصرارهم على الكفر.

ويُلاحظ أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ دليل على أن الخيانة ونقض العهود سمة متأصلة عند اليهود عامةً، وغير مقتصرة على يهود المدينة والحجاز وقت البعثة الإسلامية، ولا تزال فيهم إلى يومنا هذا، راجع شرح آية [البقرة ٢/٤٤]، ولذلك وبعد إصرار الكفار من أهل الكتاب على الكفر، بل على محاربة الإسلام، أمر النبي ﷺ بإجلاء اليهود والنصارى عن جزيرة العرب، إذ يُخشى من إحياء عباداتهم ومعابدهم وطقوسهم وشركهم إذا هم أقاموا فيها، روى أحمد من حديث أبي عبيدة عامر بن الجراح قال آخر ما تكلم به النبي ﷺ: ((أخرجوا يهود الحجاز ونجران من جزيرة العرب))، وروى أحمد ومسلم والترمذي عن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً))، وروى أحمد والشيخان من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ أوصى عند موته بقوله: ((أخرجوا المشركين من جزيرة العرب))، وأخرج مالك في الموطّأ عن ابن شهاب، وأخرج أحمد في مسنده عن عائشة، أنه ﷺ قال: ((لا يجتمع دينان في جزيرة العرب))، وروى أحمد من حديث عائشة قالت: آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قال: ((لا يبرك بجزيرة العرب دينان)).

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ إذا أخذتهم في الحرب وظفرت بهم، بعد خيانتهم ونقضهم العهود كما سبق ذكره، وهو السبب المبرر لحربهم، لأنّ حروبه ﷺ كانت كلها دفاعية ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ اجعلهم عبرة لغيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلّ من خلفهم يذّكرون العبرة من عاقبة نقض العهود، وفي ذلك إشارة أنّ اللجوء إلى الحرب يكون لضرورة اجتماعية بهدف دفع المضار ولمنع البغي والعدوان، وأنها ليست مرغوبة لذاتها أو لأمجاد الدنيا.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ بينك وبينهم عهد ﴿خِيَانَةً﴾ إذا خفت منهم نقض العهد بأن ظهرت منهم مؤشرات واضحة على الخيانة ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أظهر لهم، لقاء خيانتهم، نبذ العهد بشكل واضح ومكشوف، ولا تبدأهم بالحرب وهم يتوهمون بقاء العهد، كي لا يكون من جانبك شائبة خيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ في العهود، ولو في حق الكفار.

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ممن ينقضون العهود، لا يحسبنّ أنهم ﴿سَبَقُوا﴾ أي لا يحسبون أنهم سبقونا ونجوا من عقابنا، بنتيجة نقضهم العهود وكفرهم وشركهم وحشدهم القوى ضد المسلمين ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ لا يعجزون الله تعالى أي لا يفوتونه، فسوف يجزيهم وسوف يلقون عاقبة كيدهم وغدرهم.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ بعد أن بيّنت الآيات السابقة مشروعية عقد المعاهدات مع غير المسلمين، وأمرت بنبذ العهد إليهم على سواء في حال خيانتهم، وأنهم لا يعجزون الله، أمرت هذه الآية المسلمين بالاستعداد وحشد القوى في كل وقت لردع العدو الذي لا يرعى العهود ما دام المسلمون ضعفاء ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ كناية عن المرابطة أي البقاء في حالة استعداد، أي أعدّوا لهم من القوى ما يلزم للمرابطة ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهو الهدف من حشد القوى والمرابطة، أي لردع العدوان، لأنّ المعاهدة مع الآخرين يجب أن يكون من موقف قوة، وليس من موقف ضعف، حتى يرتدع العدو ويستتب السلام ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ من الأعداء

غير المكشوفين ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ من المال والموارد والجهد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للإعداد للقوة وردع العدوان ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه من الله تعالى ﴿وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ فلا يلحق بكم ظلم، ولا اضطهاد من العدو، ولا إخراج من الديار.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١)

٦١- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ إن مالوا عن الحرب إلى السلم والصلح، بعد أن وقعت الرهبة في قلوبهم من قوة المسلمين ومرابطتهم واستعدادهم، فاجنح لها أيها الرسول ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوّض أمرك إلى الله، ولا تخف من مكرهم وخداعهم، والمعنى أن المسلمين أولى بقبول السلم من غيرهم، لمنع سفك الدماء، ولإعطاء السلم فرصة كي تنمو ثماره، ولينتشر الإسلام بالقناعة والقدوة، وقد كان ذلك دأب المسلمين في جميع فتوحاتهم يقبلون من خصومهم أول بادرة للسلم والصلح، ويبرمون معهم المعاهدات بأكرم الشروط وأشدها تسامحاً وقد كانت لهم اليد العليا، ولم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ عليم بنيّاتهم، فيجازيهم بما يستحقونه ويرد كيدهم.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بجنوحهم للسلم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ يكفيك شرّ خداعهم، والمعنى أنهم إن صالحوا على سبيل المخادعة وحب قبول الصلح، لأن الحكم فيه يُبنى على الظاهر، والصلح لا يكون أقوى حالاً من الإيمان، فإذا كان قبول الإيمان يُبنى على الظاهر لا على الباطن، فهاهنا أولى ﴿الرازي﴾، ولأنه في النتيجة يكون مكرهم السيىء وبالاً عليهم، لقوله تعالى ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر ٣٥/٤٣]، والخلاصة أن عرض السلام لا يُرفض بلا دليل ولمجرد شبهة أو شك، خاصة بعد أن يعدّ المسلمون من القوة ومن الرباط ما يستطيعون به ردع العدو (الآية ٦٠) فيأمنون غدره ﴿هُوَ الَّذِي

﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ ليس فقط في بدر، بل كان ﷺ مؤيداً في سائر أموره حتى ظهر أمر الإسلام ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بتسخير المؤمنين لنصرته، ثم بيّن تعالى في الآية التالية كيف أيّد نبيّه بالمؤمنين:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بين قلوب المؤمنين بعد أن كانوا كفاراً يقتل بعضهم بعضاً ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ وتلك من الآيات الباهرات، لأن قلوب العرب قبل البعثة جُبلت على الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة والانتقام، ثم إنّ قلوبهم ائتلفت على اتباع النبي ﷺ، ونشأت بينهم المحبة والمودة، وزالت عنهم العصبية، وحلّ محلها الحب في الله، والبغض في الله ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في كفاية رسوله والمؤمنين شر خداع الأعداء، حكيم في تأييده المؤمنين بالنصر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤)

٦٤- بعد أن وعد تعالى نبيّه بالنصر عند مخادعة الأعداء، وعده بالنصر والظفر مطلقاً في كل الأحوال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ وحده يكفيك ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حسبهم الله أيضاً هو كافيهم، وهو غير ما سبق في الآية (٦٢) بقوله ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فذلك معناه: إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم، أما معنى هذه الآية فهو: الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين في كل الأحوال، فالمعنى في هذه الآية عام، وهو كفاية عامة في كل ما يحتاج إليه النبي ﷺ ويحتاج إليه أتباعه في الدين والدنيا،

ويمتنع أن يكون معنى الآية: الله والمؤمنون يكفونك، لأن من كان الله كافيه وناصره فلا يزيد حاله أو ينقص بسبب نصرة غير الله، ثم بيّن أنه تعالى وإن كان يكفي نبيَّه والمؤمنين بالنصر فلا يجب أن يتّكل النبي على ذلك إلاّ بشرط

تحريض المؤمنين على القتال، وبشرط أن يحصل منهم بذل النفس والمال في المجاهدة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض في اللغة أن يُحثّ الإنسان على شيء حتى يعلم أنه مقارب للهلاك إن لم يفعله، والمعنى: حثّهم أيها النبي على القتال ورغّبهم فيه لدفع العدوان عنهم، حتى لا يكونوا حَرَضاً، أو يكونوا من الهالكين بعدوان الكفار عليهم، إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين، والنتيجة أنهم لو تخلفوا عن القتال بعد حثّ النبي ﷺ لهم كانوا حارضين، أي هالكين ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد أن يصمد المسلمون للعدو ولو كانوا عشرة أضعافهم، وأن الغلبة تكون للمؤمنين بشرط الصبر والاجتهاد في القتال، وبشرط الفقه كما سيرد: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ الغلبة تكون للمؤمنين الصابرين على الكفار، ولو كانوا عشرة أضعاف المؤمنين، لأن الكفار لا يفقهون الحقيقة، من حيث إن الحياة الدنيا عندهم هي منتهى الأمل وغاية السعي، فهم لا يؤمنون بالبعث والآخرة، أمّا إن كانوا يهوداً أو مسيحية فهم مغرورون بنسبهم وبشفاعة أنبيائهم ولو لم يسعوا للآخرة سعيها، أما المؤمنون فيفقهون حقيقة الدنيا والآخرة، وأن الدنيا زائلة ويقدّمون للآخرة، كما يفقهون سنن الله تعالى في الخلق فيعدّون لأمور الحرب عدتّها ويتخذون الأسباب الدنيوية سلفاً بإعداد القوة والمرابطة (الآية ٦٠)،

وهذه القاعدة القرآنية، بأن يغلب المؤمنون عشرة أمثالهم، بالإضافة إلى تحريم الفرار من الزحف، الآيات (١٥-١٦) مهّدت السبيل فيما بعد للفتوحات الإسلامية التي امتدت خلال أقل من قرن من أقصى العالم القديم إلى أقصاه، على قلة أعداد المسلمين الذين انطلقوا من الجزيرة العربية بالمقارنة مع أعداد

جيوش فارس والروم وعدّتهم، وبالمقارنة مع عدد سكان البلاد المفتوحة وجيوشها.

وقد حقق المسلمون الغلبة على عدوهم عندما حاربوا الفرس والروم في فتوحات العراق وخراسان والشام ومصر وشمال إفريقية والأندلس وكانوا قلة، وكان يتفوق عليهم العدو أحياناً بأكثر من عشرة أضعاف، ففي وقعة مؤتة كانوا ثلاثة آلاف مقابل مئة وخمسين ألفاً، وفي وقعة اليرموك كان جيش الروم مئتي ألف مقابل أربعة وعشرين ألفاً من المؤمنين.

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿الآنَ﴾ أي في الظروف الراهنة لوقعة بدر، التي نزلت فيها هذه السورة، وهي ظروف مرحلية ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ فرخّص لكم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ بسبب قلة السلاح وقلة العتاد التي كان يعاني منها المسلمون وقتئذ ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ رخّص لهم تعالى أن يصمدوا أمام ضعفيهم عدداً، بدلاً من عشرة أضعاف، واشترط فيهم الصبر، وهذه الرخصة مؤقتة وخاصة بالمرحلة التي كان فيها مجتمع المسلمين في أوائل قوته، وقد صمد المسلمون في بدر وكانت لهم الغلبة أمام قوة تفوقهم ثلاثة أضعاف ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تأكيد على شرط الصبر لكي يكون تأييد الله وتوفيقه معهم، والواضح أن زعم البعض نسخ هذه الآية لما قبلها ليس له ما يبرره.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧)

٦٧- بعد أن أمر تعالى نبيّه أن يحرّض المؤمنين على القتال وألاّ ينهزموا أمام المشركين، ولو كانوا عشرة أمثالهم في الحالة العامة، أو مثليهم في حالة ضعف المؤمنين، على سبيل الرخصة، تعود هذه الآية إلى تذكير المؤمنين بمغزى بداية

السورة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ بأن الهدف من القتال هو إعلاء شأن الدين وليس جمع الغنائم ولا جمع فداء الأسرى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ والكلام، في الحالة الخاصة، عن أسرى المشركين الذين أخذهم المسلمون في بدر، والواضح أنّ الخطاب موجّه للمؤمنين لأنهم هم الذين سعوا لأخذ الأسرى، بدلاً من مطاردة فلول العدو، وليس النبي ﷺ ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ يجوز أخذ الأسرى بعد الإثخان في الأرض، وبقتال أثخنته الجراح أوهنته، والمراد بالإثخان إضعاف العدو حتى تصبح السيطرة والقوة والسيادة للمسلمين، وأصل معنى الثخانة الغلظة، ثم استعير للمبالغة في الإجهاز والإضعاف ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ العَرَض ما لا ثبات له، وفي الحديث: «الدنيا عَرَضٌ حاضر»، وسُمّيت منافع الدنيا ومتاعها عَرَضاً لكونها زائلة فكأنها تعرض ثم تزول، والخطاب في الآية لمقاتلي بدر بدليل قوله ﴿تُرِيدُونَ﴾، ولو قصد به النبي ﷺ لقال: تريد، ولأن إرادة عَرَضَ الدنيا صدرت منهم لا منه ﷺ، ولأن النبي ﷺ لم يرد عرض الحياة الدنيا، ومغزى الآية توبيخ المسلمين، لأنهم بعد أن تحقق النصر لهم انشغلوا بطلب الغنائم وأخذ الأسرى بدلاً من مطاردة فلول المشركين والإجهاز عليهم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي يريد لكم حسن ثواب الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فاقتضت حكمته تعالى أنكم إن طلبتم الآخرة لم يغلبكم عدوُّكم، وإن شغلتكم الدنيا ضعفت شوكتكم.

ذكَرَ المودودي أن بعض المفسرين، في محاولتهم لشرح هذه الآية، يعودون للحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وبين كل من أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، لبحث مصير أسرى بدر من المشركين وعددهم سبعون، إذ كان رأي أبي بكر إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية تؤخذ من كل منهم، يستعين بها المسلمون على حوائجهم، وكان رأي عمر أن تضرب أعناق الأسرى لما سبق لهم من الكيد للإسلام ومشاقة النبي ﷺ، وقد أخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر، وأن الوحي بعد ذلك نزل مغايراً لهذا الرأي،

غير أنه يمكن نقض أقوال المفسرين من حيث أنها لم تقدم أي شرح مقنع للآية (٦٨): ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأنهم أجمعوا أن المراد بقوله ﴿أَخَذْتُمْ﴾ هو الفداء، كما فهموا أن المسلمين، والنبي ﷺ في مقدمتهم، قد ارتكبوا إثماً يترتب عليه عذاب عظيم؟! مما لا يكاد يسيغه العقل، أضف إلى ذلك أن الخبر المشار له مبني على روايات آحاد.

فلو أخذنا بالاعتبار سبق نزول الوحي في سورة محمد بما يجب عمله في مثل هذه الحالة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ٤/٤٧]، يتضح أن الوحي كان قد أحلّ أخذ الأسرى وأخذ الفدية بعد الإثخان في العدو، وبالتالي فإن المسلمين لم يرتكبوا خطأً في بدر لجهة أخذ الأسرى، أو أخذ الفدية، وإنما كان الخطأ في الاهتمام بأخذ الأسرى قبل أن يتم الإثخان في العدو، إذ عندما تقهقر جيش المشركين ثم لاذ بالفرار، انشغل المسلمون بجمع الغنائم وأخذ الأسرى بدلاً من متابعة العدو والإجهاز عليه، ولو أنهم لاحقوا العدو وأجهزوا على فلوله لكان محتملاً أن يكون في ذلك ضربة قاصمة لقريش، واحتمال ألاّ يعود المشركون للانتقام منهم في أُحُد بعد عام، ولذلك نزل الوحي بلوم المسلمين على ما ظهر منهم، ومن الواضح أن اللوم موجّه إليهم فقط دون النبي ﷺ، ومغزى الآية هو التأكيد أن الهدف من حروب النبي ﷺ والمسلمين، ليس جمع الغنائم ولا جمع فداء الأسرى، وإنما القضاء على قوى الكفر، و لم تكن هذه هي المرة الأولى التي انصب اهتمام المسلمين فيها على الغنيمة، فقد سبق أن جادلوا النبي ﷺ قبل الخروج لبدر يريدون سلب قافلة أبي سفيان، ولولا كتاب من الله سبق يحلّ أخذ الأسرى وأخذ الفدية، آية [محمد ٤/٤٧]، لمسّهم فيما أخذوا عذاب عظيم ﴿انتهى كلام المودودي﴾.

غير أنّ محمد أسد فهم من الآية معنىً عاماً لا يقتصر على بدر ونتائجها، فقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ معناه أنه يمتنع على النبي ﷺ،

ومن ثمّ على كلّ المسلمين، اتخاذ أسرى، أو رقيق، إلاّ بنتيجة الجهاد، وهو معنى قوله ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ أي أن الجهاد هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن ينتج عنها امتلاك الأسرى، وبعبارة أخرى فإن اتخاذ الرقيق بوسائل سلمية، عن طريق البيع والشراء والاتّجار، أو الاستيلاء عليهم بنتيجة حروب جائرة، أو حروب اقتصادية، أو حروب دنيوية، غير دفاعية محرّم إطلاقاً، فهذه الآية ترقى عنده إلى تحريم نظام الرق، ما لم يكن اتخاذ الرقيق، الأسرى، ناتجاً عن حرب عادلة -جهاد-، وحتى في هذه الحالة فإنه يتوجب إطلاق سراح الأسرى، بفدية أو من دون فدية، بعد أن تضع الحرب أوزارها، آية [محمد ٤/٤٧].

﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا أن الله تعالى كتب لكم النصر في بدر، منذ الأزل، لقوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿الآية ٨﴾، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لحاقت بكم الهزيمة وعذابها، أي ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الغنائم والأسرى واهتمامكم بهم بدلاً من مطاردة فلول المشركين والإجهاز عليهم، ثم إن هذا العذاب تحقق بهم بالفعل في وقعة أُحُد للسبب ذاته، إذ بعد أن لاحت لهم بوادر النصر، ترك الرماة مراكزهم، وانشغل معظم المسلمين بالغنائم حتى فاتهم النصر، انظر آية [آل عمران ١٥٢/٣].

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا﴾ بعد أن انتصر المسلمون في بدر بتحقق علم الله تعالى الأزلي فيما هو كائن، مع ما ارتكبوه من الانشغال بجمع الغنائم وأخذ الأسرى، وترك فلول العدو، بيّن لهم تعالى حِلّ ما جمعوه من الغنائم وما أخذوه من فداء الأسرى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ انتهوا عن معصيته بعد ذلك، إشارة إلى المستقبل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما سبق منكم من الذنب، إشارة إلى الحالة الماضية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى﴾ أي أسرى بدر، ولا يمنع انطباق ذلك على جميع الأسارى الذين يأخذهم المسلمون في حروبهم مع المشركين عامةً، لما قالوا من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إن يجد الله في قلوبكم ميلاً إلى التصديق بحقيقة الرسالة ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ فيوفقكم إلى الهداية والإيمان، ويكون ذلك خيراً مما أُخذ منكم من الفداء، ومن كل ما خسرتموه في حروبكم ضدّ المسلمين ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سبق من ذنوبكم ويصلح آخرتكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من كفره ومن ذنوبه ﴿رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١)

٧١- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بإظهار دخول الإسلام وإبطان الكفر، أو بنقض ما عاهدوك عليه من إعطاء الفدية، أو نقض عهدهم ألاّ يعودوا لمحاربتك ولا إلى دعم المشركين ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ باتخاذ الأنداد والشركاء له، وبما أقدموا عليه من مشاقّة النبي ﷺ وإنكار بعثته، ثم محاربة النبي ﷺ يوم بدر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ الله تعالى أمكن النبيَّ ﷺ منهم، كما حدث في بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ عليم بنياتهم وبواطنهم، وما سيكون من أمرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في نصر المؤمنين ضد عدوهم، وفي جزاء الكفار على أعمالهم، والمغزى أنه على النبي ﷺ، وعلى المسلمين بالتالي، أن يقبلوا الظاهر من خصومهم إذا ادعوا الإسلام، أو ادعوا الكف عن مناهضة الإسلام، ولا يبنوا أحكامهم على الشك، حتى لو ظهرت الخيانة منهم بعد ذلك فإنّ الله تعالى يُمكن المؤمنين منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بـا لله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخـر ﴿وَهَاجَرُوا﴾ فـارقوا الأوطـان هربـاً مـن الاضطهـاد الديني، وحتى يستطيعوا ممارسة شعائر دينهم بحرية في موطن جديد ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ضاعت مساكنهم وأملاكهم التي خلّفوها وراءهم، فبقيت في أيـدي أعدائهم، ومن جهة ثانية ينفقون أموالهم على الدعـوة والجهـاد، ويشـتركون في الجهاد بأنفسهم، والإشارة الخاصة في هذه الآيـة للمسـلمين الذيـن هـاجروا مـن مكة إلى المدينة قبل الفتح، ولا يمنـع ذلـك مـن انطبـاق التعريـف علـى كـل مـن يهاجر في كل زمن من بلاد الاضطهـاد إلى بـلاد الحريـة الدينيـة ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا﴾ الإشـارة الخاصـة للأنصـار في المدينـة المنـورة الذيـن آووا ونصـروا النبي ﷺ والمهـاجرين معـه، والإشـارة العامـة في كـل الأزمنـة لكـل مـن يـؤوي المهاجرين إلى الله مـن الاضطهـاد الديـني ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي يتولّى بعضهم من أمور بعض ما يتولونـه مـن أمـور أنفسـهم عنـد الحاجـة، مـن تعاون وتناصر وتكافل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ وفي ذلك حثٌّ لهم على الهجـرة إلى بـلاد الحريـة الدينيـة، لكي يتخلصوا من الاضطهاد الديني من جهة، ولكي تتحقق الموالاة مـن تعـاضد وتآزر وتعاون بينهم وبين إخوانهم المسلمين في دار الهجـرة ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ إذا قاتلهم الكفـار واشتد الاضطهـاد الديـني عليهـم، فعندئذ يتعين على المسلمين في دار الإسلام نصرتهم، وهو الاستثناء الوحيـد مـن قوله ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿إِلَّا عَلَى قَـوْمٍ بَيْنَكُـمْ وَبَيْنَهُـمْ مِيثَـاقٌ﴾ فهـؤلاء يجـب الوفـاء بعهدهـم، حتـى لـو اضطهـدوا المسـلمين الواقعـين تحـت سلطتهم، لأن الإسلام يحرّم نقض العهود والخيانة والغدر، وفي هذه الحالة يمكن

اللجوء إلى المفاوضات للتوصل إلى حلول مقبولة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيحاسبكم بأعمالكم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لأن الكفر قاسم مشترك بينهم، ويترتب على ذلك أنهم يتآزرون مع بعضهم البعض ضد الإسلام، ولا يودّون الخير للمسلمين، قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران ٣/١٢٠]، وهذا بالطبع موقف المجتمعات الكافرة تجاه المسلمين، وليس بالضرورة موقف كل فرد منهم ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ من التعاضد والإيواء والنصرة بين المسلمين بعضهم بعضاً كما ورد في الآية السابقة، وتجنّب موالاة المسلمين للكفار ضد إخوانهم المسلمين ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ﴾ أي في هذه الحالة قد يُفتن المسلمون عن دينهم لوقوعهم تحت الاضطهاد الشديد، دون أن يكون من ينصرهم من إخوانهم، كما حدث في البوسنة والهرسك وكوسوفو، وقد تُضطر مجتمعات كاملة منهم للتحول عن الإسلام كما حدث في الأندلس بعد زوال دولة الإسلام عنها، وكما يحدث الآن في العديد من بقاع العالم تحت وطأة الهجمات الكنسية التبشيرية ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بنتيجة الفتنة، ومن ذلك تفكك المسلمين وضعفهم ووقوعهم تحت هيمنة واضطهاد أعدائهم،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في كل الأزمنة، وليس المهاجرين من مكة قبل الفتح فحسب ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا﴾ في كل الأزمنة أيضا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدّقوا إيمانهم بالعمل، وليس بمجرد الكلام والادّعاء ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يتجاوز تعالى عن سيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في نعيم الجنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ أي في أي وقت من الأوقات ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ في الموالاة والنصرة والتعاون ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في ولاية الرحم والقرابة، فهي مقدَّمة على ولاية الإيمان والهجرة، أي إن القريب ذي الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاية قريبه وبرّه ومعونته ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيحكم بما هو في صالح العباد.

* * *

سورة التوبة -٩-

مدنية

مُقَدِّمَة

نزلت سورة التوبة في السنة التاسعة من الهجرة، في المدة التي سبقت حملة تبوك وخلال الحملة وبعدها، واشتُقّ اسم السورة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ (١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧)، وهي أيضاً تُسمّى سورة براءة لقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (١)، ويلاحظ بالمقارنة مع بقية سور القرآن الكريم أن هذه السورة لا تبدأ بآية البسملة ﴿بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لأن آية البسملة لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور، وقد أمر النبي ﷺ بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال ولم يأمر أن تبدأ بآية البسملة، ثمّ كان هذا سبباً لاختلاف بعض الصحابة في حقيقة سورتي الأنفال والتوبة، أهما سورة واحدة أم سورتان؟ فقال بعضهم هما سورة واحدة، لأن كلتيهما نزلت في القتال والعهود، ومجموعهما مئتان وست آيات فتكون هذه السورة السابعة من الطوال -ابتداءً من البقرة وانتهاءً بمجموع الأنفال والتوبة-، مع العلم أنه انقضت سبع سنوات بين نزول الأنفال ونزول التوبة، ومن الصحابة من قال: بل هما سورتان، واستنتجوا من عدم بداية سورة التوبة بالبسملة دلالة على أن البسملة آية مستقلة بذاتها، لأنّ بعض الناس يتنازعون في كون ﴿بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من القرآن أم لا.

الخلفية التاريخية

سورة التوبة ذات علاقة بالأحداث التي تلت صلح الحديبية (ذي القعدة العام ٦ هجرية)، فخلال مدة عامين بعد الصلح أخذ الإسلام ينتشر سلماً وتزداد قوته في الجزيرة العربية بصورة كبيرة، ممّا أدّى إلى جزع قريش ونفاد صبرها، فنقضت شروط الصلح بأن زودت بالسلاح حلفاءها من بني بكر وظاهَرَتْهم على حلفاء النبي ﷺ من بني خزاعة حتى اعتدوا عليهم، وقتلوا منهم، فلم يمهل النبي ﷺ قريشاً أن تحشد قواها للعدوان فبادرها بفتح مكة (رمضان العام ٨ هجرية)، ثم جمعت الجاهلية فلولها في محاولة أخيرة للقضاء على المسلمين في وقعة حنين (شوا ل العام ٨ هجرية) فلحقت بها الهزيمة، ومن ثمّ دخلت الجزيرة العربية بكاملها في الإسلام خلال عام واحد بعد وقعة حنين، عدا جيوب محدودة متفرقة منها.

وقد ساهم في نجاحات المسلمين الأحداث التي تمت على الجبهة الشمالية في سورية قبل فتح مكة بأربعة شهور، ففي شهر (جمادى الأولى العام ٨ هجرية) بعث النبي ﷺ قوة مكونة من ثلاثة آلاف رجل لمجابهة تحدي بيزنطة وقبائل العرب المتحالفة معها بعد أن قتلوا رسل النبي التي تدعوهم إلى الإسلام، وفي مؤتة كان اللقاء بين قوة المسلمين الصغيرة من جهة، وبين قوة ضخمة من الروم والعرب الغساسنة من جهة ثانية قيل إن عددها بلغ مئة وخمسين ألفاً، وحتى لو كان هذا الرقم مبالغاً فيه فالنتيجة أن المسلمين تمكنوا من قتال عدوهم ثم الانسحاب من المعركة دون أن يحقق الروم نصراً حاسماً عليهم.

وكانت بيزنطة قد توجسّت من انتشار الإسلام في جزيرة العرب، وخشيت من توحيد العرب في دولة قوية، فلم يشأ هرقل إمبراطور بيزنطة أن يترك أمر المسلمين يتعاظم، خاصة بعد فتح مكة وانتصار المسلمين في حنين، فاستعدّ مع حلفائه من عرب الشام لغزو المسلمين في المدينة وحَشَد الجيوش لذلك، ثمّ لم تلبث هذه الأخبار أن وصلت إلى النبي ﷺ و لم تنقض سوى ستة شهور بعد

عودته من حنين، فعزم على الخروج للقاء الروم في سورية كما هي عادته في أخذ زمام المبادرة دفاعاً لا عدواناً، و لم تمنعه ظروف الجفاف والحرارة الشديدة التي كانت سائدة وقتئذ في الحجاز، وأنّ وقت الحصاد كان قريباً، وعلى غير عادته في غزواته السابقة من كتمان أمره، وكتمان وجهة سيره، فقد جاهر النبي ﷺ في هذه المرة بالغرض من حملته وبعث في القبائل يدعوها للاشتراك معه في غزو الروم حتى اجتمع لديه في المدينة ثلاثون ألف رجل خرج بنفسه على رأسهم (رجب العام ٩ هجرية)، وكانت أكبر قوة عددية اجتمعت له في تاريخ البعثة، فلمّا وصل بالجيش إلى تبوك تبيّن أن الروم تخلوا عن خطتهم لغزو المدينة، أو أنهم صرفوا النظر عنها مؤقتاً، ويبدو أنّ هرقل انسحب و لم يجرؤ على المجابهة عندما علم أنّ النبي ﷺ جاء بنفسه على رأس جيش المسلمين، وفي الحديث: ((نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر)) رواه البخاري وغيره، والتزاماً بالموقف الدفاعي الذي اتخذه النبي ﷺ طيلة بعثته، عاد بالجيش إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين يوماً عقد خلالها المعاهدات مع قبائل العرب التي كانت متحالفة مع الروم، وبذلك امتدت سلطة المسلمين إلى حدود بلاد الشام.

وخلال الإعداد لغزوة تبوك، بدا من ضعاف الإيمان والمنافقين في المدينة ومن بعض الأعراب، تثاقلهم وكراهتهم الاشتراك في حرب الروم مع النبي ﷺ، وقد فصّلت السورة العبر من ذلك.

وبعد العودة من غزوة تبوك بشهور قلائل -أي في شهر (ذي القعدة العام ٩ هجرية)- بعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق (ر) إلى مكة أميراً على الحج، ثم أتبعه بعلي ابن أبي طالب (ر) ليقرأ على الناس مطلع سورة براءة إنذاراً لمن نقض العهود من المشركين، ذلك أن النبي لمّا خرج إلى غزوة تبوك وتخلف عنه المنافقون من أهل المدينة ومن الأعراب، وأشاعوا الشائعات، جعل المشركون ينقضون عهودَهم، فنبذ رسول الله ﷺ العهدَ إليهم.

ارتباط السورة بما قبلها

الفارق الزمني الكبير بين نزول السورتين، مع ترتيبهما القرآني المتتالي، من مظاهر إعجاز القرآن الذي كان نزوله منجماً على النبي ﷺ على مدى ٢٣ عاماً من بعثته الشريفة ومع ذلك كان يأمر، بحسب الوحي، بترتيبه ترتيباً متماسكاً معجزاً مغايراً لترتيب النزول،

فقد انقضت سبع سنوات بين نزول سورة الأنفال بعد وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وبين نزول سورة التوبة قبل غزوة تبوك وخلالها وبعدها في السنة التاسعة من الهجرة، غير أن هنالك ارتباطاً واضحاً في موضوعهما، إذ اشتملت سورة الأنفال على تحليل كامل لأول مواجهة عسكرية حاسمة بين قوى الإسلام وقوى الكفر، كما وضعت أسس الجهاد الإسلامي التي بموجبها انتشرت دولة المسلمين ودعوتهم -خلال أقل من قرن من الزمان- من أقصى العالم القديم في الصين، إلى أقصاه في الأندلس.

ثم بعد غزوة مؤتة (جمادى الأولى ٨ هجرية)، وفتح مكة (رمضان ٨ هجرية)، ووقعة حنين (شوال ٨ هجرية)، وغزوة تبوك (رجب ٩ هجرية) وانسحاب هرقل الروم، ثم نقض المشركين في جزيرة العرب عهودهم، بعد ذلك كله نزلت سورة التوبة تبين سياسة الإسلام تجاه كل من الطرفين: الناس خارج جزيرة العرب، والمشركين داخلها، وفيها عبر ودروس أخلاقية للمسلمين تبين لهم المواقف العملية المترتبة عليهم لتحقيق سياسة الإسلام الداخلية والخارجية،

ونلاحظ أن سورة الأنفال تأمر المؤمنين أن يستجيبوا لله وللرسول عندما يدعوهم لما فيه حياتهم من الجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٨/٢٤]، ثم تحذرهم سورة التوبة من ترك الجهاد والركون إلى الدنيا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [٩/٣٨]،

وهنالك مقارنة واضحة بين آخر سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال ٨/٧٥]، وبداية سورة التوبة بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة ٩/١]، أي على النقيض من كون جماعة المؤمنين المهاجرين المجاهدين منكم، فإنّ المشركين الذين نقضوا عهودهم معكم بُرَآءُ منكم.

وفي بداية سورة التوبة قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة ٩/١]، إشارة أيضاً لقوله تعالى في سورة الأنفال المتقدّمة: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال ٨/٥٥-٥٧]،

محور سورة التوبة

بيان قاعدة مهمة في الدعوة وطريقتها وأن التقليد غير كافٍ في الدين، وأن لا بد من النظر والاستدلال والحجة والدليل، ولذا وجب إمهال المشركين لأجل التفكر بعد أن يسمعوا القرآن: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)،

وأنه لا يمكن المساواة بين الشكليات وبين الجوهر، بين مجرّد القيام بالشعائر مهما كانت فاضلة، كونها مقتصرة على الشكل والمظهر، وبين الإيمان اليقيني والجهاد والتضحية، وعلى أية حال فإنّ سقاية الحاج وعمارة المسجد إنّما توجب الفضيلة إذا صدرت عن المؤمن، أمّا إن صدرت عن غير المؤمن فلا يستفيد منها: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)،

ثم تبين أن مجاهدة الكفار والمنافقين إنما تكون بالحجة والفكر والإقناع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣)، وأما قتالهم فقد يضطر إليه المؤمنون بشروطه، وأنه يحرم التوصل معهم إلى حلول وسط في شؤون العقيدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)،

وأن الله تعالى لا يترك الناس على ضلالهم، بعد إذ هداهم بالفطرة، أو يعتبرهم ضالّين فيعاقبهم، إلاّ بعد أن تبلغهم الرسالة، ويبيّن لهم طريق الهداية بياناً واضحاً تامّاً: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥).

المواضيع الرئيسية في سورة التوبة

بعد فتح مكة وما تلاها من غزوة تبوك وانسحاب هرقل الروم، ثم نقض المشركين في جزيرة العرب عهودهم، بينت سورة التوبة سياسة الإسلام تجاه كل من الطرفين: الناس خارج جزيرة العرب، والمشركين داخلها:

١- الوفاء بالعهود مع المشركين، أو غيرهم، قاعدة إسلامية هامة، فالوفاء بالعهد من أصول البر ومقتضى الإيمان (الآية ٤)، إلا في حال نقضهم العهد أولاً (الآيات ١-٣)،

٢- جزيرة العرب يجب أن تكون خالصة للمسلمين دون غيرهم (الآية ٥)،

٣- إيضاح سياسة الإسلام تجاه مشركي جزيرة العرب (الآيات ١-٢٨)،

٤- إيضاح موقف الإسلام تجاه أهل الكتاب (الآيات ٢٩-٣٥)،

٥- إبطال النسيء (الآيات ٣٦-٣٧)،

٦- غزوة تبوك، وبيان ما ظهر خلالها من أصناف المنافقين وطبائعهم وجهالاتهم، مما هو عام في المنافقين في كل الأزمنة (الآيات ٣٨-١٢٩)، بالتفصيل التالي:

أ- الآيات (٣٨-٧٠): وصف أحوال المنافقين من أهل المدينة تجاه غزوة تبوك، الحث على النفير، تلكؤ المنافقين في الانضمام لغزوة تبوك، وبخلهم مع غناهم،

ب- الآيات (٧١-٧٢): موقف المؤمنين بالمقارنة مع المنافقين، وحسن ختامهم،

ج- الآيات (٧٣-٨٧): وصف أحوال المنافقين، الحث على مجاهدة الكفار والمنافقين، كونهم ماديين مصرّين على الكفر والنفاق،

د- الآيات (٨٨-٨٩): موقف الرسول ﷺ والمؤمنين معه، وحسن ختامهم،

هـ- الآيات (٩٠-٩٨): طباع المنافقين من الأعراب ﴿بعد المنافقين في المدينة﴾، والرخصة للضعفاء والمرضى والفقراء،

و- الآيات (٩٩-١٠٠): إخلاص المؤمنين من الأعراب، ومنزلة مَن هم أعلى منهم درجة من السابقين والتابعين،

ز- الآيات (١٠١-١١٠): الذين مردوا على النفاق من الأعراب والحَضَر، وآخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وآخرون مُرجَوْن، والذين اتخذوا مسجد الضرار،

ح- الآيات (١١١-١١٢): بشرى للمؤمنين العاملين العابدين،

ط- الآيات (١١٣-١٢٣): تحريم الاستغفار لمن مات على الكفر، أو لمن تبين إصراره على الكفر، والتوبة على المؤمنين، وتوجيههم لما يجب عمله،

ي- الآيات: (١٢٤-١٢٧): المنافقون الذين في قلوبهم مرض، انظر آيات [البقرة ٢/٦-٢٠]،

ك- الآيات: (١٢٨-١٢٩): مخاطبة العرب والناس جميعاً بمجيء رسول من أنفسهم حريص عليهم، فإن تولوا فالله تعالى رب الجميع، وهو أعلم بهم وبأعمالهم.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١)

١- ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استمرار الخطاب من آية [الأنفال ٨/٧٥]، أي على النقيض من كون المؤمنين المهاجرين المجاهدين هم من جماعة المسلمين، فهذه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فنقضوا عهودهم، ذلك أن النبي لمّا خرج إلى غزوة تبوك وتخلف عنه المنافقون وأشاعوا الشائعات، جعل المشركون ينقضون عهودهم، فنزلت سورة براءة بنبذ العهد إليهم بعد حملة تبوك، والخطاب في قوله ﴿عَاهَدتُّمْ﴾ عائد إلى المؤمنين، بمعنى أنّ الله ورسوله قد برئا من عهود المؤمنين مع المشركين الذين نقضوا عهودهم، وهذه البراءة أُعلنت لهم في حج عام ٩ للهجرة، الآية (٣)، راجع الخلفية التاريخية أعلاه.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (٢)

٢- ﴿فَسِيحُوا﴾ أيها المشركين، أي اذهبوا في الأرض حيث شئتم، فأنتم آمنون من القتل والقتال في مهلة أربعة أشهر، وأصل الفعل من السياحة، وهي السفر في الأرض بعيداً مع ما كان يتطلبه ذلك في زمانهم من الإقلال من الطعام والشراب، ولذا قيل للصائم سائح، لأنه يشبه السائح عندهم في تركه الطعام والشراب ﴿فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهي مهلة ناقضي العهد من المشركين، أي إن الله تعالى قد أحّلهم تلك المدة، فمن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر نقصت إلى الأربعة، ومن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر زادت إلى الأربعة، وللمشركين خلال هذه المدة أن يتفكروا ويحتاطوا لأمرهم، ولهم بعدها أن يختاروا إمّا الدخول في الإسلام، أو قتال المسلمين، أو مغادرة الجزيرة العربية، لأن جزيرة العرب يجب أن تكون خالصة للمسلمين دون غيرهم، راجع شرح آية [الأنفال ٨/٥٦]، والمدة بدأت من عاشر ذي الحجة عام ٩ للهجرة، وقت إعلان البراءة للمشركين في الحج، وانتهت في عاشر ربيع الثاني من عام ١٠

للهجرة، أما الذين حافظوا على العهود من المشركين فقد أمر تعالى المؤمنين إتمام كامل مدة العهد إليهم كما سوف يرد في الآية (٤)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أنتم في ملك الله وسلطانه حيثما كنتم وحيثما ذهبتم، وإن أصررتم على الشرك والعدوان لا تجدون مهرباً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ المصرّين على الكفر منكم تكون عاقبتهم الذل والهوان.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣)

٣- ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الأذان في اللغة هو الإعلام والإعلان بالشيء، ومنه الأذان للصلاة، أي إعلان وقتها ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ المعنى أن هذا الأذان أو الإعلام صادر من الله ورسوله إلى الناس، والمقصود بهم سكان جزيرة العرب ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ليكن هذا الأذان إلى الناس جميعاً، مؤمنين ومشركين، معاهدين وغير معاهدين، يوم الحج الأكبر، وهو يوم عرفة، لقوله ﷺ: «الحج عرفة»، لأن أهم أعمال الحج هو الوقوف بعرفة، وقيل هو يوم الأضحى يوم النحر، وقيل لأنّ العمرة هي الحج الأصغر ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهودهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضاً بريء من عهودهم، وهو مضمون الأذان بالبراءة المشار إليها في الآية (١)، والخلاصة، التأكيد على إعلان البراءة يوم الحج الأكبر ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون عن الشرك والكفر والغدر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ النفع يعود عليكم وحدكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة والإيمان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ فهو قادر على مجازاتكم، وأنتم تحت قهره ومشيئته، ولا تضرّونه شيئاً ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة، لأنه إن فاتهم عذاب الدنيا أو زال عنهم فلا يخلصون من عذاب الآخرة، وفي معنى البشارة قال الشيخ محمد رشيد رضا إنها ما يؤثّر في البشرة من الأنباء، إمّا بالتهلل وإشراق الوجه من السرور الذي تنبسط به أسارير الجبهة وتتمدد، وإمّا بالعبوس وتقطيب الوجه من الكدر أو الحزن أو الخوف.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤)

٤- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا الاستثناء من قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ﴾، وفيه التفات الخطاب إلى المؤمنين، وتقدير الخطاب: براءة من الله ورسوله، إلى المشركين المعاهدين ناقضي العهود، إلاّ الذين لم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ لم يحاربوكم ولم يحرضوا غيرهم على قتالكم ولم ينصروا عدوكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ المعنى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام، وهو من أصول البر ومقتضى الإيمان لقوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة ١٧٧/٢]، وقوله جلّ شأنه ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء ٣٤/١٧]، فلا يجوز نقض العهد إلا بانتهاء وقته ما دام الطرف الآخر محافظاً عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذي يتقون نقض العهود، ويتقون سائر المفاسد المخلة بالنظام والعدل.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥)

٥- ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ وهي الأشهر الأربعة المشار إليها في الآية (٢)، ومعنى انسلاخ الأشهر انقضاؤها، وهو استعارة، كما يُسلخ ويُكشط جلد الشاة الذبيحة من مكانه شيئا فشيئاً، ويستعمل للمكان وللزمان كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس ٣٧/٣٦]، لأن الزمان ينسلخ شيئاً فشيئاً كما ينسلخ الضوء عن جانب من الكرة الأرضية فيخلّف الظلام وراءه ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحلّ أو في الحرم، وها هنا تحديد لما يجب على المؤمنين القيام به بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وهو قتال المشركين وقتلهم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ تعبير عن محاصرتهم ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ لرصد تحركاتهم، ويلاحظ أنه قد أبيح

لهم أخذ الأسرى بعد أن كان محظوراً عليهم بقولـه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال ٦٧/٨] لتحقق شرط الإثخان وهو الغلبة والقوة والسيادة في الأرض، أي في جزيرة العرب ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ كما فرضها الإسلام ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة للفقراء ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوا قتالهم وأطلقوا أسراهم ودعوهم أحراراً في تحركاتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

هذه الآية التي يسمونها آية السيف، وقيل آية السيف هي: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ (٣٦)، وقيل هما معاً، ويزعمون أنها نسخت الكثير من آيات العفو والمسالمة والصلح وحسن معاملة الآخرين وضمان حرية الدين والإعراض عن المشركين والجاهلين، والصواب أنها لم تنسخ شيئاً لأن كلام الآية مخصص عن مشركي الجاهلية في جزيرة العرب دون غيرهم، ناهيك أن مبدأ النسخ غير مقطوع به وأقرب إلى البطلان راجع شرح آية: البقرة ١٠٦/٢]، وأما حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله))، فالمقصود بالناس سكان جزيرة العرب دون غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ (3) وقصد بهم أهالي جزيرة العرب، والناس لا يقصد بهم دوماً عموم البشر، كما في قوله تعالى: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال ٤٨/٨] وقصد بهم المهاجرين والأنصار في وقعة بدر، ولأن من مقاصد السورة أصلاً إيضاح أن تكون جزيرة العرب خالصة للإسلام والمسلمين، فمن لم يرغب من المشركين قبول الإسلام له أن يغادرها، وفي الحديث: ((لا يجتمع دينان في جزيرة العرب))، أخرجه مالك في الموطأ وأحمد في مسنده، وكان آخر ما عهد به قوله: ((لا يبرك بجزيرة العرب دينان))، لأن الجزيرة مهد الإسلام ومصدر قوته، فيُخشى من إحياء عبادات المشركين

والكفار ومن انتشار معابدهم وطقوسهم وشركهم إذا هم أقاموا فيها، راجع شرح آية [الأنفال ٥٦/٨]،

وأما الناس عامة خارج جزيرة العرب فليسوا مقصودين بالآية ولا بالحديث، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة ٢٥٦/٢]، والآيات عديدة في ضمان حرية العقيدة والنهي عن العدوان وترجيح الصلح كما في آيات [البقرة ١٩٠/٢-١٩٣]، [النساء ٩١/٤]، [الأنفال ٦١/٨]، [الممتحنة ٨/٦٠-٩]، والآيات أيضاً كثيرة جداً في أنّ الإسلام مبني على الدلائل والحجج والفكر والنهي عن التقليد، ممّا طبقه المسلمون عملياً في البلاد المفتوحة، وقد ضمنوا حرية الدين لأهل الكتاب، وفي الآية التالية مزيد من التأكيد والشرح عن هذا الموضوع:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)

٦- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ استجارك مَجاز من الجوار، لأن الجار عند العرب يدفع عن جاره أنواع الضرر، والعرب تقول: أنا لك جار، أي أمنع الغير من الوصول إليك بضرر، والمعنى إذا جاءك، أيها الرسول، أحد المشركين طالباً الأمان فاستجب له ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ وهو استثناء من الآية (٥)، لأنّ الكافر إذا جاء طالباً الحجة أو الدليل مستفهماً عن القرآن، فيجب إمهاله ويمتنع قتله وقتاله، حتى يسمع ما يريد من القرآن والدلائل والبينات، فإذا رفض الإسلام بعد ذلك يجب إيصاله إلى قومه أو إلى مكان يأمن فيه على نفسه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بإجارة مَن يريد مِن المشركين، وإتاحة الفرصة لهم لسماع القرآن وفهمه، بسبب أن المشركين جاهلون لا يعلمون القرآن ولا الإسلام حق العلم، والخطاب وإن كان في الأصل موجهاً للنبي ﷺ فهو من ثَمّ موجه للمسلمين للعمل به في كل وقت.

قال الرازي: "هذه الآية تدل على أن التقليد غير كافٍ في الدين، وأنه لا بد من النظر والاستدلال، لأنه لو كان التقليد كافياً لوجب عدم إمهال الكافر فيقال له إمّا أن تؤمن كما نؤمن وإمّا أن نقتلك، فلما كانت الآية تحرّم ذلك، بل أوجبت إمهال الكافر حتى يسمع كلام الله، كما أوجبت علينا أن نبلغه مأمنه، ممّا يدل أن التقليد في الدين غير كافٍ، وأن لا بد من الحجة والدليل، والإمهال لأجل التفكر".

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧)

٧- ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام إنكار مع التعجب، والخطاب للمؤمنين الذين جُبلوا على الوفاء بالعهود، إذ كان بعضهم عرضة لتشكيك المنافقين في موضوع نبذ عهود المشركين، والمعنى: بأية صفة وأية كيفية يثبت للمشركين، ناقضي العهود، عهدٌ عند الله ورسوله؟! والحال أنهم يتربصون بالمؤمنين كما ستبين الآيات التالية ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي بجوار المسجد الحرام عند الحديبية، وهم بعض بني بكر من كنانة ممّن لم ينقضوا العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين قريش يوم الحديبية ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ تأكيد على المبدأ الإسلامي بوجوب الوفاء بالعهد مع المشركين وغيرهم ما داموا ملتزمين به ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الغدر ونقض العهود.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨)

٨- ﴿كَيْفَ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة بعد عبارة الاستثناء المعترضة، والتقدير: كيف يثبت للمشركين، ناقضي العهود، عهدٌ عند الله ورسوله؟! والحال أنهم يتربصون بكم ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ إن تكن لهم الغلبة عليكم ويظفروا بكم ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً﴾ الإلّ هو العهد أو الحلف

أو العقد أو الجوار أو القرابة، والذمّة أيضاً العهد الذي يترتب على ضياعِهِ مَذمّة، والمعنى أن المشركين في حال ظفرهم لا يخافون عواقب سوء عملهم فيكم، ولا يراعون علاقات الجوار والقربى، ولا ما تستوجبه الأحلاف والعهود ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فلا تنخدعوا بمعسول الكلام منهم ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ يضمرون الشر والأذى إن قدروا عليكم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أكثرهم خارجون عن مقتضى العهود والمواثيق ناكثون لها، وأقلهم الموفون بعهودهم، لأنّ الفسوق في اللغة هو الخروج والانفصال،

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩)

٩- ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي تدعوهم إلى الإسلام والاستقامة والوفاء بالعهود ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أي شيئاً حقيراً من حطام الدنيا الزائل، وهو أهواؤهم ونزواتهم، وهذا شرح لسبب فسوقهم المذكور في الآية السابقة، أنهم استبدلوا شهواتهم ونزواتهم بآيات الله التي تحض على الوفاء والاستقامة، والخلاصة أنهم فضّلوا الدنيا على الآخرة ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ بسبب تهالكهم على الدنيا صدّوا الناس عن سبيل الله -الإسلام- من آمن به فعلاً ومن يريد الإيمان أو يُتوقّع منه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ساء عملهم الذي كانوا يعملونه من نبذ الآيات واتباع الشهوات والصد عن الإسلام.

﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١٠)

١٠- ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ وهذا سلوكهم مع المؤمنين عامّةً ﴿إِلاً وَلا ذِمَّةً﴾ لا يرعون مع عامة المؤمنين حقوق القربى والعلاقة والذمّة، والمغزى أن المشركين ناقضي العهود لا يرعون حقوق مُعاهديهم من المؤمنين، فمن باب أولى أنهم لا يرعون حقوق المؤمنين إطلاقاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ يعتدون على حقوق الذمة والقربى، ويبدؤون غيرهم بنقض العهود وبالظلم والعدوان.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَـاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١)

١١- ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر والغدر وعن الصد عن سبيل الله من آمن بـه، ومن يريد الإيمان، أو يُتوقع منـه ﴿وَأَقَـامُوا الصَّـلاَةَ وَآتَـوُا الزَّكَـاةَ﴾ كمـا سـائر المسلمين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكـم، وقـد أمـرت الآية (٥) بإخلاء سبيلهم في حال توبتهم، وها هنا تبين أنهم يصبحون إخواناً في الدين ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نبيّنهـا ﴿لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ﴾ الذيـن يتـأملون ويتفكـرون حتى يعلموا وجوه الحجـج والبراهين كمـا فصلتهـا الآيـات، بخـلاف الجـاهلين والمقلدين من الناس.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِـي دِينِكُـمْ فَقَـاتِلُوا أَئِمَّـةَ الْكُفْرِ إِنَّهُـمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ (١٢)

١٢- ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ من بعد عهدهم الـذي عقـدوه معكم، والآية تأكيد على البراءة، ويُحتمل أن يشمل المعنـى أيضـاً الذيـن ارتـدوا عن الإسـلام بعـد الدخـول فيـه ﴿وَطَعَنُـوا فِـي دِينِكُـمْ﴾ صـاروا يعيبـون الديـن ويستهزئون به ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ الأمر بالقتال ينطبق علـى نـاقضي العهـود دون غـيرهم، لأنـه لا ينفـع مـع أمثـالهم سـوى القتـال بعـد أن كشـفوا مـا في ضمائرهم من الشر، وأخرجـوه مـن حـيز النوايـا إلى حـيز التنفيـذ، وهـم لشـدة إصرارهم على الكفر صاروا كأنهم أئمّة له يقتدي الكفار بهم، فهم قادة الكفـر وحملة لوائه ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ لا أيمان حقيقية لهم يلتزمون بها، وهو سـبب الأمر بقتالهم أنّه لا يُعتدّ بأيمانهم ولا بعهودهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُـونَ﴾ وهـي النتيجـة المرجوّة من قتالهم، أن ينتهوا عن العـدوان وعـن الطعـن في الديـن، وليـس بمجـرد إيذائهم، والكلام لا يزال في مشركي الجاهلية بجزيرة العرب، بدليل الآية التاليـة، راجع شرح الآية (٥)،

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ تحريض للمؤمنين على قتال المشركين ناقضي العهد ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة، راجع آية (الأنفال ٨/٣٠)، ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾ بالعدوان ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأن النبي ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المنير، وألزمهم الحجة والبرهان، فقاتلوه لعجزهم عن معارضة القرآن، فهم البادئون بالقتال والبادئ أظلم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ المؤمن ينبغي أن يخشى الله، ولا يخشى أحداً سواه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إيمان يقين وإذعان.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ لأن النصر يحتاج إلى مجهود وعمل وتضحية من قبل المؤمنين، وليس بمجرد الدعاء والتمني ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ينزل بهم الذل والهوان ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فيكون تحقيق النصر على أيديكم بتوفيق من الله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ بنتيجة إعزاز الإسلام وهزيمة الكفر، بعد أن كان المسلمون تحت القهر والاضطهاد.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥)

١٥- ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا من الغدر والمكروه على يد المشركين ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من المشركين، لأن منهم من أسلم بعد ذلك وحسُن إسلامه، فقبل تعالى توبتهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أحاط علمه تعالى بشؤون خلقه، وما غاب عنهم ﴿حَكِيمٌ﴾ كل شيء يسير وفق حكمته البالغة في السنن التي وضعها في الخليقة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

16. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ المعنى أنّ الله تعالى لا يحاسب الناس بحسب علمه بالغيب منهم، وإنما بتحقق وظهور أفعالهم إلى حيز الوجود، ويلاحظ قوله ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ و لم يقل الذين آمنوا منكم، لأنّ الإيمان بمجرد الكلام لا يكفي، بل يجب أن يصدّقه العمل، ولأنّه تعالى يبتلي العباد بالمحن، وعليهم العمل والجهاد بالأموال وبالأنفس، راجع آية [البقرة ٢/٢١٤] و [آل عمران ٣/١٤٢]، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ لم يتخذوا وليجة، أي بطانة، من الذين يضادّون رسول الله ﷺ ويضادّون المؤمنين، والوليجة مشتقة من الولوج أي الدخول، فالداخل في القوم وليس منهم: وليجة، والمعنى نهي المؤمنين عن اتخاذ المشركين بطانة وحلفاء لهم ضد إخوانهم المؤمنين ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧)

١٧- قال الرازي في علاقة هذه الآية بما قبلها أنه تعالى بعد أن بدأ السورة بذكر البراءة من الكفار وفصّلها، ثم حكى عنهم شُبَهاً احتجّوا بها على المؤمنين في أن هذه البراءة غير جائزة، وأجابهم عليها، ثم في هذه الآية أجاب على زعمهم أنهم ذوو صفات حميدة من حيث كونهم عامرين للمسجد الحرام ويخدمون زوّاره، فقال جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ ليس ذلك من شأنهم ما داموا على الكفر، لأنّه كمن يجمع بين المتناقضات، ومعنى عمارة المسجد التردد عليه وزيارته والاعتكاف فيه للعبادة، أو القيام عليه بالتنظيف والترميم والخدمة والصيانة، ومنه قوله تعالى ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور ٥٢/٤] أي بزوّاره، وكذا يقال لساكن الدار: عامر، أي بأهله، ومنه العمرة لأنّ المعتمرين يعمرون البيت الحرام بزيارتهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ لأنّ أعمال الكفار وسلوكهم وعبادتهم الأوثان كلها تشهد عليهم بالكفر ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بَطل ثوابها بنتيجة شركهم، وهي

الأعمال التي كانوا يتبجحون بها كعمارة المسجد الحرام، وحجابة الكعبة، وسقاية الحاج ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لأنه إن كان قد صدر عنهم بعض أعمال البر فإنّ ثوابها قد حبط، وبقي عقاب الكفر،

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)

١٨- ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ فلا يُعتدّ بعمارة المسجد الحرام من زيارة وعبادة وخدمة وصيانة وترميم إلاّ من قبل كاملي الإسلام الذين توافرت لهم الصفات الخمس المذكورة ﴿فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ عسى بهذا المعنى تفيد الرجاء من قبل العباد الذين يأتون بالطاعات المذكورة ويأملون الفوز بالهداية والثواب، والمعنى إن كان حال هؤلاء معلقاً بين الأمل والرجاء، فما بال المشركين يجزمون أنهم مهتدون فائزون بالخير من عند الله، بجرّد أنهم قاموا بحجابة الكعبة وسقاية الحاج.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)

١٩- ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أجعلتم من يقوم بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكيف تساوون بين عِمارة المسجد الحرام وخدمة حجّاجه، وبين الإيمان اليقيني، وما يترتب عليه من الجهاد بالأموال والأنفس، وبعبارة أخرى: لا يمكن المساواة بين الشكليات وبين الجوهر؟ ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لأن الأول من السهولة بمكان، ولا يتطلب من التضحيات والمشقة ما يتطلبه الثاني من الجهاد بالمال والأنفس والهجرة، كما أنّ سقاية الحاج وعمارة المسجد إنّما توجب الفضيلة إذا صدرت عن المؤمن، أمّا إن صدرت عن غير المؤمن فلا يستفيد منها، وعلى أيّة حال فإنّه لا يمكن المساواة بين بجرّد القيام بالشعائر،

مهما كانت فاضلة، لكونها مقتصرة على الشكل والمظهر، وبين الإيمان والجهاد ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الظلم، واكتفوا من الدين بالشعائر والمظهر.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الذين يقومون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ومن غيرهم ممّن لا يتصف بهذه الصفات الأربعة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ المتصفون بالإيمان، وبالهجرة، وبالجهاد بالمال، وبالجهاد بالنفس، هم الفائزون بالدرجات العُلى، كما سيرد في الآية التالية، لأنّ إيمانهم إيمان يقين وإذعان، يقومون بما يترتب عليه من العمل الجادّ وتحمّل التضحيات:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ (٢١)

٢١- ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في كتابه المنزل، أو على لسان نبيّه ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ تنفي عنهم العذاب، وهي الرحمة الخاصة تشملهم باللطف والإحسان في الدنيا والآخرة، ممّا هو فوق رحمته العامة لكل الخلق التي وسعت كلّ شيء الأعراف ١٥٦/٧] ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منهُ لهم، أنه قد رضي عنهم بطاعتهم إياه وأدائهم ما كلّفهم، والرضوان اسم لكمال الرضا، وهو فوق نعيم الجنة لقوله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٧٢)، فإن الله يرحم من رضي عنه ومن لم يرضَ عنه، وإن كانت رحمته لمن رضي عنه أعلى وأعظم ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ دائم لا ينقطع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ في الجنّات ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب عظيم لا يقدّر بمقاييس الدنيا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ تأكيد على البراءة من المشركين ولو كانوا ذوي قربى، ويلاحظ في الآية ﴿16﴾ وصف المؤمنين بأنهم لا يتخذون من دون الله ولا الرسول ولا المؤمنين وليجة، وفي هذه الآية نهي عن اتخاذ الوليجة أو البطانة حتى من بين الآباء والإخوان إن كانوا على الكفر ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ من يجعلهم بطانة وحلفاء له ضد إخوانه المؤمنين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يظلمون أنفسهم وإخوانهم المؤمنين،

والواضح أن النهي ليس عن برّ الوالدين، ولا عن صلة الرحم، وإنّما النهي عن ولاية الحرب والنصرة للكفار النشطين في عداوة المؤمنين، انظر آيات [الممتحنة ٦٠/٨-٩].

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ تفصيل للآية السابقة، أي مهما كانت أواصر القربى معهم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ كناية عن الروابط العصبية والقومية ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ مكاسبكم المادية ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ رفاهتكم، والمعنى أنّ البراءة من عهود المشركين يجب أن تتم مع كل هذه الاعتبارات ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ إن كانت أواصر القربى الشديدة، والعصبية والقومية، والمصالح المادية والرفاهية الشخصية، هي التي ترجّح سلوككم وعلاقاتكم الاجتماعية، وهي عندكم فوق المبادئ والعقيدة والعمل ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ انتظروا يوم الجزاء في الآخرة، أو في الدنيا، لأن المجتمعات

التي يرجّح أفرادُها مصالحَهم الشخصية الضيقة على الإيمان والعمل، يؤول مصيرُها إلى الانحطاط والانحلال والزوال ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين اختاروا الخروج عن دائرة الإيمان، لأن سنته تعالى في أمثالهم أن يكونوا محرومين من هداية الفطرة التي يستطيعون التوصل إليها بالعقل السليم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥)

٢٥- بعد الآية السابقة، ضرب تعالى مثلاً بوقعة حنين حيث لم تنفع المؤمنين كثرتُهم ولا عشيرتُهم ولا أموالُهم، لولا نصر الله لهم، وكانت تلك المرة الأولى التي تفوّق فيها المسلمون على عدوهم بكثرة العدد، ولكن هذه الميزة في ذاتها كانت وبالاً عليهم، قال الرازي إن في ذلك دليلاً على أنّ الإنسان متى اعتمد على الدنيا فقط فاته الدينُ والدنيا:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المواطن جمع موطن، والمقصود بها مواقع الحرب التي انتصر فيها المسلمون، قيل إن عددها بلغ حينئذٍ ثمانين غزوة وسريّة، منها سبع وعشرون غزوة كان النبيّ ﷺ على رأسها ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ونصركم يوم حنين أيضاً، وهو إسم وادٍ بين مكة والطائف، ذلك أنّ النبي ﷺ بعد أن فتح مكة دون قتال في رمضان من العام ٨ للهجرة، وأقام بها نحو نصف شهر، بلغه أن قبائل هوازن وبني ثقيف جمعت قواها في أربعة آلاف رجل يريدون قتاله، وقد خرجوا إليه وأحضروا معهم نساءهم وأبناءهم ومواشيهم وأموالهم لأجل أن يثبتوا في القتال ولا يفرّوا، فتوجّه إليهم النبي ﷺ من مكة في أواخر رمضان وقيل بل في أوائل شوال، ومعه من العسكر اثنا عشر ألفاً، عشرة آلاف من الذين حضروا معه فتح مكة، وألفان من الطلقاء حديثي العهد بالإسلام ثم كان وجود هذين الألفين سبباً في اختلال صفوف المسلمين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أُعجب المسلمون بكثرتهم العددية واستخفّهم شعور الثقة حتى جانبوا الحذر، فوقعوا في كمين نصبه لهم المشركون في شعاب الوادي

الضيقة فاضطربت صفوفهم وانهزموا ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ كثرتكم ﴿شَيْئًا﴾ المغزى أن المسلمين لا ينالون النصر إذا وثقوا بالكثرة العددية فقط، إن لم يعتمدوا على الله واتخاذ الأسباب، قال الألوسي: من احتجب بشيء -عن ذكر الله والتوكل عليه- وُكل إليه ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لشدة ما لحقهم من الذعر لم يكادوا يجدون موضعاً يفرّون إليه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ لاذوا بالفرار، وهم أكثرية جيش المسلمين، ولم يثبت في مكانه إلاّ النبيّ ﷺ ومعه قلّة من المؤمنين.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أنزل السكون والطمأنينة ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بقي النبي ﷺ وحده ثابتاً في مركزه لا يتزحزح، وظهر منه من الشجاعة في تلك الوقعة ما أبهر العقول، ولم يكن معه من الناس إلاّ قليلٌ من المهاجرين والأنصار، وكان الشجاع منهم إذا اشتد القتال يتّقي بالنبيّ ﷺ، فلا يُقبل نحوه أحدٌ إلاّ قُتِل، قال الزمخشري: "وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه ﷺ، وما هي إلا آيةٌ من آيات النبوّة" ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأبصاركم، وهم الملائكة كما في وقعة بدر ألقت في روع المؤمنين أنه تعالى معهم فثبّتهم، وقد أمر النبي ﷺ عمه العباس، وكان ممسكاً بلجام بغلته، أن ينادي المهاجرين والأنصار أن يثبتوا، فعادت جموعهم إلى المواجهة بعد أن شاهدوا ثبات النبي ﷺ وأصحابه، فما لبثت الهزيمة أن تحوّلت إلى نصر باهر ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا، عدا ما ينتظرهم من عذاب الآخرة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب في الدنيا، على من يشاء من الكافرين الذين تحققت الغلبة عليهم،

فيهديهم إلى الإسلام، وهم الذين لم يُختم على قلوبهم نتيجة إصرارهم على الجحود والتكذيب، أو نتيجة جمودهم على ما ألفوه من التقليد ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن يتوب عن الشرك والمعاصي،

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨)

٢٨- هذه الآية تعطي المزيد من التفصيل عن البراءة إذ تحرّم على المشركين الاقتراب من الحرم وبها إيضاح للآية (١٧): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي ذوو نجس، وهو نجس معنوي بالمعنى اللغوي المعروف عند العرب، وهو مغاير للنجس العُرفي عند الفقهاء، والمقصود فساد عقائد المشركين وبواطنهم، وأنّ مجتمعاتهم تضمر الشر والأذى والكيد للمسلمين، راجع شرح آية [الأعراف ٧/٧١]، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وهو جميع الحرم المحيط بمكة، حرّم عليهم الاقتراب منه، إذ يُخشى من إحياء عباداتهم وطقوسهم وشركهم إذا هم أقاموا في الحرم، ثم توسّع هذا المنع في الحديث الشريف بأن منعهم من الإقامة الدائمة في جزيرة العرب، راجع شرح [الأنفال ٨/٥٦]، ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ بعد العام الذي حصل فيه النداء بالبراءة، وهو السنة التاسعة من الهجرة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً، لأنّ منع المشركين من العيش في مكة أو زيارتها قد يؤدي لتدهور مركزها التجاري والفكري، ومن ثمّ إلى فقر أهلها ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ للدلالة على أن هذا الوعد يكون أكثره في المستقبل ﴿إِنْ شَاءَ﴾ علّقه تعالى على مشيئته، لأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وللدلالة على أنّ سنته تعالى اقتضت أن يكون الكسب بأسباب من سعي البشر لا بد من القيام بها، وبتوفيق منه تعالى، وكلا الأمرين مجهول عندهم، وهي الحكمة من إبهامه، ولكي لا يتكلوا فيتركوا الأسباب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جميع الأمور تجري بمقتضى علمه وحكمته وسننه.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

٢٩- بعد أن ذكرت السورة حكم البراءة من مشركي جزيرة العرب، وأوجبت قتالهم حتى يتوبوا، وفصّلت الأحكام فيهم، وضربت مثلاً بوقعة حنين، تذكر هنا (الآيات ٢٩-٣٥) حكم أهل الكتاب، لأنّ سياسة الإسلام في عرب الجزيرة خاصة بهم وحدهم، دون غيرهم من الناس خارج جزيرة العرب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الكلام عن أهل الكتاب، وكونهم لا يؤمنون با لله ولا باليوم الآخر، أي لا يؤمنون على الوجه الصحيح بعد أن أدخلوا في دينهم وابتدعوا فيه وفي كتبهم المقدسة الشيء الكثير من عندهم، راجع شرح آية [آل عمران ٣/٣]، كما أن طائفة هامة من اليهود وهم السدوقيون لا يؤمنون بالآخرة، وليس في كتب اليهود التي يسمونها مقدسة أي "العهد القديم" سوى إشارة واحدة للآخرة في سفر دانيال ﴿وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ليس المقصود أنهم لم يحرّموا على أنفسهم ما حرّمه ا لله ورسوله محمد ﷺ على المسلمين، فذلك لا يُعقل لكونهم لم يسلموا، وإنّما لم يحرّموا على أنفسهم ما حرّمه ا لله ورسلهم عليهم فقد بدّلوا شريعتهم وأحلّوا وحرّموا فيها من عند أنفسهم ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ فمن جهة لا يتّبعون شريعة الإسلام، ومن جهة ثانية لا يتبعون شريعتهم الصحيحة ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ إذا لم يقبلوا الدخول في الإسلام، والأمر بقتال أهل الكتاب يجب أن يُنظر إليه ضمن الشريعة القرآنية المتكاملة، وهي أن القتال يجب أن يكون لمنع الفتنة في الدين فلا يُضطهد الناس لأجل دينهم ولا يُكرهوا على تركه ولا يُطردوا من ديارهم، لقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال ٨/٣٩]، وقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود

١١٨/١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال ٦١/٨]، وقوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٨/٦٠]،

فالحروب لمحض البغي والعدوان والعصبية ولحظوظ الدنيا وشهواتها، أو لغرض الانتقام والأحقاد الدينية كالحروب الصليبية، أو لأجل الاستيلاء على ثروات الشعوب وتسخيرهم كحروب الاستعمار، كل هذه الحروب محرمة في الإسلام، وإنّما شرع القتال في الإسلام للدفاع عن الحق وأهله ولحماية الدعوة، ويلاحظ في سيرة النبي ﷺ أنه ما قاتل المشركين إلاّ دفاعاً،

﴿عَنْ يَدٍ﴾ اليد رمز السلطة، فيكون المعنى أن دفع الجزية رمز لقبولهم سلطة المسلمين، ومبلغ الجزية لم يكن محدداً ولا ثابتاً، بل كان رمزياً وتعبيراً عن قبولهم سلطة الإسلام ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ غير متكبّرين، راضون بحكم الإسلام، لأنّ الصغَر ضد الكِبَر، قال تعالى عن فرعون والملأ ممّن معه بعد أن أفحمهم موسى بمعجزاته: ﴿فَغُلِبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ [الأعراف ١١٩/٧]،

ومن مقاصد الجزية أيضاً مساواة أهل الكتاب مع المسلمين في واجب الدفاع عن الدولة، ففي حين كون المسلم مكلفاً بالقتال مع جيوش المسلمين لا يمكن توقع ذلك من غير المسلم لأن الدولة دينية، والقتال يتم عن عقيدة وإيمان، فالدولة تعفي غير المسلم من الاشتراك في الدفاع عنها مقابل الجزية، وهذا هو معنى الكلمة، لأنّ الجزية مشتقة من الجزاء أي المقابل، والمعنى أن غير المسلمين يدفعون الجزية للمسلمين جزاء الحماية لهم أي مقابل إعفاءهم من التجنيد، فهي بالتعبير المعاصر "بدل التجنيد"، ولذلك كانوا لا يطبقونها إلا على الأفراد الذين يصح تكليفهم العسكري، فتعفى منها النساء، كما يعفى الذكور الذين لم يبلغوا الرشد، ويعفى العجائز والمرضى والمعاقون، والكهنة والأحبار، كما أنه بنتيجة دفع الجزية يصبح غير المسلم ذمّياً أي يكون في ذمّة المسلمين، أي في أمانهم،

ولذلك سُمّوا أهل الذمّة، وفي جميع الأحوال يلاحظ أن مقدار الجزية رمزي وهو أقل بكثير من نسبة الزكاة التي يدفعها المسلمون.

قال الرازي: وإنّما خصّهم تعالى بقبول الجزية لأنهم في الظاهر ألصقوا أنفسهم بموسى وعيسى، وادعوا أنهم يعملون بالتوراة والإنجيل، فلأجل تعظيم هذين الرسولين المعظمين وكتابيهما، حَكَم تعالى بقبول الجزية منهم، وإلا ففي الحقيقة لا فرق بينهم وبين المشركين.

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٣٠)

٣٠- الآيات (٣٠-٣٤) شرح وتفصيل لقوله تعالى عن أهل الكتاب في الآية السابقة أنهم لا يدينون دين الحق: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ عزير هو عُزيريس أو أوزيريس Osiris وهو إبن الشمس الإله "رع" عند قدامى المصريين، وقد انتقلت عبادته إلى سورية تحت اسم أدونيس، وعند الإغريق صار اسمه ديونيسس، وعند الرومان باكوس، والخلاصة أنه كان من تأثر اليهود بديانة قدامى المصريين أن انتكسوا للوثنية مرات عديدة وقدّسوا عُزيريس وزعموا أنه ابن الله كما هي عقيدة الفراعنة.

وقيل أيضاً إنّ عزير هو أحد أنبياء اليهود Ezra ويحتل مكانة عليّة جداً ومبجّلة عندهم وينسبون إليه إعادة كتابة التوراة بعد ضياعها، وقد استخدم محرّرو العهد القديم تعبير ابن الله أو أبناء الله بكثير من الخفة والحرية، وحتى لو كان هذا التعبير عندهم رمزياً مجازيّاً فقد أدانه القرآن الكريم لما ينشأ عنه من الانحراف نحو تفسيره حرفياً كما فعل النصارى:

﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهي العقيدة التي ابتدعها بولس وأدخلها في النصرانية، راجع شرح آية [آل عمران ٣/٧٨] ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ هو مجرّد كلام من عندهم، لا يعضده برهان، وليس كل ما يقال يُعتدّ به ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي يضاهي قولهم في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

قَبْلُ﴾ الذين كفروا من قبلهم هم اليونان الذين عبدوا آلهة وسلالة آلهة من ابتداعهم، وقد أثّرت الثقافة اليونانية الهلنستية في اليهودية والمسيحية تأثيراً كبيراً وأدخلت فيهما الكثير من الأفكار الوثنية، وكان شائعاً عندهم تأليه القادة والأباطرة بمن فيهم الإسكندر الكبير وقد عبدوه بعد موته، كما جعل الرومان من يوليوس قيصر إلهاً وجعلوا خليفته الإمبراطور أغسطس ابن الإله، فلم يكن مستغرباً لمثل هذه العقلية أن تؤلّه المسيح ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ بالمعنى المجازي، ومعناه لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدلائل والبراهين.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١)

٣١- الآية شرح لقوله تعالى عن أهل الكتاب إنهم لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأحبار والرهبان هم رجال الدين عند اليهود والنصارى، اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً من حيث طاعتهم لهم في التحليل والتحريم، ويقال من حيث المجاز إن فلاناً يعبد فلاناً إذا أطاعه طاعة مطلقة في الأوامر والنواهي، وليس المقصود أنه يعتقده إلهاً، وهو التفسير المأثور عن النبي ﷺ، ولأن الأحبار والرهبان اتخذوا القرارات الوضعية بتأليه المسيح عليه السلام ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهاً، وابن إله، كما قررته مجمعاتهم الكنسية المسكونية وكان أولها مجمع نيقية عام ٣٢٥ م في آسيا الصغرى، راجع شرح آية [آل عمران ٣/٦٤]، والنتيجة أنهم يقبلون بقرارات وأقوال الأحبار والرهبان الوضعية في حين لا يقبلون أصل الوحي، وقد نعى الرازي ما يشبه ذلك على بعض فقهاء المسلمين أيضاً، فقال:

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه، ويحتمل أنه يقصد بشيخه والده عمر ضياء الدين، أو شيخه البغوي: "قد شاهدت جماعةً

من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر الآيات مع أن الرواية عن السلف على خلافها! ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا"، انتهى،

والمغزى أن هؤلاء الناس درجوا على التقليد الذي ذمّه القرآن في آيات عديدة، في حين أن الإسلام مبني على العلم اليقيني، دون التقليد،

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي هؤلاء الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان، والذين اتبعوهم ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ كما نصّت عليه كتبهم، قبل أن يحرفوها ويعيدوا كتابتها من عند أنفسهم ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً له تعالى عمّا أدخلوا في كتبهم وعقائدهم من الشرك.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿يُرِيدُونَ﴾ وهم الأحبار والرهبان وأشياعهم ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ يطفئوا الهداية التي أنزلها تعالى على الرسول ﷺ، بالطعن في الإسلام والصدّ عنه بالباطل، وتجاهل الدلائل الدالة على التوحيد وصحة نبوّته ﷺ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بأقاويلهم الباطلة التي ليس لها سند أو أصل، وبما ابتدعه رؤساؤهم من التشريع ونسبوه وينسبونه إلى الوحي، وإدخال الإسرائيليات في التفسير والحديث ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ بأن تكون الهداية الصحيحة في مقدور كل من يريد من الذين يُعمِلون العقل والفكر والتأمل وينتهون عن التقليد ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إتمام نوره تعالى.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ لهداية الناس عامة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على سائر الأديان فينسخها كما ذكر في آية [البقرة ١٠٦/٢]، ويظهر عليها بالحجج والبراهين، ويبيّن بطلان ما دخل فيها من الخرافات، ويتغلب على الوثنية في جزيرة العرب، وينطلق منها إلى الناس كافة، ويحتمل عود الضمير في ﴿يُظهره﴾ على الرسول ﷺ أو على دين الحق، وفي الحالتين يكون المعنى عالمية رسالة الإسلام إلى الناس أجمعين، بخلاف الرسالات السابقة التي جاءت لأقوام بعينهم ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ رغم جهودهم في محاولة إطفاء نور الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤)

٣٤- بعد أن بيّن تعالى في الآية (٣١) أن الأحبار والرهبان يدّعون الربوبية، ويريدون أن يطفئوا نور الله (الآية ٣٢)، وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أكل أموال الناس بالباطل لغرضين: الأول أطماعهم ومصالحهم الشخصية، والثاني الصد عن الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما نراه اليوم، في العالم الغربي خاصة، من الثروات الهائلة التي جمعتها الكنيسة المسيحية، وتستخدمها في جهود التبشير، وفي الصدّ عن الإسلام، وفي رفاهية زعماء الكنيسة، كأنّ الآية ما نزلت إلاّ فيهم، هذا على النطاق العالمي، وقد كانوا قبل ذلك في القرون الوسطى يبيعون صكوك الغفران للمغفلين من الناس، وقوله تعالى ﴿كثيراً﴾ تنبيه على استثناء بعضهم، فلا يخلوا أن يكون البعض منهم على شيء من الاستقامة، إذ يندر إجماع الكل على الباطل ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في هذه الآية انتقال تدريجي في الخطاب عن أهل الكتاب الذي بدأ في الآية (٢٩)، لأن اكتناز الذهب والفضة، أي الثروات الضخمة، وعدم

إنفاقها في سبيل الله ينطبق على أهل الكتاب والمسلمين معاً، وهو قول أبي ذر رضي الله عنه، ذكره الطبري،

فمن جهة أهل الكتاب يلاحظ أن كنائس المسيحية في الغرب قد جمعت وكنزت ثروات خيالية ينفقون منها في الباطل وفي الحملات التبشيرية وفي التنفير عن الإسلام والطعن فيه وتشويه صورته ورسالته، ومن جهة المسلمين فقد كنز الكثير منهم ثروات ضخمة دون أن ينفقوا زكاتها، على فرض أنهم لم يجمعوها بالباطل، فضلاً عن سوء استخدامها وتبذيرها وهدرها بلا طائل بمختلف الوسائل، وعدم إنفاقها في الوجوه الصحيحة لمنفعة المسلمين وقضية الإسلام ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة كما سيرد في الآية التالية، ولفظ البشارة يستخدم في الخير وفي الغمّ، لأن بشرة الإنسان تتلوّن وتتغير عند سماع أحد الخبرين، وإن غلب عند الكثيرين استعمالها لأجل البشارة بالخير.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣٥)

٣٥- ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ هذه الاستعارة البليغة لبيان عاقبة من يأكل أموال الناس بالباطل، أو يسيء استعمال الثروة، فقد يكون كيّ الجباه كناية عن عذاب الفكر الذي قاد صاحبه للاعتقاد أن الثروة هدف بذاتها وليست وسيلة، وكيّ الجنوب التي هي جوانب البطن مقر الجشع والطمع لبيان أنّ الجشع لا يصل بصاحبه إلى الرضا والقناعة، وكيّ الظهور لأنها أصل القوة والتوازن لِمن كان يظن أن الثروة هي كل ما يحتاج المرء للوصول إلى القوة والسلطة في الدنيا ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ تظنون النجاة بما كنزتم ﴿فَذُوقُوا﴾ عاقبة ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فهي لا تفيد صاحبها الذي أساء استخدامها، أو حصل عليها بالباطل شيئاً، سوى أنّه يتعذّب بنتيجتها، راجع آية [آل عمران ٣/١٨٠].

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٦)

٣٦- بعد أن أوضحت الآيات (١-٢٨) سياسة الإسلام تجاه مشركي العرب، ثم أوضحت موقف الإسلام تجاه أهل الكتاب في جزيرة العرب وخارجها بالآيات (٢٩-٣٤)، وأظهرت مساوئهم جميعاً من مشركين وأهل كتاب، يعود الخطاب لبيان نوع آخر من قبائح المشركين، وهو أنهم كانوا ينتهكون الأشهر الحُرُم عن طريق التلاعب في توقيتها لتوافق مصالحهم الدنيوية وأهواءهم:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي عدد شهور السنة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في تقديره، لقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان ٢/٢٥]، ولقوله جلّ ثناؤه ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام ٩٦/٦]،

﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي الشهور القمرية المعروفة المعتبرة أساساً للأحكام الشرعية، ولأن حساب الشهور يَسهُل، على أيٍّ كان، بالمشاهدة العينية للقمر، وبصورة طبيعية، أكثر من الحساب الاعتباري لشهور السنة الشمسية، ومن حكمة الشهور القمرية أنها تجعل شهر الصيام وشهر الحج يدوران على كل فصول السنة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما أوجبه وحَكَم به، لأن الكتاب في هذا الموضع هو الحكم والإيجاب، كقوله تعالى ﴿كُتب عليكم القتال﴾ [البقرة ٢١٦/٢]،

﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ منذ بدء الخليقة ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي ثلاثة شهور متتالية: ذي القعدة وذي الحجة والمحرّم، لأن السفر إلى الحج في الحجاز والعودة منها تكون في هذه الأشهر الثلاثة، وشهر رجب حُرّم بمفرده في وسط السنة لتقليل شرور القتال والعدوان، ولتسهيل السفر للعمرة، كما حُرّمت مكة وما حولها على مدار العام لتأمين الحج والعمرة ﴿ذَلِكَ﴾ أي عدد

شهور السنة، وحرمة أربعة منها ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي هذا هو الشرع الصحيح، المستقيم، الدائم ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بانتهاك حرمتها، والمقصود تحريم النسيء، أي تحريم التلاعب بأوقات الشهور كما سيرد في الآية التالية، لأنهم كانوا يجعلون بعض الأشهر الحرم حلالاً، وبعض الأشهر الحلال حُرُماً، لكي تناسب أوقات مصالحهم ومواسمهم من تجارة وحج، ولتوافق أهواءهم في العدوان وشن الغارات واستمرار الحروب، والضمير في قوله ﴿فيهنّ﴾ عائد للشهور القمرية الاثني عشر، والأربعة الحُرُم منها خاصة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ وهو تحليل قتال المشركين في الأشهر الحرم إن كانوا البادئين بالقتال، راجع آية [البقرة ٢/٢١٧]، ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ تعاونوا وتناصروا عليهم ولا تتفرّقوا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتّقون الظلم والعدوان والفساد، ويتّقون التنازع والفرقة والتخاذل، ويتّقون مخالفة سننه تعالى في الأسباب والمسببات.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ النسيء هو التأخير، والمقصود به تأخير حرمة شهر إلى آخر، لأن العرب في الجاهلية كانوا إذا جاء شهرٌ حرام، وهم محاربون، أو على أهبة الحرب يريدون الإغارة والعدوان، أحلّوه وحرّموا مكانه شهراً غيره، كأن يحلّوا المحرّم ويحرّموا صَفراً، فإن احتاجوا أيضاً أحلّوا صَفَراً وحرّموا ربيعاً الأول وهكذا إلى أن ينتهوا من الغرض الذي من أجله لجؤوا إلى النسيء، وقد يدور التحريم على مدار العام، وربّما زادوا في عدد شهور العام بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويضمّنوا في سَنَتِهم المصطنعة أربعة أشهر حرم، ولذا قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، وبنفس الطريقة كانوا يتلاعبون بشهر الحج كي يلائم مواسم التجارة لديهم أو يلائم المناخ ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي إنّما ذلك التأخير زيادة في الكفر الذي هم

عليه، لأنه تحريم ما أحل الله واستحلال ما حرّم، وذلكَ كفرٌ ضمّوه إلى ما هم عليه من الكفر أصلاً ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إضلالاً فوق ضلالهم، والذين يقومون بالإضلال هم الزعماء والرؤساء لأن العوام تأتمر بأمرهم ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ أي الشهر المؤخّر ﴿عَامًا﴾ من الأعوام، ويحرّمون مكانه شهراً آخر ليس حراماً، إذا تطلبت مصلحتهم ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ يتركونه على حرمته في عام آخر، حسب هواهم ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي الأشهر الأربعة، أي إنهم كلّما أحلّوا شهراً حراماً حرّموا مكانه شهراً من الحلال، وكلّما حرّموا شهراً من الحلال أحلّوا مكانه شهراً من الحرام، لأجل أن يبقى عدد الأشهر الحرم أربعة، ولو اضطرهم ذلك إلى زيادة عدد شهور السنة وهذا هو معنى المواطأة ، أي أنهم يتواطؤون على ذلك، ويقال تواطأ القوم إذا أجمعوا على شيء، فكأن كلّ منهم يطأ حيث يطأ صاحبه ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ من الأشهر الحرم ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وهو كقوله تعالى ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال ٨/٤٨]، ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لأن الكافرين مصرّون على اتباع أهوائهم ومصالحهم الدنيوية العاجلة وما يزيّنه الشيطان لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

٣٨- بعد أن أعلنت السورة البراءة من المشركين يوم الحج الأكبر إثر عودة النبي ﷺ والمؤمنين من غزوة تبوك، وبينت موقف الإسلام من مشركي جزيرة العرب وخارجها، وشرحت معايب وجهالات المشركين وأهل الكتاب، أكملت في هذه الآية وما يليها التأكيد على المواقف العملية التي يترتب على المسلمين اتخاذها تجاه ذلك، وضربت مثلاً بغزوة تبوك، لأنّ الخطاب من هنا إلى آخر السورة في غزوة تبوك، لبيان ما ظهر خلالها من أصناف المنافقين وقبائحهم وجهالاتهم، ممّا هو عام في المنافقين في كل الأزمنة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ للقتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذلك أنّ النبي ﷺ أراد أن يحبط خطة هرقل إمبراطور بيزنطة لمّا بلغه أنه يعدّ العدّة لغزو الحجاز والمدينة، راجع الخلفية التاريخية، فدعا الناس للخروج إلى قتال الروم ولمّا تنقضِ ستة شهور بعد عودته إلى المدينة من فتح مكة ووقعة حنين، إذ كان من عادته ﷺ أن يأخذ زمام المبادرة، دفاعاً لا عدواناً، وإحباطاً لخطة الخصم أن يعتدي، فقد كانت حروبه ﷺ كلّها دفاعية ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ يعني ما لكم تثاقلتم عن الحركة، وتباطأتم عن الإجابة، وملتم إلى الدنيا، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف ٧/١٧٦]، ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً ﴿مِنَ الآخِرَةِ﴾ لأن الناس استثقلوا النفير والخروج من المدينة لعدة أسباب، منها شدة الحر في ذلك الوقت من رجب، الموافق تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام، وأيضاً كان قد حان وقت قطاف ثمار المدينة، ومسافة السير إلى الروم بعيدة، يضاف إلى كل ذلك أنهم استعظموا غزو الروم وهابوه ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي﴾ جنب ﴿الآخِرَةِ﴾ أي بالمقارنة معها ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ التمتع بنعيم الدنيا قليل وتافه بالمقارنة مع نعيم الآخرة.

﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إلاّ: مركّبة من ﴿إن﴾ الشرطية و ﴿لا﴾ النافية، والمعنى أنّ المؤمنين إن تقاعسوا وتخاذلوا عن النفير إلى حرب الروم، الذي دعاهم إليه النبي ﷺ، نزل بهم العذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة، لعصيانهم النبي ﷺ، وهذه القاعدة عامة أنّ الأمم التي تتخاذل عن الجهاد والدفاع عن حقوقها تتعرض للعذاب في الدنيا على أيدي أعدائها ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ لأنه تعالى ينصر دينه على كل حال، إن لم يكن بأيديهم فلا بدّ أن يكون بأيدي غيرهم، وقد شرّفهم تعالى بحمل الرسالة، والمغزى العام أيضاً لبيان سننه تعالى في خلقه بأن لا بقاء للأمم التي تتثاقل في الدفاع عن نفسها

ومبادئها حتى لو كانت على الحق، وأنه تعالى يجعل رسالته في الأمم الجديرة بحملها، ولأن النصر لو كان حتمياً لأصحاب الحق، دون عمل وجهاد منهم، لصار الإيمان قسرياً ولبطل التكليف والاختبار ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ لأنه تعالى غنيّ عن العالمين، وهو القاهر فوق عباده، وقيل الضمير يعود للنبي ﷺ أي لا تضرّوا النبي شيئاً لأن الله كفل له النصر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يتحقق شيء إلاّ بمشيئته.

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن لا تنصروا الرسول، بتقاعسكم عن النفير لقتال الروم، فسينصره من نصره عندما اضطره المشركون للهجرة من مكة، بعد أن قلّبوا احتمالات التخلص منه بالحبس أو القتل أو الإخراج [الأنفال ٨/٣٠]، و لم يكن معه وقتئذٍ جيش ولا أنصار، بل حال كونه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ لم يكن معه إلاّ رجل واحد، وهو أبو بكر الصدّيق، ويقال فلان ثاني اثنين أي هو أحدهما ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وهو الغار الذي لجآ إليه في جبل ثور على مقربة من مكة في طريق هجرته إلى المدينة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة، فهي معيّة مخصوصة، وإلاّ فهو تعالى مع كل واحد من خلقه، وذلك بعد أن خشي أبو بكر من إدراك المشركين لهما في الغار، فقال له النبي ﷺ: "يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله تعالى ثالثهما"؟ ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وهي الطمأنينة التي تسكن بها القلوب، قال الألوسي: أُنزلت السكينة على النبي ﷺ لتسكين قلب الصدّيق، فكأنه قيل: أنزل سكينة النبي على صاحبه، فالضمير في ﴿سَكِينَتَهُ﴾ يعود إلى النبي، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الصدّيق ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ إذ خرجت قريش في طلب النبي ﷺ رجالاً وركباناً وكانوا على إدراكه قاب قوسين أو أدنى فرجعوا صفر الأكفّ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي كلمة

الشرك والكفر ﴿السُّفْلَى﴾ بإفشال ما أجمعوا عليه من قتل النبي ﷺ وما كانوا يخططون للقضاء على دعوة الإسلام، وعبارة: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ إسمية من مبتدأ مرفوع وخبر، قال الألوسي: لأنها تدل على الدوام والثبوت، مع الإشعار بأنّ الجُعل لم يتطرق لتلك الكلمة، وأنها بذاتها عالية، بخلاف علوّ غيرها فإنه غير ذاتي بل نتيجة جُعل وتكلّف فهو عرَض زائل، وقال الشيخ محمد رشيد رضا: غير أن علويّتها قد تخفى على بعض الناس، في بعض الأحيان، بحسب إقامة المكلّفين لها، وبحسب أحوالهم في العلم والإيمان والأخلاق والأعمال، فقد ينظر الغير إليها من خلال صفات المدّعين لها لا في ذاتها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قاهر غالب على أمره، سواء استجبتم للنفير أم لم تستجيبوا ﴿حَكِيمٌ﴾ في اختيار من يشرفهم بحمل الرسالة.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

٤١- بعد أن وبّخ تعالى المؤمنين على تساهلهم في ترك النفير، وتوعّدهم على تركه، وضرب لهم الأمثال في نصرة نبيّه على كل حال، وأنه تعالى غالبٌ على أمره، بهم أو من دونهم، أتبعه بالأمر الجزم، مبيّناً حكم النفير العام الذي هو خير لهم من التقاعس:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي على كلّ حال من اليسر أو العسر ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما، كليهما، أو أحدهما ﴿ذَلِكُمْ﴾ النفير والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الخير يعود عليكم وحدكم بنتيجة الجهاد، لأنه تعالى غني عن العالمين ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢)

٤٢- بعد أن ذكر تعالى فضل الجهاد وحثّ المؤمنين عليه، بيّن أنّ من الناس من يتقاعس عنه كما حدث في غزوة تبوك فقال تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿لَوْ كَانَ﴾

ما تدعوهم إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي مغنماً سهل المنال، لأنّ العَرَض ما يعرض من منافع الدنيا، وسمّي عَرَضاً لكونه زائلاً، وفي الحديث: ((الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكلُ منه البَرّ والفاجر))، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي قاصداً عَرَض الدنيا بقصد الغنيمة ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ طمعاً في الغنيمة ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ وهي المسافة التي تُقطع بمشقّة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ وهم المنافقون المتخلّفون عن النفير ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ لقتال الروم ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنفاق وبالحلف الكاذب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ادّعائهم، فقد كانوا يستطيعون الخروج، لكنهم منافقون طلاّب دنيا ولذّات عاجلة، استثقلوا الخروج، واستعظموا غزو الروم، ويئسوا من الغلبة عليهم، ومن المغنم.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لأيّ سبب أذنت لهم بالقعود والتخلّف أيها الرسول؟ فقد كانت تلك مناسبة لغربلة الصادق منهم من الكاذب، ولكشف مواقف المنافقين منهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ حتى تنكشف مواقفهم، لأن الكاذبين لا يخرجون معك لغزو الروم سواءٌ أذنت لهم أم لم تأذن، وقد كان إذن النبي ﷺ لهم بالقعود من قبيل الرفق واللين، وعدم الرغبة أن يرافقه من كان منهم مترددا ضعيف الإيمان، فموقفه ﷺ كان خلاف الأَوْلى، لأنّ الأَوْلى، كما بيّنته الآية، فرز الذين استأذنوا بحيث يتبيّن الصادق من الكاذب، وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار أن علماء الأصول صرّحوا بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء عليهم السلام، لكن الله تعالى لا يقرّهم عليه بل يبيّن لهم الصواب.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤)

٤٤- وهذه صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ المؤمنون بالله واليوم الآخر

لا يستأذنون الرسول ﷺ بخصوص الجهاد بأموالهم وأنفسهم، فلا يستأذنون في القعود، ولا يختلقون الأعذار للتخلف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ من غيرهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥)

٤٥- وهذه صفة من صفات المنافقين: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في القعود والتخلف لأعذار مختلقة ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا يؤمنون إيماناً يقينياً، وإنما إيمانهم لا يتعدّى المظاهر، ولذا يعتبرون التضحية لأجل الجهاد مغرماً يفوّت عليهم بعض المنافع الدنيوية ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ داخلها الشك في دعوة الإسلام ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ هم في حيرة من أمرهم بين الدين والدنيا، فقد قبلوا من الإسلام ما يسهُل عليهم أداؤه كالعبادات، ثمّ إذا حان وقت العمل والتضحيات المادية وتحمّل المشقة حاولوا التملّص بشتّى الأعذار.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ إلى القتال ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ الدلالة على عدم جدّيتهم أنّهم لم يعدّوا العدّة من البدء، من سلاح وخيل وزاد، فالأعذار الطارئة التي تذرّعوا بها ليست حقيقية ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ من المدينة معكم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ كسّلهم وثبّط هممهم للأسباب المذكورة في الآية التالية، والضمير عائد لله تعالى رغم أن ذلك من أعمالهم الاختيارية بسبب ترددهم وميل نفوسهم إلى التخاذل، راجع شرح آية [البقرة ٢/٧]، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ مع العجزة والمرضى والنساء والمتخلفين، وهذا القيل يحتمل عدة معان: فقد يكون القائل هو الشيطان على سبيل الوسوسة، وقد يكون أنهم قالوا ذلك لبعضهم البعض حينما أجمعوا على القعود، وقد يكون القائل الرسول ﷺ حينما أذن لهم في القعود، ويحتمل أنّ القائل هو الله تعالى بمعنى أنهم إن اختاروا القعود فالله تعالى لا يجبرهم على الخروج، وهو بيان لسنته

تعالى في أعمال الناس الاختيارية، ضمن نطاق معيّن، فلا جبر ولا اضطرار للعبد.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

٤٧- هذه الآية تبيّن الأسباب التي من أجلها كره الله انبعاث المنافقين فثبّطهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ أي المنافقون المستأذنون في القعود ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ في القوة العددية ﴿إِلاَّ خَبَالاً﴾ ما زادوكم قوةً ولا خيراً لكن شرّاً وخبالاً، والخبال الفساد والشر والاضطراب في الرأي، وأصله مرض عقلي كالجنون، لأنّ الخبل الجنّ، والعرب كانت تنسب الجنون إلى الجنّ، ومنه يسمّى المعتوه مخبول ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ﴾ لأسرعوا بينكم بالنميمة وإفساد ذات بينكم، وأصل الإيضاع سير الإبل، ويقال أوضعت الناقة إذا أسرعت، والخلال مفردها خلل وهو الفتحة بين شيئين، وفي الخطاب استعارة، حيث شُبهت نمائم المنافقين بالإبل في إسراعها وانتقالها بين الناس ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يبغون لكم الفتنة، لأنهم يبذلون جهدهم في تفريق كلمتكم والتشويش عليكم بالتشكيك في الدين والتثبيط عن القتال ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ لأنّ من بين المؤمنين حديثي العهد بالإسلام ضعاف العزم ولديهم استعداد لسماع الإشاعات وقبول الوساوس، ويحتمل المعنى أيضاً أنّ ضعاف العزم سمّاعون لأجلهم أي ينقلون الأخبار لهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ عِلماً محيطاً بظاهرهم وباطنهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨)

٤٧- ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ عملوا جاهدين على تفريق وتشتيت كلمة المسلمين وبث الشقاق بينهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ كان هذا دأبهم من قبل هذه الغزوة، ومن ذلك مثلاً ما فعله عبد الله بن أبيّ بن سلول في وقعة أُحد إذ انخذل عن النبي ﷺ بثلث الجيش بعد الخروج من المدينة إلى أُحد، راجع شرح آل عمران

٣/١٢١-١٢٢)، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أيها النبي، وهي المكائد والمؤامرات قلّبوها من جميع جوانبها للتوصل إلى قصارى ما يستطيعون من الكيد للنبي ﷺ والتحايل عليه، وتقليب الأمور مجاز بمعنى النظر فيها من كل جوانبها لمعرفة أيها أولى بالخيار ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ استمرّوا في كيدهم حتى جاء نصر الله رغم كل مكائدهم ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بغلبة الإسلام على الشرك ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لظهور الحق والإسلام، رغماً عنهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

٤٩- وهذا دليل آخر على نفاقهم وشدة استخفافهم بالمسلمين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَلا تَفْتِنِّي﴾ لا تعرّضني للاختبار الشديد القاسي وما يترتب عليه من التضحيات، أو ما يترتب عليه من الإغواء لأن بعضهم زعم أن سيفتن ببنات الروم، لمعنى الفتنة راجع شرح آية (الأنفال ٨/٢٠)، ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ سقطوا وفشلوا في الاختبار لمجرّد تهربهم وتملصهم منه، وسقطوا في الغواية والضلال ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لأن سوء عملهم أحاط بهم فاستغرقوا فيه.

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿إِنْ تُصِبْكَ﴾ في غزوة تبوك أو في بعض الغزوات الأخرى ﴿حَسَنَةٌ﴾ كالنصر والغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ لما في قلوبهم من الغيظ والحسد والتعلق بالدنيا ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ في غزوة تبوك -أو كما في أحد- ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي أخذنا الحيطة في أمرنا، بالحذر بزعمهم، وبالتخلف عن القتال ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ ينصرفوا عن الرسول ﷺ ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بأنهم اتخذوا الاحتياطات في الحالين حسب ظنّهم، وفي نفس الوقت يفرحون فرح الشماتة بالمسلمين، والخطاب وإن كان في غزوة تبوك فالقاعدة عامة في المنافقين.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

٥١- ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وهو بمعنى قوله ﷺ: ((جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة))، أي في علم الله المسبق ﴿هُوَ مَوْلاَنَا﴾ يتولانا وحده بالتوفيق والنصر ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بأن يفوّضوا أمرهم إليه سبحانه، بعد القيام بما أوجبه عليهم شرعه من اتخاذ الأسباب الدنيوية المادية والمعنوية، لأن التوكل يلزم أن يرافقه العمل والتدبير، والمغزى أننا نحن المؤمنين نتخذ الحيطة بالأسباب الدنيوية، ونتوكل على الله، أمّا أنتم فمتهالكون على الدنيا بأي ثمن.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً، وهو الجواب الثاني على فرح المنافقين بمصائب المؤمنين ﴿هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ التربص هو الانتظار مع توقّع الشيء، والمعنى أنّ انتظاركم بنا الشر وتوقعكم سينجم عنه أحد أمرين: إما أن نفوز بالظفر، أو بالشهادة، وكلاهما عندنا حسن ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ فتصيبكم قارعة من السماء كما حدث لعاد وثمود ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ لأنه إذا ظهر نفاقكم على الملأ واتضح كونكم في صفّ المشركين، حلّ لنا قتالكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ ما يحدث لنا من إحدى الحسنيين، بعد أن أعددنا العدّة وتوكلنا على الله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ عاقبة أمركم السيئة.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين أيضاً، الفرحين بأنهم أخذوا حذرهم بزعمهم، وقد عرضوا إنفاق أموالهم لصالح الجهاد تقيةً ورئاء الناس: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ لغرض التقية ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ خوف العقوبة ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ المعنى: إن تنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يُتقبّل منكم في الحالتين، ما دمتم على الكفر وعلى الشك والنفاق، ولأن إنفاقهم ليس عن إيمان وإنما عن خوف، والمقصود أنه تعالى لا

يثيبهم على نفقاتهم، وليس المقصود أنّ النبي ﷺ لا يقبل منهم ما ينفقونه، لأن الشرع يقتضي أخذ الزكاة والنفقات منهم، فالحكم يُبنى على الظاهر والله تعالى يتولّى السرائر ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وهو السبب الذي من أجله لا تُقبل صدقاتهم، والمراد بالفسوق الخروج عن دائرة الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال مع الإخلاص بها، ويتضح هذا التعليل في الآية التالية:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٤)

٥٤- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ فلا يُنابوا عليها ﴿إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ فلم يؤمنوا إيماناً يقينياً ﴿وَبِرَسُولِهِ﴾ كفروا برسالة رسوله ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى﴾ لغرض الرياء فقط كي يراهم الناس يصلّون فيغترّون بهم، كما ورد في آية [النساء ١٤٢/٤]، ﴿وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ كارهون للإنفاق، لأنّ إنفاقهم هدفُه التقية، ولإخفاء كفرهم، فلا يثيبهم تعالى عليه.

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿فَلا تُعْجِبْكَ﴾ أيها النبي، أو أيها المؤمن ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾ أي لا تستحسن كثرة أموال المنافقين وأولادهم، فقد أعمتهم عن الآخرة، واتصال المعنى مع ما قبله أنّ الأموال التي لا تُقبل منها الصدقة ليست مدعاة للاستحسان ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ العذاب انعكاس لحالة الخوف والترقب والقلق التي يعيشونها مع تمتعهم بالثروة والأولاد، لكون الدنيا لديهم منتهى الأمل، فهي تسبب لهم الكثير من المتاعب والمنغصات والحسرات لشدة حبهم إياها، وتمسكهم بها، وتهالكهم عليها، وهم في حالة من الخوف والذعر ﴿الآيات ٥٦-٥٧﴾ إضافة لأنه ليس عندهم من الاعتقاد بثواب الله تعالى ما يهوّن عليهم ما يجدونه من المصاعب، ومنه قوله ﷺ: «هلك

المُكثِرون))، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ يموتون على الكفر، لشدة انشغالهم بالدنيا وغفلتهم عن الآخرة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٥٦)

٥٦- وهذه قبيحة أخرى من قبائحهم أنهم لشدة خوفهم على دنياهم يحلفون الأيمان الكاذبة: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ المنافقون يحلفون للمؤمنين ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي على دينكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ ليسوا على دينكم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ شديدي الخوف منكم، لأنّ الفَرَق الخوف الشديد الذي يمزّق القلب،

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ يلجئون إليه ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ تغور بهم وتخفيهم عنكم ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ يستترون بالدخول إليه ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لانصرفوا إليه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون كالفرس الجموح لا يردّهم شيء، ومنه يقال جمح الفرس، وهو بيان لحالة الذعر أو الحالة النفسية القلقة التي يعيشها المنافق حتى أنه يود الهروب قبل أن ينكشف أمره، أو قبل أن يضطر للالتزام تجاه الغير.

وهكذا يبيّن القرآن أن السبب الأعمق للنفاق هو الخوف: الخوف من الالتزام الديني الأخلاقي الأدبي، وما يترتب عليه تجاه المجتمع من عمل وتضحيات، وفي نفس الوقت الخوف من الانشقاق عن المجتمع بشكل سافر، والمنافقون في رغبتهم المادية الصرفة المقتصرة على الدنيا، يرغبون في تجاوز المثل والأخلاق والمقاييس في المجتمع ولذلك فهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء ٤/١٤٢]، و ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة ٩/٦٧]، لأن محاولتهم الخداع غير مقتصرة على الغير بل يخدعون أنفسهم أيضاً.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)

٥٨- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ اللمز العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، أي من المنافقين مَن يعيبك أيها الرسول ويطعن في عدالة توزيعك للصدقات، وهذه قبيحة أخرى منهم أنّ المادة هي مقياسهم الوحيد في الدنيا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ إن أُعطوا من الصدقات بالقدر الذي يريدون فرحوا ورضوا واستحسنوا صنعك، ممّا يدل أن اللمز والرضا والسخط لطلب الدنيا لا لأجل الدين ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ بالمقدار الذي يريدون ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يفاجئون بالسخط، والمعنى أن المادة مقياسهم الوحيد للرضا والسخط.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما أعطاهم رسول الله ﷺ لتأليف قلوبهم، لأن الأصل الرضا بقضاء الله لا اعتراض عليه ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وإن أخذَ المال غيرُنا، أو كان نصيب الغير أكثر، فإنّ الله كافينا وسيكفينا على كل حال ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ إمّا في الدنيا أو في الآخرة ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ليس غرضنا من الإيمان أخذ الأموال، وإنما المهم سعادة الآخرة، وجواب ﴿لو﴾ محذوف وتقديره: لكان خيراً لهم من الطمع ومن لمز الرسول المعصوم ﷺ.

قال الرازي أن الآية دليل على أنّ مَن طلب الدنيا فقط آلَ أمرُه في الدين إلى النفاق، وأما مَن كان غرضه من طلب الدنيا أن يتوسل بها إلى مصالح الدين فهذا هو الطريق الحق.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

٦٠- بعد أن لمز المنافقون الرسولَ ﷺ في توزيع الصدقات، بيّن تعالى في هذه الآية مصارفها، لئلاّ يكون لهم حجّة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ أي الزكاة المفروضة،

والصدقة تطلق على الفرض وعلى النفل، أمّا الزكاة فلا تطلق إلاّ على الفرض، قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة ١٠٣/٩] فسمّى الزكاة صدقة، ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ اختلفوا في كون الفقير أسوأ حالاً من المسكين أم العكس؟ وعلى أية حال هما قسمان لصنف واحد من الناس يختلفان بالوصف لا بالجنس من حيث كونهما يستحقان أخذ الزكاة ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الذين يقومون بجبايتها، وفي التعبير الحديث هي المصاريف الإدارية المترتبة على جمع الزكاة وتوزيعها من قبل الجمعيات الخيرية على المستحقين ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ترغيباً لقلوبهم في الإسلام، وفي الحالة العامة لأغراض الدعوة الإسلامية في المناطق التي يؤمل نشر الإسلام فيها، فتصرف على تحسين أحوال السكان المعيشية والصحية والثقافية مع إنشاء المرافق الدينية لهم ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ في الإعتاق من الرقيق ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين عليهم دين يشق أداؤه، واشترطوا أن يكون في غير معصية، وأصل الغرم في اللغة ما يشق، والغرام العذاب اللازم [الفرقان ٦٥/٢٥]، ومنه سمّي العشق غراماً لكونه شاقاً ولازماً بصاحبه ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الإنفاق على الجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع، معنوياً وحرفياً، وليس مقتصراً على القتال ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي انقطعت به السبل المادية في السفر فلا يستطيع العودة إلى بلده، سواء بصورة مؤقتة أو شبه دائمة، بمن فيهم اللاجئين والهاربين من الاضطهاد ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي فرض تعالى الزكاة فريضةً لهم، واجبة عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في إنزال الشرع عليهم وفي تصريف أمورهم.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦١)

٦١- استمرار الخطاب عن جهالات المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالطعن والذم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يتهمونه بعدم الدقة في تمييز ما يسمع، والاغترار بالكلام وسرعة الانخداع والتسليم لمخاطبيه، وأنه

يصدّق من الناس ما يعقل وما لا يعقل، وكلمة ﴿أُذُن﴾ للمبالغة في الوصف كأنه كله أذن سامعة، كقولهم عن الجاسوس عين ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي إنّ استماعه لكم واكتفاءه بالظاهر من أقوالكم، دون التنقيب عن أحوالكم، هو خير لكم، فهو يقبل أعذاركم، ويتغاضى عن جهالاتكم، ولا يحرجكم بالمبالغة في كشف أستاركم، ولا ينقّب عن بواطنكم، ولا يكشف سوء نواياكم، كل ذلك خير ورحمة لكم، فكيف جعلتم هذه الصفة الحميدة طعناً وذمّاً في حقه؟ لعلّهم جهلوا أو تجاهلوا أنّ قاعدة الشريعة الحكم على الظاهر وأنّ الله تعالى يتولى السرائر، فظنّوا أنه يصدّق كل ما يقال له ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يقيناً ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يكذبهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الذين أظهروا الإيمان منكم، حيث يقبل كلامهم لا تصديقاً لهم، ولكن رحمة بهم وإمهالاً لهم ورفقاً بهم وسترًا لعيوبهم، على أمل أن يتوب منهم من لديه استعداد للإيمان ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالافتراء عليه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ تنبيه للمؤمنين على سمة أخرى من سمات المنافقين، أنهم يسارعون لحلف الأيمان الكاذبة في محاولة لإرضاء المؤمنين والظهور أمامهم على غير حقيقتهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ بأن يكونوا صادقين في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إيمان اليقين، ولكنهم على النقيض من ذلك فإنهم يشترون رضا الناس بسخط الله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ آن لهم أن يعلموا بعد طول مكث النبي ﷺ بينهم أنّ عواقب عملهم ستكون وخيمة عليهم: ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ من يخالف أمر الله ورسوله، لأنّ المحادّة من الحد أو الطرف، ويحادد يكون على الحد

الآخر أو الطرف الآخر ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ عقاب الغفلة والمعصية ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يتضاءل دونه كل خزي في الحياة الدنيا.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فينكشف نفاقهم، وهذا من طبيعة خوفهم، والحذر قد أوقعهم في حالة من الذعر (الآية ٥٧)، والضمير في قوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾ يعود للمؤمنين، وفي قوله ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعود للمنافقين، لأن المنافقين يعيشون حياة الشك والذبذبة، فلا هم موقنون بنبوة محمد ﷺ، ولا هم متأكدون من العكس، فهم في ريبهم يترددون، وقد أهمّتهم الحياة الدنيا، ووضعوا نصب أعينهم المكاسب الدنيوية والخشية من فواتها ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ لأن النفاق استهزاء ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ في نهاية المطاف يكون مدى النفاق قصيراً ومحدوداً، وسرعان ما ينكشف على الملأ.

ويحتمل المعنى أيضاً عود كلّ الضمائر في قوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾ و﴿قُلُوبِهِمْ﴾ على المنافقين، لأن السورة تنزّل على النبي ﷺ، ومن ثمّ على المجتمع بكامله، فتنبيء المنافقين بما في قلوبهم من خداع النفس: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة ٢/٩]، والمغزى أنهم يخشون من مواجهة خداع أنفسهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أيها النبيّ عن نفاقهم، فواجهتهم بحقيقتهم، وما ينشرون في غيابك من التهكّم، كما في الآية (٦١)، والتثبيط عن غزو الروم، والسخرية من عزم المسلمين على مجابهة دولة كبرى، والنميمة وإشاعة الشائعات ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ خافوا ولم يستطيعوا الإنكار،

فنسبوا سلوكهم وفساد عملهم إلى المزاح ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأن الكفر والنفاق بمثابة استهزاء، والخوض واللعب لا يكونان في الكفر والنفاق.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أعذاراً ليست حقيقية، لأنها كما يقال عذر أقبح من ذنب ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ لأنّ النفاق، والعمل بمقتضاه، يجعل صاحبه بمثابة الكافر المرتد عن الدين ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ من التائبين ومن الضعفاء الذين لم يتوصلوا بعد إلى إيمان اليقين ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أخرى منكم من المصرّين على النفاق وعلى الكفر غير نادمين ولا تائبين عنه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بسبب أنهم أخرجوا كفرهم ونفاقهم إلى حيّز التنفيذ الإجرامي، ممّا يترتب عليه ضرر على المجتمع.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ متكاتفون على الضلال، فكأنهم جسد واحد جمعت خلّة النفاق بين مختلف فرقهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ من الأعمال، أي ما ينكره الشرع والعقل والفطرة السليمة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ ينهون عن كل ما هو حسن في عُرف الشرع والعقل والفطرة السليمة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن أعمال الخير لشدة تعلقهم بالمادة ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ مجازاً، أي جعلوا كلّ همهم الدنيا ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تركهم تعالى لأنفسهم ولاختيارهم، وحجب عنهم لطفه وتوفيقه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لأنهم ادّعوا الإيمان ثم خرجوا عنه، وهو معنى الفسوق.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ الذين يبطنون الكفر، لأنّ ضررهم على المجتمع أشد من ضرر المجاهرين بكفرهم ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ ذوي الكفر السافر، وقد جعل تعالى المنافقين والمنافقات مع الكفار في منزلة واحدة من العقاب ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إن لم يتوبوا قبل فوات الأوان ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً في الآخرة ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ لا يتحوّل عنهم.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أنتم أيها المنافقون كالذين من قبلكم من كفار الأزمنة السابقة ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا﴾ فلم تفدهم شيئاً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ﴾ استمتعوا بنصيبهم من الحياة الدنيا، لأن الخلاق النصيب، وهو ما خُلق للإنسان ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ﴾ والمغزى أنّ ما تستمتعون به من نصيبكم في الحياة الدنيا ومن الشهوات الفانية لن يفدكم شيئاً، كما لم يفد الذين من قبلكم ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ في الباطل ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فسدت أعمالهم وبطلت، والمعنى سوف تحبط أعمالكم كما حبطت أعمالهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم، لتهالكهم على الدنيا وغفلتهم عن العاقبة، والمعنى سوف تكون عاقبتكم الخسران كما كانت عاقبتهم.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠)

٧٠- بعد أن وعد تعالى المنافقين نار جهنم، وشبّههم بمن سبقوهم من المنافقين والكفار في حبوط الأعمال وفي العاقبة والمصير، ضرب لهم مثلاً بعاقبة أقوام معينين، نزل بهم الهلاك بأشكال مختلفة:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الإشارة لقوم إبراهيم تعود في الأرجح إلى السومريين فيما بين النهرين، وقد انقرضت دولتهم بسيطرة البابليين عليهم حوالي العام ٢٠٠٠ ق.م. ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب في جنوب فلسطين، راجع شرح آية [الأعراف ٨٥/٧]، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ هي قرى لوط ومفردها مؤتفكة، وقد التفكت بأهلها أي انقلبت فصار عاليها سافلها، أو أنّ أحوالها انقلبت من الخير إلى الشر، وقد وردت الإشارة لهؤلاء الأقوام في عدّة سور من القرآن الكريم ولخّصت هذه الآية خَبَرهم والعبرة منه: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات وبراهين الحقيقة، فأعرضوا عنها، فعجّل الله هلاكهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بسوء العاقبة التي توصّلوا إليها ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بنتيجة العناد والجحود والمكابرة، ونظير هذا المعنى كثير في التنزيل، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام ١٣١/٦]، وقوله جلّ ثناؤه ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف ٥٩/١٨]، راجع أيضاً آيات [هود ١١٧،١٠٢/١١] و [الإسراء ٥٨،١٦،١٥/١٧] و[الشعراء ١٠٨/٢٦] و[القصص ٥٩/٢٨].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١)

٧١- بعد أن وصفت الآيات (٤٢-٧٠) طبائع المنافقين وسلوكهم ومساوئهم والمآل الذي ينتهون إليه، تبين هذه الآية والتي تليها صفات المؤمنين، والمقابلة بين مآلهم ومآل المنافقين، عطفاً على الآيات (٦٧-٧٠):

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي في التناصر والأخوّة والمودّة والأثرة، وقد شبّه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد، وبالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، في حين أن المنافقين لا ولاية بينهم إلاّ ظاهرياً،

بالكلام فقط وبما لا يشقّ من العمل، لأن النفاق شك وأنانية بما ينتج عنهما من جبن وبخل ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ على النقيض من المنافقين، راجع شرح آية [آل عمران ١٠٤/٣]، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ على تمامها من خشوع وبما يترتب عليها من الفضائل، في حين أن المنافقين يصلّون رئاء الناس، (الآية ٥٤)، أما المؤمنون فيؤتون الزكاة: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ على عكس المنافقين الذين يقبضون أيديهم عن الإنفاق (الآية ٦٧)، وإذا أنفقوا فللتقية، ولا ينفقون إلاّ وهم كارهون (الآية ٥٤)،

والمؤمنون يطيعون الله ورسوله ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعكس المنافقين الفاسقين عن الطاعة، ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون والمؤمنات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ برحمته الخاصة في الدنيا والآخرة، وهي خلاف رحمته العامة للخلق التي وسعت كل شيء [الأعراف ١٥٦/٧]، أما المنافقون فقد نسوا الله فنسيهم (الآية ٦٧)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في إيصال الثواب والعقاب، لا مردّ لمشيئته ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون خلقه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ نص في مساواة النساء للرجال في نعيم الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي من تحت أشجارها الأنهار ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ جنات النعيم الدائم، لأن العدن في اللغة الإقامة والاستقرار ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أكبر من كل ما سلف ذكره من نعيم الجنات، قال الرازي: هذا البرهان القاطع أن النعيم الروحاني أعلى وأشرف من النعيم الجسماني ﴿ذَلِكَ﴾ النعيم الروحاني والجسماني ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بخلاف ما يلهث وراءه المنافقون والكفار من مادية الدنيا وملذاتها الفانية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣)

٧٣- بعد أن بيّن تعالى جهالات الكفار والمنافقين ومساوئ صفاتهم (الآيات ٤٢-٧٠)، أوضح في هذه الآية طريقة التعامل معهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وهو بالتالي لكل مسلم ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المقصود بالجهاد المعنى العام للكلمة، لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد، ومفهومه أوسع من المعنى الضيق للقتال وليس مقتصراً عليه، والآية توجب الجهاد مع فريقي الكفار والمنافقين معاً، ولما كان قتال المنافقين غير جائز لأن الحكم يُبنى على الظاهر، وهم يُظهرون الإسلام ويُنكرون الكفر، ، فيكون المقصود أن يكون جهاد الكفار والمنافقين بالحجة والفكر والإقناع، وأما قتال الكفار فقد يضطر إليه المؤمنون بشروطه، كما ذكر في آيات[الأنفال ٨/٥٥-٥٨، و] التوبة ٩/٢٩،٥]، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فلا تتوصّل معهم إلى حلول وسط في أمور العقيدة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إن لم يؤمنوا ويتوبوا.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ خطأً ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ قالوا ما هو بمنزلة الكفر، مثل طعنهم في الرسول ﷺ وقولهم هو أذن (الآية ٦١)، ولمزهم له (الآية ٥٨)، ﴿وَكَفَرُوا﴾ بالتشكيك في النبوّة، وبالحلف الكاذب (الآية ٤٢)، ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ بعد ادّعائهم الإسلام ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من الإيقاع بالنبي ﷺ وبالمسلمين، حتى تآمروا على اغتيال النبي ﷺ في طريق عودته من تبوك، ويحتمل المعنى أيضاً أنهم بدخولهم الإسلام وهم في شك من النبوّة وفي ريبهم يترددون بين الإسلام وبين إنكار الوحي (الآية ٤٥)، فلم ينالوا

اليقين والاطمئنان والسلام الداخلي، ممّا يناله ذوو الإيمان اليقيني، وبسبب أنّ الحياة عندهم ليس لها مغزى ولا غاية سوى التهالك على المادة والدنيا،

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ المعنى أن طعنهم في النبوّة لم يكن سببه أنهم وجدوا تناقضاً أو اختلافاً في الرسالة، وإنما السبب جحودهم نعمة الهداية، وجحودهم النعم المادية والمعنوية التي تمتعوا بها وتمتعت بها المدينة بعد نشوء دولة الإسلام بها، وهذا المعنى في الجحود غير مقتصر على المنافقين في زمن البعثة والنبوّة، بل يتعداه إلى أمثالهم في كل الأزمنة ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لأن فضل التوبة والهداية يعود عليهم ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ عن التوبة والهداية ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ انظر شرح الآية (٥٥) ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ التي جعلوها قصارى همّهم ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾ يحقق لهم النصر، وقد تحقق ذلك بزوال شوكتهم وغلبة الإسلام عليهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من المنافقين، وهو صنف آخر منهم ﴿مَنْ عَاهَدَ اللّهَ﴾ نذر نذراً أو أقسم قسماً، سرّاً في نفسه، أو جهراً أمام الناس ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الأموال والأرزاق ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ صدقة المال، وهي الزكاة الواجبة، وغيرها من صدقة النفل ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في الاستعانة بهذا المال على الاستقامة والصلاح.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأن رزقهم تعالى ما طلبوه من المال وسعة الرزق ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ ظهرت ماديتهم وتغلبت عليهم أنانيتهم، فلم يدفعوا الزكاة الواجبة، ولم يتصدّقوا بشيء ﴿وَتَوَلَّوا﴾ انصرفوا عن العهد الذي قطعوه أمام الله ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن العمل الصالح وعن الصدقة، وجملة ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ حالية أي إن بخلهم وانصرافهم عن العهد لم يكن عرضاً مؤقتاً، بل

إنّ حالة الإعراض راسخة في نفوسهم مهيمنة على قلوبهم، لا يزيحهم عنها تذكير الآخرين وإلحاحهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ كان عاقبة أمرهم نفاقاً في قلوبهم راسخاً فيها، متمكناً منها، والضمير في قوله ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ عائد إلى البخل، وإخلاف الوعد، المشار إليهما بالآية المتقدّمة، لأن كلاً منها سمة متأصلة فيهم، ويحتمل أيضاً عود الضمير إليه تعالى، لأنّ هذه العاقبة في المنافقين تكون بمقتضى سننه تعالى في خلقه، وهو السبب في إسناد الفعل إلى ذاته العليّة، لأن العمل بما يقتضيه النفاق من البخل، والخيانة ونقض العهد والكذب، من شأن كل ذلك تمكين النفاق وتقويته في قلب صاحبه ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ تعالى للحساب في الآخرة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بنتيجة عدم وفائهم الوعد الذي قطعوه أمام الله ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ على أنفسهم لاختلاق الأعذار، وهو شأن المنافقين الدائم أنهم مضطرون للكذب باستمرار، بسبب أن ظاهرهم مخالف لبواطنهم، وفي الحديث: ((آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الكامن في صدورهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ويعلم كلامهم الخفي الذي يسرّونه فيما بينهم، طعناً في الدين، فكيف يتجرؤون على النفاق؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعلم ما في صدورهم، وما يتناجون به من الأسرار، ويعلم ما غاب عن جميع الخلق.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

٧٩- لم يكتفِ المنافقون أن بخلوا عن الإنفاق، بل تجاوزوه إلى لمز المتصدقين في غزوة تبوك بعد أن حثّهم النبي ﷺ على الاشتراك فيها:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون يلمزون المطّوعين الذين جاؤوا بالنافلة من الصدقات، واللمز العيب، وأصله الإشارة بالعين كما ورد في الآية (٥٨)، والسبب أنهم ماديون يرون في المال غاية المنى، فلا يستطيعون أن يفهموا كيف يتصدق غيرُهم بالمال دون مقابل دنيوي فوري؟ ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي في شأن الصدقات، لأنهم يعتقدون أنّ المؤمنين جاؤوا بها للرياء والسمعة ﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ ويلمزون أيضاً الفقراء الذين يطّوعون بجهدهم، وهو جهد المقلّ، كأن يقولوا: جاؤوا بالصدقات القليلة كي يُذكَروا مع الأكابر ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يُسقطون مفاهيمهم وقناعاتهم المادية والدنيوية على غيرهم، وقد يعتبرونهم من البلهاء ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ بأن جعل عاقبة سخريتهم ترتد عليهم بأن ظهر لهم في نهاية المطاف أن المادة لم تكن هدفاً بذاتها كما هي قناعتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نتيجة العاقبة التي توصلوا إليها، وبأنّه تعالى لن يغفر لهم:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أيها النبي ﴿أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يستوي الاستغفار وعدمه بالنسبة إلى هؤلاء الماديين المصرّين على النفاق، لأن الله تعالى لن يغفر لهم، فقد جمعوا إلى ماديتهم النفاق والسخرية والتهكم من صادقي الإيمان، وتثبيط المؤمنين عن النفير في الحر (الآية ٨١)، ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عدد السبعين في الكلام العربي يراد به التكثير وليس التحديد، والمعنى مهما تكثر من الاستغفار لهم، فلن يغفر الله لهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهو سبب عدم المغفرة لهم أنهم أصروا على الكفر، ولم يكن لديهم أي استعداد للتوبة، وفقدوا شرط المغفرة التي وُعد بها التائبون

المستغفرون، وهذه الآية من قبيل إعلام النبي ﷺ بالغيب بأنّ هؤلاء لن يتوبوا ويموتون على الكفر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد ١١١/١] لأن الآية إخبار بموته على الكفر، وفي الآية (١١٣) سوف يرد النهي عن الاستغفار لمن تبين أنهم من أصحاب الجحيم، أي المصرّين على الكفر بلا رجعة، والذين ماتوا على الشرك ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين فقدوا الاستعداد للتوبة والهداية فلا يجدون إليهما سبيلاً، وتلك سنته تعالى في خلقه أنه لا يهدي المصرّين على التمرد والنفاق.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١)

٨١- استمرار الخطاب الذي بدأ في الآية (٣٨) بدعوة الناس إلى النفير مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقد تخلف المنافقون عن الخروج معه، وفيه المزيد من وصف مساوئهم وسلوكهم:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلفوا عن اللحاق بالنبي ﷺ في غزوة تبوك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ فرحوا بقعودهم في المدينة، لأنهم غير مؤمنين بما في الخروج مع النبي ﷺ من الأجر العظيم الذي لا يقارن معه شيء من راحة القعود في البيوت ولا غيره ﴿خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قعدوا مخالفةً لأمر رسول الله في النفير، وهم من ثمّ قعدوا خلافه، أي خلفه، والنتيجة أنهم فرحوا بالقبيح من عملهم المتضمن خلاف رسول الله ﷺ، لأنهم كرهوا الجهاد في سبيل الله: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لكونهم يقيسون الأمور بمعيار الفوائد الدنيوية المادية الفورية البحتة، وهم غير مؤمنين بالثواب العظيم المترتب على الجهاد ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قالوه لأمثالهم من المنافقين، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وهي عاقبة الكفار والعصاة ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من حر الصيف الذي ترونه مانعاً لكم من الجهاد ﴿لَوْ

كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ المغزى أنهم لم يكونوا من أهل الفقه والفطنة، فلو كانوا من أهل الفقه والفطنة لما اختاروا القعود خلاف رسول الله ﷺ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ بنتيجة فرحهم المشار إليه آنفاً، لأنّ فرحهم يكون قصير الأمد، فسرعان ما فضحتهم هذه السورة ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ ندماً على ما قدّموه، ويحتمل المعنى أيضاً أنّ الأجدر بهم أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم كثيراً، بالنظر لسوء الحال التي هم فيها من النفاق والكفر وما يترتب على ذلك من سوء العاقبة ﴿جَزَاءً﴾ الجزاء من جنس العمل ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ من المخلّفين المنافقين، لأن من المخلّفين مَن لم يكن منافقاً، قال الألوسي إنّ قوله تعالى ﴿فَإِنْ﴾ إشارة إلى أن الغزوة لِما فيها من الخطر يحتاج الرجوع منها إلى التأييد الإلهي ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ دلالة على إصرارهم على النفاق والكفر حتى النهاية، فيكون خروجهم معه ﷺ إلى القتال، لو سمح لهم، سبباً لأنواع من الفساد، كما في الآية (٤٧)، ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لا بالخروج والسفر إلى العدو، ولا في المدينة إن هوجمنا ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهو القعود عن غزوة تبوك، فكان ذلك دلالة على معدنكم وسوء مقصدكم ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ مع المعتادين على الخلاف والمخالفة أمثالكم، ومع المتخلفين من العجزة والنساء والأولاد.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ صلاة الجنازة ﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ لأنهم ماتوا على الكفر ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بالدعاء ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أصروا على كفرهم حتى الموت، وهو السبب في تحريم الصلاة عليهم، بخلاف التائبين منهم.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فتكون وبالاً عليهم ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ الآية معطوفة على ما قبلها، فالآية المتقدمة تأمر النبي، والمؤمنين، أن لا يصلّوا عليهم، وتضيف هذه الآية ألاّ يعجبوا بكثرة أموالهم وأولادهم لأنهم مصرّون على الكفر ويموتون عليه، فكيف يمكن أن تعجب أموالهم وأولادهم؟

والفرق بين هذه الآية والآية (٥٥) من حيث المغزى وسياق المعنى، فالآية (٥٥) والآيات (٥٦-٥٧) التي تليها توضح أنّ ثروة المنافقين وأولادهم لم توفر لهم السعادة الدنيوية والروحية المرجوّة، بل تصف حالة القلق والذعر والترقب التي يعيشونها، وفوق ذلك فإنّ الصدقات من أموالهم لا يُثابون عليها، الآية (٥٤).

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ تأمرهم بالإيمان والجهاد: ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ إيمان اليقين ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي صدّقوا الإيمان بالعمل في أقوى حالاته، وهو الجهاد بالأموال والأنفس ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ بالقعود والتخلف عن الجهاد، وأولوا الطول أصحاب السعة في الرزق والأموال، أو الرؤساء والأكابر المعتبرون، فهم أولى وأقدر من غيرهم على الجهاد والبذل، ومع ذلك يستأذنون في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ رغم أن الوحي نزل يأمرهم بالجهاد.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع المتخلفين بأعذار فاسدة، أو مع النساء والأولاد ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الطبع والختم على القلوب بمعنى أنها لا تتقبل شيئاً من العلم الجديد، أو الفهم الصحيح، وتصر على ما استقر فيها من المفاهيم المتوارثة بالتقليد، المنحازة والمغلوطة، ﴿فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي فلهذا السبب، لكونهم طُبع على قلوبهم، لا يفقهون القرآن ولا يتدبرون معانيه.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨)

٨٨- يلاحظ أن الآيتين (٧١-٧٢) وصفت سلوك المؤمنين وحسن المآل الذي ينتظرهم، بالمقابلة مع سلوك المنافقين وما ينتظرهم من سوء العاقبة، ثم في هذه الآية والتي تليها بيان للموقف العملي للرسول ﷺ والمؤمنين معه وما ينتظرهم من حسن الختام:

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ المعنى أنه إنْ تخلّف المنافقون عن الغزو فقد توجه إليه من هو خير منهم، فكان الأجدر بالمنافقين أن يكون الرسول والمؤمنون قدوة لهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون الناجون من العقاب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ استئناف وبيان لمآل المفلحين المشار إليهم آنفاً، بالمقابلة مع المصير الذي ينتظر المنافقين ذوي الأموال والأولاد (الآية ٨٥)،

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠)

٩٠- الأعراب سكان البادية، بالمقارنة مع العرب الذيـن هـم سـكان المـدن والقرى، فبعد أن فصّلت السورة من الآية (٣٨-٨٩) موقـف أهـل المدينـة تجـاه النفير إلى غـزوة تبـوك، لكـون أهـل المدينـة في حينـه مركـز الدولـة الإسـلامية وعمودها الفقري، وركّزت على موقـف المنـافقين منهـم، تنتقـل هنـا إلى بيـان موقف الأعراب، كونهم غالبية السكان في جزيرة العرب وقتئذٍ، فمـن الطبيعي أن يكون لموقفهم تجـاه البعثـة الإسـلامية أهميـة كـبرى، فمنهـم مَـن خـرج مـع النبي ﷺ إلى تبوك، ومنهم مَن تخلّف تثاقلاً عن تحمّل مشقة الغزو لبعـد المسـافة، حيـث لم يبـدُ للغـزوة بالنسـبة إلى المتخلفـين منهـم مسـاس مباشـر بمصـالحهم الشخصية الفورية:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي المعتذِرون وقد أدغمت التاء في الـذال فصـارت ذالاً مشدّدة ﴿مِنَ الأَعْرَابِ لِيُـؤْذَنَ لَهُـمْ﴾ في القعـود والتخلّـف عـن الخـروج لغـزوة تبوك، سواء منهم بأعذار حقيقية أو وهمية ﴿وَقَعَدَ﴾ منهم عن المجيء والاعتذار ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فهؤلاء ما جاؤوا وما اعتـذروا ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهـم المصـرّون على الكفـر، وقولـه تعـالى ﴿مِنْهُـمْ﴾ للتبعيض، لعلمه تعالى أنّ بعضهم سيؤمن (الآية ٩٩)، فلا يصيبُه العذاب الأليم.

ويلاحظ الإعجاز في الآية، إذ بيّنت بإيجاز شديد موقف الأعراب، فقد جـاء بعضهم للاعتذار بأعذار حقيقيـة أو وهميـة، وقعـد آخـرون عـن المجيء أو عـن الاعتذار، ثم أوجزت مآل المصرّين منهم على الكفر.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَـرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١)

٩١- بعد بيان استئذان بعـض النـاس مـن أهـل المدينـة، ومـن الأعـراب، في القعود عن النفير إلى غزوة تبوك عن عذر صحيح، وغير صحيح، تبين هذه الآية أصحاب الأعذار الذين يحق لهم القعود عن الغزو:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ من ضعاف البنية، وكبار السن من الشيوخ ﴿وَلا عَلَى الْمَرْضَى﴾ ويدخل فيهم الأعمى والأعرج وكل ذي عاهة، أو ذي مرض يمنعه من القتال ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ على أنفسهم من الزاد والراحلة، لأن اشتراكهم في الغزو لا يكون مفيداً إلاّ إن كان عندهم قدرة على الإنفاق على أنفسهم، من مالهم، أو من مال آخرين يعينونهم في المؤن والركوب خلال السفر، وإلاّ كانوا وبالاً على المقاتلين وعبئاً عليهم ومعوّقاً لهم، ولأنه لم يكن للدولة المسلمين وقتئذٍ بيت مال ينفق عليهم ﴿حَرَجٌ﴾ أصل الحرج الضيق، كما في آية [الأعراف ٢/٧] و [الأنعام ١٢٥/٦]، والمعنى أنّ التكليف بالغزو والجهاد ساقط عن هذه الأصناف الثلاثة من الناس، فلا ضيق ولا حرج عليهم في حكم الشرع، بشرط إخلاصهم في النية والعمل، لقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة والقيام بدور إيجابي إذا قعدوا في البلد، فيمتنعوا عن نقل الشائعات وعن إثارة الفتن، ويعملوا ما في وسعهم لمساعدة أهالي المقاتلين، فالنصح إخلاص العمل من الغش، وفي الحديث: «الدين النصيحة" قيل لمن يا رسول الله قال: " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»، فالنصح لله إخلاص العقيدة في الوحدانية، والنصح لرسوله التصديق بنبوته وطاعته والعمل بسنته، والنصح لكتابه تعالى قراءته والعلم والتفقه فيه والعمل به، والنصح للأئمة طاعتهم وعدم الخروج عليهم وإرشادهم، والنصح للعامة ترك معاداتهم وإرشادهم ومحبة الصالحين منهم ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وهو تعليل رفع الحرج عنهم، لأن كل ناصح لله ورسوله ينتظم في سلك المحسنين، فلا سبيل إلى مؤاخذة أمثالهم، ولا سبيل إلى إيقاعهم في الحرج ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم.

﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ أيها النبي ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ وهم صنف آخر من المعذورين الذين ليس عليهم من حرج في القعود، ولا سبيل إلى

مؤاخذتهم، وهم الذين يملكون نفقة سفرهم ولكن لا يملكون الراحلة التي تحملهم، فأتوا الرسول ﷺ يطلبون منه تزويدهم بالراحلة كي يشتركوا معه في الغزو ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من الخيل أو الجمال أو البغال ﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ في شراء راحلة للركوب.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ فهؤلاء لا سبيل لرفع الحرج عنهم في التخلف، وهم المشار إليهم في الآية (٨٦)، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع المتخلفين بدون أعذار، أو مع النساء والأولاد ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ نسبَ الطبع على قلوبهم إلى ذاته العلية مع أنه بنتيجة عملهم كما في آية (البقرة ٢/٧)، وفي الآية (٨٧) أسند الطبع إلى المفعول، والمراد واحد وفق سننه تعالى في الخلق ﴿فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا السبب، وهو الطبع على القلوب، لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدنيا والآخرة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

٩٤- تتمة الخطاب من الآية السابقة عن الأغنياء الذين لا سبيل لرفع الحرج عنهم في التخلف، فقد استأذنوا في القعود قبل الغزوة، ثم يعتذرون بأعذار واهية أيضاً بعد عودة الرسول ﷺ من الغزوة:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة تبوك ﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا﴾ أعذاراً غير مقبولة، فإنّ العبرة بالتوبة الصادقة وبالعمل بما تقتضيه، كما سيرد في تتمة الآية ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ بما نزل من الوحي على النبي ﷺ، فصرنا نعلم أنّ ظاهركم غير باطنكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في المستقبل، فيظهر لنا من أعمالكم، وليس من أقوالكم، إن

كانت توبتكم صحيحة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي يعلم ما تكتمون وما تعلنون ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويحاسبكم على عملكم وفق ما تستحقّون.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ بعد اعتذارهم لكم بالأعذار الواهية، وعدم تصديقكم لهم (الآية ٩٤)، فسوف يؤكدون أعذارهم بالأيمان الكاذبة ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من سفركم ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ عن عقابهم، وهو سبب اعتذارهم وحلفهم الأيمان الكاذبة، إذ كانوا يخشون العقاب ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وهكذا فإنّ النبي ﷺ لم يعاقبهم بعد عودته من الغزوة، فقد جاءه المخلفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، فقبل منهم علانيّتهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ دلالة على خبث باطنهم، راجع شرح آية [الأعراف ٧/١٧١]، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في دنياهم من السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وهو الغرض الثاني من حلفهم الأيمان الكاذبة أن يرضى عنهم الرسول والمؤمنون ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ لا ينفعهم رضاكم، لأن الله لا يرضى عنهم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المراد نهي المؤمنين عن الاغترار بأعذارهم الكاذبة.

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧)

٩٧- استمرار الخطاب عن الأعراب الذي بدأ في الآية (٩٠)، حيث ذكرت الآية أنّ بعضهم ما جاء وما اعتذر عن القعود: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾

من كفّار أهل الحضر ومنافقيهم، بسبب بيئة البداوة والحياة الوحشية التي يعيشونها، وقلة احتكاكهم مع أهل الحكمة والعلم من الناس، قال الألوسي: الحكم على الأعراب بما ذُكر من باب وصف الجنس ببعض أفراده كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء ١٧/٦٧]، إذ ليس كلهم كذلك بدليل الآية (٩٩)، ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ هم أولى وأحقّ أن لا يعلموا التكاليف والأحكام الشرعية، بسبب طبيعة معيشتهم وعزلتهم وبعدهم عن العلماء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه.

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)

٩٨- بعد أن ذكرت الآية (٩٠) أن بعض الأعراب اعتذر عن النفير مع النبي ﷺ، بل إنّ بعضهم قعد عن المجيء وعن الاعتذار، وبيّنت الآية (٩٧) أنهم أشد كفراً ونفاقاً من الكفار والمنافقين في المدن، تبيّن هذه الآية نوعاً معيناً من نفاق بعضهم:

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ ينفقون بعض أموالهم خوفاً من المؤمنين رياءً وتقيةً، ويعتبرون نفقتهم غرامة وخسارة لأنهم غير مؤمنين بالرسالة ولا بثواب الآخرة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ التربّص الانتظار، والدوائر هي دوائر الزمن وتقلب أحواله، والمعنى أنهم بسبب جهلهم وخبث نفوسهم ينتظرون ويتوقعون أن تنقلب الأمور على المسلمين بظهور اليهود أو المشركين عليهم، فيستريحوا من أداء هذه المغارم بزعمهم ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دوائر الزمن ستنقلب عليهم، وهو إخبار بالمآل السيئ الذي ينتظرهم، على عكس ما يريدون بالمسلمين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنواياهم.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٩)

٩٩- في الآيتين (٧١-٧٢)، ثم الآيتين (٨٨-٨٩)، يلاحظ التناظر وإعجاز النظم القرآني في وصف مواقف المؤمنين إيمان اليقين وحسن ختامهم، بعد بيان أنواع سلوك المنافقين وسوء عاقبتهم، ثم في هاتين الآيتين (٩٩-١٠٠) تبين السورة موقف الأعراب المؤمنين وحسن عاقبتهم، ومنزلة مَن هم أعلى منهم درجة من السابقين والتابعين وعلوّ منزلتهم.

فَعَلى الرغم من طبيعة الأعراب وكونهم أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر، فمنهم المؤمنون الصادقون: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إيماناً صادقاً يقينياً ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينفقون في سبيل الله ويعدّون نفقتهم تقرّباً وزلفى إلى الله تعالى، وقربات مفردها قربة من القرب والدنو، أي في المنزلة والمكانة ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ عطف على ﴿قربات﴾، أي ويتّخذون ما ينفقون سبباً لدعائه لهم عليه الصلاة والسلام، لأنه كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، والصلوات مفردها صلاة، وهي في أصل اللغة الدعاء، لأنه مخ العبادة ﴿أَلا إِنَّهَا﴾ أي النفقات ﴿قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ تأكيد وتصديق لما اعتقدوه ورجوه من كون نفقاتهم تقربهم عند الله زلفى ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ تفسير لهذه القربة، ودلالة على رضا الله تعالى عن المتصدقين إذا كانت نياتهم خالصة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن سيئاتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

١٠٠- تتمة الخطاب من الآية السابقة، لبيان فضل من هم أعلى منزلة من جميع المذكورين آنفاً، سواءٌ منهم الأعراب المؤمنون وغيرهم من المسلمين، وهم أصناف ثلاثة:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين بادروا بالهجرة قبل غيرهم، زهدوا في دار الكفر فهجروا موطنهم وأملاكهم، وتحملوا المشاق والمخاطر،

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، يوم لم يكن للهجرة داع سوى اليقين في الإيمان، والإخلاص للإسلام، والشوق لحرية العبادة والعقيدة، والسابقون تاريخياً هم الذين هاجروا قبل الهجرة النبوية أو بعدها بسنوات قلائل حتى صلح الحديبية، راجع الخلفية التاريخية، وقبل أن يكون للمسلمين قوة أو دولة ترتجى، أو يُخشى منها، فلم يكن للمصلحة وللنفاق في حينه مقتضى ولا سبب ﴿وَالأَنصَارِ﴾ السابقون الأولون من الأنصار من أهل المدينة، الذين نصروا إخوانهم المسلمين المهاجرين إليهم واستقبلوهم وأعانوهم، وفي مقدمتهم الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة قرب مكة، بيعة العقبة الأولى قبل الهجرة النبوية بسنة وبضعة شهور، ثم بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة النبوية ببضعة شهور ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ الذين اتبعوا السابقين من المهاجرين والأنصار، فجعلوهم قدوة لهم في الهجرة من دار الكفر، وفي نصرة من يهاجر إليهم ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ بشرط أن يكون اتباعهم لهم بإحسان، أي يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة قولاً صدقاً وعملاً ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم والرضى عن أعمالهم، والضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ عائد للأصناف الثلاثة المذكورين ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما وفقهم إليه من الهداية، وبما نالوه من نعم الدنيا والآخرة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ليس فوز آخر بعده.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١)

١٠١- بعد أن وصفت الآيات (٣٨-٧٠) و (٧٣-٨٧) و (٩٠-٩٨) أنواعاً ثلاثة من المنافقين، تبين الآيات (١٠١) و(١٠٧) و (١١٠) أنواعاً من منافقي الأعراب ومن أهل المدينة مَردوا على النفاق أي تمرّسوا فيه، وهذه الآية معطوفة على الآية (١٠٠) من قبيل عطف الضد على الضد:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ أي في البادية حول بلدتكم ﴿مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ منهم منافقون ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ منهم منافقون أيضاً ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾

تمرّسوا فيه، ومَرنوا عليه، وأصبحوا فيه مهرة وأتقنوه، وصار نفاقهم أملسَ حيث يخفى أمرهم على الناس، وأيضاً صاروا به مردةً عتاة ﴿لا تَعْلَمُهُمْ﴾ بفطنتك وصدق فراستك أيها النبي، لشدة ما حذقوا في النفاق والتُقية، بحيث يخفى عليك أمرهم رغم كمال فطنتك وصدق فراستك ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا يعلم سرائرهم إلاّ من لا تخفى عليه خافية، فهم في ستر الله تعالى إلى أن يكشفهم للناس وينجز ما أوعدهم من العذاب: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ في الحياة الدنيا ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ كتبَ الشيخ رشيد رضا: المرة الأولى بما يصيبهم من المصائب، وبعذاب نفوسهم القلقة الخائفة من افتضاح أمرهم وهتك أسرارهم، والثانية: آلام الموت لأمثالهم وزهوق أنفسهم وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم [الأنفال ٨/٥٠]، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ لأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار [النساء ٤/١٤٥].

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿وَآخَرُونَ﴾ ممّن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة، لا هم من السابقين الأولين ولا من الذين اتبعوهم بإحسان (الآية ١٠٠)، ولا هم من المنافقين الذين مردوا على النفاق (الآية ١٠١)، بل هم جماعة غلب عليهم الإهمال: ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ هم من المؤمنين المذنبين المقرّين بذنوبهم، ولم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا﴾ من أعمال البر والإحسان والجهاد في غزوات سابقة ﴿وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ بتخلفهم وبتخلفهم عن غزوة تبوك ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيقبل توبتهم، إن تابوا وندموا ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير المغفرة للتائبين، رحيم بالمحسنين، ومغزى الآية غير مقتصر على غزوة تبوك، بل يتناول المسلمين في كل الأزمنة الذين يخلطون الأعمال الصالحة والأعمال السيئة.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣)

١٠٣- بعد أن ذكرت السورة المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وأنه تعالى يتوب عليهم إن تابوا، تُبيّن في هذه الآية، وفي الآيات (١٠٤-١٠٥)، أن توبتهم لا تكون بمجرد الكلام والقول، وإنّما يجب أن يصدّقها العمل، ومن ذلك إيتاء الزكاة الواجبة على كل مؤمن مالك النصاب، وأيضاً فإنّ الصدقات بالنسبة إليهم كفارة لذنوبهم وفيها إصلاح نفوسهم:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الصدقة هي الزكاة المفروضة، أو صدقة التطوع، والخطاب وإن كان للرسول ﷺ فهو عام يشمل الخلفاء من بعده وأئمة المسلمين، كما أن الضمير في قوله ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ عام أيضاً يشمل سائر المؤمنين من أصحاب الأموال ذوي النصاب، وغير مقتصر على المعترفين بذنوبهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً المشار إليهم بالآية السابقة، وقد احتجّ مانعو الزكاة في زمان أبي بكر بهذه الآية، وقالوا إنه تعالى أمر رسوله بأخذ الصدقات، ثم أمره أن يصلي عليهم وأن صلاته سكن لهم، فكان هذا الأمر بأخذ الزكاة خاص به دون غيره، وهذا القول ضعيف لأن النص حكمه عام، وإن كان سببه خاصاً، وقد ردّ عليهم أبو بكر الصديق والصحابة رضي الله عنهم هذا القول، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى الرسول ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ الصدقة تطهّرهم من دنس البخل والجشع والقسوة والتهالك على المادة والتوجه النفسي السيء، ومن الذنب والمعصية ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التزكية هي المبالغة في التطهير، وهي أيضا الإنماء، والمعنى أنه تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب الزكاة سبباً للإنماء ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أدعُ لهم واستغفر لهم، لأنّ الصلاة في أصل اللغة الدعاء، ولذا سميت العبادة صلاة، والصلاة من الله على عباده الرحمة، ومن ملائكته الدعاء والاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ دعاء له بما أُمرنا به في الصلاة بعد التشهد الأخير ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ المعنى أدعُ للمتصدّقين أيها الرسول حتى تسكن وتطمئن نفوسهم بقبول صدقاتهم وتوبتهم

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعاء النبي سماع قبول واستجابة، سميع لتوبتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وندمهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أولئك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ وحده ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ الصحيحة ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ عن ذنوب عباده التائبين، المخلصين في توبتهم، فيتجاوز عن ذنوبهم ويعفو عنهم، وفي ذلك إشارة واضحة أن ليس لبشر، بمن فيهم الأنبياء، قبول توبة تائب أو إعفائه من خطاياه كما يفعل بعض رجال الدين المسيحي اليوم، وغيرهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها ويثيب عليها، وإسناد الأخذ إليه تعالى مجاز، كما أنّ استمرار الخطاب من الآية السابقة بكون الرسول ﷺ يأخذ الصدقات، ثمّ إسناد الأخذ إليه تعالى فيه تشريف للنبي ﷺ، من حيث أن أخذه الصدقة جار مجرى أن يأخذها الله تعالى، وفي ذلك أيضاً تشريف عظيم لطاعة من يؤتي الصدقات ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ يقبل التوبة بعد التوبة مراراً وتكراراً من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ يرحم التائبين ويتجاوز عن سيئاتهم ولا يعاقبهم عليها.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

١٠٥- هذه الآية معطوفة على الآية (١٠٣) في قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ لأنّ التوبة الصادقة والاعتراف بالذنب والاعتذار، كل ذلك لا يكون بمجرد الكلام والقول (الآية ٩٤)، وإنّما تقترن بالعمل:

﴿وَقُلْ﴾ لهم أيها الرسول أتبعوا التوبة بالعمل: ﴿اعْمَلُوا﴾ لأنّ العبرة بالعمل الصالح وبالجدّ، راجع آية [الأنعام ١٥٨/٦]، والمغزى أيضاً تحذير من عاقبة الإهمال والذهول عن الآخرة ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ دلالة على أنّ

مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، المقررة صفاتهم في القرآن، تلي مرضاة الله ورسوله، وأنهم لا يجتمعون على ضلال ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي يعلم سركم وعلانيتكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويحاسبكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، [الزلزلة ٩٩/٧-٨].

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

١٠٦- ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ أي مؤخّرون وموجَّلون ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ عطف على المذكورين في الآيات (١٠٢-١٠٥) من المتخلفين الذين شعروا بذنوبهم واعتذروا عنها وتابوا وعملوا صالحاً، وأما هؤلاء المشار إليهم في هذه الآية فلم يصلوا بعد إلى درجة المراجعة الذاتية واتخاذ الخيار بين الحق والضلال، فهم من أنصاف المؤمنين المذبذبة نفوسهم بين الخير والشر، وهذا الصنف من الناس غير مقتصر على المذكورين بغزوة تبوك، وإنما ينطبق على أمثالهم في كل الأزمنة، والحكم عليهم قد أُرجيء لأمر الله تبعاً لما تتوصّل إليه نفوسهم في المستقبل من التوبة أو الضلال، فهم من هذه الناحية أشباه المذكورين في آية [الأعراف ٤٦/٧]، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن مالت نفوسهم إلى الضلال ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن توصّلت نفوسهم إلى الحقيقة وتابوا وصحّت توبتهم وعملوا صالحاً، وهكذا فإن التردد بين الأمرين عائد إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه فيهم وفي إرجائهم وإعطائهم الفرص.

قال الألوسي: ومن هذه المادة المُرجئة، إحدى فرق أهل القبلة، وسمّوا بذلك لتأخيرهم المعصية عن الاعتبار في استحقاق العذاب، حيث زعموا أن لا عذاب مع الإيمان، فلم يبقَ للمعصية عندهم أثر، وفي المواقف سُمّوا مرجئة لأنهم يُرجون -يؤخرون- العمل عن النية، أي يؤخرونه عنها في الرتبة، أو لأنهم يطمعون بالرجاء بزعمهم: لا يضر مع الإيمان معصية، انتهى، وكل ذلك من قبيل التمنّي وخداع النفس،

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧)

١٠٧- الآيات (١٠٧-١١٠) تشير إلى مجموعة معينة من منافقي المدينة، غرّر بهم رجل من الخزرج يُدعى (أبو عامر الراهب)، كان قد اعتنق المسيحية في الجاهلية قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وكان له مقام كبير لدى الخزرج وعند مسيحية الشام، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، اتخذ أبو عامر منه موقفاً معادياً من البداية، وقد دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن فأبى واستكبر، بل تحالف مع كفار قريش ضده حتى أنه اشترك في وقعة أحد ضد المسلمين عام ٣ هجرية، ثمّ لمّا تبين له أنّ أمر المسلمين في تعاظُم، خاصة بعد وقعة حنين، يئس وذهب إلى هرقل إمبراطور بيزنطة يستنصره ويحضه على مهاجمة المسلمين في المدينة ويرغّبه في استئصالهم، فوعده هرقل ومنّاه حتى أنه أقام عنده، وكان خلال هذه الفترة يكاتب جماعة من قومه في المدينة يعِدُهم ويغرّر بهم، ثم في العام ٩ هجرية كتب إليهم أن هرقل يعد العدة لإرسال جيش لاكتساح المدينة وأنه جارٍ حشد الحشود لهذا الغرض، ولعل هذا من أسباب قيام النبي ﷺ بغزوة تبوك الدفاعية، راجع الخلفية التاريخية، وقد رغب أبو عامر أن يكون لأتباعه معقل ومقرّ خاص بهم في المدينة في حال حدوث الغزو، فأمرهم أن يبنوا مسجداً خاصا بهم في قريتهم بقباء، وهو مسجد الضرار الذي تشير إليه هذه الآية، فلمّا رجع النبي ﷺ من حملة تبوك أمر بهدمه، وأمّا أبو عامر الراهب فقد مات بالشام قهراً بعد ذلك بقليل:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وكفراً﴾ عطف على ما سبق، أي ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، للإضرار بالمسلمين، لأنّ الضرار طلب الضرر للآخرين ومحاولته، وهو الهدف من إنشائهم المسجد المذكور بجوار مسجد قباء، وتقدير الخطاب: اتخذوا مسجداً ليضرّوا به ضراراً، وكفروا كفراً، قال الزمخشري: كل مسجد بُني مباهاةً أو رياءً أو سمعةً، أو لغرض سوى ابتغاء وجه

الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لغرض التفريق بين جماعة المؤمنين تفريقاً ﴿وَإِرْصَادًا﴾ الإرصاد الإعداد والانتظار، لأنهم بهذا المسجد كانوا يترصّدون المنافقين والمذبذبين من ضعاف الإيمان كنقطة تجمع لهم ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو أبو عامر الراهب وأتباعه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من البداية ومن قبل بناء مسجد الضرار، لأن أبو عامر ناصب المسلمين العداوة من البدء ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ كذباً ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ أردنا الإرادة الحسنى ببناء المسجد، يدّعون أنهم بنوه لصالح المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في أيمانهم.

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (١٠٨)

١٠٨- بعد أن وصفت الآية المتقدمة مسجد الضرار بأنه مدعاة لأربعة مفاسد: وهي الضرار، والكفر، وتفريق المؤمنين، والإرصاد، تنهى هذه الآية الرسولَ ﷺ عن القيام فيه:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ القيام مجاز عن الصلاة، أي لا تقم للصلاة في مسجد الضرار ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ قيل هو مسجد قباء لأنه أسّس قبل مسجد المدينة، وقيل المسجد النبوي، ولفظ الآية يمكن أن ينصرف لكل منهما، لأنّ كلاً منهما قد أسسه النبي ﷺ على التقوى من أول يوم شرع في بنائه، أي قصد ببنائه تقوى الله تعالى بإخلاص العبادة فيه، وقصد اجتماع المؤمنين فيه على ما يرضيه تعالى ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ يجدر أن تقوم للصلاة فيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ من الذنوب والمعاصي ومن التقصير في العمل، إضافة أنّ قيامهم فيه يتطلب طهارتهم الجسمية، فبذلك تكتمل طهارتهم النفسية والبدنية ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ المبالغين في الطهارات النفسية والجسمية معاً، قال الرازي: إنّ طهارة الظاهر إنّما يحصل لها أثر عند الله لو حصلت معها طهارة الباطن من الكفر والمعاصي، أمّا لو حصلت طهارة الباطن من الكفر

والمعاصي، و لم تحصل نظافة الظاهر، كان طهارة الباطن لها أثر، وعليه فإنّ طهارة الباطن بالدرجة الأولى

وقد ذكر الألوسي رأي البعض أن المراد من الآية مسجد قباء حصراً، بدليل قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ لأن مسجد قباء بُني من أول أيام الهجرة ودخول المدينة، قال: قال السهيلي: ويستفاد من الآية صحة ما اتفق عليه الصحابة رضي الله عنهم مع عمر رضي الله عنه حين شاورهم في التأريخ فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن أنّ قوله تعالى ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أنّ ذلك اليوم هو أول أيام التأريخ الذي نؤرخ به الآن، فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية فهو الظن بهم، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله تعالى وأفهمهم بما فيه من الإشارات، وإن كان ذلك عن رأي واجتهاد فقد عَلِمه تعالى وأشار إلى صحته قبل أن يُفعل، إذ لا يُعقل قول القائل فَعلتُه من أول يوم، إلاّ بالإضافة إلى عام معلوم، أو شهر معلوم، أو تأريخ معلوم، انتهى.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي مَن يريد بعمله تقوى الله ورضوانه ﴿خَيْرٌ﴾ عملاً وأفضل عاقبة ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الجُرُف حافة الوادي الذي إذا جاء السيل جرف أساسه من تحته فأصبح مائلاً للانهيار، فهو هارٍ وهائر، فإذا سقط فقد انهار، والمعنى أنّ المنافق المرائي الكذّاب يكون أساس عمله على شفير الانهيار، بخلاف المؤمن الصادق الذي يريد بعمله تقوى الله ورضوانه فيكون أساس عمله ثابتاً دائماً، والنتيجة أن البقاء والدوام يكون للأصلح ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنّ من سنته تعالى في خلقه أنّ الظالم لا يهتدي في أعماله إلى الحق والعدل، والله تعالى لا يحيط الظالمين بتوفيقه ورعايته.

لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

١١٠- ﴿لا يَزَالُ﴾ على الدوام ﴿بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ وهو بناؤهم الذي بنوه بغرض الإضرار والكفر والتفريق والإرصاد ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الريبة من الريب، وأصله الشك، لأنهم كانوا يشكّون في نبوّته ﷺ وفي نفس الوقت يدّعون الإسلام، وهو عين النفاق، والمعنى أنّ بناءهم كان مصدراً دائماً للشك والقلق والاضطراب والهاجس في قلوبهم، حتى موتهم ﴿إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بموتهم وهلاكهم على حالتهم هذه، ما لم يتوبوا، والواضح إنّ الآية ذات مغزى عام غير مقتصر على أحداث البعثة النبوية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يُظهر من أحوالهم وبواطنهم ما اقتضته حكمته الأزلية وعلمه المحيط بكل شيء.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١)

١١١- بعد أن وصفت الآيات (٣٨-١١٠) أصنافاً من المنافقين، من أهل المدينة ومن الأعراب، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، كما وصفت خلالها مواقف المؤمنين الصادقين وتضحياتهم وحسن عاقبتهم بالآيات: (٧١-٧٢) و (٨٨-٨٩) و (٩٩-١٠٠) تعود الآيتان: (١١١-١١٢) إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقة المؤمنين:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ بيان لحقيقة المؤمن المستعد لبذل نفسه وماله في سبيل الإسلام، فهو يضحي بالدنيا مقابل الآخرة، ومن لم يكن لديه الاستعداد لهذه التضحية تكون دعواه بالإيمان في حاجة إلى تصديق وتحقيق ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فتكون لهم الجنة، مقابل فوات الدنيا التي ستزول عنهم على أية حال ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ الكتب المنزلة الثلاثة تشهد بذلك، ولا عبرة بكتب

اليهود والنصارى المتاحة بين أيدينا اليوم إذ لم يبقَ فيها من الوحي الصحيح إلاّ القليل، وأضيف إليها الكثير من كتابات البشر، راجع شرح آية [آل عمران ٣/٣]، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ تأكيد لتحقق الوعد الإلهي ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ بشرى بحسن العاقبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يتضاءل معه كل فوز آخر، لأنه بيع الدنيا الفانية الزائلة، مقابل الخلود في جنة الآخرة.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢)

١١٢- هذه الآية بيان لصفات المؤمنين المجاهدين المشار إليهم آنفاً: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من ذنوبهم، كتوبة الكافر الذي يدخل الإسلام، وتوبة المنافق من نفاقه، وتوبة العاصي من ذنوبه، وتوبة المقصّر في عمل الخير، وتوبة الغافل عن ذكر ربه ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة ﴿الْحَامِدُونَ﴾ له تعالى على كل حال ﴿السَّائِحُونَ﴾ في طلب مرضاته، فعلاً ومجازاً، كالمجاهدين وطلبة العلم والدعاة والمهاجرين في سبيل الله، وقيل هم الصائمون، لأن السائح عندهم كان كالصائم في سفره، لقلة ما يحمله من زاد ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ المقيمون الصلاة، كأن الركوع والسجود صفة من صفاتهم الثابتة، وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ راجع شرح [آل عمران ١٠٤/٣] ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ المبيّنة في الشرائع والأحكام والمعاملات ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتصفين بهذه الصفات.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣)

١١٣- مزيد من صفات المؤمنين المذكورة صفاتهم آنفاً، بأنهم لا يستغفرون لمن ماتوا مصرّين على الكفر ولو كانوا أولي قربى، والآية تأكيد لوجوب إظهار البراءة من المشركين والمنافقين من جميع الوجوه، بمن فيهم الذين ماتوا مصرّين على الكفر ولو كانوا ذوي قربى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الإشارة للمشركين الذين ماتوا على الكفر، مصرّين عليه، بعد أن بلغتهم رسالة الإسلام، بدليل الآية (١١٥)، فقاوموا الإسلام وحاربوه حتى رمقهم الأخير، فأمثال هؤلاء لا يجوز الاستغفار لهم مهما كانت درجة قرابتهم للمؤمنين، ولكن يجوز الاستغفار لحيٍّ يُرجى إيمانه وبقصد سؤال الله أن يهديه لما يكون به أهلاً للمغفرة،

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤)

١١٤- ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ كان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه ويرجو إيمانه ويقصد سؤال الله أن يهديه لما يكون به أهلاً للمغفرة، والموعدة التي وعدها لأبيه هي قوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم ١٩/٤٧]، ودعاؤه: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء ٢٦/٨٦]، وقوله ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة ٦٠/٤]،

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ تبرّأ إبراهيم من أبيه بعد أن مات الأب مصرّاً على الكفر، وانقطعت عنه التوبة، أو أنه تبرّأ من أبيه بعد أن علم بطريق الوحي أنّ أباه لن يؤمن، مثلما علم النبي ﷺ من نزول سورة المسد عليه أن عمّه أبا لهب لن يؤمن ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ كثير الدعاء والتضرّع والخشوع والشفقة والرقّة ﴿حَلِيمٌ﴾ يتأنّى في الأمور ولا يستفزّه الغضب، فقد استغفر لأبيه مع أنّ أباه هدده بالرجم والطرد: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم ١٩/٤٦].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

١١٥- بعد أن نهى تعالى عن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا مصرّين على الكفر فصاروا من أصحاب الجحيم، وضرب مثلاً باستغفار إبراهيم لأبيه، بيّن في هذه الآية السبب في ذلك، وهي أنه لا يؤاخذ الناس بضلالهم إلاّ بعد أن تبلغهم الرسالة ويتبيّن لهم طريق الخير من طريق الشر:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الله تعالى لا يترك الناس على ضلالهم، أو يعتبرهم ضالّين فيعاقبهم، إلاّ بعد أن تبلغهم الرسالة، ويبيّن لهم طريق الهداية بياناً واضحاً تامّاً لا مجال معه للاجتهاد الذي قد يكون عذراً في المخالفة ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ بعد أن هداهم بالفطرة، أو بعد أن قضى بإنارة السبيل إلى هدايتهم، فنزلت الرسالات السماوية تدعوهم إلى الهدى، وتبيّن لهم طريق الخير من الشر ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ يبيّن لهم الأحكام والشرائع، وما يجب اتقاؤه من الشرك والمعاصي، والبيان يكون بالنص القطعي، فالعبادات والحلال والحرام لا تثبت إلا به ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يعاقب العباد إلاّ بعد التبيين وإزالة الأعذار والعلل، والخلاصة أنّ الله تعالى لا يترك الناس على الضلال، بعد إذ هداهم بالفطرة، حتى يبعث لهم الرسل فيبين لهم ما يتقون من الشرك والفسوق.

ونظير هذه الآية كثير في التنزيل، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام ١٣١/٧]، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر ٤/١٥]، وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ﴿الإسراء/١٥﴾، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء ٢٠٨/٢٦]، وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص ٥٩/٢٨]، وقوله عزّ من قائل ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٢٤/٣٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (١١٦)

١١٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فيتصرف في خلقه وفق ما اقتضته حكمته الأزلية ﴿يُحْيِي﴾ من يشاء الهداية ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يشاء الكفر، لأن الإحياء والإماتة بالمعنى المجازي، انظر [الأنعام ٦/١٢٢]، ولأن المعنى استمرار للآية السابقة ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾،

ونظير ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة ٢/٢٥٧].

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧)

١١٧- الخطاب متعلق بالآية (١١١)، بأنّ المؤمنين الذين اشترى تعالى أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنة، والمذكورة صفاتهم في الآية (١١٢)، فهذه الآية تبيّن أنّه تعالى لا يؤاخذهم بما صدر عنهم من هفوات وزلّات:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ قَبِل توبتهم، وشملهم بعطفه، وتجاوز عن هفواتهم، وعن اجتهادهم فيما لم يبيّنه الله تعالى لهم بياناً قطعياً، قال الألوسي إنّ ذكر النبي ﷺ معهم في الخطاب يُعتبر تشريفا وتعظيماً لقدرهم، وأمّا الذنب بالنسبة إليه ﷺ فهو من باب خلاف الأَوْلى نظراً لمقامه الجليل، راجع شرح الآية (٤٣)، ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ اتّبعوا النبي ﷺ في وقت الشدّة والضيق، وقت غزوة تبوك، إذ كانت عسرة في الزاد عند انتهاء موسم الصيف، ونفاد المئونة من التمر وغيره، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه نضج الموسم الجديد ولم يحن وقت قطافه، وعسرة في التزوّد بالماء لبعد المسافة، وعسرة في الركوب فكان عدد منهم يتناوبون الركوب على الجمال، وعسرة في شدة الحر، وكان من عادة النبيّ عند الخروج للغزو أنّه لا

يصرّح بوجهة السفر، إلاّ في غزوة تبوك فقد أخبر الناس سلفاً أنه يريد قتال الروم، لكي يستعدّوا ويتجهّزوا لبعد المسافة، والمشقة، وليكونوا على علم مسبق بكثرة العدو وقوّته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ الزيغ هو الميل، والمعنى قارب بعضهم، لشدة المشقة ورهبة العدوّ، أن يميل قلبُه عن الطريق السويّ، فيعصى أمر الرسول ﷺ في النفير، أو تخطر على باله الوساوس لشدة الموقف ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ عفا تعالى عن مقاربتهم أن يعصوا الرسول ﷺ، وأن تزيغ قلوبهم عن الواجب ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فلا يحاسبهم على ضعف النفوس البشرية إذا لم تخرج من نطاق الأفكار والوساوس إلى نطاق المعصية العملية.

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)

١١٨- ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ﴾ عطف على الآية السابقة، أي وتاب على الثلاثة ﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ الذين ما ذهبوا خلف الرسول ﷺ، بل خلّفوه في المدينة وتخلّفوا عنه، قال الرازي: الخالفين بمعنى المُخالفين، ويقال للرجل خالفة بمعنى مُخالف كثير الخلاف، والخالف أيضاً الفاسد، ومنه خلوف الفم، قال الأصمعي: يقال: خلف يخلف، عن الخير، خلوفاً إذا فسد، ويقال خَلَف اللبن وخَلُف أي فسد، انظر شرح الرازي للآية (٨٣)، وقال الألوسي: المعنى أنّه قد خُلّفَ أمرُهم أي تمّ تأجيله و لم يُقطع في أمرهم بشيء حتى نزل الوحي بهم، وقد ورد في كتب السيرة أنّ الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وقصتهم معروفة في كتب التفسير، ولا يمنع أن ينطبق المعنى أيضاً على أصناف ثلاثة من المؤمنين وقت غزوة تبوك: فريقٌ منهم تقدم بأعذار باطلة للتخلف، وفريقٌ آخر قعد و لم يعتذر وتخلف بسبب الوساوس والهواجس وضعف النفس البشرية، وفريقٌ ثالث تخلف لمجرّد الإهمال والفوضى وعدم الالتزام، فكل المعاني التي تنطوي عليها كلمة ﴿خُلِّفُوا﴾ تنطبق على هؤلاء

جميعاً، وهذا من الإعجاز القرآني، ومَثَل هؤلاء الناس عام لكل الأزمنة والعصور ولا يقتصر على غزوة تبوك ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ بسبب ندمهم وتوبيخ ضمائرهم وشعورهم بفظاعة الذنب الذي ارتكبوه صارت الدنيا ضيقة عليهم، وهو مجاز عن شدة حيرتهم، فلم يقرّوا في الدنيا مع رحبها وسعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لشدة الغم والحزن، كأن نفوسهم لا تسع الانشراح والسرور لضيقها ﴿وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ علموا أن لا ملجأ من غضبه تعالى إلاّ استغفاره والتوبة إليه، وهو بمعنى قوله ﷺ في الدعاء: «اللهم إني أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قَبل توبتهم ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليستقيموا على التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ المبالغ في قبول التوبة من عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ برحمهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

١١٩- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بعد أن وصفت السورة بالآيات (٣٨-١١٨) أصنافاً من المنافقين، ومن ضعاف الإيمان، والمذنبين، والتائبين، والمؤمنين، تأمرهم هنا بالتقوى، إن كانوا يدّعون الإيمان، وأمَرَهم أن يكونوا مع جماعة الصادقين في إيمانهم، ليس بالقول فقط ولكن بالعمل أيضاً، بدليل الآية التالية.

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠)

١٢٠- بعد أن أمَرت الآية السابقة المؤمنين بالتقوى، وأن يكونوا مع الصادقين، تبيّن هذه الآية أن الصدق يكون بالعمل، وليس بمجرّد القول، وأما العمل فنوعان: الأول جهاد بالقتال وبالإنفاق، وهو المذكور في هذه الآية والتي تليها، والثاني جهاد بالحجّة والعلم كما هو مذكور في الآية (١٢٢):

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ لا يصحّ منهم التخلف عن الغزو مع رسول الله، وخصّ بالذكر أهل المدينة، والأعراب الذين كانوا حولها، لكونهم أقرب الناس جواراً للنبي ﷺ ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول ﷺ لنفسه، ولا يطلبوا لأنفسهم الرخاء والراحة، حال ما يكون رسول الله في الحر والمشقة، قال الزمخشري: أُمروا أن يكابدوا الأهوال معه برغبة ونشاط واغتباط وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه الكريمة التي هي أعز نفس عند الله وأكرمها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش شديد ﴿وَلا نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة شديدة يضمر لها البطن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في جهاد أعدائه أو في طاعته مطلقاً ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يتخذون موقفاً يغيظ الكفار ﴿وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً﴾ كالأسر والقتل والهزيمة المادية والمعنوية ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ الكلام عن غزوة تبوك ولكن العبرة عامة، فمن قصد خيراً في سبيل الله كان سعيه مشكوراً بكل نشاط يقوم به ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١)

١٢١- ﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ في الجهاد ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي أرضاً في ذهابهم ومجيئهم، لأنه في لغة العرب شاع استخدام الوادي بمعنى الأرض ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ ثوابه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يكون الجزاء أحسن من عملهم وأحلّ وأفضل، أو يكون على قدر الأحسن من أعمالهم،

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

١٢٢- تتمة الخطاب من الآية (١١٩) التي تمحض المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فمن صدقهم أن يستجيبوا للنفير والجهاد مع النبي ﷺ، (الآية ١٢٠)،

ومن صِدقهم أيضاً أنه يجب أن يتفرغ بعضهم للفقه وتعلم الدين كي يدعو باقي الناس إلى الإسلام، وهو ما تشير إليه هذه الآية:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ إلى الجهاد ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ إلى الجهاد، ولولا بمعنى الحض والحثّ ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وأقامت طائفة أخرى غيرهم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وهي الطائفة المقيمة ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وهو الغرض من الإقامة والتفقه في الدين: وهو تعميم العلم ونشره، والاستعداد لتعليمه، وتفقيه الناس به، والدعوة إلى الإسلام، والإرشاد إلى الدين القويم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يضرّهم من الشرك والشرور.

والمقصود من الفقه في الآية هو العلم والفهم لجوهر الإسلام ونظامه الحياتي بما يتطابق مع جوهره، وليس الشكل فقط، ولأنه لا فصل في الإسلام بين الدين والدنيا، وهو مغاير لمصطلح الفقه بمعنى دراسة الأحكام الشرعية التي وضعها واستنبطها الفقهاء، قال الألوسي: قال حجة الإسلام الغزالي: كان اسم الفقه في العصر الأول اسماً لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومُفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب، وتدل عليه هذه الآية، دون تعريفات الطلاق واللعان والسلم والإجارات....

والنتيجة أيضاً أنّ التفقه في العلم غير مقتصر على العلوم الدينية وإنما يشمل العلوم الدنيوية، لأن الآيات القرآنية تحثّ الناس على التفكر في الخلق وملاحظة الآيات الكونية والظواهر الطبيعية ودراستها، ودراسة الظواهر الاجتماعية والأنماط التاريخية واستنباط العبر منها، والآيات القرآنية موجهة ﴿لقوم يتفكرون﴾، والأحاديث الشريفة أيضاً كثيرة في فضل طالب العلم، كقوله ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة))، و((فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب))، و((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))، و ((من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع)).

وهنالك مغزى آخر في الآية بأنّ طلب العلم واجب على كلّ مَن لديه الاستعداد والقابلية لذلك، فليس كل الناس لديهم الاستعداد للعلم، ومن جهة أخرى لا يمكن للجميع أن يتفرّغوا لطلب العلم كي لا تفوت على المجتمع المصالح العامة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

١٢٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الأمر بقتال الكفار القاطنين في جزيرة العرب، بدليل الآيات التالية (١٢٤-١٢٧)، وهو بمعنى قوله ﴿يَلُونَكُمْ﴾ أي يجاورونكم، والأمر بقتالهم لأن جزيرة العرب يجب أن تكون خالصة للمسلمين دون غيرهم، راجع شرح الآية (٢٨) وآية الأنفال ٦٥/٨، ويشمل المعنى أيضاً الكفار الذين يقدمون من أقطار بعيدة لقتال المسلمين في بلادهم، فينطبق عليهم معنى ﴿يَلُونَكُمْ﴾ أي يدنون منكم ويصيرون قريبين من ديارکم ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ الغلظة هي الشدّة، وهي ضدّ الرقّة، قال الرازي: التعبير يدل على تقليل الغلظة، وهو يصحّ فيمن أكثر أحواله الرحمة والرأفة، ومع ذلك فلا يخلو عن نوع غلظة، كأنه قيل لو بحثوا في أخلاقكم وطبائعكم لوجدوا فيكم غلظة، وأن هذه الغلظة تُعتبر فيما يتصل بالدعوة إلى الدين، وذلك إمّا بإقامة الحجة والبينة، وإما بالقتال، فأمّا أن يحصل هذا التغليظ فيما يتصل بالمعاملات اليومية من بيع وشراء ومجالسة فلا، انتهى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ المراد أن يكون قتال الكفار بدافع تقوى الله لا بدافع طلب المادة والسلطة، والمراد أيضاً اتقاء التقصير واتقاء أسباب الهزيمة بمراعاة سننه تعالى في الخلق، باتخاذ الأسباب وإعداد القوة، وبالصبر والثبات والنظام وترك التنازع والخلاف، والتوكل على الله فيما وراء الأسباب.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤)

١٢٤- ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي هنالك من الكفار الذين يلونكم، الذين أُمرتم بقتالهم، من يقول عند نزول الوحي: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ يقولون ذلك لبعضهم البعض على سبيل السخرية والتهكم، أو يقولونه للمسلمين لمحاولة صدّهم عن الإسلام، وهو سبب الأمر بقتالهم، وقد يكون في كلامهم إشارة لقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال ٨/٢]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بهذه الآية أثبت تعالى للمؤمن زيادة الإيمان ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسعدون بأن اهتدوا إلى الحق، ونجوا من الضلال.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥)

١٢٥- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ مرض القلوب هو الكفر والنفاق والأخلاق الذميمة، انظر آية [البقرة ١٠/٢]، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ زادت نفوسهم خبثاً وقبحاً وكفراً، لشدة تصميمهم على الحال التي هم عليها، وانغلاق عقولهم عن التفكر والنظر، انظر شرح آية [الأعراف ٧١/٧]، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أصرّوا على الكفر حتى الموت، ونظيره قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [البقرة ٦/٢].

﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٢٦)

١٢٦- ﴿أَوَلا يَرَوْنَ﴾ أي الكفار المشار إليهم في الآيات (١٢٣-١٢٥)، ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُختبرون بنزول الوحي حيث يمكن لهم تمييز الحق من الباطل، ويُختبرون بالآيات الدالّة على صدق نبوّته ﷺ، ويُختبرون أيضاً بالمِحن والمعاناة والشدائد ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ لأنّ أبواب التوبة مفتوحة لهم، إذ

يُختبرون المرّة بعد المرّة، وسنةً بعد سنة ﴿ثُمَّ لا يَتُوبُونَ﴾ عن كفرهم مع كلّ ذلك ﴿وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لا يتّعظون، ولا يذّكرون الميثاق الفطري المأخوذ عليهم، [الأعراف ١٧٢/٧] و [آل عمران ٨١/٣].

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

١٢٧- ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وتُليت عليهم وعلى المؤمنين ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ نظر التغامز والتهكم والسخرية والتآمر، والمغزى أنهم اتخذوا موقفاً مسبقاً من الرسالة الإسلامية برسوخهم في الكفر سلفاً، وتصميمهم على عدم استخدام العقل في تقويمها ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ يسترقون النظر إلى بعضهم البعض، محاولين أن لا ينكشف موقفهم للمسلمين ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عن سماع القرآن، وعن التفكر والتدبّر في الآيات القرآنية، وانصرفوا عن دراستها واعتبارها بذاتها من حيث جدارتها ومصداقيتها ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الاهتداء بالقرآن ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب أنهم لا يفقهون ما يسمعون من الآيات، لعدم استعمال عقولهم فيها، راجع آيتي [الأنفال ٢٢/٨و٥٥].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨)

١٢٨- بعد أن فصّلت السورة موقف التكذيب الذي اتخذه الكفار والمنافقون بأنواعهم، تجاه دعوة النبي ﷺ، تلخص هذه الآية بالمقابل موقف النبي ﷺ من الناس، أنه لا يريد سوى هدايتهم، ويخشى عليهم من سوء العاقبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الخطاب للعرب خاصةً، لأنه ﷺ بُعث إليهم ابتداءً، فآمن العرب بدعوته أولاً، ثم آمن العجم بدعوة العرب لهم، وهو أيضاً خطاب عام لجميع البشر، لأن النبي ﷺ بُعث للناس كافة ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي هو من جنس البشر مثلكم، فلو كان فوق جنس البشر، أو من جنس الملائكة لأشكل الأمر على الناس كما ورد في آية [الأنعام ٩/٦]، والمعنى أيضاً أنه من عشيرتكم

أيها العرب، فقد عرفتم صدقه وأمانته وطهارته قبل أن يُبعث نبيّاً ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ العنت هو المشقة والشدة، والمعنى أنه لكونه واحداً منكم يشقّ عليه عنتكم، أي يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ حريص على إيمانكم وإصلاح شؤونكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

١٢٩- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام وأعرضوا عنه، وهم الكفار والمنافقون ﴿فَقُلْ﴾ لهم أيها الرسول، أو أيها الداعية، أو أيها المؤمن ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ هو يكفيني، وهو أدرى بشؤون خلقه ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أفوض أمري إليه وحده دون غيره، بعد أن بلغتكم الرسالة، وأقمت عليكم الحجة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وليس لي أن أكرهكم على الإسلام ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ختم النبوّات ببعثة خاتم الأنبياء والرسل، وأنزل الهداية على خلقه، ولم يتركهم يتخبطون في الضلال، ومنحهم العقل وحرية الفكر، ليتفكروا في الدلائل وفي معجزة القرآن، ليصبحوا مسؤولين عن أعمالهم فيحاسبوا عليها.

* * *

سورة يونس -١٠-

مكية

سورة يونس السورة المكية الرابعة في ترتيب المصحف، وليس في ترتيب النزول، بعد سُوَر الفاتحة-الأعراف-الأنعام، واستثنى بعضُهم -بأسانيد ضعيفة- بعض الآيات منها على أنها مدنية، وهي أولى السور المكية الستة (يونس- هود- يوسف- الرعد- إبراهيم- الحجر) التي تبدأ بالحروف المقطعات ﴿الر﴾ سوى أن سورة الرعد تبدأ بالحروف ﴿المر﴾،

وأما تاريخ النزول ففي أواخر فترة إقامة النبي ﷺ في مكة قبل هجرته إلى المدينة، واشتُقّ اسم السورة من ذكر قوم يونس في الآية ٩٨ منها، وكما هو معروف في سور القرآن الكريم فإن اسم السورة ليس سوى رمز لها، وللدلالة عليها لا غير، ولا يقصد به أنّ قصة يونس هي موضوع السورة، ولا أنّ في السورة تركيز عليها، ومع ذلك فإنّ قصة قوم يونس هي مَثَل القوم الذين تداركوا أنفسهم بالإيمان والتوبة قبل فوات الأوان: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس١٠/٩٨].

ارتباط السورة بما قبلها

أوضحت سورة التوبة أن الله تعالى لا يؤاخذ الناس بضلالهم إلاّ بعد أن تبلغهم الرسالة ويتبيّن لهم طريق الخير من طريق الشر: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة ٩/١١٥]، واختتمت السورة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ٩/١٢٨]، ثم

يستمر الخطاب في سورة يونس بقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس ١٠/١-٢]،

وفي سورة التوبة أن المشركين نجس معنوي بسبب عقائدهم الفاسدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة٩/٢٨]، وأن شكوك الكفار في القرآن تزيدهم رجساً: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة٩/١٢٥]، وفي سورة يونس أن الذين لا يستخدمون ملكاتهم العقلية على النحو السوي يلحق بهم الرجس، وهو الخَبَث المعنوي، أو النَجَس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس ١٠/١٠٠]،

وفي سورة التوبة بيان لطريقة الدعوة وأن لا بدّ من الحجة والدليل والإقناع: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة٩/٦]، وفي سورة يونس أن حكمته تعالى اقتضت خلق الإنسان مختاراً مستعداً بفطرته للإيمان والكفر، فلا يجوز لأحد إكراه الآخرين على الإيمان: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس١٠/٩٩].

محور سورة يونس

يدور أولاً على مواضيع البعث والجزاء: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤)، والتوحيد ودحض الشرك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)،

وثانياً على العلم اليقيني الذي جاء به القرآن، وأن أكثر الناس يتبعون الظن بدلاً من يقين القرآن: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)، فتدحض السورة مزاعم الكفار عن منشأ القرآن: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)، وأن القرآن شفاء لما في الصدور من الشك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)، وأن القرآن هو الفضل المطلق والرحمة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)،

وأن هداية القرآن تعود بالفائدة على الفرد، كما يكون وبال ضلاله عليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) والإيمان ليس قسراً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩).

وتضرب السورة مثلاً بجوانب من قصص الأنبياء نوح وموسى ويونس عليهم السلام لبيان العبر منها المناسبة لسياق السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

١ - ﴿الر﴾ راجع شرح آية [البقرة ١/٢]، وردت حروف ﴿الر﴾ في ستة سور متتالية من القرآن الكريم هي (يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر)، غير أنها وردت في سورة الرعد ﴿المر﴾ بزيادة حرف الميم، ونسبوا إلى ابن عباس قوله أن معناها: أنا الله أرى، أو أنا الرب لا رب غيري، وقالوا أيضاً ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿ن﴾ حروف ﴿الرحمن﴾ مقطّعة، لكنّ الرازي رأى أنّ تفسير ألفاظ المقطعات بناء على ما فيها من الحروف من دون أن تكون تلك

الألفاظ موضوعة في اللغة لذلك المعنى أصلاً، ممّا يفتح الباب للباطنية على مصراعيه في تفسير ألفاظ القرآن الكريم بما يشاكل هذا الأسلوب ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ الكتاب الحكيم هو القرآن، قال أبو مسلم الأصفهاني، المعنى: من هذه الحروف ﴿الر﴾ وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهذه الحروف في متناول أيديهم، ثم لا يستطيعون أن يأتوا بآية واحدة من مثل آيات الكتاب الحكيم، أمّا وصف القرآن بكونه حكيماً فمن عدة وجوه: فهو الكتاب المشتمل على الحكمة، والحكيم أيضاً بمعنى الحاكم -فعيل بمعنى فاعل- فهو يحكم بالحق، ويميز بين الاعتقادات الصحيحة والباطلة، والأعمال صوابها من خطئها، ويحكم بصدق النبوّة، ويدل على الحكمة والصواب، والحكيم أيضاً بمعنى المُحكَم الذي لا يتطرق إليه الخلل ولا التناقض، لأنّ القرآن في منتهى الإحكام والإتقان، كما أنّه مُحكم لا يُنسخ منه شيء بخلاف الرسالات السابقة التي نُسخت، راجع آية [البقرة ٢/١٠٦].

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (٢)

٢- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ ما وجه العجب أن يبعث الله تعالى بشراً رسولاً؟ فقد قال بعضهم لبعض: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣/٣٤]، وهذا القول يقوله الكثير من الكفار حتى اليوم، فلو كان المبعوث فوق جنس البشر، أو من جنس الملائكة لأشكل الأمر عليهم، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء ٢١/٧]، وهذا الرجل منهم، محمد ﷺ، عرفوا صدقه وأمانته وطهارته قبل أن يُبعث نبيّاً، والله تعالى لا يترك عباده بلا هداية، فماذا يريد المُكابرون كي يؤمنوا؟

﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ مهمة الرسول إنذار الناس كافةً، أي إعلامهم بالتوحيد والبعث والحساب ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم واستجابوا لله وللرسول ﴿أَنَّ

لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم سابقة ومنزلة رفيعة، والقدم نتيجة ما قدّموا من الخير، وبنتيجة صدق قولهم وعملهم، أما الكفار فقالوا بعد إنذارهم: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ قاله كفار مكة لمّا عجزوا عن معارضة القرآن، ويقوله الكفار في كل زمن، وفي حق كثير من الأنبياء، والكثيرون يرفضون مسبقاً فكرة الوحي الإلهي إلى بشر، ويزعمون استحالتها، كما يزعمون أن الرسول أذهل الناس بشخصيته وطلاقته لا غير، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر في القرآن ودراسته وتقويمه من حيث محتواه، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء ٤/٨٢].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

٣- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ استئناف الخطاب لإظهار بطلان تعجبهم من نزول الوحي على بشر، والمعنى أنّ مَن خلق السماوات والأرض ينزّل الوحي أيضاً على من يشاء من عباده ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال الألوسي: الخلق في ستة أوقات، أو ستة مراحل زمنية، لأن اليوم في اللغة هو مطلق الوقت ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية -باللغة التي يفهمها البشر- عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة و﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للتراخي الزمني، بل للبعد المعنوي، فالزمن في هذا المقام لا معنى له، وليست هنالك حالة ولا هيئة لم تكن لله سبحانه وتعالى ثم كانت، فهو سبحانه منزّه عن الحدوث، وعن الزمان والمكان ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يدبّر ملكوت السماوات والأرض وشؤون خلقه، ومن ذلك أن يخلقهم على الفطرة ويبعث إليهم الرسل ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ المبني على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون المأذون له بالشفاعة من المصطفين الأخيار، وتشريفاً له، والمشفوع له ممّن يليق بالشفاعة، أي يكون تعالى راضياً عنه بتوبته وإيمانه وعمله الصالح، لقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء ٢١/٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر ٣٩/٤٤]،

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ دون غيره ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ كيف لا تتذكرون الميثاق الفطري المأخوذ عليكم، انظر [الأعراف ١٧٢/٧]، فهذا الأمر معلوم عند الناس بالفطرة، ولا يحتاج سوى التذكير الذي جاءت به الرسل، ولهذا السبب سُمّي الوحي ذِكراً، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ١٧/٥٤]، وقال جلّ ثناؤه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية ٢١/٨٨] أي بالعهد الفطري وبما نزل من الوحي على الأنبياء.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤)

٤- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ تأكيد على البعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، فالخلق ليس عبثاً، بل العدالة تتحقق مطلقاً ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأنّ القادر على البدء يكون قادراً على الإعادة والعدالة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ تعليل للإعادة، أي ليجزيهم ويثيبهم بفضله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ لتحقق العدالة، والحميم الماء الشديد الحرارة، لأن العرب الذين خوطبوا بالقرآن أولاً، ويعيشون في المناخ شديد الحرارة، يشعرون أكثر من غيرهم بهذا النوع من العقاب ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطف العام على الخاص ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب مواظبتهم على الكفر حتى الموت، لقوله ﴿يكفرون﴾ بالمضارع،

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)

٥- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ مزيد من البراهين والتفصيل عن خلق النظام الشمسي بعد ذكر إجمال خلق السماوات والأرض في (الآية ٣)، وقوله ﴿الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ لأن الضوء ينتج عن ذات الشيء كالشمس والنار، والنور ينعكس عنه، وهو كقوله ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان ٦١/٢٥]،

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ وهي مراحل القمر التي تتكرر كلّ ٢٩-٣٠ يوماً، ويحتمل عود الضمير في قوله ﴿قدّره﴾ إلى ضياء الشمس ونور القمر معاً ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ لضبط مواعيد العبادات، والمعاملات الدينية والدنيوية والمعاشية، ولأنّ عدد السنين وحساب الأشهر القمرية والشمسية إنما يعرف بدوران القمر حول الأرض، وبدوران الأرض حول الشمس ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وفق حكمة ومغزى، فلا عبث ولا باطل ولا صدفة، ولا بدّ من تحقق العدالة كي يكون للوجود معنى ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ الكونية والعقلية ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون معاني الدلائل ويفهمونها، ويستنتجون الحقيقة منها، فالإسلام دين العلم والعقل.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٦)

٦- ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما، وتغيّرهما التدريجي على مدار السنة، واختلافهما بحسب الموقع على الكرة الأرضية ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الأفلاك والمجرّات ﴿وَالأَرْضِ﴾ من أنواع الجماد والنبات والحيوان ﴿لآيَاتٍ﴾ أنواع لا متناهية من الدلائل على الإبداع والإتقان والإحكام في الخلق، وعلى وجود الخالق سبحانه ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ عواقب عملهم، فيلزمون الحذر، والنظر، والتفكر، والتدبّر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧)

٧- بعد أن بيّنت السورة الدلائل القاهرة على صدق النبوّات، ووحدانية الخالق، والبعث والحساب، تبيّن بعدها مآل من يكفر بذلك، ومَن يؤمن به:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوقعون البعث بعد الموت، ولا يأملون الحساب والثواب والعقاب ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حتى صارت منتهى أملهم، وأصبح كل همّهم محصوراً بها، وكلّ أعمالهم في سبيلها، ورضوا بها

بدلاً عن الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ انهمكوا بها حتى سكنت إليها نفوسهم، وارتاحت لها قلوبهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ الجملة الاسمية تفيد استمرارية غفلتهم عن آيات الكتاب الحكيم، مع احتمال كونهم مؤمنين بها، غير أنهم غافلين عن العمل بها لانهماكهم في دنيا المادة، وقد يكون هذا الفريق الغافل، غير فريق الملحدين الذين لا يرجون اللقاء، مع أن الفريقيْن مشتركان في الانشغال بالدنيا وحدها، ومشتركان في الغفلة عن آيات الكتاب الحكيم (الآية ١)، وعن التفكر والتدبر في الآيات الكونية، الآيات (٣، ٥، ٦)،

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨)

٨- ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ مآلهم عذاب الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كانوا يكسبون من العقائد الفاسدة وما ترتّب عليها من عمل، والمعنى أنّ أعمالهم هي المؤثرة في إيصالهم إلى هذا المآل، انظر شرح (الآية ٤)، ونظيره قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج ٢٢/١٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩)

٩- تتمة الخطاب من (الآية ٧) لبيان مآل المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالقرآن وبالغيب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كان إيمانُهم مقترناً بالأعمال الصالحات ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم المقترن بالعمل الصالح، فيكون ذلك سبباً لهدايتهم بما يؤدي بهم إلى الجنة: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وفي الآية التالية وصف نعيمها الروحاني:

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

١٠- ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ دعاؤهم في الجنة ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تسبيح وتنزيه له تعالى، كقول الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة ٢/٣٠]، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وهي التحية التي تلقاهم بها الملائكة أنهم في نعيم

السلام، لقوله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد ١٣/٢٣-٢٤]، وقوله تعالى لهم: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس ٣٦/٥٨]، وهو السلام الروحاني، والسلامة والأمن من كل شرّ، ومن كل آفة، وكلّ مخافة،

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حمداً على حسن ختامهم وما هم فيه من النعيم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

١١- بعد أن بيّنت الآيات السابقة مآل كل من المؤمنين والكفار في الآخرة، تبين هذه الآية أنّ الله تعالى لا يعاجل منكري النبوة (الآية ٢)، ومنكري البعث والحساب (الآية ٧)، بعقاب الدنيا، ولكن يمهلهم، لأنّ التعجيل بالعقوبة في الدنيا كالمانع من الاختبار، ومن حرية الخيار التي كرّم بها بني آدم، ولصار الإيمان قسراً:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ الشر بمعنى العقوبة، وتعجيل الشيء تقديمه على أوانه المحدد أو المقدّر، والمعنى أنه تعالى لا يعاجل الناس بالعقوبة رغم وقوعهم في المعاصي، ورغم استعجالهم ما يظنون أنه خير بانهماكهم وراء الدنيا والمادة والسلطة، فهو يمهلهم للتوبة، رأفة بهم ورحمة، انظر آية [النساء ٤/٢٨]، ولولا ذلك: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لكنه أرحم بهم من أنفسهم، فلا يقضي إليهم أجلهم بإهلاكهم واستئصالهم، بل يتركهم لحرية خيارهم، ويذرهم وما هم عليه حتى أجلهم المقدّر، ويترك لهم فرص التوبة والرجوع، ويوفق منهم مَن يشاء الهدى ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الذين لا يرجون اللقاء المشار إليهم في (الآية ٧)، يذرهم تعالى، أي يتركهم لما اختاروا من التخبّط في الضلال، ولا يقسرهم على الإيمان

والصلاح قسراً، ثم يكون مآلهم، المشار إليه في ﴿الآية ٨﴾، بنتيجة أعمالهم وكسبهم، إن لم يغتنموا فرص التوبة.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

١٢- وإذا عجّل الله للإنسان بعض الشر، انظر الآية السابقة: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ الضرّ هو الضرر، كالمرض والفقر والمصائب تصيب الإنسان ﴿دَعَانَا﴾ لكشفه وإزالته ﴿لِجَنْبِهِ﴾ دعانا مضطجعاً على جنبه لشدة مرضه ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾ إن كان يستطيع القعود ﴿أَوْ قَائِمًا﴾ أي في كل حالاته، والمعنى أن الإنسان في حال الضرّ، يدعو ربه تلقائياً وبالفطرة، بدافع من غريزته وعقله الباطن، حتى لو كان ممّن يدّعون "العلمانية"، ورغم أنه قد يكون من اللاهثين وراء الدنيا، الآية (٧)، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى﴾ كشف ﴿ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ إذا زال عنه الضرر نسي موقف الضعف والعجز والابتهال والدعاء كأنه لم يمرّ به، وعاد في عقله الواعي إلى المكابرة وإنكار الإيمان ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الذين أسرفوا في هدر طاقاتهم الفكرية والعملية بما يضرهم ولا ينفعهم، حتى خسروا أنفسهم بإسرافهم، انظر [الأنعام ٦/١٢]، أما تزيين الأعمال بقوله ﴿زُيِّنَ﴾ أي جعلها تبدو حسنة في نظرهم، فهو راجع إلى النفس البشرية والوسواس، راجع شرح آية [آل عمران ٣/١٤]، والتزيين ناتج عن تأخير العقوبة عنهم وإمهالهم، الآية (١١)، فبدلاً من التوبة، يزداد تهالكهم على ما يظنون خيرات الدنيا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هذه الآية بيان لسنن الله في خلقه، والخطاب لمُنكري النبوات فيما يقتضي الإهلاك، والقرون : الأمم، جمع قرن وهم القوم المقترنون في زمن واحد، وقد ضربت السورة مثلاً بإهلاك المسرفين

منهم، الذين زيّن لهم الشيطان أعمالهم من الظلم والفساد، حتى حان أجلهم المقدّر: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من قبل، فلم يكن لديهم عذر بالغفلة، انظر [الأنعام ١٣١/٦]،

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ رغم بعث الرسل لهم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ المصرّين على الإجرام، وهي العاقبة الطبيعية لأمثالهم،

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها العرب والمسلمون ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ببعث خاتم الأنبياء والرسل فيكم ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد القرون الأولى، والخلائف جمع خليفة، وهو من يخلف غيره في الشيء، أي إن الله تعالى بشّر المسلمين أنهم يخلفون الأمم التي كانت قبلهم كأمم اليهود والفرس واليونان والروم، والآية من معجزات القرآن لأنها إعلام بالغيب الذي تحقق، واستخدام الفعل الماضي بقوله تعالى ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ للتأكيد، أي هو محقق لا محالة، وقد علل هذا الاستخلاف بقوله ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ والمعنى أن هذه الخلافة جعلها تعالى لهم لإقامة الحق والعدل في الأرض، ولتطهيرها من الشرك، لا لمجرد التمتع بالملك والحكم، فبقاء خلافتهم منوط بصلاح أعمالهم، وأنه تعالى ناظرٌ فيها، حتى لا يغتروا ويظنوا أن الملك باقٍ لهم لذواتهم، أو لجنسهم، أو لنسبتهم إلى نبيه ﷺ، ولا أنهم مستثنون من سننه تعالى في خلقه، فبقدر إقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان لهم، (انظر تفسير المنار).

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

١٥- بعد إنكارهم النبوة (الآية ٢)، وإنكارهم النشور (الآية ٧)، يدّعي الكفار والمشركون أن القرآن من عند النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ على العرب وقت البعثة ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ آيات القرآن الكريم الواضحة المبهرة المعجزة

﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال الذين ينكرون الوحي والبعث والحساب، قالوا للرسول ﷺ: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا﴾ أي ليكن قرآناً موافقاً لأهوائنا، ومطابقاً لمقاييسنا في الخطأ والصواب والخير والشر، حتى نقبله منك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أو على الأقل بدّل بعض ما فيه، حتى يوافق عباداتنا وعاداتنا الوثنية، ومغزى قولهم أن مصدر القرآن بشر، وليس وحياً سماوياً ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ليس ذلك باستطاعتي ولا هو بإمكاني ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ هذا كل ما في الأمر ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالافتراء والكذب ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ انظر آية [الأنعام ٦/٩٣].

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦)

١٦- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي، جواباً على لمزهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ لما بعثني إليكم رسولاً، ولكنّ خالق البشر لا يترك عباده يتخبطون بلا هدى، انظر [التوبة ٦/١١٥]، وهذا المعنى مرتبط أيضاً بالآيات (٢-٣) ﴿وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي ولا أعلمكم بهذا القرآن، بل لتركككم تتخبطون في الظلام، لكن ذلك مناقض للتكليف والاختبار، انظر [الأنعام ٦/١٣١]، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل نزول القرآن، على مدى أربعين سنة، كانوا يعرفون صدق النبي ﷺ وأمانته حتى لقبوه بالأمين، وكان أمياً لا يقرأ الكتب، ولم يدرس شرائع من سبقوه، ولم يتلقَّ علماً من أحد، ولم تُعرف عنه أساليب البلاغة والبيان من شعر ونثر، ولم يكن طالب سلطة ولا جاه ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ حضّ على التفكير واستخدام العقل، فالعرب بمجموع فصحائهم وبلغائهم، على كثرتهم، عجزوا عن مضاهاة القرآن، أو الإتيان بمثله، أو بسورة واحدة من مثله، فمن باب أولى أن يكون الواحد الأميّ منهم أعجز عن الإتيان بكتاب يبهر كلام الفصحاء جميعاً، وفي نفس الوقت يكون مشحوناً بعلوم الأصول والفروع، والحكمة، وأخبار ما كان وما يكون، مخبراً عن الغيب، لقوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور ٥٢/٣٣-٣٤].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

١٧- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تتمة جواب النبي ﷺ للكفار وللمشركين، أي ليس هنالك أظلم ممّن يفتري الوحي، لما زعموه عنه، وينسبه إلى الله تعالى، انظر [البقرة ٧٩/٢]، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ولا أظلم ممّن يكذّب بآيات الوحي كما يكذّب بها الجاحدون ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين يكذّبون الوحي، فلا يفوزون بمبتغاهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

١٨- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ وهم المشركون في كل الأزمنة، فبدلاً من الجلاء الحقيقة في عقولهم، يصرّون على عبادة الأوثان و"الوسطاء" وتعظيم قبور الأكابر التي لا تقدر على نفع ولا ضر، فإن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوها لم تضرّهم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ بزعمهم، يعتقدون أن عبادة "الوسطاء" تشفع لهم عند الله ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ أي بشفعاء موهومين؟ انظر الآية (٣)، وما ينطوي عليه ذلك من إنكار لعلم الله القديم ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه لله تعالى عما يزعمون من الشركاء والشفعاء.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

١٩- ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كانوا أمة واحدة على الفطرة والتجانس في حياتهم البسيطة الأولى، وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، ثم بعث الله فيهم النبيين برسالة واحدة هي رسالة الإسلام، أي إسلام الأمر لله وحده، والإسلام بهذا المعنى يشمل جميع الأديان التي جاء بها الأنبياء لأنّ أصلها التوحيد والاستسلام لله

تعالى والانقياد لهداية الوحي ولو اختلفت بعض التكاليف وأحكام التشريع التي نسخ بعضها بعضاً، انظر [آل عمران ١٩/٣]، ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ طوائفَ وشيعاً، وهو سبب ادّعائهم الشفعاء، وعبادتهم ما يضرهم ولا ينفعهم، انظر آية [البقرة ٢١٣/٢]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى الآخرة، وعدم تعجيل العقوبة لهم في الدنيا، (الآية ١١)، إنعاماً عليهم، لعلهم يتوبون ويعودون إلى الحق، ومن جهة ثانية تكريماً لبني آدم أن يكون لهم حرية الفكر وحرية الخيار بين الحق والباطل، انظر [هود/١١٨-١١٩]، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الحياة الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطلين منهم وإظهار أهل الحق، أو بكشف حجب الغيب وانتهاء فترة الاختبار،

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

٢٠- وهذه شبهة رابعة من شبهات الكفار، بعد إنكارهم النبوّة، وإنكارهم البعث والحساب، وزعمهم أن القرآن مفترى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يريدون معجزة مادية خارقة تلمسها أيديهم وتشهدها حواسهم برهاناً على نبوته ﷺ، والمعنى أنهم لا يريدون إعمال عقولهم، ولا ينظرون في آيات الكون، ويجحدون أو لا يريدون تقويم الآيات القرآنية بذاتها ومن حيث جدارتها وإعجازها ﴿فَقُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو وحده المختص بعلم الغيب، والصارف عن إنزال الآيات المقترحة لحكمة هو يعلمها، كما في آيتي [الأنعام ١٠٩/٦-١١٠]، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ انتظروا عواقب عملكم وسلوككم، وأنا انتظر ظهور رسالة الإسلام على سائر الأديان.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالصحة والسعادة، والمقصود بالناس الأنواع المشار إليهم بالآيات (٧، ١١، ١٢، ١٥، ١٨، ٢٠) ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ

مَسَّتْهُمْ﴾ كالمرض والفقر وغيره ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ بعد زوال الضرّ عنهم، ينكصون إلى الجحود والمكابرة وإنكار الإيمان، بل يمكرون في الآيات ويطعنون بها، وهذا المعنى شبيه بالآية (١٢) المتقدمة، سوى أن معنى المكر قد أضيف إليه ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ المكر هو التدبير الخفي الذي يودي بالممكور به إلى ما لا يحتسب ولا يتوقع، ومكره تعالى تدبيره الذي يخفى على الناس، وهو أسرع مكراً لأنه سبق في تدبيره أمور الخلق وأعمار الناس، وتقديره الجزاء على الأعمال قبل وقوعها، وفي الآيتين (٢٢-٢٣) تفصيل لهذا المعنى ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ لا يخفى على الله شيء من مكركم وعملكم، قال الألوسي: وكيفية الكتابة مما لا يلزم العلم به، كما لا حاجة إلى جعله مجازاً عن العلم.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢)

٢٢- استمرار الخطاب من الآية السابقة، فهذه الآية وما يليها مثال على مكر الناس في الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بمكّنكم من ذلك، بما أودع فيكم من العقول والمقدرة على تطوير العلوم والمعارف ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ السُّفُن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ جرت هذه السُّفُن بمن فيها بسبب ريح طيبة مواتية لوجهة السير، وتغيير الكلام من المخاطب إلى الغائب بقوله تعالى ﴿بهم﴾ لإبراز المغزى العام لهذا المثل وانطباقه على معظم الخلق ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ اطمأنوا واغتبطوا بأن الأمور مواتية لهم ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ فَزَعَ عندهم الاعتقاد أنهم مشرفون على الهلاك فعندئذٍ ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بلا كفر ولا شرك ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ المصيبة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أقسموا أمام الله لئن نجوا أن يكونوا شاكرين لنعمائه مقرّين بفضله، والمغزى من هذا المثال أنّ الإنسان إذا اشتدّ خوفه رجع إلى فطرته التي خُلق عليها بأنّ الله

وحده المتصرف بالعباد والخلق، ومثال الفُلك ينطبق اليوم على أنواعها من بواخر وغواصات وطائرات،

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

٢٣- ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ مستجيباً دعاءَهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ البغي: الظلم والعدوان والإفساد، والمعنى أنهم على النقيض من دعائهم وقت الشدة أن يكونوا شاكرين لأنعم الله، انقلبوا، بعد نجاتهم، إلى البغي في الأرض ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع علمهم أنهم على غير الحق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وهي قاعدة عامة، في كل زمان ومكان، أنّ البغي يعود على صاحبه بسوء العاقبة ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تتمتّعون ببغيكم متاعَ الحياة الدنيا فقط ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة، وقد نذيقكم عذاب الدنيا قبل الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من مفاسد ومظالم، فتلاقون جزاءَها،

وفي الحديث: ((ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجّلَ لصاحبه العقوبة، من البغي وقطيعة الرحم)) و ((أسرعُ الخير ثواباً البرُّ وصلةُ الرحم، وأسرعُ الشرّ عقوبة البغيُ وقطيعةُ الرحم)).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

٢٤- لما كان سبب مكر الناس في الآيات، (الآية ٢١)، وسبب بغيهم وإفسادهم، (الآية ٢٣)، هو إفراطهم في حب الدنيا وتهالكهم عليها، ضربت السورة مثلاً عن الحياة الدنيا، منعاً للغرور بها، وموعظةً للاعتدال بها وبمواردها، ولاجتناب التوسل إليها بالبغي والظلم:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مَثَلُها كمَثَل المطر ينزل من السماء ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ البذور الكامنة في التربة ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ أنبتت الأرض من كل أنواع النبات ممّا يستفيد منه الإنسان والحيوان ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ الزخرف في اللغة هو الذهب، ويُشبّه به كل زينة مصطنعة، فالمقصود أن الأرض أخذت زخرفها ليس فقط بنتيجة نبات الأرض وزراعتها، بل أيضاً بما أضافه الإنسان بنتيجة جهوده الفنية التقنية في سبيل رفاهيته، ليس بالضرورة بما يتناسب مع الطبيعة والبيئة، بل بما قد يتعارض ويتنافر معها ويخلّ بتوازنها ويلوّثها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ تزيّنت ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ ظنّوا أنهم مسيطرون عليها ومتمكّنون منها بمشاريعهم وبوسائلهم العلمية والتقنيّة ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ المقدّر لإهلاكها، إمّا بجائحة سماوية، أو بما أفسدت يد الإنسان من تخريب البيئة ﴿لَيْلًا﴾ وهم نائمون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وهم غافلون عن آخرتهم لاهثون وراء دنياهم، ويحتمل المعنى أيضاً أن تكون بعض أجزاء الكرة الأرضية ليلاً وبعضها نهاراً، بسبب كروية الأرض، وهو من إعجاز القرآن العلمي ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ كالأرض المحصودة الجرداء المستأصل زرعها ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ كأنها لم تكن غنية في الماضي ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ مثل هذا التفصيل والبيان ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يستفيدون من عقولهم وأفكارهم، ويتعظون قبل فوات الأوان.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي هم يؤثرون متاع الحياة الدنيا والبغي والإفساد وما يتبع ذلك من الشقاء، في حين أنّه تعالى يدعوهم إلى ما يؤدّي بهم إلى دار السلام والسعادة الأبدية في الآخرة، كما يدعوهم إلى السعادة الدنيوية التي يتمتع بها المؤمنون، وهي الراحة النفسية الداخلية، والعيش بسلام مع دنياهم دون فساد وإفساد ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الله تعالى يدعو كل أحد إلى دار السلام، ويهدي من يشاء الهداية، ومن لديه الاستعداد لها، إلى الطريق الموصل إليها.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

٢٦- بعد أن دعا تعالى عباده إلى دار السلام، ذكَرَ ما يحصل لهم فيها من السعادة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أعمالهم ﴿الْحُسْنَى﴾ المثوبة الحسنى، أو المنزلة الحسنى في الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ فوق استحقاقهم تفضّلاً منه تعالى، وشبيه بذلك قوله عزّ من قائل: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور ٢٤/٣٨]،

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ لا يرهق وجوههم ما يرهق أهل النار من السواد والهوان ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ بالشرك والمعاصي ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ بلا زيادة عليها، بمقتضى العدل ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يرهقهم الهوان ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ فلا ينتفعون بالشركاء المزعومين والأولياء والشفعاء والزعماء والأسياد ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ وجوههم سوداء، كأنما ألبست قطعاً من الليل المظلم، وبالإضافة لكونه حقيقة، قد يكون مجازاً عن فضيحة الذنوب والخزي ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨)

٢٨- بعد أن بينت الآية السابقة أن الذين كسبوا السيئات ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾، تؤكد هذه الآية عدم نفع الشركاء لهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم البعث ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ قفوا للحساب، كي نفصل بينكم، فيما كان من سبب عبادتكم لمن جعلتموهم

شركاء ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فرّقنا بين المشركين وبين مَن جعلوهم شركاء لله، كنايةً عن زيف الروابط التي كانت بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ الذين زعموا فيهم الألوهية، أو مَن زعموا أنهم فوق البشر، أو اعتقدوا فيهم الوساطة أو الشفاعة، أو الذين ادّعوا الزعامة والجبروت والسلطة الدائمة ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ تبرأ المعبودون من العابدين، والمعنى إنّ عبادتكم لم تكن لنا في الحقيقة، ولكن كنتم تعبدون أوهامكم الناتجة من التقليد الأعمى، وتعبدون مصالحكم الدنيوية، وشهواتكم، وزعاماتكم،

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٩)

٢٩- تتمة خطاب المعبودين للعابدين: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ كنّا في غفلة عن عبادتكم لنا، لا نكترث لها، ولم نطلبها منكم، ونتبرأ منها، بل كنّا نسخر منها ومنكم،

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك الموقف، أو في ذلك المقام، وهو مقام الحشر، لأن الخطاب تتمة لما قبله، (الآيات ٢٧-٢٨-٢٩) ﴿تَبْلُو﴾ تختبر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة وكافرة ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ ما قدّمت من عمل في الدنيا، وتتحقق أن ما عملت من خير فعاقبته خير، وما عملت من شر فعاقبته شرّ، والمغزى أن عاقبة الإنسان نتيجة طبيعية لما قدّم من عمل ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى ثوابه وعقابه ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الحق في ألوهيته، وليس ما اتخذوه باطلاً في دنياهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ ذهب وضاع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يختلقون من الأوهام، ومن الآلهة، والمؤلهين، ومن الشفعاء والأولياء والزعماء.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (٣١)

٣١- بعد أن ذكرت الآيات السابقة شبهات الكفار تجاه الوحي، تورد هذه الآية والآيات التي تليها الحجج تجاه ذلك: ﴿قُلْ﴾ أيها النبي، أو أيها المسلم، لأولئك المشركين، وللمشركين في كلّ زمن: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ غير الله سبحانه، رزقاً معنوياً ومادياً ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ بما فيهما من إعجاز، ومَن يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كخروج النبات من الأرض الميتة، ثم موت النبات، أو كإحياء الإنسان من العدم ثم موته، وعلى المعنى المجازي: مَن يُخرج المؤمن من الكافر، والشرّير من الصالح، انظر [الأنعام ٦/١٢٢]، حيث جعل تعالى الكفر موتًا والإيمان حياةً ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أمور الخلق والكون العجيب وما أودعه فيه من النظام والسنن ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ بلا جدال، فهم مقرّون بذلك مع شركهم ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عواقب الشرك، مع اعترافكم أنّ كل هذه النعم والإعجاز وتدبير الكون منه تعالى وحده.

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ لا إله إلاّ هو ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ مَن كانت هذه قدرته في إنعامه عليكم، وأنه الحيّ بذاته، المحيي لغيره، فهو ربّكم الحقّ الثابت بذاته، المتحققة ربوبيته وألوهيته دون سواه ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ فكلّ معبود سواه باطل ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ كيف تُصرفون عن عبادته وحده؟ إلى عبادة ما سواه؟ بعد أن عرفتم هذا الأمر الواضح؟

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿كَذَلِكَ﴾ كما أنه ليس لتارك الحق إلاّ أن يكون على الضلال، كذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ تتحقق سنّته، ويتحقق وعيده ﴿عَلَى الَّذِينَ

فَسَقُوا﴾ الذين خرجوا عن الحق ﴿أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه أنهم يمتنعون باختيارهم، مرجّحين الشرك والكفر، لقوله تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر ٣٩/٧].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣٤)

٣٤- وهذه الحجة الثانية بعد الحجة المشار إليها بالآية (٣١): ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي، أو أيها المسلم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ الذين تزعمون لهم شركاً في الألوهية، كالأصنام والأوثان والأرواح والملائكة المشار إليهم في الآية (١٨) والآية (٢٨)، ممّن يشفعون لهم عند الله بزعمهم ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إشارة إلى موت وتجدد الحياة العضوية باستمرار برهاناً على البعث، لأنهم يعلمون أن ذلك ليس بقدرة الشركاء المزعومين، بل هم في منتهى العجز ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ وحده دون غيره ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إنكم تعلمون ذلك علم اليقين، وتشاهدونه باستمرار ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ كيف تُصرفون عن الحق؟ فالفطرة التي سلمت من الفساد، والعقل الذي سلم من العصبية، يقرّان بذلك.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٥)

٣٥- بعد الإشارة في الآيات (٣١-٣٣) إلى معجزات الخالق عز وجلّ في الرزق، والمعجزات الكونية الباهرة، والهداية، وإشارة الآية (٣٤) إلى معجزة الحياة والموت، والعجز التام للشركاء والشفعاء المزعومين، تشير هذه الآية إلى مفهوم آخر، وهو أن الله وحده يهب الإنسانَ العقلَ بما يمكّنه من النظر في الدلائل والوصول إلى الحقيقة، وهذه الحجة الثالثة: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ من رؤساء الكفر والضلال، والشفعاء والأولياء والقديسين ومَن تدّعون فيهم بعض صفات الألوهية ﴿مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ لأن الله وحده واهب العقل والفكر والنظر والفطرة السليمة، يبعث الرسل وينزّل

الوحي، ويوفّق من شاء إلى الهداية ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ سبحانه ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ لأنّه المصدر الوحيد للهدى ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ الشركاء المزعومون بحاجة لمن يهديهم فكيف يهدون غيرهم ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل؟

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ أكثر الناس يتّبعون الظن والتخمين، لأنهم إمّا متمسكون بتقليد ما توارثوه عن الآباء والأجداد، أو يبتدعون النظريات والعقائد من عند أنفسهم بلا دليل ولا برهان قطعي ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ تتمة الخطاب من الآية السابقة: أنّ الله تعالى يهدي إلى العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح، بما وَهَبَ الناس من العقل والفكر وبعث الرسل وتنزيل الوحي، في حين أنّ المشركين والضالين يتّبعون الظن، وهو لا يغني من العلم اليقيني شيئاً، ولذلك قالوا إنّ إيمان المقلّد العالِم غير صحيح ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وهذه نقطة ثانية منبثقة عن الإيمان، لأن الإيمان يترتب عليه العمل، فالله تعالى عليم بما يفعلون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية، والقطعية، فيحاسبهم على أعمالهم بمقتضى كل منها.

فما كان قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين الاختلاف فيه، فهو أساس وحدتهم، وما دون ذلك لا يؤخذ به في العقيدة، بل هو متروك للاجتهاد في الأعمال،

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)

٣٧- عودة إلى موضوع الآية (١٧)، فبعد أن ذكرت الآية السابقة أن أكثرهم يتّبعون الظن، بدلاً من اتّباع العلم اليقيني الذي تضمّنه الوحي، تذكر هذه الآية والآيات التي تليها إعجاز القرآن واستحالة افترائه من بشر:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليست صفة القرآن كصفة شيء يمكن أن يُفترى، فالقرآن مُعجز من نواحٍ متعددة لا يقدر عليه البشر ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يصدّق الصحيح المتبقّي من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، وهو معنى قوله ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فالتصديق ليس للكتب السابقة بوضعها الراهن بما اشتملت عليه من إضافات ومحذوفات وتحريف وتشويه، إذ لم يبقَ في الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى سوى شذرات من الأصل، انظر شرح آيات [آل عمران ٣/٣] و [المائدة ٥/١٣، ١٤، ٤٧]، ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ جنس الكتاب، وهو الوحي الذي نزل على جميع الرسل، وفيه تفصيل العقيدة والشريعة والسنن والمواعظ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يتطرق الشك لأي من محتواه لكونه وحياً: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ زعموا أن النبي ﷺ أتى بالوحي من عنده (الآية ١٥)، ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ﴿وَادْعُوا﴾ لمعونتكم في ذلك ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ من بلغائكم وعلمائكم، و"آلهتكم" التي تلجؤون إليها في النوائب ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ادعوا من استطعتم من خلقه، والمعنى أن الله وحده القادر على أن يأتي بمثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى، وأنه بمقدور الإنس والجن، انظر شرح [البقرة ٢/٢٣].

قال الرازي إنّ مراتب تحدّي الرسول ﷺ بالقرآن ستة: أولها أنه تحداهم جميعاً من إنس وجن بكل القرآن، انظر [الإسراء ١٧/٨٨]، وثانيها أنه تحداهم بعشر سور، انظر [هود ١١/١٣]، وثالثها أنه تحداهم بسورة واحدة من مثل القرآن، انظر [البقرة ٢/٢٣]، ورابعها أنه تحداهم بحديث مثله، انظر [الطور ٥٢/٣٤]، وخامسها طلَبَ منهم أن يأتي بالمعارضة رجل من مثل النبيّ، أي يساويه في كونه أمياً غير متعلم

(البقرة ٢/٢٣)، ثم في هذه الآية من سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة، من قِبَل أي إنسان سواء كان متعلماً أم لا، وسادسها أنه تحداهم واحداً واحداً، ثم تحداهم جميعاً أن يستعينوا بعضُهم ببعض في الإتيان بسورة واحدة إن استطاعوا.

وقد لاحظ الشيخ محمد رشيد رضا أنْ مراتب التحدّي هذه غير مراعى بها الترتيب التاريخي بل ذُكر كلٌّ منها بمناسبة سياق سورته، ومن المعلوم بداهة أنه ما كان لعاقل مثل النبي ﷺ أن يتحداهم مثل هذا التحدي لو لم يكن موقناً أن ليس باستطاعة الإنس والجن الإتيان بمثله، في جملته، ولا بسورة واحدة منه، لا أفرادهم ولا جملتهم، فلو كان هو الذي أنشأه وألّفه، كما زعموا، لكان بإمكانهم ما أمكنه، ولكن عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه هُوَ من باب أوْلى، فالرسول كغيره من البشر لا يقدر على الإتيان بسورة واحدة من عنده، وأما قولهم أن النبي ﷺ كان أفصح قريش وأبلغهم، فالمعروف بالنقل الثابت أنه قبل نزول الوحي لم يكن النبي ﷺ يُذكر في فصحاء قريش ولم يُعدّ منهم، وإنما امتاز كلامه بالفصاحة والبلاغة بعد البعثة بما استفاده من وحي القرآن، كما أن كلامه وأسلوبه لا يشبه ما جاء به القرآن، وكلام شخص واحد يلزم أن يكون متشابهاً كما لا يخفى على أحد، يضاف إلى ذلك أن الإعجاز القرآني غير مقتصر على الفصاحة اللغوية بل يتعداها إلى محتواه وتعاليمه، ثم إنّه تعالى ذكر في الآية التالية السبب الذي من أجله كذّبوا القرآن:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ سارعوا إلى التكذيب بالقرآن قبل أن يفقهوه، وقبل أن يتدبروه ويعلموا معانيه، وقبل أن يطّلعوا على الحقيقة، وقبل أن يدركوا إعجازه، وذلك لفرط نفورهم عمّا يخالف ما اعتادوه من تقليد دين آبائهم وأجدادهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ التأويل هو المآل أو العاقبة، والمعنى

لم يحُن وقت العاقبة بالنسبة إلى ما يعد به القرآن من الغيب، انظر شرح [الأعراف ٥٢/٧-٥٣]، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا التكذيب ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وكما يكذّب غيرُهم في كل عصر من العصور، يعني قبل أن يدرسوا الوحي من حيث جدارته ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ كيف كان مآلهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ رغم التكذيب المشار له آنفاً، فمنهم مَن سيؤمن بالقرآن وإن طال تكذيبهم، وهو سبب الإمهال وتأخير العقوبة عنهم، لأن فعل ﴿يؤمن﴾ يمكن أن يحمل معنى الاستقبال كما يحمل معنى المضارع، وفي المضارع يحتمل المعنى أنّ منهم مَن يؤمن به حالياً ولكنه يكذّب عناداً وجحوداً ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهو حال الكفار الذين يقفون مصرّين على الكفر ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ المعاندين والكفار.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)

٤١- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وأصرّوا على الكفر، أيها النبي، أو أيها الداعية في كلّ زمن ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ وهو البلاغ المبين، وما أنا عليكم بمسيطر، ولست عليكم بحفيظ، ولا أكرهكم على الإيمان ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ لكم نتيجة عملكم من التكذيب والشرك والظلم والفساد ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيلقى كل إنسان جزاءه، ولا يحاسب بذنب غيره.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بظواهرهم، وقلوبهم لا تعي شيئاً، ولا تريد أن تعي شيئاً ممّا تقول وممّا تقرأ من القرآن، وذلك لشدة عصبيتهم وإصرارهم على ما توارثوه من آبائهم وأجدادهم، ولشدة بغضهم وعداوتهم للإسلام، حتى بلغوا منتهى النفرة عن قبوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ شبّههم تعالى بالصمّ مجازاً، لأنهم لا يعقلون ما يسمعون، أي لا

يستخدمون عقولهم لتقويم ما يقوله النبي وما يقرؤون من القرآن من حيث جدارته الفعلية، فقد اتخذوا مواقف سلبية مسبقة سلفاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ بعينيه، ولا يبصر بقلبه ما آتاك الله من نور الهداية، لانشغاله عن ذلك بما صمّم عليه سلفاً ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ تشبيه المصرّ على انغلاق عقله بالأعمى، لكونه أعمى البصيرة عن الحقيقة.

والمغزى من الآيتين أنّ فاقد الاستعداد لاستخدام العقل، ومن لا يستطيع أن يضع جانباً العصبية والتقليد المتوارث، لا يستطيع بالتالي أن يسمع الحقيقة ولا يمكنه أن يراها، لأنّ فكره منغلق سلفاً على ما فيه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ فهو يبعث الرسل وينزّل الكتب، ويعطي الإنسان العقل والحواس ليختار ما هو في صالحه، ولا يسلبهم حواسهم وعقولهم ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم يصرفون عقولهم وأعمالهم لما لا يليق، بل يعطّلون عقولهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

٤٥- بعد أن وصف تعالى المصرّين على الكفر بقلة الإصغاء، وقلة النظر، أتبع ببيان مآلهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الساعة الواحدة من النهار يُضرب بها المثل في قصر المدة، أي أن الحياة قصيرة الأمد، في جنب الآخرة، كأنها ساعة واحدة من النهار أمضوها في التعارف فيما بينهم، والمغزى أنهم ضيّعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص عليها، ثمّ لم ينتفعوا منها لآخرتهم شيئاً، فكان ذلك العمر بالنسبة إليهم قليلاً، يستقلّونه في آخرتهم بعد أن كان منتهى أملهم في الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا السعادة الأبدية لأنهم كانوا لا يتوقعون البعث بعد الموت، ولا يأملون الحساب والثواب والعقاب ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بما اختاروه لأنفسهم من الكفر وإنكار البعث.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أيها النبي، أو أيها الداعية، أو أيها المسلم ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من عاقبة تكذيبهم، في الدنيا قبل الآخرة ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ للحساب والثواب والعقاب ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ بعد وفاته ﷺ، والمعنى عام ينطبق على كل الأزمنة، لأن بعض المؤمنين قد يتعجبون من نجاة بعض المكذّبين في الحياة الدنيا ويتعجبون من ازدهار أحوالهم، فالجواب أنهم قد يرون عاقبة المكذّبين في الحياة الدنيا، أو قد يتم باقي العقاب أو كله في الحياة الآخرة، فلا ينبغي استباق الأمور، لأن كلّ عمل يحصل في طياته بذور عواقبه،

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ بُعثت الرسل إلى كل الأمم على مر العصور، فلمْ تبقَ أمة من الأمم بلا هداية وتبشير وإنذار، مع ملاحظة أنّ عموم الآية لا يقتضي كون الرسول حاضراً مع كل أمة، لأن تعاليمه لم تزل باقية لمن بعده ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ وبلغتهم الرسالة، وقامت الحجة عليهم ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لأنّ الله تعالى لا يحاسب الناس إلا بعد أن تبلغهم بعثة الرسل، ونظيره قوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام ١٣١/٦]، وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء ١٥/١٧]، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء ٢٠٨/٢٦].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ وهو قول الكفار في تحدّيهم للمؤمنين ﴿مَتَى هَـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ متى هذا القضاء بالقسط المشار إليه في الآية السـابقة؟ ومتـى هذا الوعد بأنّ الله سينصركم علينا؟ والجواب عليه في الآية التالية:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَـاءَ أَجَلُهُـمْ فَـلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ فمـن بـاب أولى لا أملـك ذلـك لغيري، بسوى الأسباب التي أقدر عليها كمـا يقـدر عليهـا غيري، وليـس منهـا إنزال العذاب بكم حسبما تريدون ﴿إِلاّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلاّ ما شاء الله أن أملكـه من دفع الضرر وجلب النفع بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي، وأما الآيات الخارقة فهي لله وحده، ويحتمل المعنى أيضاً أن تكون إلاّ بمعنـى لكن، أي: لكن ما شاء الله من ذلك الوعد كائن، متى شـاء، ولا شـأن لي بـه، لأن ذلك خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتهـا التبليـغ لا التكويـن ﴿لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ لبقائها وهلاكها، في علم الله، وليس لي تقديمه أو تأخيره ﴿إِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدّر لهم ﴿فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَـاعَةً﴾ أي شـيئاً قليـلاً مـن الزمـن ﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يملك الرسول أن يؤخّر الأجل أو يقدّمه، ولا أن يطلـب التأخير والتقديم منه تعالى.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلون به ﴿بَيَاتًا﴾ ليـلاً، وأنتـم تبيتون في بيوتكم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم لاهثون وراء دنياكم، والمعنى أنه يأتيكم بغتـةً بلا توقع مسبق منكم، وفي قولـه ﴿بَيَاتًا أَوْ نَهَـارًا﴾ أنـه يـأتيكم والأرض نصفهـا غارق في الليل ونصفها الآخر في النهار بالنظر لكرويـة الأرض، وهـو مـن إعجـاز القرآن ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُـونَ﴾ أي جـزء مـن العـذاب يسـتعجلون؟ لأن مجيء العذاب ليس شيئاً ممّا يوجب الاستعجال إلاّ من قبل الجاهلين والحمقى.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١)

٥١- ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ سوف يؤمنون قطعاً عند تحقق العذاب، ولكن الإيمان لا ينفع صاحبَه وقتئذٍ، لأنه يصير اضطرارياً، بالمشاهدة عياناً، وليس تصديقاً بالقرآن وبالرسول ﴿آلآنَ﴾ تؤمنون به اضطراراً، مع أنّ الإيمان في وقت الإلجاء والقسر باطل لا يفيد صاحبه؟! ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً بالقرآن واستكبارا!

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ وقت وقوع العذاب -واستخدام الفعل الماضي للمستقبل لبيان وقوعه لا محالة- ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر وما يترتب عليه من الفساد والضلال ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ لأن الجزاء مترتب على ما كسبتموه باختياركم من الكفر والفساد في الأرض، وذلك بمقتضى السنن الحكيمة من ارتباط المسببات بالأسباب، راجع شرح الآيتين ٤ و ٨ أعلاه.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ يستخبرونك أيها النبي، أو أيها المؤمن ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي هذا الوعد بالقضاء بينهم بالقسط المشار إليه في الآيتين (٤٧-٤٨)، أو هذا العذاب الذي يستعجل به المجرمون، هل هو حقّ؟ وسؤالهم دليل أنهم كانوا يظنّون الظنون، (الآية ٣٦)، ولم يكونوا على يقين من تكذيبهم، وإنّما كانوا بين الشك واليقين، وبين العناد والتقليد ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وفائدة القَسَم أنّ العرب في ذلك العهد كان يقل فيهم الكذب لعزة أنفسهم، وعدم خضوعهم لرئاسة استبدادية تضطرهم إليه، وكانوا يهابون الأيمان الباطلة ويخافونها، أضِف ما اشتُهر به النبي ﷺ من الصدق حتى لقّبوه بالأمين فلا يُعقل أن يُقسِم باطلاً ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فلا تفوتون العاقبة المترتبة على تكذيبكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

٥٤- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بأن كذّبت الرسول ﷺ والوحي، وهو المعنى العام للآيات السابقة ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلكاً من الأموال والخيرات قاطبة ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يوم القيامة، أي ودّت لو تجعله فدية لها من العذاب وتتنذ ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ إسرار الندامة معناه أنهم وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم لهول ما رأوا من العذاب، ومعناه أيضاً أنّ الندم لا ينفع بعد انكشاف حجب الغيب ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بينهم وبين الرسل والمؤمنين، وكذلك بينهم وبين من ظلموهم من المرؤوسين الضعفاء ممّن كانوا يصدونهم عن الإيمان، لأن هذا هو ظاهر السياق ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بل ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم من الأتباع والمقلّدين، وهم لا يُظلمون أيضاً لأنه لا يحيق بهم إلا ما اقتضاه استعدادهم، وقد جاء قوله تعالى ﴿وأسرّوا الندامة﴾ و ﴿قضي بينهم﴾ على لفظ الماضي مع أنّ القيامة من أمور المستقبل، وذلك لتحقق وقوعها لا محالة، فجعل تعالى مستقبلها كالماضي، ومن ذلك قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾ [القمر ٥٤/١].

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مزيد من التأكيد على مقدرته تعالى على إنفاذ حكمه بالعدل، وأنّ الظالمين لا يعجزونه، وفي قوله تعالى ﴿السماوات والأرض﴾ إشارة إلى جميع العوالم: السماوات بصيغة الجمع لأنها إشارة إلى الكون كلّه شاملاً بلايين المجرّات والنجوم والكواكب ممّا لا حصر له، والأرض بصيغة المفرد وهي الكرة الأرضية التي نعيش عليها، ولا يمنع ذلك أنّ الأرضين كثيرة بدليل قوله تعالى ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق ٦٥/١٢]، وسبب ذكرها بالمفرد لأن باقي الأرضين مشمولة في تعبير

السماوات، راجع آية (الأنعام/١)، ﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثابت واقع التحقق لا محالة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس لا يعلمون أمور الغيب، لا من طريق النظر والاستدلال، ولا من طريق الإيمان بالرسل والوحي، لأنهم غافلون مغرورون بالظواهر.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا، وهو دليل على البعث والنشور في الآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة للحساب والثواب والعقاب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

٥٧- بعد أن أوضحت السورة براهين الألوهية والتوحيد، والدلائل الدالة على صحة النبوة والوحي، والقدرة على البعث والنشور والحساب، تعود إلى استمالة الناس نحو قبول الحق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهي القرآن الكريم، والموعظة هي الوصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ شفاء لما في الصدور من الشكّ والحيرة والتخبط، وشفاء من الباطل كالشرك والكفر والجهل والضلال والنفاق ﴿وَهُدًى﴾ إرشاد إلى الحقيقة، وليبان ما يصح وما لا يصح ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين في البحث عن الحقيقة والتوصّل إليها والإيمان بها، فالرحمة تعود على مَن يؤمن، أي إنّ الموعظة وشفاء الصدور والهدى لا يستفيد منها إلاّ المؤمن، أمّا الكافر والمكابر فيظلم نفسه بجحود الحقيقة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿قُلْ﴾ للناس أيها النبي: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ أي بالقرآن وبالإسلام ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ التأكيد يفيد الحصر، أي إيجاب الفرح بهما دون ما عداهما من فوائد الدنيا، أي لا مُفرح حقيقةً سواهما ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من ثروات الدنيا والتهالك عليها فهي منتهية إلى الزوال، والمقصود

إرشاد الناس لأنّ الهداية الروحانية تأتي بالدرجة الأولى قبل مادية الدنيا، وهو ما حصل بالفعل مع المسلمين في العصور الأولى إذ كانت هدايتهم بفضل الله وبرحمته مع سعيهم في الأسباب، فلمّا صارت الدنيا عندهم مقصودة بذاتها، وتركوا هداية الدين، استووا مع غيرهم من غير المؤمنين وذهبت دنياهم إلى أيدي أعدائهم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الإلهي ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ لمنفعتكم، والرزق ليس مقتصراً على الطعام والشراب فقط بل يتعداه إلى العلم والشرع كما في الدعاء:﴿اللهم أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه﴾ فجعل اتباع الحق رزقاً ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً﴾ حرّمتم بعضه وحلّلتم بعضه الآخر، فجعلتم أنفسكم مصدراً للتشريع ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التشريع من عندكم، وفي التحريم والتحليل بوحي نزل عليكم ؟ والمعنى لا يحق لأحد أنّ يشرّع ما يخالف القرآن، ولا أن يُحرّم على الناس ويُحلّ لهم من عنده ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ بزعمكم أنّه تعالى حرّمها عليكم ؟ والمغزى أيضاً: ما دمتم أنتم تنكرون الوحي والنبوة فما بالكم تحرّمون وتحلّون من عندكم وتفترون الكذب على الله تعالى ؟ -وهو اتصال الخطاب بما قبله،

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ الافتراء على الله بالتشريع وبالتحريم والتحليل من عندهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ما ظنّهم بحسابهم يوم القيامة ؟ والمعنى لا يُتركون بغير عقاب لأنهم تعمّدوا الكذب في حق خاص بربوبيته، فنازعوه تعالى فيه وأشركوا به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أولاً بإمهالهم

لعلهم يتوبون من افترائهم وجحودهم وكفرهم، وثانياً في كل ما جعله لهم من الرزق، وما شرعه لهم من الدين، ومنه أن جعل الأصل فيما أنزله لهم من الرزق الإباحة، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجلّ، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من العباد، وأباح لهم ما حرّمه عليهم إذا اضطرّوا إليه وكان تركه أضرّ من تناوله، وحصر أصول المحرمات في آية [الأنعام ٦/١٤٥]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك الفضل فلا ينتفعون به، ولا يغتنمون فرص التوبة، بل يظلمون أنفسهم بتحريم ما لم يحرّمه، حتى أنّ بعضهم يجنح إلى الغلو في الزهد، وترك الزينة والطيبات من الرزق، أو في ضد ذلك من الإسراف في الشهوات،

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

٦١- ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها النبي ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي في أمر من أمورك الهامة، الخاصة و العامة من شؤون الأمّة -لأنّ الشأن هو الأمر العظيم ذو البال- ويفهم من الخطاب أنّ جميع أموره ﷺ كانت عظيمة الشأن حتى العادات منها، لأنه كان قدوة صالحة في كل عمله ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ أي من القرآن، لأنّ الضمير في ﴿منه﴾ يعود إلى القرآن، وقد تمت الإشارة إليه في الآيات ٣٨،٣٧ والآيات ٥٨،٥٧ ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي من بعض القرآن، فيكون تقدير الخطاب : وما تتلو من القرآن من قرآن، لأنّ تعبير القرآن يشمل الجزء والكلّ ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أيها الناس جميعاً، فالخطاب عام للناس كلهم ﴿إِلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الله تعالى شاهد على كل شيء ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الإفاضة في الشيء هي الدخول فيه والاندفاع والانهماك به ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ ما يبعد ولا يغيب عنه -لأنّ أصل العزوب هو البعد، وقالوا أنّ الفرد يسمّى عزباً لبعده عن الزوج- ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ مهما بلغ صغرها -وقدّم ذكر الأرض لأن الكلام في قاطنيها من البشر- ﴿وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

٦٢- بعد أن بيّنت الآيات السابقة مصير الظالمين والمفترين، وإحاطة علمه تعالى بكل شيء، تشرح هذه الآية أحوال المخلصين الصادقين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الولي -بسكون اللام- في اللغة يدل على معنى القرب، وفي الحديث «كل مما يليك» أي مما يقاربك، فولي كل شيء هو الذي يكون قريباً منه، والقرب من الله تعالى يكون بالاجتهاد في طاعته وذكره على الدوام، والوليّ ضد العدو، فأولياء الله تعالى أضداد أعدائه المشركين به، الكافرين بنعمه، وهم الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، والتوكل عليه، وحبه والحب فيه، ولا يتخذون من دونه و ليّاً ولا شفيعاً يقربهم إليه زلفى، ولا يتخذون وكيلا ولا نصيرا فيما يخرج عن توفيقهم لإقامة سننه في الأسباب والمسببات، ويتولّون رسوله والمؤمنين، فهنالك يكون العبد في غاية القرب من الله تعالى، كما يكون الله وليّاً له أيضاً لقوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة ٢/٢٥٧]، لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو ما بشّر به القرآن جميع المؤمنين الصالحين، كما في قوله تعالى ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام ٦/٤٨]، وقوله تعالى ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف ٧/٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف ٤٣/٦٨-٦٩]، فعدم الخوف والحزن يتحقق لهم في الآخرة على أتم وجه، وهو المقصود من الآية بالذات، وأما في الدنيا فإنهم لا يخافون من مكروه مثلما يخاف غيرهم من عبيد الدنيا وضعاف الإيمان والكفار، وإنما يكونون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله في خلقه، حيث يمتنع أن يكون خوف أو حزن لمن يضع الآخرة نصب عينيه ولا يتهالك على دنياه ولا يسعى إليها كأنها مبلغ همّه، ثم إنّ الآية التالية (٦٣) تبين صفات هؤلاء الأولياء:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

٦٣- هذه الآية بيان صفات أولياء الله المشار إليهم في الآية السابقة : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماناً يقينياً ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ بالفعل المضارع، تعبيراً عن دوامهم على هذه الحال من التقوى في السراء والضراء، والتقوى اتقاء كل ما يخالف الشرع، واتقاء مخالفة سننه تعالى في خلقه، كالعمل والصبر وابتغاء أسباب الصحة والقوة والنصر وعزة الإسلام.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿لَهُمُ﴾ أي أولياء الله ﴿الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي البشارة السارة التي تنبسط لها بشرة الوجه، وهي السعادة التي يتمتعون بها لقربهم من الله تعالى، وليقينهم بتحقق البشرى بحسن العاقبة في أمورهم، وأمور المسلمين واستخلافهم في الأرض ما أقاموا شرع الله واتبعوا سننه في الخلق ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ تتحقق لهم البشرى على أتم الوجوه بالأمن والسلام والجنة ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ في تحقق تلك البشرى لهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا يعلوه ولا يقارن معه فوز.

﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿وَلا يَحْزُنْكَ﴾ أيها النبي ﴿قَوْلُهُمْ﴾ قول الكفار بالتكذيب -المشار إليه في الآيات (٤١، ٤٨، ٥٣)- ولا يحزنك قولهم بالافتراء -المشار إليه في الآية (٦٠)، والسبب في عدم وجوب الحزن لأن العزة لله جميعاً: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ القوة الكاملة والقدرة التامة والغلبة النهائية لله تعالى وحده، فهو ناصرك ومعينك عليهم، فلا مبرر لحزن والحالة هذه، والآية التالية تأكيد على ذلك ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنواياهم وبأعمالهم، فيحازيهم بها، ويمنعهم منك.

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ من عابدين ومعبودين على السواء، فالكل عبيدُه مملوكون له ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بمعنى النفي أي ما يتبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمونهم شركاء، إذ لا شركاء له تعالى -فتكون شركاء منصوبة بفعل يتّبع-، ويحتمل المعنى أيضاً أن يكون التعبير بمعنى الاستفهام: يعني وأي شيء يتّبع هؤلاء الذين يدعون من دون الله شركاء؟ -فتكون شركاء منصوبة بفعل يدعون- والمغزى أنهم يتّبعون أوهامهم، ويحتمل المعنى أيضاً أن يكون التعبير معطوفاً على ﴿مَنْ﴾، أي وله شركاؤهم، وفي قراءة ﴿تدعون﴾ بالتاء فيكون المعنى: وأي شيء يتّبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين؟ إنهم يتبعون الله وحده ويطيعونه، انظر آية (الإسراء ٥٧/١٧)، فما بالكم لا تفعلون مثلهم؟ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ إن يتبع المشركون إلاّ ظنّهم وليس فيه من اليقين والحقيقة شيء ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يخمّنون تخميناً ويحزرون حزراً، لأنّ أصل الخرص الحزر والتخمين والتقدير، ثمّ لكثرة الخطأ فيه أُطلق على الكذب.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هذا استدلال على ما قبله من نفي الشركاء، وأن القدرة الكاملة والنعمة الشاملة لله وحده، وهو دليل على تفرده سبحانه باستحقاق العبادة، والمعنى: هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمحض حكمته ورحمته: أحدهما الليل جعله مظلماً للسكون بعد تعب النهار، والثاني مبصراً -أي معطي الإبصار- للانتشار والعمل في الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي حججاً ودلالات ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الحجج سماع فقه وتفكر.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

٦٨- وهذا نوع آخر من أباطيل المشركين والكفار أن زعموا لله ولداً: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ كزعم المشركين أن الملائكة بنات الله، وزعم المسيحية عن عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له تعالى عن اتخاذ الولد وعن كل ما لا يليق به ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته فيمتنع أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ كل ما في الوجود والغيب له، لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ السلطان الحجة والبرهان، أي ليس عندكم بهذا القول برهان ولا دليل تعارضون به هذا البرهان العقلي وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره، وكونه المالك لكل شيء مما في السماوات والأرض ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن القول بما لا برهان عليه عبارة عن جهل وليس بعلم، وهذه الآية دليل آخر على بطلان التقليد في العقيدة.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بزعمهم اتخاذه ولداً، أو باتخاذهم الشركاء له، أو بالتحليل والتحريم من عندهم ﴿لا يُفْلِحُونَ﴾ في الآخرة.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ المعنى حتى لو أفلحوا في الدنيا، فمتاع الدنيا زائل والحياة قصيرة، ولا يقاس المتاع الزائل مع النعيم الدائم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا، كفرهم بالآيات وبالنعم، وتكذيب الرسل والافتراء.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾ (٧١)

٧١- هذه الآية والآيات التي تليها حتى الآية (٩٨)، تذكر بعض العبر المتعلقة بموضوع هذه السورة من قصص ثلاثة أنبياء نوح وموسى ويونس، وهي متصلة بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (الآية ١٣)، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ (الآية ٣٦)، وقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الآية ٤٧)، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الآية ٦٦)، ثم هي استمرار مباشر للآيتين (٦٩-٧٠) التي قبلها بأن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، وهذه هي المرة الثانية في ترتيب السور التي ترد فيها قصة نوح موجزة، بعد أن وردت ملخّصة في سورة [الأعراف ٥٩/٧-٦٤] وكما هي العادة يلاحظ إبراز عبر جديدة من القصة لم ترد في غيرها من السور، راجع شرح [الأعراف ٦٤/٧]:

﴿وَاتْلُ﴾ أيها النبي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي بعض خبره، لما فيه من العِبَر من عدم فلاح المفترين وكون ما يتمتعون به من الدنيا مُقارب للفوات وأن أمثالهم مشرفون على الشقاء الأبدي، ولِيعلموا سنّته تعالى في نصر رسله على المكذّبين ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ وجودي بينكم ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إن كانت إقامتي بينكم شاقة وثقيلة الظلّ بعد أن مكثت بينكم قرابة ألف سنة إلا خمسين عاماً، أعِظكم خلالها وأدعوكم لعبادة الله وحده ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهو أول جواب من نوح على سلوكِهم لأن شدة نفرتهم منه قد تحملهم على إيذائه وأنه بالمقابل يدفع هذا الشر منهم بالتوكل على الله، والواضح من خطاب نوح أنّه قد طال به الأمد في دعوة قومه كل هذه المدة بلا جدوى بسبب شدة اعتيادهم على طرقهم ومذاهبهم الفاسدة وتشنّجهم في التمسك بها، ويبدو أنّ مَن ألِفَ طريقةً

في الدين فإنّه يثقل عليه أن يُدعى إلى خلافها، ويثقُل عليه أن يُواجه بضعفها وركاكتها وبالدلائل القاهرة على فسادها، ولا سيّما إذا كان المدعو متمسّكاً بالتقليد معرضاً عن تقويم الدعوة الجديدة تقويماً عقلانياً من حيث جدارتها وأحقيتها، أو إذا كان مِن جَهَلة العوام، فإذا تضافرت مع ذلك القيود الاجتماعية أو المصالح الدنيوية الآنيّة أو كلاهما، اشتدّ حَرَجُه واشتدّت نفرته من الدعوة ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ لا تتركوا شيئاً من إمكاناتكم وخططكم إلاّ أجمعتم على حشدها ضدّي، أو كونوا في حالة إجماع في أموركم بشأن دعوتي لكم ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ واجمعوا معكم شركاءكم المزعومين من الأوثان التي تسمونها آلهة ومن الزعماء والرؤساء الذين تدّعون فيهم الألوهية ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ليكن أمركم واضحاً بلا إبهام ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلون -لأنّ الإنظار والنظِرة بمعنى الإمهال- ومغزى قول نوح عليه السلام أنه قد بلغ الغاية في التوكل على الله، ولا يكترث بهم، لأنّ الله تعالى ينصر رسله ويكفيه شرورهم، فلا يصل كَيدهم إليه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الرسالة وبقيتم على إعراضكم عن دعوتي لكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ﴾ مقابل تذكيري ووعظي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ لم أطلب منكم شيئاً من منافع الدنيا فيثقل ذلك عليكم، ولا أخاف أن تقطعوا عنّي خيراً إذ لا أطمع بشيء منكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ وحده سواءٌ آمنتم أو أعرضتم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لأمره تعالى والمنقادين لحكمه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أصرّوا على تكذيبه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة التي صنعها بأمره تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾

يخلفون في الأرض الذين هلكوا بالغرق، وفيه إشارة إلى الآية (١٤) ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ عاقبة المصرّين على التكذيب الذين تمّ إنذارهم، بالمقارنة مع نجاة المؤمنين، وهي العبرة من الآية.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح ﴿رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ إشارة إلى أنّ الأنبياء قبل محمد ﷺ كانوا يُبعثون كلٌّ إلى قومه حتى كانت بعثة خاتم الأنبياء والرسل الذي بُعث إلى الناس كافةً ﴿فَجَاءُوهُمْ﴾ أي كل رسول إلى قومه ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لكلّ قوم بحسب المستوى العقلي والفكري الذي كانوا عليه ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ لما شبّ عليه الأكثرون من التمسّك بتقليد مَن قبلهم ﴿كَذَلِكَ﴾ بمثل هذه السنّة التي اطّردت في أمثالهم ﴿نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال الزمخشري: الطبع كناية عن عنادهم ولجاجهم، وهو واضح من إسناد الاعتداء إليهم ووصفهم به، وأضاف الألوسي أنّ مَن عاند وثبت على العناد خذله الله تعالى ومنعه التوفيق واللطف، وفي المنار أن علاقة الاعتداء بالطبع على القلوب، كعلاقة العلّة بالمعلول، والسبب بالمسبَّب، وسنته تعالى في دوام كل منهما بدوام الآخر وليس ما قد يفهمه بعض مدّعو الجبرية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد أولئك الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إلى فرعون وكبار قومه، وتسميتهم بالملأ لأنّ أولو الأمر يملأون الأعين والنفوس، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المعنيّون باتخاذ القرار ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وهي الدلائل على الوحدانية وحقيقة الخلق ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن دعوة موسى والإقرار بها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ كان شأنهم ودأبهم الإصرار على الكفر.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ في الرسالة السماوية ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ من عند الله وليس من عند موسى ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ بهرتهم الرسالة الإلهية فعزوها إلى السحر، كما فعل مشركو مكة مع النبي ﷺ (الآية ٢).

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أي تقولون فيه ما تقولون -وحُذف المفعول به لدلالة القول عليه- أو كما قال الألوسي إنه مما لا ينبغي أن يُتفوّه به ولو على سبيل الرواية ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ استفهام إنكار من قِبل موسى ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ تتمة كلام موسى، بمعنى أنّ تأثير السحر لا يمكن أن يكون سوى وقتيّ عابر، وليست الرسالة السماوية كذلك.

ويحتمل المعنى أيضاً نسب القول إلى السحرة متهكمين: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ فتكون الجملة مفعول به، فكأنهم قالوا له: أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح؟ ونحن نعلم أنّ السحر ليس سوى شعوذة وتخييل نُرهب به العامّة، فجئتنا تزاود علينا ببضاعتنا!؟ أو قد يكون أنهم تعجّبوا من فلاحه مع أنّه بظنهم ساحر.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ لتلفتنا أي لتصرفنا، والمراد أنهم يدفعون حجّة موسى البيّنة بمجرد الإصرار على التمسك بتقليد الآباء ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لتكون الدنيا والزعامة لكما بعد أن كانت لنا، وهو السبب الثاني من عنادهم، ويلاحظ أن الخطاب الخاص بالدعوة موجّه إلى موسى وحده لأنه الداعي لهم بالذات، وأشركوا أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما بالضرورة ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا نخرج من دين آبائنا الذي تقلده عامّتنا، وتقوم عليه دعائم ملكنا

الذي تتمتع خاصتُنا بكبريائه، وقالوا سُمّي المُلك كبرياءً لأنه أكبر ما يُطلب من أمور الدنيا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ إسناد القول لفرعون لأنّ الأمر من وظائفه وحده دون الملأ ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ راسخ في شؤون السحر، وفيه الانتقال من مقارعة موسى بالقول إلى مقارعته بالفعل.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ ورد تفصيل مجيئهم في سورة الأعراف (١١٣-١١٥)، وسورة طه (٦٠-٦٥)، اللتين نزلتا قبل هذه السورة ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي ألقوا ما استقرّ رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر، استخفافاً بهم ولكي يظهر للناس أنّ عملهم شعوذة محضة.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١)

٨١- ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم، انظر [طه ٢٠/١١٦]، ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي هو السحرُ بعينه الذي جئتم به، وليست رسالتي كذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ سيظهر بطلانه ويمحقه بالكلية فيظهر الفرق بين المعجزة والشعوذة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ من سحرة وغيرهم، أي من طبيعة أعمالهم أنها تكون فاسدة غير دائمة، وتلك قاعدة عامة في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، أنّ الله تعالى يسلّط الدمار على عمل المفسدين، والمعنى أيضاً أن السحر ليس سوى إفساد.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ فيظهره على الباطل ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بقضائه وبسنته الأزلية ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المصرّون على المعصية والكِبَر.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ بعد ظهور المعجزة ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ قليلي العدد سواء من بني إسرائيل أو من المصريين ﴿عَلَى خَوْفٍ﴾ أي مع خوفهم ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ كانوا خائفين من فرعون من جهة، ومن جهة ثانية من ملأهم أي من كبار قومهم الذين لم يؤمنوا وهم عرفاؤهم عند فرعون لأنّ الملوك تستعبد الشعوب بعرفاء من الشعوب نفسها ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يبتليهم بالتعذيب ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ غالب قاهر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في أمره، ومن ذلك ادعاؤه الألوهية، وقد يكون المعنى أنه في حين أظهرت الأقلية إيماناً بموسى علانيةً مع خوفها من فتنة فرعون وملئه، فقد كتمت الأكثرية إيمانها.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لمّا رأى تخوّف الأكثرين الذين كتموا إيمانهم ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ حقّاً ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ وحده دون غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ إن كنتم في إيمانكم مستسلمين لله مذعنين فعلاً لا قولاً، والمعنى أن الإيمان لا يمكن أن يكون يقيناً إن لم يصدّقه العمل وهو الإسلام، أو الاستسلام لله تعالى والعمل بأوامره وقد بيّنت الآية أنه شرط التوكّل، فإن لم يكن هنالك إسلام تام- استسلام لله- لا يكون بالتالي توكّل صحيح،

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿فَقَالُوا﴾ امتثالاً لأمر موسى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي بعد أن عزموا على قرن القول بالفعل والصبر على الشدائد، ثم أتبعوه بالدعاء: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الدعاء يحتمل أكثر من معنى منها: ربّنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، أي نصبح مفتونين منصرفين عن هذا الدين الحق بظلمهم وقهرهم، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً لظنهم أن لو كنّا على

الحق لما استطاعوا أن يظهروا علينا، والمعروف أن الدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب إلا إذا كان مسبوقاً أو مقترناً باتخاذ الأسباب، بأن يعمل المرء ما يستطيع، ويطلب من الله أن يسخر له ما لا يستطيع.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي من سلطانهم وحكمهم، وقد لاحظ الرازي في ترتيب الدعاء أنهم قدّموا اهتمامهم بأمر دينهم (٨٥) على اهتمامهم بأمور دنياهم (٨٦).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ﴾ اتخذا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يجتمع فيها المؤمنون، بدليل قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي الجهة التي يُقبل عليها الناس لأنّ القِبلة من الإقبال، والمغزى أن تكون بيوتُهم مركزاً للدعوة الجديدة، أو أن يقبل عليها المؤمنون للتجمع استعداداً للخروج من مصر كما سيرد في الآية (٩٠) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ للدعاء ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بحصول مقصودهم.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)

٨٨- ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بعد أن بذل قصارى جهده في الدعوة ويئس من هداية فرعون وملئه، ولما علم ذلك من الوحي: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ قُرئت ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء وفتحها، وقالوا أنّ اللام لام العاقبة بمعنى أن عاقبة الزينة وكثرة الأموال عند فرعون وملئه لم تكن سوى الضلال والإضلال، والكِبَر والخيلاء، إذ أمكنتهم من إخضاع رقاب الناس وإفسادهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ طمس الأموال

إزالتها، والدعاء بطمسها لأنها كانت بأيدي الملأ من كبار القوم دون الدهماء من عامة الناس ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تصبح ضيقة حرجة لا يتمتعون معها بالسعادة ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ حتى يعيشوا حالة من القلق والتعاسة والضيق النفسي والخوف والترقّب.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بطمس أموال الملأ والشدّ على قلوبهم، ولكن في وقته ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجّة ولا تستعجلا، واستمرّا في إعداد بني إسرائيل للخروج ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي سبيل الجهلة بسنة الله في الخلق، فلا تستبطئا إنجاز الوعد قبل أوانه، لأنّ الدعاء وإن كان مُجاباً فقد لا يحصل في الحال، والمغزى أنه تعالى يعطي الناس فرصاً للتوبة والرجوع إلى الحق ثمّ إذا حصلت لهم سوء العاقبة كانت نتيجة إصرارهم ومحض أعمالهم الاختيارية.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠)

٩٠- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي بعد تبيّن إصرار فرعون وملئه على الكفر وبعد أن تمّ تجمّع بني إسرائيل وحان أوان خروجهم، جاوزوا إلى الشاطيء الآخر بلطف العناية الإلهية ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلماً واعتداءً ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ خاض فرعون البحر وراءهم حتى إذا وصل إلى حد الغرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ بدعوة موسى ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لله المنقادين لأمره، أي جمع بين الإيمان الذي هو التصديق بالقلب، والإسلام الذي هو الإذعان والخضوع بالفعل (انظر شرح الآية ٨٤)، وكان من قبل جاحداً، أي مصدّقاً غير مذعن ولا خاضع، أي بعد جحودهم بآيات موسى، كانت هذه عاقبتهم.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١)

٩١- ﴿آلآنَ﴾ اضطراراً، بعد فوات أوان الخيار الحر ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا ينفع ادعاء الإسلام صاحبَه بعد أن صار اضطراراً، انظر آية [النساء٤/١٨].

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ لعل هذه إشارة إلى عادة قدامى المصريين تحنيط أجساد فراعنتهم، ومنهم منفتاح الذي قيل إنه فرعون الذي أخرج موسى من مصر ولا تزال جثته محنطة في المتاحف المصرية إلى اليوم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ غافلون عن الآيات الكثيرة المحيطة بهم وعن استخلاص العبر منها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ المبوّأ هو الموطن، والمقصود موطناً محموداً صالحاً مباركاً وهي فلسطين، ثم آلت فلسطين لذرية إبراهيم من العرب تصديقاً لنبوءة موسى (انظر سفر التثنية١٨/١٨) بنتيجة فشل اليهود في حمل رسالة التوحيد ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فيها ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وهو علم الدين فقد عصوا موسى واختلفوا على التوراة ودرسوها أي طمسوها كما تدرس الريح الأثر، انظر شرح آية [الأعراف ١٦٩/٧]، وكفروا بآخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام، ثم بمحمد ﷺ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبيّن لهم الحق من الباطل، والمعنى أنهم لا يتفقون في الدنيا على حقّ، قال الرازي: المراد أنّ هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في إزالته في الدنيا، وأنه تعالى يقضي بينهم في الآخرة، انتهى، لقوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود ١١٩/١١]، راجع شرح آيتيْ [هود ١١٨/١١-١١٩].

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ أيها الإنسان ﴿فِي شَكٍّ﴾ بعد كل هذه الآيات والعبر ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ المقصود بالكتاب جنسه أي كالكتب التي نزلت على أنبياء اليهود والنصارى والتي رغم تشويهها بقي فيها شذرات من الأصل ومنها النبوءات ببعثة خاتم الأنبياء والرسل ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ بنزول القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين، وهذه الآية ذات ارتباط بالآيتين (٥٧-٥٨)، وشبيه بها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار/٦-٧]،

وأمّا ما أورده بعض المفسرين من أن الخطاب في الآية للنبي ﷺ فغير مستساغ ولا معقول ولا يستقيم مع تتمة الخطاب في الآية (٩٥)، وقد أورد الرازي نحواً من هذا النفي، وكون السورة بكاملها مكية حيث لم يكن قد آمن وقتها من أهل الكتاب أحد دلالة على عمومية الخطاب، ولاشكّ أنّ المعنى العام للآية يؤدي تتابع الوحي الإلهي الذي نزل على الأنبياء ووحدة الغرض من رسالاتهم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها القارىء أو السامع ﴿مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنّ كل مَن كذّب بالآيات خسر نفسَه، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٢]، والآية أمر باستدراك الفرصة قبل فواتها، كما سيرد في الآيات التالية (٩٦-٩٧-٩٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ باستحقاقهم العذاب في علم الله القديم ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لرسوخهم في الكفر والتصميم عليه وإحاطة

جهالاتهم بهم، وليس أنه تعالى منعهم من الإيمان منعاً قهرياً، بل ذلك من كسبهم واختيارهم.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ من الآيات الكونية المحيطة بهم من كل جانب، أو من آيات القرآن الكريم ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فحينئذ يؤمنون إيماناً اضطرارياً يكون انفعالاً وليس فعلاً من أفعالهم الطوعية فلا يترتب عليه بالتالي تطهير نفوسهم وتزكيتها.

﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٩٨)

٩٨- تتمة الخطاب من الآيتين السابقتين: ﴿فَلَوْلا﴾ بمعنى فهلاّ ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ قبل نزول العذاب بها ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ لأن الإيمان لا ينفع بعد حلول العذاب ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ استدركوا أنفسهم بالإيمان قبل فوات الأوان، ويونس النبي (٨٦٠-٧٨٠ق م) بُعث إلى الآشوريين في بابل في عاصمتهم نينوى التي لا تزال بقاياها ماثلة على شاطىء دجلة المقابل لمدينة الموصل، ويبدو أنّ معظم قومه أصرّوا على رفضه حتى ذهب مغاضباً كما في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء ٢١/٨٧]،

ثم استدركوا أنفسهم بالإيمان فنجوا: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ والآية إنذار لمشركي مكة في وقته، وللناس في كل مكان وزمان بالاستجابة لرسالة القرآن قبل فوات الفرصة، وقبل أن تحقّ عليهم كلمة الله، كما ورد في الآيتين (٩٦-٩٧).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩)

٩٩- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لألجأهم تعالى إلى الإيمان إلجاءً، وفي ذلك إشارة للآية (١٩)، ولو شاء الله لخلقهم

كالملائكة لا استعداد في فطرتهم لغير الإيمان، والمعنى أنه سبحانه لا يشاء ذلك لكونه مخالفاً للحكمة التي عليها أساس التكوين والتشريع، فاقتضت حكمته تعالى أن يخلق الإنسان مختاراً مستعدّاً بفطرته للإيمان والكفر، فما دام خلق الإنسان على هذه الفطرة فمن باب أولى ألاّ يجوز للبشر إكراه الآخرين على الإيمان: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ أيها الإنسان ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الإكراه منافٍ للحكمة من فطرة الناس على حرية الخيار، والمعنى أيضاً أنّ الإكراه غير ممكن وغير مستطاع عدا كونه لا يصح، وهو ليس من وظائف الرسالة التي بُعث بها النبي ﷺ، وقد أجمعوا أنّ إيمان المُكرَه باطل لا يصح.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ في استقلالها في أفعالها وحرية خيارها بين الحق والباطل ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسبّبات، ولكنها غير مستقلة في خيارها أتم الاستقلال بل مقيّدة بنظام السنن الإلهية والأقدار، فالمنفي هنا استطاعة الخروج عن هذا النظام العام ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخَبَث المعنوي المتصف به الكفر ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين لا يستخدمون ملكاتهم العقلية في أفضل ما هي مستعدّة لها من معرفة الله ووحدانيته وعبادته، وفي التفكر بالرسالات السماوية والآيات الكونية- المشار إليها في الآية التالية- يصبحون ضحية للقيم الزائفة،

﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١)

١٠١- ﴿قُلْ انْظُرُوا﴾ بأبصاركم وبصائركم ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من آيات بيّنات باهرات دالّة على وحدة النظام الكوني وعلى وحدانيته تعالى وألوهيته وربوبيته ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ العبارة تحتمل صيغة الاستفهام أو صيغة النفي، والمعنى أن المصرّين على عدم الإيمان بإغلاق عقولهم على ما بها من مكابرة وغطرسة لا تنفعهم الآيات والنذر، انظر آية [النساء ٤/١٥٥].

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ أي هولاء المكابرون ﴿إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فتحيق بهم سوء العاقبة كما حاقت بالأمم البائدة من الكفار قبلهم ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ تلك العاقبة ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لتحقق سنته تعالى الأزلية في العباد كما سيرد في الآية التالية.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

١٠٣- ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ على منوال ما جرى في الماضي ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مثل تلك النجاة التي اطّردت في رسلنا والمؤمنين معهم،

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في كل مكان وزمان ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ بعد كل هذه الحجج، وأنكم ترجون تحوّلي عنه ﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من شركاء مزعومين ووسطاء وشفعاء وأوثان ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ووَصَف الله بتوفّيه إياهم دون غيره من صفاته تعالى وأفعاله لتذكيرهم بما لا يُشك به من عاقبة كل إنسان، ومن ثمّ تحقق وعده تعالى في الدنيا والآخرة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دلّ عليه العقل ونزّل به الوحي.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

١٠٥- ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ تتمة الخطاب من الآية السابقة أي أُمرتُ أن أكون من المؤمنين وأُمرت بإقامة الوجه للدين حنيفاً، وهو الميل عن جميع الأديان والمذاهب الباطلة، والتعبير بإقامة الوجه لأن العرب تعبّر به عن توجّه المرء بفكره ونفسه وكلّيته نحو مبتغاه، ويحتمل المعنى أن يكون التوجّه ذاته

حنيفاً أي معرضاً عمّا سواه، أو التوجه نحو الدين الحنيف ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أصحاب الديانات والمعتقدات الباطلة.

﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦)

١٠٦- ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من شركاء موهومين أو شفعاء أو وسطاء، لأن الدعاء هو مخ العبادة كما ورد في الحديث، فلا يجوز الدعاء لغيره تعالى ﴿مَا لا يَنْفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلا يَضُرُّكَ﴾ إن تركته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسك، انظر آية [لقمان ١٣/٣١].

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بنتيجة سبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد، أو الأسباب القاهرة أو العامة وفق السنن الكونية ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ وقد جعل تعالى لكل شيء سبباً يعرفه الخلق بتجاربهم، فالأمور تُطلب بأسبابها مع الشكر لمسخّرها، فإن جهل المرء الأسباب أو أعياه طلبُها دعا الله وحده دون غيره لكشفها ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يهبه لك بتسخير أسبابه، أو بغير سعي من العبد ولا سبب ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ لأنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بكسب ومن غير كسب، وبسبب ما قدّره من السنن في الخلق وبغير سبب، ففضله تعالى على العباد بعموم رحمته، بخلاف الضرر الذي لا يقع إلاّ بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد، أو بسبب عدم اتباع سننه في الخلق مما ينتج عنها من فساد الأفراد والمجتمعات والدول، انظر آية [النساء/٧٨-٧٩]، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بإمهاله البشر وإعطائهم فرص التوبة والرجوع، فلولا مغفرته لهلك الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة،

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨)

١٠٨- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في كل مكان وزمان ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ببعثة خاتم الأنبياء والرسل وبنزول القرآن الكريم، وقد كان هذا الحق مجهولاً عندكم من قبل، بجهل بعضكم دعوة الرسل الأقدمين، وبقيام بعضكم بتحريف وتغيير وتبديل رسالات موسى وعيسى ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن كل فرد بحاجة للإسلام وللقرآن وليس العكس، وفائدة الهداية تعود على الفرد نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الهداية في الدنيا وما يلحق به من عذاب الآخرة ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ليست أموركم موكولة إليّ، ولا أجبركم على الإيمان والاهتداء، فهذا عائد لكم باختياركم، ولست عليكم بمسيطر، إن عليّ إلاّ البلاغ.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن ﴿وَاصْبِرْ﴾ على كفر الكفار ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ في الدنيا فينجز وعده للعباد، وفي الآخرة فيبين لهم الحق من الضلال ويجازي كل إنسان بعمله ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا يحكم إلا بالحق.

* * *

سورة هود -١١-

مكية

مُقَدِّمَة:

نزلت خلال السنة الأخيرة من إقامة النبي ﷺ في مكة، وهي مكية بالكامل واستثنى بعضهم بأسانيد ضعيفة الآيات ١٢، ١٧، ١١٤ على أنها مدنية.

خلفية تاريخية

رووا أنّ أبا بكر الصدّيق قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أسرعَ إليكَ الشيب، قال: ((شيّبتني هودٌ وأخواتُها)) وفي رواية بزيادة ((وما فُعل بالأمم من قبلي))، وقالوا إن أخواتها (الواقعة، والقارعة، والحاقّة، وإذا الشمس كوّرت، وسأل سائل)، وروى الألوسي أنّ منشأ تشييب سورة هود له ﷺ اشتمالها على أمره بالاستقامة على الدعوة، مع إخباره أنه سبحانه إنّما خلق الناس للاختلاف (١١/١١٨)، والحديث إن صحّ يدل على هول الموقف الذي كان يواجه النبي ﷺ حينئذٍ، فمن جهة كانت قريش تجهد في محاولتها سحق دعوة النبي ﷺ، ومن جهة ثانية كانت تنزل الآيات القرآنية مشتملة على أشدّ الوعيد إن لم تستجب قريش للدعوة، وبالتالي خشية النبي ﷺ من نزول العذاب بقومه.

ارتباط السورة بما قبلها:

ختمت سورة يونس بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

(١٠/١٠٨-١٠٩)، ثم تفتتح سورة هود أن الحق الذي جاءهم هو القرآن: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١/١١)،

وفي سورة يونس تحدّي الكفار الذين زعموا أن القرآن مُفترى، أن يأتوا بسورة مثله إن استطاعوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨/١٠)، وتتحدّاهم سورة هود أن يأتوا بعشر سور مفتريات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣/١١)،

وقد شبهت سورة يونس المكذّبين بالصُمّ لا يستخدمون عقولهم، وكالعُمي لا يبصرون: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٢/١٠-٤٣) وفي سورة هود أنهم لإصرارهم على التكذيب عاجزون عن السمع والإبصار: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٠/١١)،

وقد بينت سورة التوبة أن الدعوة إلى الإسلام، ومن ثمّ الإيمان، يجب أن يكونا على أساس من الحجة والدليل والإقناع، الآية (٦/٩)، ثمّ بينت سورة يونس أن المشيئة الإلهية اقتضت أن يُترك الناس في دنياهم أحراراً بين مؤمن وكافر: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩/١٠)، ثم تحدد سورة هود أنه تعالى خلق الناس كي يمارسوا حرية الفكر والخيار، سوى أن المصرّين على الكفر يؤول مصيرهم إلى جهنم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٨/١١-١١٩)،

وهكذا فإنّ سورة هود تبدو متممة لسورة يونس في المواضيع، ومفصّلة لما أُجمل في سابقتها من قصص بعض الرسل عليهم السلام، كقصص نوح وموسى، مع إضافة قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وإبراز العبر في

هذه القصص من عدة زوايا، والتأكيد على علاقة البشر بعضهم ببعض ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧/١١)،

محور السورة

تركيز السورة على البيّنة، وهي الدليل العقلي على الإيمان، ويتلوه الوحي الذي نزل على الرسل، كما هي الحال في نزول القرآن الكريم شاهدٌ منه تعالى على الحقيقة: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (١٧)،

ومثل ذلك فيما سبق من بعث الرسل، كقوله تعالى على لسان نوح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي بالدليل العقلي ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي الوحي، انظر آية [آل عمران ٧٤/٣]، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨)، لأن الأصل في الإيمان أن يكون الإنسان مختاراً، والإلزام الفكري لا يصح ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤)، أي مَن لا يستخدم ملكاته العقلية على النحو السوي لا ينفعه النصح،

ومثل ذلك قوم هود أنكروا على نبيهم الدليل العقلي وأصرّوا على التقليد والتكذيب: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣)،

وكذا كانت حال النبي صالح مع قومه ثمود جاءهم بالدليل العقلي: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ وبالوحي الذي نزل عليه: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ (٦٣)،

وكذا النبي شعيب مع قومه في مَدْيَن أوضح لهم البينة -الدليل العقلي- والوحي الذي رزقه تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ (٨٨)،

وإن اليهود اختلفوا في الوحي الذي نزل على موسى لكن الحكمة الإلهية اقتضت إنظارهم ليوم الحساب: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١١٠)،

وقد مضت سنته تعالى في خلقه أن المجتمعات التي تجمع الفساد إلى الكفر يؤول مصيرُها إلى الزوال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)، وأن الله تعالى لا يهلك المجتمعات إذا كان الظلم فيها مقتصراً على الكفر والشرك، دون الفساد والبغي في المعاملات، وذلك لفرط رحمته تعالى بالناس ومسامحته حقوقه، أما حقوق العباد فيما بينهم فلا تساهل فيها، إذ مِن سننه تعالى في المجتمعات البشرية أنها تدوم مع الكفر، ولا تدوم مع الفساد والبغي: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١)

١- ﴿الر﴾ الله أعلم بمراده، راجع شرح آية [البقرة ١/١]، هود الثانية من السور التي تُفتتح بحروف ﴿الر﴾ والتي افتُتحت بها ستة سور متتالية من القرآن الكريم هي (يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر)، غير أنها وردت في سورة الرعد ﴿المر﴾ بزيادة حرف الميم،

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي هذا كتابٌ أُحكمت آياته، والمُحكَم ما لا يتطرق إليه الخلل، فالقرآن مُحكَم إطلاقاً أي في منتهى الإحكام والإتقان، ولا يُنسخ منه شيء بخلاف الرسالات السابقة التي نُسخت، انظر آية [البقرة ١٠٦/٢]،

ووُصف القرآن أيضا كلّه بالمتشابه بقوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر ٣٩/٢٣]، أي متجانساً في المحتوى وسالماً من التناقض والتفاوت والاختلاف، لقوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء٨٢/٤]، راجع شرح آية [آل عمران ٧/٣]، وهنالك تشابه بين مطلع هذه السورة ومطلع سابقتها سورة يونس حيثُ وُصف القرآن بكونه حكيماً بمعنى اشتماله على الحكمة ومحكماً وحاكماً يميز بين الاعتقادات الصحيحة والباطلة ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ وقد أجمعوا أنّ ﴿ثُمَّ﴾ ليست للتسلسل في الزمن، بل هي تنسيق وترتيب لصفات الكتاب أي هو محكم ومفصّل، والتفصيل هو للعقائد والتشريع والمعاملات ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ الذي أحكم هذه الآيات ﴿خَبِيرٍ﴾ وفصّلها، ولَدُن ظرف مكان مجازاً، أي من عند الحكيم الخبير.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢)

٢- ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ أوّل بيان لما أُحكِمت وفصّلت له الآيات، أي لئلا تعبدوا إلاّ الله لا تشركوا به شيئاً ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ والخطاب على لسان النبي ﷺ لأنّه النذير البشير: نذير بسوء العاقبة للمصرين على الشرك والظلم، وبشير بحسن الخاتمة للمؤمنين المتقين، والضمير في ﴿منه﴾ عائد لله تعالى، والخطاب في هذه الآية وما يليها من آيات وإن كان في الأصل موجّهاً إلى مشركي مكة فهو كباقي الآيات القرآنية ذو مغزى عام وموجّه للناس في كل عصر.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣)

٣- تتمة تفصيل الآيات فالآية معطوفة على سابقتها: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والكفر والإجرام والظلم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ نادمين مصلحين، وقد عطف التوبة على الاستغفار ب ﴿ثُمَّ﴾ لأن العمل متأخر عن القول، فكم من مستغفر مصرّ على الذنب ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾ بمجموعكم وجملتكم ﴿مَتَاعًا

حَسَنًا﴾ التمتع بحياة طيبة في الدنيا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عنده، وهو العمر المقدّر في علمه، للأفراد والأمم، وقد كتب الشيخ محمد رشيد رضا أن هذه السنة الربانية مطّردة في حياة الأمم أكثر منها في حياة الأفراد، فالأمم التي تصر على الظلم والفساد والعصيان يهلكها الله تعالى بالضعف والشقاق وخراب العمران حتى تتمزق وتزول أو تستولي عليها دولة أو دول أخرى، كما هو معروف في حياة الأمم وأحوالها العامة في كل العصور ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ جزاءً مطرداً للأفراد في الآخرة، وقد لا يكون مطرداً في الدنيا، أي يعطي كلّ ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله في الآخرة مطرداً كاملاً، وأما في الدنيا فقد يكون هذا الجزاء جزئياً ناقصاً ومشوباً لا خالصاً، ولا يكون عاماً مطرداً لقصر أعمار الأفراد، وللتعارض والترجيح في سنن الأسباب والمسببات، وهذا من أدلة البعث وجزاء الآخرة الذي يظهر فيه عدله تعالى كاملاً شاملاً ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن عبادة الله وحده، وعن الاستغفار والتوبة ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة كما هو مذكور في الآية التالية، وذلك من رأفته بهم ﷺ فقد أرسل رحمة لهم وللعالمين.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤)

٤- ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد موتكم، أمماً وأفراداً ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على بعثكم وجزائكم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٥)

٥- الآية تبيّن رد فعل المصرّين على الكفر عندما تبلغهم الدعوة بعبادة الله وحده والاستغفار والتوبة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي من القرآن -بعود الضمير في ﴿منه﴾ إلى الكتاب بالآية (١)- فهم يثنون صدورهم خوفاً من مواجهة الحقيقة، وخشية أن يفارقوا دين آبائهم، لا يملكون الشجاعة الكافية للاستماع لدعوة النبي ﷺ وتقويمهما من حيث جدارتها، وهم يثنونها

على ما فيها من عقائد مسبقة كَمَن يحاول الاستخفاء من الوحي الإلهي ومن الدعوة الجديدة، وبذلك يحاولون إقناع أنفسهم أنهم معذورون على ما هم عليه من جهل وعدم العلم بالشيء، وهذا شأن المكابر ومن يتجاهل القرآن عمداً ويعرض عن دراسته ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ مجازاً، وهي كناية عن التعامي عن دعوة الإسلام وادّعاء الجهل ﴿يَعْلَمُ﴾ تعالى ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من أفكار ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من معارضة ضمنية وصريحة لدعوة الإسلام ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا يخفى عليه شيء من أسرارها، وهذه الآية وإن كان المقصود منها في الأصل كفار مكة، إلا أنها كسائر القرآن منطبقة على الكفار والمشركين والجاحدين المناهضين للإسلام والمتعامين عن رسالته في كل الأزمنة وفي كل مكان.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦)

٦- استمرار الخطاب من الآية السابقة عن علم الله تعالى المحيط بكل شيء، وأنه على كل شيء قدير، الآية (٤) وأنه تعالى يرزق المؤمن والكافر بمقتضى سننه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾ كل من يدبّ عليها من كائنات حية ومنها بنو البشر، مؤمنهم وكافرهم ﴿إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بأن سخّر الرزق لها وهداها إلى طلبه وتحصيله إمّا بباعث غريزتها أو بما هداها إليه من العلم بأسباب كسبها وفق نواميس الخلق والسنن، لأنّ مشيئته تعالى تكون بمقتضى سننه وما جعله من ارتباط الأسباب بالمسببات وحكمته فيها ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الحياة والممات، فهو تعالى يرزقها إلى أن يحين أجلها - مستقرها-، ويعلم ما تصير إليه في آخرتها -مستودعها-، فالمستقر هو نهاية المطاف في الحياة الدنيا، والمستودع يكون في الحياة الآخرة ليس مَن يستطيع التحول عنه بعد موته ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كلّ من الدواب وأرزاقها ومستقرّها ومستودعها في علم الله القديم، ثمّ بيّن تعالى في الآية التالية المزيد من شمول قدرته لكل شيء:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ولا يمنع ذلك أن الأرضين كثيرة وهي مشمولة في لفظ السماوات، انظر آية [الطلاق ١٢/٦٥]، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي ستة أطوار زمنية من أطوار الخلق والتكوين، لأنّ اليوم في اللغة مطلق الوقت، فالخلق لم يكن فجائياً بغير تقدير ولا ترتيب، راجع شرح آية [الأعراف ٥٤/٧] و آية [يونس ٣/١٠]، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ العرش كناية عن سلطته العلوية المطلقة، أمّا كون العرش على الماء فقد يكون إشارة لنشوء الحياة الأولية وتطورها من الماء، انظر آية [الأنبياء ٣٠/٢١]، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وهي الحكمة من خلق الإنسان مختاراً، وفيه إرشاد إلى سنّة من سنن المجتمعات بأن الإحسان في أعمالها يكون سبباً لارتقائها ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ﴾ لهم أيها النبي ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ للحساب والجزاء وهما غاية الابتلاء ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لأنهم زعموا أنّ البعث بعد الموت، هو من البطلان والخديعة ما يجعله كالسحر.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨)

٨- استمرار الخطاب من الآيات السابقة أنّ المصرّين على الكفر بعد تعاميهم عن دراسة الدعوة بفكر مجرّد، وبعد زعمهم أنّ القول بالبعث باطل كبطلان السحر، فهاهنا يستهزئون بتأخير العذاب عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ قال الطبري أنّ المقصود بالأمّة في هذا الموضع: الأجل والحين، ومعنى الخطاب: ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى مجيء أمة وانصرام أخرى قبلها ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ قالوه ويقولونه استهزاءً، أي ها نحن نكذّب الرسول والوحي ولا يأتينا العذاب! وذلك من طبيعة الإنسان في الاستعجال بإنكار النذير للاحتجاج على بطلانه، انظر آية [الأنبياء ٣٧/٢١]، والجواب: ﴿أَلا يَوْمَ

يَأْتِيهِمْ﴾ في أجله ووقته المحدد ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ لا يصرفه عنهم صارف، واستخدام الجملة الاسمية لتأكيد وقوع العذاب بهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي وسوف يحيط بهم من كل جانب، واستخدام الفعل الماضي لتأكيد تحقق وقوعه في وقته حتى كأنه وقع بالفعل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أحاط بهم ما كانوا يستعجلونه من العذاب.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ (٩)

٩- هذه الآية بيان لحال الكفار خاصةً -المشار إليهم سابقاً- والإنسان عامةً: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ كأنواع النعم من صحة وأمن ورزق ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ عندما يقع في مرض وعسر وفتن بما يحدث من الأسباب بمقتضى سننه تعالى في الخلق ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ في هذه الحالة يكون شديد اليأس من الرحمة، شديد الكفران لغيرها من النعم التي لا زال يتمتع بها، فضلاً عمّا سلف منها، فهو يجمع بين اليأس مما نُزع منه، والكفر بما بقي له من النعم، والخطاب عن جنس الإنسان عامّةً، فهنالك الكثيرون الذين مع كونهم مؤمنين بالله، إلا أنهم بسبب ضعف إيمانهم سريعي التأثر بالعوامل الخارجية وخاصةً بما ينزل بهم من نوائب، ثم استثنى تعالى في الآية (١١) الصابرين منهم.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠)

١٠- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ لفظ الإذاقة يفيد أنّ الإنسان يقع في التمرد والطغيان بمجرّد أن ذاق القليل من الخيرات العاجلة مع أن هذه الخيرات ليست سوى متاع قليل في جنب الآخرة، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضرّاء مضرّة يظهر أثرها على صاحبها ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي ذهب أثر السيئات عنّي -بحذف المضاف-، ويعزو ذلك إمّا لمجهوده المحض أو للصدف والحظ! ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ شديد الفرح حتى أنه يبطر النعمة ويستكبر ويتعالى على الناس ويرى أنّ ما تحقق له من خير نتيجة لجدارته، أو مجرّد حظ واتفاق الصدف، لا نعمة منه تعالى، فهو لا يقابل حصول النعمة

بالتواضع والشكر عليها، بل يأمن مكر الله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص ٢٨/٧٦]، إشارة إلى فرح البطر بالنعمة.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)

١١- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من الضرّاء إيماناً بالله واحتساباً للأجر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في جميع أحوالهم وخاصة بعد كشف الضراء عنهم وتبديل النعماء بها ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تمحو ذنوبهم وتسترهم من الفضيحة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ في الآخرة.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

١٢- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أي لا تعجل في الترك بل كن من الصابرين الذين يعملون الصالحات، وهو ارتباط الآية بما قبلها، وقالوا إنّ ﴿لعلّ﴾ هنا للتبعيد وليس للترجّي، والخطاب للنبي ﷺ، فالمعنى يستحيل أن تترك بعض ما يوحى إليك ويستحيل أن يضيق به صدرك، والترك المشار إليه هو ما يشقّ على المشركين سماعه كالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والإنذار والوعيد الشديد لهم أنظر الآية (٢)، ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ أي مخافة أن يقولوا ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ لأنّ كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً، أو أنزل عليك من الرزق ما تستغني به وتغني أتباعك وأنصارك من الكد والعناء، وإن كنت صادقاً فهلاّ أنزل الله معك ملكاً يشهد على نبوّتك ويعينك على أمرك فتزول الشبهة عن دعوتك، والخلاصة أنهم أحجموا عن استعمال عقولهم في فهم الدعوة، وأصرّوا على أدلّة مادية حسية ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا أن تنذرهم بالدعوة وتدعوهم لاستعداد العقل، والباقي على الله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الموكل بأمور عباده والرقيب عليها، وليس عليك أيها النبي من أمور الخلق والتدبير شيء، وإنّما عليك البلاغ والدعوة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣)

١٣- بعد أن طلبوا المعجز بنزول كنز على الرسول ﷺ أو بمجيء ملَك معه، أحابهم أنّ المعجز هو القرآن وتحداهم بمعارضته: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ زعموا أنّه جاء بالقرآن من عنده ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي افتروا من مثله ما استطعتم، والتحدي يفيد أنّ وحياً كالقرآن لا يمكن أن يصدر عن بشر ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من مثل آلهتكم التي تزعمون أنها تمدّكم في المصاعب وكهنتكم التي تلجؤون إليها وشعرائكم وخطبائكم وبلغائكم وحكمائكم، والمعنى أنّ الله وحده القادر على إنزال مثل هذا الوحي ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الافتراء، انظر شرح آية [يونس ١٠/٣٨].

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ استمرار الخطاب للمأمورين بدعاء مَن استطاعوا، أي إن لم يستجب لكم مَن تدعون من دون الله إلى المعارضة بعشر سور مفتريات ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي هذا القرآن أُنزل على محمد بمقتضى علم الله، مبيناً لما أراد أن يبلغه لعباده من دينه على لسان رسوله ﴿وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ واعلموا أيضاً أن الله تعالى وحده المختص بالألوهية وأحكامها، فاخلعوا الأنداد والآلهة واعبدوه وحده ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هل أنتم أيها الكفار مذعنون مستسلمون لطاعة الله.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)

١٥- علاقة هذه الآية بسابقتها أنّ غرض الكفار في مسعاهم هو الحياة الدنيا بما فيها من المادة والزعامات والوجاهة وليس هدفهم الوصول إلى الحقيقة ولا التعرف عليها، لا سيّما أن فكرة التوحيد ومبادىء الأخلاق التي نزل بها الوحي تتعارض مع مصالحهم الدنيوية، والآية وإن نزلت في كفار مكة فمغزاها صالح في كل مكان وزمان:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ التمتع بالدنيا فقط دون الاستعداد للآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ يحصلون على ثمرة أعمالهم في الحياة الدنيا وفق سنته تعالى في نظام الأسباب والمسببات ونظام الأقدار، حتّى لو أنكروا القرآن وزعموا أنه افتراء ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ لا يُنقصون -بسبب كفرهم- من نتائج كسبهم، لأن مدار الأرزاق على الأعمال السببية، لا على النيات والمقاصد الدينية، ولا يمنع ذلك أنّ لهداية الدين لحسن المعاملة والأمانة والاستقامة تأثيراً إيجابياً في الوصول إلى المطلوب.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

١٦- ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ أي أولئك المتهالكين على الدنيا والغافلين عن الآخرة، ينتهي بهم المطاف إلى دار العذاب المسماة بالنار، فيحصل عكس مقصودهم لقصور فكرهم عن إدراك الحياة الآخرة ولاعتقادهم أنّ الدنيا هي نهاية المطاف ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ مما ظاهره البر والإحسان فلا يثابون عليها في الآخرة ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبطلان العمل بلا إيمان،

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)

١٧- هذه الآية متعلقة بما قبلها وتقدير الخطاب: أفمَن كان على بينة من ربه كَمَن يريد الحياة الدنيا وزينتها: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ البيّنة هي الدليل العقلي، أي مَن هو في سلامة الفطرة والعقل السليم بحيث يكون على برهان وبصيرة من ربه فيما يؤمن به من التوحيد وإدراك البعث والآخرة والتمسك بالعقائد السليمة، وأيضاً: مَن كان مِن أهل الكتاب على بينة من ربّه بإدراكه حقيقة رسالة موسى وعيسى ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي وهو يتلو القرآن معتبراً

معانيه، والضمير الظاهر في ﴿يتلوه﴾ يعود إلى القرآن الكريم فالإشارة إليه في الآية (١٣) إذ هو نفس الضمير في قوله ﴿افتراه﴾،

﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي القرآن الكريم -بإعجازه- شاهد منه تعالى بأنه تنزيل إلهي، وهو أيضاً يشهد بصحة البينة ويؤيد الدليل العقلي، ويصدّق الصحيح المتبقي من التوراة والإنجيل، وقد يكون المعنى أيضاً أنّ الإعجاز القرآني شاهد من القرآن يشهد أنه من عند الله.

وقد يعود الضمير الظاهر في ﴿يتلوه﴾ أيضاً إمّا ﴿لِمَن كان على بينة﴾ أو للبينة نفسها بالنظر إلى المعنى، فيكون المقصود: ويتلوه أي يليه الوحي الإلهي المنزّل على الأنبياء الذي خُتم بالقرآن.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ التوراة التي تلت البيّنة في حينها -والمقصود التوراة الأصلية وليست المحرفة التي عند اليهود- ﴿إِمَامًا﴾ وهو القرآن، أي يؤتمّ ويقتدى به في العقائد والعبادات والمعاملات ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن يهتدي به ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون أنهم على بينة من ربهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من أصناف الكفار في كل وقت ممّن تحزّب ضد الإسلام ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ في عذاب الآخرة ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ أيها الإنسان ﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ في شكّ من الوعد، أو من القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ كاملاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً كاملاً، بالنظر لتحريفهم في كتب أنبيائهم، ولاستكبار زعمائهم وكهنتهم وحرصهم على الزعامة، ولحرص العامة على تقليد زعمائهم وأسلافهم.

وقد رأى الألوسي أنّ في الآية إشارة إلى الدليلَيْن العقلي، والنقلي، ومعنى كون الثاني تالياً للأول -من حيث أنه يتبعه- أنه موافق له لا يخالفه، ومن هنا قالوا إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، فالآيات النقلية القرآنية توافق الأدلة العقلية وتؤيدها، ولذا أوّلوا الدليل النقلي إذا خالف ظاهرُه الدليلَ العقلي.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨)

١٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بالإدعاء أن القرآن مفترى وأنه ليس كلام الله وهم المشار إليهم بالآية (١٣)، ﴿أُولَئِكَ﴾ المفترون ﴿يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم الحساب ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ وهم الرسل الذين بُعثوا إلى أقوامهم، انظر آية [النساء ٤/٤١]، وقيل المراد بهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وهو قول الأشهاد ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي بُعداً لهم من رحمة الله،

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٩)

١٩- ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الظالمون المشار إليهم آنفاً، ليس فقط أنهم على ضلال بل يحاولون إضلال غيرهم عن الدين الصحيح ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يبتدعون لها اعوجاجاً إذ يصفون دين الله بالانحراف عن الصواب بابتداع الشبهات من عندهم، كما أنهم يبغون اعوجاج الناس عنها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ استبعاداً لمسؤولياتهم الأخلاقية،

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين يفترون الكذب ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لم يكونوا معجزين الله أن يعاقبهم في الحياة الدنيا ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولّون أمرهم وينصرونهم ويمنعون عنهم العقاب، لكن حكمته تعالى اقتضت إمهالهم إلى يوم الحساب وإعطاءهم فرص التوبة ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لإصرارهم على الضلال والباطل، ولسعيهم إضلال غيرهم وصرف الناس عن الحق ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ليس أنهم فقدوا حاستي السمع والبصر، ولكنهم لِما رجح عندهم من حب الدنيا والتمسك بالمادة والزعامة وعدم الفكاك من

التقليد والقيود الاجتماعية، جمّدوا أفهامهم على مواقف مسبقة، فأصرّوا أن القرآن مفترى، وصمموا على الضلال والإضلال، وأغلقوا سمعهم وبصيرتهم عن دراسة القرآن دراسة موضوعية وبذهن منفتح.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢١)

٢١- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، خسروها بالسعي وراء الباطل في دنياهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من عقائد مادية، وآلهة مختلقة، وشفعاء مزعومين، وأنصاف حقائق،

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿لا جَرَمَ﴾ بمعنى حقّاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ لأنّ الخسارة الكبرى هي خسارة الأنفس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣)

٢٣- بعد أن ذكر تعالى عاقبة الكافرين وخسرانهم، أتبعه بذكر عاقبة المؤمنين وخلودهم في الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكل ما يجب التصديق به من القرآن وغيره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الأعمال الصالحات ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ خضعوا له وخشعوا واطمأنّت نفوسهم إليه ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المذكورين من الكفار والمؤمنين ﴿كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ﴾ الكفار الذين عميت بصيرتهم، وصمّوا آذانهم عن الحق ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ المؤمنون الذين أبصروا الحقيقة بعقولهم وسمعوا القرآن سماع تفهّم وتدبّر للمعاني ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ بل هما على طرفي نقيض في استخدام الملكات العقلية ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الكفار ما هو مغروس في فطرتكم من معرفة الخالق والتوحيد، بالعهد الفطري المقطوع عليكم عندما كنتم في الأصلاب،

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٥)

٢٥- قصة نوح سبق ذكرها مختصرة مرتين في ترتيب المصحف: الأولى في سورة [الأعراف٧/٥٩-٦٤]، والثانية في سورة [يونس١٠/٧١-٧٤]، ذُكرت كل منها بعبر مختلفة عن الثانية، وفي هذه السورة تَرد بمزيد من التفصيل، والقصة هنا معطوفة على ما ذكُر في أول السورة من بعثة النبي ﷺ، بل هي عطف على الآيات (١-٢٤)، ولبيان أن حال النبي مع قومه كحال مَن قبله من الرسل من الرفض والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وهو قول نوح لقومه إنه ينذرهم بيوم الحساب.

﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّـهَ﴾ أنذركم بألاّ تعبدوا إلاّ الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو يوم الحساب كونه أليماً للكفار الظالمين.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَـرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي فبادر الملأ من كبار القوم، واقتران حوابهم بالفاء لأنه الأصل في الردّ السريع، أي إنهم بادروا بالرفض فوراً بما يبطل دعوة نوح بزعمهم، وفي سورة الأعراف ورد قولهم مفصولاً لا يُعلم متى وقع منهم: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف ٧/٦٠] وهو من إعجاز القرآن، وقالوا إنّ كبار القوم سمّوا ملأً لأنهم يملؤون الأعين هيبةً وأبهة، أو لأنهم يتمالؤون ويتساندون ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَـا﴾ وهي الشبهة الأولى عندهم، تعريضاً بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله تعالى لـو أراد أن يجعلها في أحد من الناس لجعلها فيهم ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِيـنَ هُـمْ أَرَاذِلُنَـا﴾ وهي الشبهة الثانية، أي اتّبعه من الفقراء والضعفاء مَن هم دونهم في الطبقة الاجتماعية، وهو دأب المترفين مع رسلهم من قبل، وأكثر ضعاف الناس وفقرائهم يقبلون الحق عادةً إذا فهموه لعدم استكبارهم عن اتباع غيرهم،

ولتطلّعهم إلى تحقق العدالة الاجتماعية في الدنيا وإلى سعادة الآخرة، وهذه النقطة الثورية بالذات جعلت مهمات الرسل والأنبياء بغيضة في قلوب الطبقات الحاكمة والطبقات المهيمنة على المجتمع ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي سارعوا إلى اتّباعك في بادي الرأي أي في ظاهره وما يبدو منه، أو في بادئه وأوّله قبل التفكير فيه والتمعّن في حقيقته ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في القوة والمال والجاه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فيما تدّعونه جميعاً، نوح في النبوة، وأتباعه في تصديقه، وقد احتاطوا بالظن دون الجزم تكريماً لأنفسهم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن رأيكم ﴿إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ البيّنة ما يتبيّن به الحق، وهي الدليل العقلي المؤيد بالفطرة السليمة بحيث يكون المرء على برهان وبصيرة من ربه فيما يؤمن به من التوحيد وإدراك البعث والآخرة، ومغزى قول نوح: ما رأيكم إن كنت على بيّنة ظاهرة منه تعالى ليست مِن عندي وكسبي البشري الذي تشاركوني فيه وإنما فوق ذلك: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهي النبوّة وتعاليم الوحي التي هي سبب رحمة الله لمن يهتدي، انظر آية [البقرة ٢/١٠٥] وآية [آل عمران ٣/٧٤] في معنى الرحمة بأنها الوحي ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ حَجَبها عنكم غروركم وعنادكم واستكباركم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنُلزِمُكم البيّنة بالإكراه ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ في حين أنكم منكرون لها؟ والمعنى لا نفعل ذلك، لأنّ الإسلام لا يصحّ إلاّ بإيمان الإذعان بمطلق إرادة الفرد وحريته، ولا إكراه في الدين، وتلك سنته تعالى في البشر أن الإيمان لا يكون بالإلزام، وأن الكاره للشيء لا تتوجه إرادته إلى طلبه ولا إلى فهم ما يدل عليه من الحجج والآيات، وأن دعوة الرسل والدعاة يجب أن توجّه إلى ما لدى الناس من الاستعداد للنظر والاستدلال، وفي ذلك إشارة للآية (١٧).

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ لا أسألكم على تبليغ الدعوة مالاً ولا أسعى وراء مصالح دنيوية ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما زعمتم أنهم أراذل الناس ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾ وهو يتولّى حسابهم وجزاءهم لما يُتّهمون به أنهم آمنوا بادي الرأي، وليس على الرسول أن يشقّ قلوبهم ليتأكد من صحة وصدق إيمانهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ تجهلون دعوتي لكم، وتجهلون أنّ الناس لا يقاسون بالجاه والمال وإنما بالعلم، والآية شاهد على تفضيل الرسل أدنى المؤمنين من أتباعهم على أعظم الكبار من خصومهم.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أي لا تستطيعون ذلك أنتم ولا غيركم، وكانوا يسألونه أن يطردهم كي يؤمنوا هم به، أنفةً وكبرياءً أن يكونوا معهم على سواء ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أن العبرة بالإيمان والعمل وليس بالشرف والنسب.

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

٣١- ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ لأن ضعاف العقول والكفار والمشاغبين في كل العصور، يتوهمون أو يريدون أن يتوهّموا أن الرجل من البشر لا يكون رسولاً إلاّ أن تكون له من خصائص الألوهية أو تكون له قدرات خارقة لا يستطيعها البشر، فأجابهم أنْ ليس من موضوع النبوة أن يكون الرسول قادراً على التصرف بالمخلوقات وتغيير الأسباب والمسببات ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ممّا اختص به تعالى في علمه، ومن سرائر العباد، ومن ثمّ لا أحزم

إن كان إيمان المستضعفين عن عقيدة، أو عن طلب دنيا، فذلك موكول إلى الله تعالى وللإنسان الظاهر فقط ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وهو ردّ على قولهم إنه بشر مثلهم ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ من ضعاف الناس المؤمنين وتريدون مني طردهم ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ لا أجزم أنّه تعالى لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من صدق العقيدة، أو طلب الدنيا، وهو وليّ أمرهم، وربّما كان باطنهم من الإيمان كظاهرهم فيؤتيهم الله ثواب الدنيا والآخرة ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن حكمت عليهم بالظنّ وطردتهم كي تنتظموا في صفوفي.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢)

٣٢- بعد أن أفحمهم نوح بالحجج على مدى ﴿ألف سنة إلاّ خمسين عاماً﴾ [العنكبوت ١٤/٢٩]، ضاقوا به ذرعاً وهم مصرّون على العناد والمكابرة حتى وصل عجزهم معه إلى حدّ اليأس فقالوا له: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ دون أن تقنعنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أتيتَ بأنواع كثيرة من الجدال، فأطلتها خلال هذه السنين الكثيرة، انظر آيات [نوح ٥/٧١-٦]، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العواقب الوخيمة أو العذاب المعجّل ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوتك لنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي إنّ نزول العذاب ليس إليّ، ولا في قدرتي، وإنّما هو لله تعالى الذي كفرتم به، يأتيكم بالعذاب عاجلاً أو آجلاً إن تعلقت به مشيئته المعلقة بالحكمة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا سبيل لكم للإفلات منه.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ إذا عرف الله تعالى من الكافر إصراراً خلاّه وشأنه ولم يلحنه إلى

الإيمان، ويسمّى ذلك إغواءً وإضلالاً، والمعنى: إن كنتم أيها الكفار من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله وألطافه فكيف ينفعكم نصحي؟ أو: إن اقتضت سنته تعالى أن تكونوا من الغاوين بمقتضى ارتباط الأسباب بمسبباتها فلا ينفعكم نصحي، والغيّ الفساد المعنوي، وهو أيضاً الخيبة، والإغواء وقوع الغواية والخيبة بمقتضى سنة الله تعالى في تأثير أسبابهما من الأعمال الاختيارية لصاحبها ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم والمتولّي أموركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (٣٥)

٣٥- يلاحظ في هذه الآية انتقال مفاجيء في الخطاب من الماضي -في حوار نوح مع قومه- إلى المضارع لذا قال بعضهم إنّها معترضة وذات ارتباط بالآية (١٣)، بمعنى أنّها دحض لادعاء مشركي مكة أن قصة نوح مفتراة، غير أنه يحتمل أنّ الآية من قصة نوح ولا مقتضى لاعتراضها في وسطها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي أم يقول مشركو مكة أن النبي ﷺ قد افترى ما يحكيه عن قصة نوح -أو يقول قوم نوح أنه يفتري الكلام عن الله- ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ إن صحّ وثبت أني افتريته فعليّ عقوبة إجرامي أي افترائي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أثبت الإجرام عليهم وهو اتهامهم له بالافتراء وتكذيبهم الوحي.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ لم يعد يُرجى أدنى أمل من إيمان الباقين ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لا تحزن من عنادهم، وقد آن وقت العقاب.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ السفينة التي سوف يتم بها إنقاذ نوح وأتباعه من الغرق، والفلك يطلق على المفرد والجمع من السفن ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وأنت محفوظ برعايتنا أي بعنايته تعالى محفوظ من الأعداء، وجمع الأعين لإفادة شدّة العناية الإلهية بالمراقبة والحفظ ﴿وَوَحْيِنَا﴾ بإلهامنا لك كيف تصنع الفلك فلا تخطيء فيه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فتطلب لهم الرحمة ودفع العذاب عنهم، وفيه إشارة إلى رقة قلب نوح كما هو شأن الصدّيقين ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي محكوم عليهم بالغرق.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ وأقبل يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ لظنهم أنّ أصبح به مسّ من الجنون إذ يصنع سفينة لا حاجة لها على اليابسة ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ لحسبانكم أنّ ما نصنعه يثير السخرية أو تظنّون بنا الجهل أو الهوس ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ لما أنتم عليه من جهل وكفر ومن ثمّ لما تعرّضون به أنفسكم لسوء العاقبة ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منّا، فنحن أولى أن نسخرَ منكم وليس العكس، وفي الآية إشارة إلى الفارق الكبير بين من يعلم حقائق الأمور وبين من هو مغرور بالظاهر.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد إتمام الفلك ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاكهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ قيل هو تنور الخبز المعروف، ابتدأ منه الينبوع على غير العادة، وكان ذلك علامة لنوح عليه

السلام، والفوران شدة الغليان، وقيل ليس المراد تنوراً معيّناً بل الجنس، والمراد فار الماء من التنانير، لقوله تعالى ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر ٥٤/١٢]، فيكون بدء فوران الماء وتفجير الأرض عيوناً من أماكن التنانير أو الينابيع لأن الينبوع من باطن الأرض كالتنور في تجويفه، ولذا فسّروا التنور أيضاً بسطح الأرض ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في الفلك ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ من الحيوانات ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى، وليس بالضرورة أن نوح عليه السلام حمل زوجين من كل أنواع الحيوانات، بل حمل فقط الأليفة منها بما سوف يحتاجه بعد النجاة، فالطوفان لم يكن عامّاً لأن المقصود إغراق قوم نوح الذين أصرّوا على الكفر وليس المعمورة بأسرها كما تزعم كتب اليهود ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، استثناهم لكفرهم ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ عطف على الأهل المحمولين في الفلك، وهم قلّة :﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أي إن القلّة فقط من قوم نوح آمنوا،

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١)

٤١- ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ وهو قول نوح عليه السلام عندما أمرهم بركوب السفينة امتثالاً لأمره تعالى في الآية السابقة، أمَرَهم قائلاً: اركبوا فيها قائلين باسم الله، أي بقدرته حين تجري وحين ترسو، لا بحولنا وقوّتنا ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لعباده إذ لم يهلكهم جميعاً بذنوبهم وتقصيرهم وإنما يغرق المصرّين على الكفر منهم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ لشدة فوران المياه وتفجّرها من وجه الأرض وانهمارها من السماء ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ بدافع عاطفة الأبوّة، قبل انقطاع الصلة بين السفينة الجارية وبين البر ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ لأنه عزل نفسه عن أبيه وعن أهله وعن المومنين، والعزلة حقيقةٌ في المكان، ومجازاً في العقيدة ﴿يَا بُنَيَّ﴾ قالها تحبباً إليه ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾ مع أهلك والمومنين ﴿وَلا تَكُنْ

مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في العقيدة، وهو نهي عن مشايعة الكافرين، والمغزى أن الدخول في غمارهم يوجب الغرق،

﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ ألجأ إلى جبل عال ﴿يَعْصِمُنِي﴾ يحفظني بارتفاعه ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ فلا يصل الطوفان إليّ، قال ذلك ظناً منه أن ارتفاع الماء أمر معتاد يحصل وقت السيول فيمكن الاتقاء منه بالصعود إلى جبل من الجبال دونما حاجة لركوب السفينة، جهلاً منه أنّ الطوفان كان لإهلاك الكفرة فلا بدّ أن يدركهم أينما كانوا ﴿قَالَ﴾ له أبوه مبيّناً له حقيقة الحال ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ للمبالغة في نفي كون الجبل أو غير الجبل عاصماً للكفار من وقوع الواقعة، وقوله ﴿الْيَوْمَ﴾ للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي ربما تكون فيها النجاة بالالتجاء للأسباب العادية ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ وهو الله سبحانه، إشعاراً بعِلّية رحمته وسبقها غضبه، وتعظيماً له جلّ شأنه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح عليه السلام وبين ابنه فانقطع الحوار بينهما ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ مع سائر الكفرة الذين أُغرقوا.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة العليا وتمثيلاً لكمال قدرته تعالى وانقياد العقلاء وغير العقلاء لأمره وتدبيره، والمراد من بلع الأرض للماء حفافها ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ كفّي عن الإمطار، فما هي إلاّ أن قيل كُن، فكان ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ غارَ في الأرض ونضب ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين إشعاراً بأن لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ استقرّت السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ الجبل المعروف بالجوديّ الواقع قرب بحيرة فان -في أقصى الشرق من تركية اليوم- على بعد حوالي أربعين

كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر الواقعة بأقصى الشمال الشرقي من منطقة الجزيرة السورية، والجوديّ جزء من سلسلة جبال آرارات الممتدة من أرمينية حتى كردستان ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين عبدوا الهوى دون الحق، وجعلوا الطبيعة مكان الشريعة، والمعنى هلاكاً لهم وبعداً، بحيث لا يُرجى عودتهم، وخُصّ بدعاء السوء

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥)

٤٥- ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ بعد رسو السفينة على الجوديّ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعلم الحكام وأعدلهم، وقد يكون أنّ سؤال نوح عن حال ابنه في الآخرة، لعلمه أنّ سبقَ عليه القول بالغرق (الآية ٤٠)، ويحتمل أيضاً أنّ نوحاً التبس عليه أمر ابنه إن كان من الذين سبقَ عليهم القول أم لا، إذ لم يكن مطلعاً على باطن أمره فلذلك سأل.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ المعنى هو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم، لأن الوعد مقتصر على نجاة مَن آمن من أهل نوح وباستثناء الكافرين منهم ممّن سبق عليه القول، كما يحتمل المعنى أيضاً أنّ الابن ليس من أهل نوح أي ليس من أهل دينه، فيكون عماد الأهلية هو القرابة الدينية التي تنقطع بالكفر ﴿إِنَّهُ﴾ أي الابن ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي ذو عمل غير صالح، بحذف المضاف لجعل الابن كأنه العمل الفاسد نفسه للمبالغة، ويحتمل تقدير الخطاب أيضاً: إنه -أي الابن- عميلَ عملاً غير صالح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ممّا هو في علم الغيب أو ممّا ليس لك به علم صحيح أنّه حق وصواب ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يسألون أن يبطل تعالى تشريعه أو حكمته وتقديره في خلقه إجابة لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم وأهليهم ومحبيهم،

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي أعتصم بك أن أسألك بعد الآن ما ليس لي به علم صحيح أنه جائز ولائق ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط مني في ذلك ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بقبول توبتي ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أعمالاً.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا﴾ منه تعالى، وهو السلام الروحاني من كل كرب، والسلام المادي من كل مكروه ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ وهي الخيرات النامية ﴿وَعَلَى أُمَمٍ﴾ تنشأ ﴿مِمَّنْ مَعَكَ﴾ تتشعب وتتناسل منهم ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا أو في الآخرة،

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ وهي قصة نوح تعلمها عن طريق الوحي، وفيه إشارة لقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الآية (٣٥)، وقد ذكر الرازي أنه وإن كانت قصة نوح معروفة بين العرب بوجه الإجمال قبل نزول الوحي القرآني فمن المؤكد أن التفاصيل لم تكن معلومة: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوحي ﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها النبي على مشاق تبليغ الرسالة وعلى أذى قومك كما صبر نوح من قبل ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ بالظفر في الدنيا والفوز في الآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون سوء العاقبة باتقاء ما يفسد العقائد والأخلاق، ويتبعون سننه تعالى المطردة في الخلق المؤدية إلى ارتقاء الأمم والأفراد والمشار إليها في الكتاب والسنة الشريفة،

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُـودًا قَـالَ يَـاقَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّـهَ مَـا لَكُـمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُـمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عـاد نبيّـاً منهـم، وهـو النبي هود، وأخاهم بمعنى رجل منهم، سكن قوم عاد أرض الأحقاف الممتدة من حضرموت إلى عُمان وامتد ملكهم شمالاً، ولمزيد من تفصيـل بلادهـم وتـاريخهم انظر شـرح آيـة [الأعراف ٦٥/٧]، وقـد وردت قصـة عـاد بتفصيـل متعـدد وبعـبر متنوعة في سور الأعراف، وهود، والشعراء، والأحقاف، ووردت مختصرة وبعـبر ومعلومات متممة في سور فُصّلت، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر ﴿قَـالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لا تشركوا بعبادتكم الأصنام والزعماء وأشـباههم ﴿إِنْ أَنْتُـمْ إِلاَّ مُفْـتَرُونَ﴾ في زعمكـم أن الأصنـام تسـتحق العبادة.

﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١)

٥١- ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـرًا﴾ ليـس لي مطـامع دنيويـة علـى بعثـي إليكـم ﴿إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَـى الَّـذِي فَطَرَنِـي﴾ أرجـو الثـواب منـه تعـالى ﴿أَفَـلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعدمون عقولكم لإدراك صحة ما أدعوكم إليـه مـن التوحيـد ونبذ الشرك.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُـوَّةً إِلَـى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بعدم العـودة إليها ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ بالمطر الوفير، وكثرة النعم ﴿وَيَزِدْكُمْ قُـوَّةً إِلَـى قُوَّتِكُمْ﴾ يزدكـم قـوة بإيمـانكم، إضافـةً إلى قواكـم الماديـة ﴿وَلا تَتَوَلَّـوْا مُجْرِمِينَ﴾ تصبحون مجرمين بتوليكم عن رسالة النبوّة،

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة كافية لإقناعنا بما تدّعي من النبوّة، وسُمّيت الحجّة بيّنة لأنها تبيّن الحق من الباطل، وقولهم هذا ناتج من فرط عنادهم، أو عماهم عن الحق، أو أنهم لطفولتهم العقلية يرغبون بمعجزة مادية تلمسها حواسهم، وفي ذلك إشارة للبينة المذكورة بالآية (١٧) التي يتمتع بها سليمو الفطرة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي بناءً على قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إمعاناً منهم في إنكار النبوّة، وإصراراً على التقليد والجمود والجحود.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤)

٥٤- ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ زعموا أنّ استخفافه بآلهتهم أدّى بها أن تصيبه بالجنون ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وبذلك رفض هود زعمهم أنّ آلهتهم أصابته بأي سوء، بل على النقيض فهي لا تقدر على شيء وهو لذلك يتبرّأ منها.

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تشركون من دون الله تعالى ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ تحدّاهم أن يفعلوا ما باستطاعتهم لإيذائه، ثقةً منه أنه في حفظ الله ورعايته، وقد يكون الخطاب لهم ولآلهتهم التي زعموا أنها اعترته بسوء ﴿ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ الإنظار من النظِرة وهي الإمهال والتأجيل، والمعنى لا توجّلون ما أنتم بصدده من إيذائي، مبالغة منه في الثقة بما هو عليه من الصواب ومن الرعاية الإلهية، وفي الآية التالية يبدي السبب في عدم اكتراثه بكيدهم:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ وهو السبب في استخفافه عليه السلام بكيدهم ومكرهم السيىء ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فليس من كائن حيّ مَن لا يستمدّ وجوده بالكلية من الله تعالى، وليس من كائن حي إلا وهو تحت القدرة العلوية الكاملة، والناصية مقدم شعر الرأس والعرب تُكنّي به عن تمام الخضوع والاستسلام، ولذا خوطبوا بما تعارفوا عليه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فهو يقضي دوماً وفق الحق والعدل بصورة مطلقة، فلا يفلت الظالم من عاقبة عمله، ولا يفوت المحسن ثواب إحسانه، إنْ في الدنيا أو الآخرة، لأنّ الدنيا والآخرة مرحلتان من مراحل حياة الإنسان، والحياة تقاس بهما معاً.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ تتولّوا عن دعوتي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي أنّ مهمة الرسول مقتصرة على البلاغ وقد تمّت، وبالتالي لم يعد من عذر لهم بالجهل ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يكونون أفضل منكم باستخدام عقولهم، وتكون بذلك نهاية قومه ﴿وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ البشرية بحاجة إلى هداه وهو تعالى غني عن العالمين ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب محيط بشؤون العباد.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العاتية المشار إليها في سورة [القمر ١٩/٥٤-٢٠]، وسورة [الحاقة ٦/٦٩-٩]، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ برحمة منه تعالى خاصة بهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ غير معهود لشدة فظاعته، وقيل هو عذاب الآخرة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كذّبوا بالدلائل الواضحة عناداً في الظاهر دون الباطن، استكباراً وعلوّاً

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ بعصيانهم هود، لأن الرسل تأتي برسالة واحدة متكاملة ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهم العوام والدهماء اتبعوا أمر الزعماء والرؤساء الطغاة بتقليدهم والخضوع لهم، والعنيد مَن يدرك الحق ويرفضه.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اللعنة هي الإبعاد من رحمة الله ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ بجحود الآيات وتكذيب الرسل ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ لأنهم استوجبوا ما لحق بهم من العذاب كنتيجة طبيعية لكفرهم.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (٦١)

٦١- وهذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء المذكورة في هذه السورة: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ معطوف على قبله الآية (٥٠)، ولتفاصيل المناطق التي سكنتها ثمود راجع شرح آية [الأعراف ٧/٧٤]، وقد وردت قصة ثمود بتفصيل متنوع وبعبر مختلفة في سور الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، ووردت باختصار وبمعلومات وعِبَر متممة في سور الإسراء، وفُصّلت، والذاريات، والقمر، والحاقة، والشمس ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوته لهم إلى التوحيد ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدأ خلقكم منها ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جعلكم عُمّارها وسكانها، وهو المُمِدّكم بأسباب العمران والنعم، وذلك من الأدلّة على وجود الخالق وعلى وحدانيته إذ كرّم الإنسانَ بالعقل وبالمقدرة على التصرّف ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ومن ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنب أو خطأ، ولا تعودوا إلى ما أنتم عليه من الشرك والضلال ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ قريب من عباده ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعاء السائلين، فلا يخفى عليه استغفاركم وتوبتكم.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا﴾ كنّا نرجو منك خيراً ورشداً ورأياً، فلما دعوتنا انقطع رجاؤنا وخاب ظننا فيك ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الآلهة والأصنام ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة والأصنام؟ والمعنى هم متمسكون بالتقليد ووجوب متابعة الآباء والأجداد على ما كانوا عليه، ويرفضون التفكير بشكل مستقل ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ الريبة هي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين، والمعنى إننا في شك يجعلنا نرتاب في دعواك أن لا إله إلا الله، وأن لا فائدة من الأصنام، ولا سلطة عند الوسطاء من المولّهين.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ على يقين وحجّة شديدة الوضوح بالحقيقة ﴿مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ النبوّة والحكمة والإسلام، كما في الآية ٢٨، ﴿فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فيدفع عني عذابه، إن تابعتكم على ما تقولون وانقدت لكم ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بعذركم أنكم تعبدون ما كان يعبد آباؤكم ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أخسر نفسي وتخسرون أنفسكم بالإصرار على التقليد وبإنكار البيّنة،

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤)

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ إشارة أو معجزة، وقوله ناقة الله بمعنى أن الخلق كله لله كما يقال عبد الله وأرض الله، وقيل لأنه لم يكن للناقة مالك من الناس ﴿فَذَرُوهَا﴾ دعوها ﴿تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فليس عليكم مؤنتها، إذ تنفعكم ولا تضرّكم، وقد يكون أنّ النبي صالح جعلها في حمايتهم اختباراً أخيراً

لهم -وإن كان رمزيّاً- وليعلم إن كانوا سيعاملون الناقة المكتفية المسالمة بالرأفة أم بالقسوة، كرمز لتغيّر ما بأنفسهم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ فضلاً عن العقر والقتل ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل في الحياة الدنيا.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قتلوها بطريقة وحشية بضرب قوائمها -وهو معنى العقر- غير مبالين بالوعيد ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ عيشوا في بلادكم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أخر ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ يأتيكم العذاب بعده لا محالة.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ خاصة ﴿مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ وما يتبعه من سوء الذكر ولعنة الإبعاد من رحمته تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ﴾ لا يعجزه إنجاز وعده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وفي آية [الأعراف ٧/٧٨] أنها الرجفة، ويحتمل أنها صوت انفجار البراكين التي رافقت الزلازل، وفي جميع الأحوال فهي صيحة العذاب أو العقاب ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هامدين موتى بلا حراك.

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم في سرعة زوالهم وعدم بقاء أحد منهم في ديارهم، لم يقيموا فيها البتة ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ بتكذيب الآيات ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ بما استوجبوه لأنفسهم من سوء العاقبة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٦٩)

٦٩- وهي القصة الرابعة بعد قصص نوح وعاد وثمود، وجرى تقدمة قصة لوط بالكلام عن إبراهيم، لأنه جادل عن قوم لوط (الآيات ٧٤-٧٥)، شعوراً منه بالمسؤولية ليس فقط تجاه عائلته وقومه الأقربين، بل تجاه القوم الذي لم تربطه بهم سوى علاقة غير مباشرة بواسطة ابن أخيه لوط:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم من الملائكة ﴿بِالْبُشْرَى﴾ بالولد من زوجته سارة كما سيأتي ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي قالوا قولاً سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ سلامٌ عليكم ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي فما أبطأ إبراهيم في واجب الضيافة ظناً منه أنهم من البشر ﴿أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ حنيذ بمعنى مشوي بحجارة حامية في حفرة من الأرض، وهي طريقة في الشواء معروفة عند أهل البادية.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدّون أيديهم إلى العجل، أو إلى الطعام ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكر ذلك منهم إذ وجده على غير ما يُعهد من الضيف ﴿وَأَوْجَسَ﴾ استشعر وأدرك ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنّ إبراهيم حتى تلك اللحظة لم يدرك أنهم ملائكة، فلمّا امتنعوا عن الأكل خاف أن يريدوا به مكروهاً، لأنّ الضيف عند العرب لا يمتنع عن طعام إلاّ لريبة أو لقصد سيىء، فلمّا لاحظوا منه الخوف: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا﴾ ملائكة لا ناكل ﴿أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أُرسلنا إليهم بالعذاب.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١)

٧١- ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ سارة ﴿قَائِمَةٌ﴾ أي واقفة، ولعلّ وقوفها لخدمة الضيوف ﴿فَضَحِكَتْ﴾ لزوال الخوف عنها بعدما سمعت أنهم ملائكة لا يريدون بها وبزوجها سوءاً ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ يكون لإسحاق ولد أيضاً هو يعقوب.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا﴾ من الويل، وأصله الخزي، ويستعمل في كل أمر فظيع، والمراد تعجبها من البشارة، وقد يكون ذلك تعبيراً عن خشيتها أن تكون البشارة وهماً، خاصة لعقمها على مدى السنين ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ قيل كانت ابنة تسعين سنة ﴿وَهَذَا﴾ الذي أمامكم ﴿بَعْلِي﴾ زوجي، وأصل البعل القائم بالأمر، ولذلك سمّى العرب معبودَهم بعلاً لاعتقادهم ذلك فيه، انظر آية [الصافات ١٢٥/٣٧]، ﴿شَيْخًا﴾ تجاوز مئة سنة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ليس من سنة الله تعالى المعتادة في عباده.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ استفهام إنكار، أي لا ينبغي لكِ أن تعجبي من شيء هو من أمر الله الذي لا يعجزه شيء، والذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ رحمة الله الخاصة وبركاته الكثيرة عليكم يا معشر أهل بيت النبوة والرسالة، تتصل فيكم وفي ذريتكم من أهل النبوة والرسالة ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ مستوجب لأنواع الحمد والثناء ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤)

٧٤- بداية لقصة لوط التي جرى التقدمة لها بالحديث عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ إذ علم أن ضيوفه من الرسل ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بإسحاق ويعقوب من جهة، وبرحمة الله وبركاته عليه وعلى أهل بيته من النبوة من جهة ثانية ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل الرسل في مصير قوم لوط،

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ بطيء الغضب، لا يحب المعاجلة بالعقاب، بل يفضّل التأني والتأخير والعفو، وذلك موضوع مجادلته في قوم لوط ﴿أَوَّاهٌ﴾ لأنّ الحليم يتأوّه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الآخرين لشدة شفقته ورقة قلبه

﴿مُنِيبٌ﴾ يرجع إلى الله في كلّ أمر، وهذه الصفات من الحلم والتأوه والشفقة والإنابة تعليل لمجادلته الرسل في مصير قوم لوط.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ خطاب الملائكة له ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال والاسترحام لهم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ المقدّر لهم بإصرارهم على الفسق ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا يردّه جدال، ولا تنفع به شفاعة، فهو عذاب واقع ما له من دافع.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)

٧٦- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بعد ذهابهم من عند إبراهيم ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي شعر بالسوء لمجيئهم، خوفاً عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقة وجهداً، بمعنى عجزه عن ضيافتهم ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد البلاء، لِما توقّعه من اعتداء قومه الفسّاق على ضيوفه، قبل أنْ يعلم أنهم ملائكة.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ مسرعين إليه بعد أن علموا بقدوم أضيافه، كأنهم يُدفعون دفعاً لطلب الفاحشة لأن هذه كانت عادتهم لقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعملون أنكر الفواحش في الفطرة البشرية، وهي إتيان الرجال شهوةً من دون النساء والمجاهرة بها حتى قلّ عندهم استقباحها ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فتزوجوهنّ، ويحتمل أنه قصد بناته من صلبه، فأراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم، ويحتمل أنه قصد بنات قومه إذ كان نبياً لهم فهو كالأب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من التلوث برجس اللواط، فتزوّجوا البنات ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باجتناب الفاحشة ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي

ضَيْفِي﴾ في حقّ ضيوفي لأن فضيحة الضيف فضيحة للمضيف ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ذو رشد، يمتنع ويمنع عن هذا العمل الرديء.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لا معنى لعرضك صرفنا عما نريد من ضيفك، ولا حاجة في اللواتي تسميهنّ بناتك، لأن طبعنا لا يميل إليهنّ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من الفاحشة مع الذكور.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿قَالَ﴾ لوط وهو في غاية الكرب ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ فأدفع شرّكم ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فأتحصّن منكم، لأنه لم يكن منهم، وإنما هم قومه بمعنى أنه بُعث إليهم، جاء مع عمّه إبراهيم، عليه السلام، من أور كلدان في العراق، وهو غريب بينهم.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١)

٨١- ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة، لمّا شاهدوه في حالة من الحزن والكرب: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ من الملائكة، وهي البشارة الأولى ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، وهي البشارة الثانية ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي في بعض الليل، والسري السير ليلاً ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ الالتفات نظر الإنسان إلى ما ورائه، والمعنى قطع الصلة بكل ما يخلفونه وراءهم من ممتلكات وأصحاب، وعدم الاكتراث بها، ويحتمل المعنى أيضاً النهي عن التخلف، أي لا يتخلّف منكم أحد، وتقدير الخطاب: فأسر بأهلك ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ دعها تتخلف مع القوم، لخيانتها ولتعلقها بهم ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب، وقوله ﴿أصابهم﴾ بالماضي لأنّ وقوعه أصبح قدراً مقدوراً، فكأنه وقع ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ وهو موعد عذابهم، يبدأ بطلوع الفجر وينتهي بالشروق ﴿أَلَيْسَ

الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فلم يبقَ له إلاّ ليلة واحدة، وحكمته أنهم يكونون مجتمعين في مساكنهم فلا يفلت منهم أحد.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو قضاؤه تعالى فيهم ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبنا أرضها وقراها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ السجّيل من السجلّ، وهو الكتاب، تقديره مكتوب من الأزل في علم الله القديم، ومنضود بمعنى أنّ تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض في النزول، وسجّيل أيضاً سجّين، من النار، فتكون حجارة من الحمم البركانية تبعتها الزلازل خسفت بهم الأرض، وجعلت عاليها سافلها،

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لها علامة خاصة في علم ربّك، فلا تصيب غير أصحابها ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني بهم كفار مكة في وقته، وموقعها قريب منهم يمرّون به في أثناء تجارتهم إلى بلاد الشام، وهي أيضاً عبرة لكل الأقوام الظالمة في كل زمان، وإن كان العذاب يختلف باختلاف الأحوال.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وهي القصة الخامسة، وردت في القرآن الكريم مفصلة وبعبر متنوعة في سورتي الأعراف وهود، كما أشير إليها بإيجاز لبيان عبر أخرى في سور التوبة، طه، الحج، القصص، والعنكبوت، انظر شرح آية [الأعراف ٨٥/٧] للتفاصيل عن أهل مدين، ونبيهم شعيب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهي دعوة التوحيد التي يبدأ بها كل الأنبياء والرسل دعوتهم ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ في تجارتكم، وها هنا نلحظ اقتران الدعوة إلى التوحيد، مع الدعوة إلى العدالة في تعامل الناس بعضهم مع بعض، وهما دعوتان توأمان، لا تنفك إحداهما عن الأخرى في القرآن الكريم بغض

النظر عن قصة شعيب بالذات مع قومه، وبعبارة أخرى أنه لا يمكن للمرء أن يكون تقياً مع الخالق دون أن يكون تقياً مع إخوانه من بني البشر ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بما أفاض الله تعالى عليكم من نعمه ظاهرة وباطنة ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عصيتم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ يحيط عذابه بكم فلا تنفكون عنه في الدنيا أو الآخرة، أو كليهما.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، فبعد أن نهاهم عن نقص المكيال والميزان، أمرهم بالوفاء به بالعدل، تأكيداً لأهمية الناحية الأخلاقية في رسالته ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ في كل شيء، وفي كل الأمور، مادياً ومعنوياً، وليس فقط في المكيال والميزان، والبخس هو النقص والعيب في الحقوق المادية والمعنوية ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تفسدوا في الأرض بقصد الفساد، ولا تفسدوا دنياكم وآخرتكم.

﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ﴾ ثواب التقوى والعمل الصالح عند الله ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الفساد والإفساد، وما يبقى لكم من الربح الحلال بعد الوفاء بالحقوق، خير مما تأخذونه بالحرام والظلم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله تعالى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ فأحفظكم من هذه المعاصي أو أعاقبكم عليها، وإنما بُعثتُ مبلّغاً نذيراً.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان، لأنهم متمسكون بمحض التقليد وبما توارثوه عن آبائهم من الشرك ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ من استغلال وربا واحتيال، وهو حجر على حريتنا، وتحكّم في ذكائنا وفي طريقة استخدام أموالنا ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾

عهدناك وعرفناك حليماً رشيداً، فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا؟ وكيف تحظر علينا استغلال أموالنا بالشكل الذي نراه مناسباً؟ وهو مثال على التنازع بين المستغلين من رجال المال وبين دعاة الإصلاح.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨)

٨٨- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن رأيكم ﴿إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إن كنت على بيّنة عقلية ظاهرة منه تعالى، تبيّن الحق من الباطل (الآية ١٧)، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو أولاً الرزق المعنوي بمعنى النبوّة والوحي، وثانياً الرزق الحسّي المادي ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ بل أفعل ما آمركم به وأنتهي عما أنهاكم عنه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ بقدر طاقتي، بالبلاغ والإنذار، أما الإجبار والإكراه على الإيمان فلا أقدر عليه ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ للصواب ﴿إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ بحوْل الله وقوته، وليس بحولي ولا بقوّتي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وحده دون غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أعود، فلا مرجع للخلق إلاّ إليه.

﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ لا تكسبوا جرماً نتيجة شقاقي، والشقاق شدة الخلاف التي تجعل أحد المختلفين في شقّ غير الذي يكون فيه الآخر ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من عذاب الدنيا والآخرة بنتيجة تكذيبهم رسلهم ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ زماناً ومكاناً.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠)

٩٠- ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والفساد ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من المعاصي، وكلما وقع منكم معصية ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ عظيم الرحمة للمستغفرين التائبين، كثير المودة لهم بإحسانه وكرمه ونعمه.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١)

٩١- ﴿قَالُوا﴾ على سبيل السخرية ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ بعد أن أفحمهم شعيب بالحجج والموعظة ضاقت عليهم الأمور، حتى زعموا أن أكثر كلام شعيب غير مفهوم، قالوا ذلك ضَجَراً واستهانةً، وتمسكاً بالتقليد، وبمكاسبهم الدنيوية العاجلة، وقد يكون أنهم قالوا ذلك مخادعين أنفسهم، وهذا شأن كل المقلدين المتعصبين المغلقين عقولهم سلفاً على ما بها من عقائد وأفكار مسبقة ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قدرة لك على دفع الضرر عن نفسك إن أردنا البطش بك ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾ عشيرتك الأقربين ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ لست بذي عزّة تحول بيننا وبين أن نرجمك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فالله تعالى أولى أن يتّبع أمره ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ نسيتم أمر الله ونبذتموه وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ محيط بأعمالكم لا تخفى عليه.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ اعملوا كل ما في إمكانكم وطاقتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ وأنا أعمل كل ما في طاقتي لدعوة الناس إلى التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن الفساد ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في نهاية المطاف ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ بيننا ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ انتظروا العاقبة ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر ومترقّب.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو قضاؤه تعالى ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ برحمة خاصة بهم دون غيرهم من المكذّبين ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ موتى بلا حراك،

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأن لم يقيموا فيها وقتاً من الأوقات ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هلاكاً لهم وبعداً من رحمة الله، كما عوقبت ثمود بالهلاك وبالبعد من الرحمة الإلهية.

ونلاحظ أن قصص النبيين الموصوفة بالآيات (٥٠-٩٥) مفصِّلة للمشار إليها بآية [يونس ٧٤/١٠].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات البينة الواضحة ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ الحجة البالغة في محاورة موسى مع فرعون، وهذه القصة السادسة في السورة ترد بإيجاز شديد، راجع أيضاً قصة موسى مفصلة في سورة [الأعراف ١٠٣/٧-١٤٤]، وقد وردت أيضاً بتفاصيل وعبر متنوّعة في سور يونس، وهود، والإسراء، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والزخرف.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ الملأ هم كبار القوم وزعماؤهم، وقيل سمّوا ملأً لأنهم أولو الأمر يملؤون الأعين والنفوس في مراكزهم، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المعنيّون باتخاذ القرار ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ في ضلاله، حريصاً وراء مصالحهم وزعاماتهم ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ لا يرشد إلى خير.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨)

٩٨- ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يتقدّمهم لأنه كان قدوة لهم في الضلال ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ بلفظ الفعل الماضي لتحقق وقوعه قطعاً، فلا سبيل إلى دفعه البتة ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ تشبيه الورود إلى الماء عند أهل البادية بالورود إلى النار بدلاً من الماء.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩)

٩٩- ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي هم محرمون من رحمة الله في الدنيا والآخرة ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ لأن اللعنة في الدنيا رفدها العذاب في الآخرة.

وتبدو العبرة من قصة موسى في الآيات (٩٦-٩٩) واضحة، إذ هي مثال لقوله تعالى في الآية (٥٩): ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، والمعنى أنّ التابعين، في كل زمن، والخاضعين لسلطة أعلى منهم يتحملون مسؤوليتهم الفردية، ولا يعفيهم أنهم اتبعوا الرؤساء والزعماء بشكل أعمى، ومن ثمّ يتحملون عواقب أعمالهم على قدم المساواة مع زعمائهم، وهذه إشارة غير مباشرة إلى ما يتمتع به الإنسان من الحرية الفردية ومن ثمّ مسؤوليته في اختيار طريق الحق من الضلال، وبهذه العبرة الهامة، تُختتم في هذه السورة قصص الأنبياء مع أقوامهم الذين اختاروا العمى على الهدى.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي من أنباء بعض المجتمعات البشرية، و﴿من﴾ للتبعيض، لأنه لا يُقصد من قصص القرآن الكريم أن تكون تأريخاً كاملاً للأمم والمجتمعات المذكورة في تلك القصص ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ لإبراز عبر معينة من أنبائها، ولبيان أنماط منوعة من تجاوب بعضها مع الوحي الإلهي ومع الآيات المحيطة بهم، والعواقب التي آلوا إليها نتيجة أعمالهم: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ لا تزال آثارهم قائمة، وهي خاوية على عروشها، كما هي آثار ثمود ﴿وَحَصِيدٌ﴾

ومنها ما عفا عليها الزمن، فلم يبقَ منها إلاّ كما يبقى من الزرع الذي تم حصاده، كما هي الحال في عاد.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١٠١)

١٠١- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ ما نقصهم تعالى شيئاً من النعم التي أسبغها عليهم، ومنها نعمة العقل والفكر وحرية الخيار ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بجحود النعم، وبإنكار الوحي والآيات، بما في ذلك من ظلم للعقل بتعطيله ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لم تنفعهم معبوداتهم الوهمية شيئاً، ولم تدفع عنهم أمر الله تعالى حين وقوعه ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ المترتب على ظلمهم أنفسهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ آلهتهم الوهمية ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غير الخسران والهلاك.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ المعنى أنّ عاقبة الأقوام المذكورة ليست مقتصرة عليهم، بل الحال كذلك في كل المجتمعات الظالمة، وهو بيان بعموم سوء العاقبة لأمثالها، والمراد بالظلم أنهم جمعوا الكفر والفساد معاً (الآية ١١٧)، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ لا هوادة فيه، ولا مناص عنه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (١٠٣)

١٠٣- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في أخذه تعالى للأمم التي هلكت بضلالها ﴿لَآيَةً﴾ رسالة لِمَن بعدهم ممّن يخشون العواقب: ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي يعتبر بها فيتقي الظلم في الدنيا، ولا يغترّ بعدم تعجيل العذاب عليه في الدنيا، ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ لا محالة،

لأجل ما يقع فيه من الحساب المترتّب عليه الجزاء ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ تشهده جميع الخلائق.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ لحكمة اقتضت تأخيره، وهو يوم القيامة ﴿إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ في علمه تعالى، لا يزيد ولا ينقص،

﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥)

١٠٥- ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك الأجل ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم نفس بما ينفعها ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ بعمله ﴿وَسَعِيدٌ﴾ بعمله.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦)

١٠٦- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ في الدنيا، بما عملوا فيها من أعمال الأشقياء لفساد عقائدهم الموروثة بالتقليد، ولإحاطة خطيئاتهم بهم ﴿فَفِي النَّارِ﴾ مستقرهم ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ من شدة الكرب.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ الاستثناء في قوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هو للدلالة على تقييد الأمر بمشيئته تعالى فقط، لا لإفادة عدم العموم ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ لأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإنما تتعلق مشيئته بما سبق به علمُه، واقتضته حكمتُه، وما كان كذلك لم يكن إخلافاً لشيء من وعده ولا من وعيده.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (١٠٨)

١٠٨- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء هنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم

ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئته تعالى، فهو هبة وإحسان دائم، ثم قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي دائماً غير مقطوع، لئلاّ يتوهم متوهّم بعد ذكر المشيئة أنّ ثمّ انقطاع، بل حتمَ له بالدوام وعدم الانقطاع.

﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَـٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ أيها النبي، وبالتالي أيها المسلم ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، أو هؤلاء الضالون، أي لا تكن في شك من ضلالهم، ولا تظنّ أن معتقداتهم مبنية على العقل، بل هي ضلال يؤدي بالضرورة إلى مثل ما حلّ بمَن قبلهم، إنْ في الدنيا أو في الآخرة ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عباداتهم ليست سوى تقليد، بما فيه من قيم زائفة، تداولوه من الآباء والأجداد، منافٍ للعقل، وللوحي، ولرسالات الأنبياء ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ فما من خير يعمله أحدهم إلاّ ويوفيهم الله تعالى جزاءهم عليه في الدنيا بسعة الرزق وكشف الضر، جزاء تاماً وافياً، لا يُنقصه شيء يُحزون عليه في الآخرة، فهو متاع عاجل لا يلبث أن ينقضي، وليس دليلاً على رضا الله عنهم، لأنّ الحُسنى في الآخرة لا تكون إلاّ للمؤمنين المتقين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١١٠)

١١٠- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اختلفوا في تفسيره وفي العمل به، وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وحرّفوه، وغيّروا وبدّلوا فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي كلمة الإنظار، بتأجيل حسابهم إلى الآخرة بحسب الحكمة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ما منعهم أن يصيبهم عذاب الاستئصال في الدنيا، كما أصاب الأقوام البائدة المشار لها في هذه السورة، إلاّ أنهم آمنوا برسالة موسى ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من الكتاب أي التوراة ﴿مُرِيبٍ﴾ الشك المريب الذي أوقعهم في الاضطراب، وأدّى بهم إلى التلاعب

في التوراة قولاً وفعلاً، ونلاحظ أن الآيات ﴿٩٦-٩٩﴾ لخّصت بعثة موسى إلى فرعون، في حين تشير هذه الآية إلى بعثته إلى بني إسرائيل.

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١١)

١١١- ﴿وَإِنَّ كُلاًّ﴾ من المختلفين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ من حسن وقبيح، وإيمان وكفر، فيجازيهم عليها ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء،

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١٢﴾

١١٢- ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي ما دام أمر الأمم من قبلك، كما قصصنا عليك أيها الرسول، فاستقم كما أمرناك في القرآن ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ وليستقم معك مَن تاب من الشرك وآمن برسالتك واتبعك ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أيها المسلمون، بتجاوز الحدود غلوّاً في الدين، لأن الإفراط فيه كالتفريط، وقالوا إنّ هذا دليل على وجوب اتباع النصوص في الأمور الدينية وهي العقائد والعبادات، واجتناب الرأي وبطلان التقليد فيها ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣)

١١٣- ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بارتكاب المظالم، من مسلمين وغيرهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بنتيجة عملكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فولاية أمثالهم لا تنفعكم ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ استبعاد نصرته تعالى لمن يركن إليهم، وهذه الآية وسابقتها من سننه تعالى في المجتمعات أن الطغيان والركون إلى الظالمين من أسباب هلاك الأمم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤)

١١٤- بعد أن أمر تعالى بالاستقامة، أضاف الأمر بالصلاة، وذلك دليل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله هو الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا

مِنَ اللَّيْلِ﴾ إشارة إلى الصلوات اليومية الخمسة التي بينتها وفصلتها السنّة الشريفة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الأعمال الحسنة بتزكيتها للنفوس وإصلاحها لها ما يمحو تأثير الأعمال السيئة، وقالوا إن التوبة مع العمل الصالح تكفر الصغائر والكبائر إلاّ حقوق العباد، فإنه يجب أداؤها أو استحلال أهلها منها ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فيما ذُكر من الأمر بالاستقامة، والنهي عن الطغيان، وعن الركون إلى الظالمين، وإقامة الصلاة، كل ذلك موعظة لمن يتعظ،

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

١١٥- ﴿وَاصْبِرْ﴾ على الطاعات، وعلى المعاصي، وانتظر عاقبتها من النصر والفلاح، ولا تستعجل عاقبتها قبل أوانها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيوفّيهم ثواب أعمالهم.

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦)

١١٦- هذه الآية بيان لسبب انهيار الأمم، وسننه تعالى في خلقه في إهلاك الأقوام التي ينتشر فيها الفساد، على غرار ما حدث للأمم البائدة:

﴿فَلَوْلا كَانَ﴾ فهلاّ كان، أي وُجد ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي الأقوام المقترنة في زمان واحد، والمقصود بها الحضارات السابقة ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ من أخلاق أو ممّن بقي لهم من الرأي والعقل والفضل ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ يكافحون الفساد ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً ممّن أنجينا من القرون السابقة نهوا عن الفساد، ولكنهم كانوا قلّة منبوذين لا يُقبل نهيهم وأمرهم، والأكثرية الظالمة انهمكت في الفساد، فضلاً عن أن تنهى عنه: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الأكثرية ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ من النعم، فأصابهم البطر ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بانغماسهم في الفساد، وانهماكهم في طلب الدنيا والمادة والشهوات والزعامات بأي ثمن، والمعنى أن وسيلة منع هلاك الأمم الظالمة هو وجود أولي بقية فيها ينهون عن الفساد فيُطاعون، وبالمقابل إذا فُقد أمثال هؤلاء

يستفحل الفساد في الأمة بما أترفت فيه فتهلك بمجموعها، وهذه قاعدة اجتماعية تتكرر عبر العصور إلى يومنا هذا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

١١٧- استمرار المعنى من الآية السابقة أنه تعالى لا يهلك المجتمعات لكفرها، ولكن يهلكها لانتشار الفساد فيها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ المجتمعات ﴿بِظُلْمٍ﴾ منها، والمعنى أنه تعالى لا يهلك المجتمعات لمجرد انتشار الشرك فيها ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم، يتعاطون الحق، أي إذا كان الظلم فيهم مقتصراً على الشرك، دون الفساد والبغي في المعاملات بينهم، فإنه تعالى لا يهلكهم ولو كانوا على الشرك، وذلك لفرط رحمته تعالى بهم ومسامحته حقوقه، أما حقوق العباد فيما بينهم فلا تساهل فيها.

وفي الآية دليل على إنّ الأقوام البائدة المذكورة في السورة جمعت إلى شركها، أو كفرها، فساداً وبغياً في مجتمعاتها، ومن سننه تعالى في المجتمعات البشرية أنها تدوم مع الكفر، ولا تدوم مع الفساد والبغي.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨)

١١٨- تتمة الخطاب من الآيات (١١٦-١١٧): ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول الحريص على إيمان الناس، ومن ثمّ الخطاب لكل مسلم ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد، بمقتضى الغريزة، فلا يكون لهم رأي ولا اختيار، فيكونون كالملائكة مفطورين على اعتقاد الحق وعلى طاعة الله، فلا يقع اختلاف بينهم، ولكنه بمقتضى حكمته عزّ وجلّ خلقهم مختارين، لا مضطرين ولا مجبرين، كاسبين للعلم، لا ملهمين، وعاملين بالاختيار الذي هو أساس التكليف، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وفي كسب العلم وفي الاختيار ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في كل شيء، وتلك سنته تعالى في البشر، أن يختلفوا في الأخلاق، وفي الأفعال، وفي الأديان والشرائع، بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، متنازعين في المصالح والمنافع.

﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩)

١١٩- ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فاستفادوا من ألطافه تعالى ومن بعثه الرسل وإنزاله الوحي، فاتفقوا على حكم كتاب الله فيهم ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي لحرية الخيار، وما ينتج عنه من الاختلاف والتفرق في آرائهم وعلومهم ومعارفهم وعواطفهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم، ومن ذلك اختيارهم الدين والإيمان والطاعة والعصيان ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي الكافرون والعصاة والمجرمون منهم، الذين لم يهتدوا بما أرسلت به الرسل، والذين شوّهوا الفطرة السليمة، واختاروا العمى على الهدى.

﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾

١٢٠- ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ وكل نوع من أنباء الرسل، كما في هذه السورة، نقصّ عليك، أيها النبيّ، أو أيها المسلم، و﴿مِن﴾ للتبعيض، أي نقص عليك من أنباء الرسل ليس بمجرّد التأريخ، وإنما نقصّ عليك منها ما فيه العبر والفائدة ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ما يزيد اليقين والطمأنينة في القلب، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب، وأرسخ للعلم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ الأنباء ﴿الْحَقُّ﴾ بيان الحق الذي دعا إليه جميع الرسل من التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء، والحض على العمل الصالح ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ لمن يتعظ بعواقب مَن قبله ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان أسباب انحطاط الأمم وانهيارها،

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (١٢١)

١٢١- ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ولم تؤثر فيهم هذه البيانات والعبر البالغة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها ما تستطيعون ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ ما نستطيع، من الثبات على الدعوة، وتنفيذ أمر الله وطاعته.

﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (١٢٢)

١٢٢- ﴿وَانتَظِرُوا﴾ ما تتمنّون لنا من انتهاء أمرنا بالهلاك أو الفشل ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما وعدنا ربّنا من النصر، وظهور هذا الدين ولو كره الكافرون.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣)

١٢٣- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ له وحده علم الغيب، ممّا لا يعرفه أحد من البشر ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيرجع إليه أمر المؤمنين وأمر الكفار ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ما دام عنده علم الغيب، وإليه ترجع الأمور، فاعبده كما أُمرت، من عبادة شخصية قاصرة عليك، وعبادة متعدية النفع لغيرك، وهي الدعوة إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتوكل عليه ليتم لك ما وعدك، ما لا تبلغه باستطاعتك، فالتوكل لا يصح بغير العبادة، والأخذ بالأسباب المستطاعة، ومن دونهما يكون التوكّل من التمني الكاذب والآمال الخادعة، كما أن العبادة، وهي ما يراد به وجه الله من كل عمل، لا تكمل إلا بالتوكل الذي يكمل به التوحيد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من مؤمنين وكفار، فيوفيكم جزاءه في الدنيا والآخرة.

* * *

سورة يوسف -١٢-

مكية

مُقَدِّمَة

نزلت في المرحلة الأخيرة من إقامة النبي ﷺ في مكة، وقالوا إن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف، بهذا الترتيب.

نبذة تاريخية

روى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام"، كان ليعقوب اثنا عشر ولداً من أربع زوجات، أصغرهم يوسف وبنيامين من زوجة واحدة، والباقون من الزوجات الثلاث الأخر، وقد أخذت السيارة يوسف من فلسطين إلى مصر [يوسف ١٢/١٩] خلال حكم الهكسوس لها، والهكسوس قبائل من أصل عربي ارتحلت من فلسطين وسورية إلى مصر وحكمت الجزء الشمالي منها خلال الفترة (١٦٣٠ق م-١٥٢٠ ق م)، ويشير إليهم المؤرخون باسم الملوك الرعاة، كما يشير إليهم المؤرخون والمفسرون العرب باسم العمالقة، ويبدو أن أصلهم العربي الفلسطيني ساعد في تقبلهم يوسف وفي تبوئه الزعامة عندهم، خاصة أن لغتهم كانت واحدة وهي اللغة العربية، أما العبرية فلم تكن سوى لهجة من اللهجات العربية انبثقت عنها، وقد نسبوا إلى الهكسوس اختراع الأبجدية السامية المكونة من ٢٢ حرفاً والتي، من خلال الفينيقيين، صارت أم الأبجديات الحديثة كما ساهمت في تحول الكتابة المصرية الهيروغليفية من الحروف التصويرية إلى الحروف الصوتية.

وذلك يفسر أيضاً استيطان بني يعقوب في مصر زمن يوسف وبعده ونفوذهم الديني والسياسي في مصر طيلة حكم الهكسوس، وقد كانت بعثة يوسف إلى المصريين مقدمة لبعثة موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر ٤٠/٣٤]، مما يدل أن قبول بعثة يوسف كان مقتصراً على الهكسوس دون عامة المصريين، والثابت أن الهكسوس حكموا شمال مصر فقط واتخذوا مدينة أفاريس Avaris في الشمال الشرقي عاصمة لهم، في حين انتقل حكم المصريين من عاصمتهم ممفيسMemphis في الشمال إلى عاصمتهم الجديدة طيبة Thebes في الجنوب - الأقصر حالياً- مستقلين عن الهكسوس.

ثم حصل الارتكاس إلى الوثنية بعد خروج الهكسوس من مصر وتعرض بنو يعقوب -إسرائيل- لاضطهاد الفراعنة إلى أن كانت بعثة موسى عليه السلام، مما ذكر القرآن الكريم بعض تفصيله، انظر مثلاً آية [البقرة ٢/٤٩] و [غافر ٤٠/٢٥].

ونلاحظ الدقة الفائقة والإعجاز في السورة من حيث إشارتها إلى لقب "الملك" في آيات عديدة (٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٦) وهو ملك الهكسوس، وليس فرعون مصر على النقيض من زعم العهد القديم بأنه فرعون (سفر التكوين ١/٣٩)، ذلك أنّ لقب فرعون خاص بحكام مصر، وقد بقي الهكسوس في مصر لحين ظهور ما يسميه المؤرخون: "الامبراطورية الجديدة"New Empire (١٥٣٩-١٠٧٥ق م) التي امتدت أراضيها خارج مصر فشملت سورية والعراق، وقد بدأت بحكم السلالة الثامنة عشرة 18th dynasty وهي السلالة الفرعونية التي أخرجت الهكسوس من مصر، وكان أخناتون -أمنحوتب الرابع- وهو أحد فراعنة الامبراطورية الجديدة من السلالة الثامنة عشرة هو الذي ابتدع عبادة الشمس في عاصمته الجديدة، العمارنة، وسط مصر بعد أن نقل العاصمة إليها من طيبة في الجنوب، ثم قامت بعد ذلك السلالة التاسعة عشرة 19th

dynasty التي كان منها رمسيس الثاني -الكبير- فرعون الاضطهاد، ومنبتاح فرعون الخروج الذي أخرج بني إسرائيل من مصر عام ١٢١٣ق. م. وتلا ذلك تفكك الامبراطورية الجديدة وسقوطها ثم استيلاء الليبيين على حكم مصر، وبعدهم النوبيون، ثم الفرس، ثم الإسكندر الكبير والبطالسة، ثم الرومان، ثم الإسلام، وقد يكون ذلك معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان ٤٤/٢٨].

ونلاحظ أيضا إشارة السورة إلى لقب "العزيز" في مصر، الذي يبدو أنه الوزير المفوض عند ملك الهكسوس، قال مالك بن نبي في كتابه "الظاهرة القرآنية": لقد تكيفت الثروة اللفظية التي جاء بها القرآن الكريم في جميع تفاصيلها تكيفاً رائعاً، كما حدث لذلك الاسم الخاص -المذكور في رواية سفر التكوين- بوتيفار أو قطفير Potiphare والذي أطلق عليه القرآن لقب "العزيز"، ولنا أن نتساءل إن كان هنالك صلة في المعنى بين الاسم الإسرائيلي واللقب القرآني، فالتفسير العبري يبدو أنه يقصد بكلمة بوتيفار اشتقاقاً مصرياً من الأصل" favori=Puti عزيز" والأصل:" Phare مستشار أو ناصح"، ونقلاً عن بحث القسيس فيجورو Vigoureux (الكتاب المقدس والوثائق العلمية) في الموضوع نعرف أن هذه الكلمة مصرية مركبة معناها "عزيز الإله"، ولكن التكييف الاشتقاقي القرآني قد حذف اللفظ الإضافي ليتمثله في صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية فإذا به يكتفي بلفظ "العزيز"، ولذا قال يوسف لصاحبيه في السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف ١٢/٣٩].

وبحسب العهد القديم (سفر التكوين) فإن يوسف عليه السلام كان ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها عندما وصل مصر، فأقام في بيت العزيز عامين أو ثلاثة، ثم سُجن لمماني أو تسع سنوات، ثم تولى منصب العزيز في مصر [يوسف ١٢/٧٨] وهو في الثلاثين من عمره، وعُمّر حتى بلغ المئة وعشرة أعوام، وإذا صح

ذلك فيكون يوسف تقلد منصب العزيز عند ملوك الهكسوس لفترة ٨٠ عاماً من أصل ١١٠ أعوام فترة وجودهم في مصر، وخلال تلك الفترة هاجر بنو إسرائيل يعقوب إلى مصر لقول يوسف لإخوته: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف ٩٣/١٢] وكان عددهم وقتئذ سبعين فقط بحسب سفر التكوين (٢٧/٤٦)، ثم بقوا في مصر بعد خروج الهكسوس فحكمهم فراعنة "الإمبراطورية الجديدة" حتى خروجهم مع موسى عليه السلام فتكون فترة بقائهم في مصر حوالي أربعة قرون من الزمن ازداد عددهم خلالها حتى بلغ أكثر من ستمئة ألف وقت خروجهم من مصر بحسب ما زعمه سفر الخروج (٣٧/١٢)، مما يدل أن الكثير من المصريين دخلوا في ديانتهم وخرجوا من مصر معهم، ومما يدل أيضاً أن تعبير بني إسرائيل وقتها لم يكن تعبيراً عنصرياً مقتصراً على سلالة يعقوب وإنما شمل كلّ من اهتدى بهدي يعقوب ويوسف وصار مسلماً، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٣/٢].

ارتباط السورة بما قبلها

المناسبة بين سورة يوسف وبين سورة هود المتقدمة أنها متممة لما جاء فيها من قصص الأنبياء عليهم السلام، وهي أطول قصة في القرآن الكريم، وقد اختتمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود ١٢٠/١١]، ثم تفتتح سورة يوسف بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٣/١٢]، وتختتم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١١١/١٢].

وفي سورة هود كان تركيز قصص النبيين على بحيثهم أقوامهم بالبينة -الدليل العقلي-، وبالوحي، وكذا في سورة يوسف نقرأ الدليل العقلي في قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [١٢/٤٠]، ورحمته تعالى ليوسف بالوحي: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)، كما في آيات (هود١١/٢٨) و(هود ١١/٦٣).

محور السورة

لاحظ الرازي تشابهاً شديداً بين قصة يوسف مع أخوته وبين قصة النبي ﷺ مع قومه في الكثير من مراحل دعوته لدرجة أن السورة كانت تذكرة لقريش بكيدها السيىء، وبما ستؤول إليه عاقبتها مع النبي ﷺ، فقد فشل أخوة يوسف في كيدهم ضده حتى انتهى بهم المطاف أن خرّوا له سجّداً، تماماً كما كادت قريش للنبي ﷺ تريد قتله حتى انتهى بها المطاف أن طلبت منه الرحمة بعد فتح مكة، وقد أشارت الآية (٧) إلى هذا المغزى سلفاً، وهكذا عن طريق الربط بين قصة يوسف وبين سيرة النبي مع قومه تنبأت السورة عملياً بالخاتمة التي صدّقتها الأحداث خلال عشر سنوات تقريباً، إذ قال النبي ﷺ لقريش بعد الفتح: ((أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)).

وتدور السورة حول قوله تعالى: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف ١٢/٤٠،٦٧]، فكأن هذه الآية تهيمن على جميع مجريات الأحداث في قصة يوسف عليه السلام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢/٢١٦]، ففيها إشارة إلى الحكمة الإلهية في مجريات الأمور، الخافية عن معظم الخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف ١٠٤/١٢-١٠٥]،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١)

١- ﴿الر﴾ الله أعلم بمراده، راجع شرح آية [البقرة ١/٢]، يوسف هي الثالثة من السور التي تُفتتح بحروف ﴿الر﴾، وقد افتُتحت بها ستة سور متتالية من القرآن الكريم هي (يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر)، غير أنها وردت في سورة الرعد ﴿المر﴾ بزيادة حرف الميم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿الْمُبِينِ﴾ الظاهر أمره الواضح في الإعجاز، والواضح لمن يتدبره أنه من عند الله وليس من كلام البشر، وهو أيضاً يبيّن حقيقة الدين ومصالح البشر، كما يفصح عن الأشياء المبهمة ويبينها للناس.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢)

٢- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نزل على العرب أولاً بلغتهم ليفهموه ويحيطوا بمعانيه، وثانياً ليكونوا واسطة الرسالة إلى العالم أجمع لكونهم أمّة أمّية لم يسبق لها التعصّب إلى رسالة أو رسالات سابقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ١٩٨/٢٦-١٩٩]، بالنظر لتعصب الأعجمين لما هم عليه من التمسك بالتقليد،

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تستخدمون عقولكم في معانيه، فالقرآن موجّه إلى العقل البشري، لأن العواطف وحدها لا تشكل أساساً كافياً للإيمان.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣)

٣- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ لا يعني أنّ قصة يوسف أحسن القصص، وإنما يعود الحُسن إلى حُسن البيان وإعجازه، كما يعود إلى دقة

ومغزى المعاني وصحتها، والعبر الأخلاقية منها، وإلاّ فالقصة مذكورة في كتب اليهود (سفر التكوين بالفصول ٣٧-٥٠) بثغرات عديدة واختلافات كثيرة عن القصة القرآنية، إذ إنّ قصة سفر التكوين خالية من المباديء الأخلاقية وقواعد السلوك السليم وفيها تمجيد واستحسان لأحابيل اليهود ضد المصريين، أما القصة القرآنية فهي أقرب إلى روحانية الموعظة وإظهار العبر والحكمة الإلهية من الكثير من الأحداث التي تخفى على معظم الناس، وقد أورد مالك بن نبي في كتابه ﴿الظاهرة القرآنية﴾ وجوه التباين بالتفصيل بين القصتين في القرآن الكريم والكتاب اليهودي المقدس.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل ١٠٣/١٦]، فهم يزعمون أن النبي ﷺ تعلم القرآن من كتب اليهود والمسيحية مع أن تلك الكتب أعجمية، كانت باللسان السرياني، طبعة البسيطة Peshitta، أو اليوناني، الطبعة السبعينية Septuagint، أو اللاتيني، الطبعة الشائعة Vulgate، ولم تترجم إلى العربية إلا بعد بعثة النبي ﷺ بحوالي أربعة قرون،

ويحتمل المعنى أيضاً: نحن نقص عليك أحسن القصص بما فيها من العبر الهامة جداً: أن الحكم لله تعالى لا راد لمشيئته، الآية (٦٧)، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بوحينا إليك هذا القرآن ﴿وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل هذا الوحي ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن قصة يوسف وأخوته، أو من الغافلين عن حقائق الدين والشريعة،

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤)

٤- وهي القصة المشار لها بأحسن القصص: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في الرؤيا وليس في الرؤية، لقوله ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ (٥)، ولقوله ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ (١٠٠)، والرؤيا وإن كانت بمعنى الرؤية إلا أنها

مختصة بما كان منها في المنام فقط دون اليقظة ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ فسّر الكواكب بالأخوة وهم أخوته الأحد عشر ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فسّر الشمس والقمر بالأب والأم ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ كناية عن تواضع الجميع ودخولهم تحت إمرة يوسف في المستقبل، وتكرار قوله ﴿رَأَيْتُ﴾ و ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ أنه في الأولى ذكر مجرد الرؤيا بالمنام، وفي الثانية لبيان صفة رؤيتهم في واقع الأمر بحال السجود أي متواضعين له خاضعين لأمره.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٥)

٥- ﴿قَالَ﴾ يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فهم يعقوب رؤيا ابنه، وعلمَ أن ابنه سيكون نبياً عظيماً ذا سلطان يسود به حتى أباه وأمه وإخوته، وخاف أن يعلم إخوته بذلك ويفهموا الرؤيا فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه، فنهاه أن يقص رؤياه عليهم، وعلّله بقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي يكيدوا له كيداً شراً بنتيجة حسدهم، لأن الكيد قد يكون للخير أو للشر، كما في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ (٧٦)، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يوسوس بين الناس بداعي الشر.

أما القصة اليهودية في سفر التكوين فتزعم أن يوسف أوغر صدر أبيه على إخوته فأخبره عنهم بريبة شنيعة، ثم أنه أخبر إخوته أولاً بالرؤيا فحقدوا عليه، ثم أخبر أباه فوبخه قائلاً: ما هذا الحلم؟ أمك وأنا ننحني أمامك؟ بمعنى أن يعقوب ظنّ رؤيا يوسف من قبيل التمنّي والتبجّح، وبالمقابل تبين الآية القرآنية أن يعقوب، بثاقب نظرته النبوية، علم ما سيكون من مستقبل ابنه في النبوة فازداد حبه له وعطفه وحرصه الشديد عليه، وخشيته عليه من كيد إخوته وحسدهم له، وأيقن بما أعدّه الله تعالى لابنه، قال الشيخ رشيد رضا: ولكن علم يعقوب ويقينه بذلك كان إجمالياً لا تفصيلياً، وقد جاءت قصته من أولها إلى آخرها تفصيلاً لهذا الإجمال الذي هو من أبدع بلاغة القرآن الكريم.

وقد ذكر الألوسي في روح المعاني إنّ اخوة يوسف لم يكونوا أنبياء، ونقل عن ابن تيمية قوله: ليسوا بأنبياء وليس في القرآن ولا في الحديث ما يؤيد نبوتهم، وإنما احتج من قال بإنهم نُبئوا بقوله تعالى ﴿وَالأَسْبَاطَ﴾ [البقرة ٢/١٤٠] و[النساء ٤/١٦٣]، وفسروا ذلك بأولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته كما يقال: بنو إسرائيل، وكما يقال لسائر الناس بنو آدم، كما أن قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف ٧/١٥٩-١٦٠] صريح في أن الأسباط هم الأمم من قوم موسى من بني إسرائيل، فلا معنى لتسمية أبناء يعقوب الاثني عشر أسباطاً قبل أن تنتشر عنهم الذرية، فتخصيص الأسباط في الآية ببني يعقوب لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأً بيناً، والصواب أيضاً أنهم سُمّوا أسباطاً من عهد موسى عليه السلام وليس قبله، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام ٦/٨٤] فذكر يوسف ولم يذكر الأسباط، أضف لذلك أن القرآن لم يذكر عن أحد من الأنبياء قبل النبوة ولا بعدها أنه اقترف مثل هذه الأمور المنكرة من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم وإرقاق الأخ وبيعه والكذب البيّن، فلو لم يكن دليل على عدم نبوتهم سوى صدور هذه الأمور العظام عنهم لكفى، لأن الأنبياء -عند الأكثرين- معصومون عن صدور مثل هذه الذنوب قبل النبوة وبعدها، ومما يؤيد ذلك اعترافهم ليوسف بقولهم له: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١)، أي الله تعالى آثرك علينا بمنصب النبوة، ولأن جميع المناصب تكون كالعدم بالنسبة إليه وأن أحوال الدنيا لا يُعبأ بها في جنب منصب النبوة (الرازي).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦)

٦- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ استمرار الخطاب من يعقوب ليوسف، أي كما اختارك ربّك بمثل هذه الرؤيا العظيمة فهو يجتبيك أي يصطفيك ويختارك لأمور عظام ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ من معاني الرؤى وفهم مضامينها وما تؤول إليه، و﴿مِن﴾ للتبعيض، أما مطلق التأويل والعواقب فلا يعلمه إلا الله، لأنّ الأحاديث بالمعنى العام لا تقتصر على الرؤى، وقد يكون تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرئاسة ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ بإخراجهم من البدو، وتبوئهم المقام الكريم في مصر ثم بتسلسل النبوة فيهم إلى أجل معلوم ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهما جده وجد أبيه، إذ اختصهما تعالى بالنبوة وبالنجاة من المكاره ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بمن يصطفيه، حكيم باصطفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها لمن يشاء.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ (٧)

٧- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ أي في قصتهم علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء، وهي كثيرة لمن تتّبعها، للراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، دون عداهم،

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨)

٨- ﴿إِذْ قَالُوا﴾ وهم إخوة يوسف ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ أخوه بنيامين، كان مع يوسف من أم واحدة، خلافاً للباقين إذ كانوا أخوة يوسف وبنيامين لأبيهم فقط ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ كان يعقوب يحب يوسف خاصة لما رأى فيه من دلائل النبوة، وبالمقارنة مع باقي العشرة لما رأى فيهم من سوء الخلق والفساد والحسد ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ تبححوا فيما بينهم أنهم مجموعة كبيرة أكثر قوة و أكثر قياماً بمصالح الأب منهما، خاصة في مجتمع البدو حيث الأولاد الكبار هم الذين يدفعون المخاطر عن العائلة ويشتغلون بتحصيل الرزق والمنافع، ولذلك

نسبوا إلى أبيهم الضلال: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لما اعتقدوه من واقع أفضليتهم وأحقيتهم بحبه، ويحتمل أنهم ظنّوا الخرف بأبيهم لتقدمه في السن فنسبوا إليه الضلال بزعمهم.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩)

٩- ائتمروا فيما بينهم لما قوي حسدهم وبلغ منتهاه فوجدوا الحل في قتله: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فتخلصوا منه ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ الطرح رمي الشيء وإلقاؤه، ويقال طرحت الشيء أي أبعدته، والمعنى أبعدوا يوسف واتركوه في أرض نائية بحيث لا يعود منها، وعللوا ذلك بقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فلا يتوجه إلى أحد غيركم، أي إذا افتقد الأب يوسف بعد أن شغفه حباً لم يجد بدّاً من التفرغ لإخوته الباقين ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد ذهاب يوسف ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي تتوبون إلى الله من فعلتكم الشنيعة وتكفّروا عنها فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم، وهذا من وسواس الشيطان أنه يزيّن للناس سوء أعمالهم، والمغزى أن أمثال هؤلاء الناس يظنون أن بمقدورهم الجمع بين التقوى والصلاح من جهة وبين اقتراف الجريمة والسلوك الأناني من جهة ثانية، إذ يقومون بتعطيل متطلبات الأخلاق والشرع مؤقتاً ريثما يمررون مآربهم الشريرة، ثم يقنعون أنفسهم أن الإثم مؤقت اضطروا لارتكابه للوصول إلى هدف هام ثم يتوبون بزعمهم، وهذا الداء يسري في عروق الكثير من الناس.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠)

١٠- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أبهمه القرآن لعدم وجود فائدة أو عبرة من معرفته، وإنما الفائدة في وصفه أنهم لم يجمعوا على الجريمة، وأنه وُجد منهم مَن استهوَل القتل ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وتكرار القائل لاسم يوسف -دون ضميره- لاستجلاب شفقتهم عليه واستعظام قتله وهو هو، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾

الجبّ البئر غير المبنية من داخلها بالحجارة، وسمّي جبّاً لأنه جبّ من الأرض أي قطع، والغيابة كل ما غيّب شيئاً وستره فأصبح غائباً عن النظر، ولعلهم ألقوه في حفرة جانبية مظلمة من البئر يدخلها عادة من يدلي فيه لإخراج شيء وقع فيه أو لإصلاح خلل، أو أن الماء في عمق الجب لم يكن كافياً لإغراق يوسف في حين أن عمقه يبعده عن الأنظار فتكون غيابة الجب قعره لغيبوبته عن أعين الناظر، وإدخال أل التعريف على الجب دليل على أنه معروف لذا قال: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ السيارة الجماعة الذين يسيرون في طريق السفر وهم غالباً ما يردون ذلك البئر في أسفارهم، ولذا كان طرح يوسف فيها أقرب إلى السلامة، لأن السيارة عندما يردون البئر يشاهدون يوسف ويخرجونه ويأخذونه معهم ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ والأوْلى ألاّ تفعلوا شيئاً من القتل أو الطرح في أرض نائية، أما إن كان ولا بدّ، فاقتصروا على هذا القدر من الأذى.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (١١)

١١- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ بعد أن أضمروا المؤامرة على يوسف استدرجوا أباهم فخاطبوه متسائلين عن سبب عدم ائتمانه لهم عليه، بما يفيد أن يعقوب كان يخافهم عليه، وقد يكون أنهم سألوا أباهم قبل ذلك أن يخرج يوسف معهم فأبى ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ زعموا أنهم حريصون عليه ولا يضمرون له سوى الخير.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٢)

١٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أثناء الرعي ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي لقلة صبر أبيه على مفارقته لشدة محبته له ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ وهو سبب آخر لامتناعه وتردده في إرساله مع إخوته، لما يعلمه من حسدهم له وقلة اكتراثهم به

واحتمال غفلتهم عنه وإهمالهم له، ولعله قاله من باب الاحتياط أو الاعتذار بالظواهر وإن كان على يقين من حسن عاقبة يوسف في الباطن، على أن علمه هذا كان مجملاً مبهماً مقيداً بالأقدار المجهولة، وقيل لو لم يذكر خوفه هذا لأولاده لما خطر ببالهم ادعائهم اللاحق بقصة الذئب،

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جديرون بحمايته ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي خائبون ضعفاً وعجزاً، أو أننا مستحقون الهلاك لو أكله الذئب، أرادوا بذلك طمأنة أبيهم من ناحية هذا الاحتمال، أما حجة أبيهم لجهة حزنه أن يفارق يوسف فقد أعاروه آذاناً صمّاء لكراهتهم يوسف وحسدهم له.

وها هنا اختلاف بيّن في رواية القصة اليهودية في سفر التكوين عن القصة القرآنية، ففي سفر التكوين أن إخوة يوسف مضوا ليرعوا غنم أبيهم فقال يعقوب ليوسف: إمضِ فافتقد سلامة إخوتك وسلامة الغنم وإئتني بالخبر، فلما رأوه قادماً إليهم ائتمروا عليه ليقتلوه أو يلقوه في الجب، ومن الواضح أن يعقوب ما كان ليرسل يوسف إليهم من تلقاء نفسه وقد علم سلفاً بحقدهم وخطورتهم عليه وحسدهم له،

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥)

١٥- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ في الغد من ليلتهم التي أقنعوا فيها أباه على كره منه أن يأخذوا يوسف معهم يرتع ويلعب ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ فجعلوه فيه، بعد ما كان من اختلافهم في قتله أو تغريبه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ بما هوّن الله تعالى عليه من كربته ومصيبته وأزال الحزن، عنه فعلم أنها مصيبة في الظاهر ونعمة في الباطن ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون الآن بما أنت عليه من المنزلة والمكانة الرفيعة عند الله تعالى، كما لا

يشعرون بوحيه تعالى إليه وأُنسه بالوحي وعدم وحشته وهم يحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له، ولا يشعرون بما سيؤول إليه أمره من النبوة والرياسة، ولا يشعرون بعظم فعلتهم الشنيعة، ولا يشعرون بجهلهم وعاقبة عملهم، كما أنهم في المستقبل لا يشعرون بأنه يوسف عندما يأتونه طالبين الكيل والصدقة، الآيات (٨٩-٩٠).

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦)

١٦- ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أي في وقت العشاء، وإنما جاؤوا عشاءً إمّا لأنهم لم يصلوا من مكانهم إلاّ في ذلك الوقت، وإما ليكونوا أقدر على الاعتذار لمكان الظلمة التي يرتفع فيها الحياء، ولذا قيل لا تطلب الحاجة في الليل فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتلجلج ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين مظهرين البكاء بتكلّف لأنه لم يكن عن حزن، تمويهاً لشنيع فعلهم، وكثيراً ما يفعل بعض الكذّابين ذلك، فلما سألهم أبوهم عن بكائهم أجابوه:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧)

١٧- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ إذ لا يستطيع بحاراتنا في استباقنا المرهق ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي بمصدّق لنا في قولنا هذا لاتهامك إيانا بكراهة يوسف وحسدنا له ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ في واقع الأمر، أو لو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ما صدّقتنا في هذا الخبر لشدة حبك يوسف، ولظننت أنا قد كذبنا.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨)

١٨- ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب فيه، أو ذي كذب، ووصفه بالكذب مبالغة في ظهور كذبهم وادعائهم أنه دم يوسف على القميص،

فكأنه الكذب بعينه، وقوله ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ لكون الدم موضوعاً على ظاهر القميص وضعاً متكلّفاً، ولو كان الدم سببه افتراس الذئب لكان قميصاً ممزقاً متغلغلاً الدم فيه، فلما شاهد يعقوب القميص سليماً لم يصدّقهم، فقال لهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ سهّلت وزيّنت لكم أنفسكم أمراً سيئاً منكراً ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أولى من الجزع، لا شكوى فيه إلا لله تعالى ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أستعينه وحده دون غيره ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ من هذه المصيبة، وقد يستشف من كلام يعقوب علمه من الوحي أن يوسف حي معافى، لأنه سبق أن قال له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ (٦)، وذلك ظاهر أيضاً من قوله بعد ذلك: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (٨٣)، وفي مقابل الصبر الجميل زعمت رواية سفر التكوين اليهودية أن يعقوب مزّق ثيابه وناح على ابنه أياماً عديدة وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الجحيم.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩)

١٩- ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ على وزن جوّالة أو كشّافة، أي قوم يسيرون وهم قافلة سفر هبطوا على أرض فيها الجبّ الملقى فيه يوسف، كان في طريق سفرهم المعتاد ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الوارد الذي يرد الماء ليستقي القوم ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ في الجبّ، فتعلّق به يوسف فلمّا خرج ورآه ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ يبشّر به جماعته السيارة، فاستبشروا ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أخفوه من الناس متاعاً للتجارة لئلاّ يدعيه أحد من أهل ذلك المكان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بما يعمله هؤلاء السيارة، وما يعمله إخوة يوسف، فلكل منهم أرب في عمله: السيارة يدّعون بالباطل أن يوسف عبد لهم فيتّجرون به، وإخوة يوسف يتخلصون منه ويدعون أمام أبيهم أن الذئب أكله، وحكمته تعالى مسبب الأسباب فوق كل شيء، فقد كان حسد اخوة يوسف له واحتيالهم عليه والتخلص منه سبباً لأن يصل إلى مصر ويؤول أمره إلى تحقيق رؤياه.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ شرى الشيء يشريه باعه، والمعنى أنهم باعوا يوسف بثمن مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء يتهاون به لا يبالي بقيمته، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ﴾ وهو العزيز كما هو مذكور في الآية (٣٠)، ثم صار ذلك لقباً ليوسف بعد أن تولى الإدارة في مصر، الآيات (٥٥، ٧٨)، فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك، أو وزيره المفوض ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أكرميه وأحسني معاملته فيما يتعلق بإقامته فلا يكون كالعبيد أو الخدم، قال ذلك لحسن فراسته في يوسف مستبشراً به، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا﴾ بالقيام ببعض شؤوننا أو شؤون الدولة، لما لاح له فيه من أمارات الذكاء والنباهة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فيكون لنا قرة عين ويرث مجدنا ومالنا إذا صدقت فراستي في نجابته، وقد يفهم من ذلك أن العزيز كان عقيماً لم يكن له ولد، فأميل أن تكون حسن العشرة والإكرام ليوسف سبباً لاستكمال حسن استعداده الفطري ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب كذلك، وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير له أوصلناه إلى العزيز وعطفنا عليه قلبه وجعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ كما هو مبين في الآية (٦)، وهو الغرض من التمكين من علم وعمل ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي على كلّ أمر يريده ويقدّره فلا يُغلب على شيء منه بل يقع كما أراد، لا دافع لقضائه وحكمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه تعالى غالب على أمره بل يؤخذون بظواهر الأمور كما هو حال أخوة يوسف الذين ظنّوا أن بإبعادهم يوسف تكون لهم

الحظوة عند أبيهم ويكونوا من بعده قوماً صالحين، أما يعقوب عليه السلام فكان موقناً أنه تعالى غالب على أمره، وأقواله صريحة في الدلالة على ذلك، غير أن علمه بالطبع إجمالي غير محيط بدقائق الأمور وتفاصيل الأقدار.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي وصل منتهاه في شبابه وقوته واكتمل نموه العقلي والجسمي ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ بين الناس، وقيل أيضاً الحكم هو الحكمة، وهي ليوسف النبوة، وقيل: هي العلم الذي يصاحبه عمل ﴿وَعِلْمًا﴾ نافعاً مؤيداً بالعمل، لأن العلم من دون العمل بموجبه لا يعتدّ به، والعلم الفقه بحقائق الأمور ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وكذلك هي سنتنا في جزاء المحسنين في القول والعمل، لكل منهم بقدر إحسانه.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ المراودة منازعة الغير في الإرادة بحيث يريد المراود غير ما يريد المراوَد، وهي أيضاً المطالبة برفق، ومنه الرائد طالب الكلأ والماء، والمعنى أرادت مخادعته عن نفسه تريده عشيقاً ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ إمعاناً في المكاشفة ولبيان النوايا ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ انتقلت من التلميح إلى التصريح، والمعنى هلمّ لك، أي أقبل وبادر، وقيل المعنى: تهيأتُ لك،

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بـا لله معاذاً أن أفعل، وعلّل الاستعاذة بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي هو سيدي العزيز أحسنَ مثواي: إذ قال لك أكرمي مثواه، فلا يليق أن أقابل الإحسان بالخيانة، وربّي بمعنى رب الدار، وقد يكون المعنى: إنه ربّي وخالقي الله تعالى أحسن مقامي عندكم وسخركم لي فكيف أعصيه بارتكاب ما لا يجوز، وعلل امتناعه بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ

﴿الظَّالِمُونَ﴾ الظالمون في هذا الموضع الزناة لأنهم يظلمون أنفسهم وغيرهم، فلا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ الهمّ القصد، والمعنى همّت به لتقهره على ما أرادت معه من المخالطة، ويحتمل المعنى إنها همّت بضربه بعد أن راودته عن نفسه فاستعصم بدليل قولها بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (٣٢)، وقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١)، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ من جهته ليدفعها عن نفسه ويمنعها مما أرادت، وربّما همّ بضربها أيضاً، إذ يقال هممتُ بفلان أي بضربه ودفعه، بدليل قوله بعدها: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (٣٣)، فما همّت به من قهره على المخالطة غير ما همّ به من دفعها، ولو كان همّه كهمّها لما مدحه تعالى بأنه من عباده المخلَصين ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وهو استبصار واستحضار ما عنده من العلم الدال على تحريم مراودتها له، وهو أيضاً ما منعه من إيذائها فيما همّ به من دفعها وضربها، لأنه لو فعل لكان في ذلك ما يوجب هلاكه عند العزيز، وأيضاً لو انشغل بالضرب أو الإيذاء لربّما تعلقت بقميصه فيتمزق من الأمام ويصبح ذلك حجة عليه بدلاً من براءته ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى تثبيته بما رأى من برهان ربّه، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ من خيانة العزيز ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ من الزنى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته،

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ تسابقا إلى الباب -بحذف حرف الجر وهو كثير في التنزيل- هو يريد الخروج والهرب وهي تريد منعه من فتح الباب ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي قطعته على الطول وهي تجري وراءه متمسكة بقميصه ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ وهو العزيز زوجها، فالمرأة تخاطب زوجها بلقب:

سيدي ﴿لَدَى الْبَابِ﴾ خارج الباب ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المعنى ليس جزاؤه إلاّ السجن أو العذاب، وهذا الكلام تعريض لا تصريح بيوسف فهي لم تذكر اسمه صراحةً، ثم إنها قدمت ذكر السجن على العذاب، صوناً له عن السجن أو الألم، لشدة غرامها به، وقولها ﴿إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ﴾ بمعنى يوماً أو نحوه، وإلا لو قصدت حبساً دائماً لقالت يجب أن يُجعل من المسجونين، كما أنها لم تذكر ما نوع السوء الذي أشارت إليه صوناً للمحبوب عن العقاب الشديد.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ لم يبدأ يوسف بهتك سرها إلا بعد أن خاف على نفسه العقاب فأظهر الأمر الذي لم تصرح هي به ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ كان حاضراً مع العزيز ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ انقطع من أمام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في قولها ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما نسبه إليها من المراودة عن نفسه.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ من الخلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما نسبه إليها.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ العزيز ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ قُطع طولاً من الخلف ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لا قبل للرجال به، وعلامة قدّ القميص كانت مرجّحة، فمن جهة أنّ العزيز والشاهد رأيا يوسف يهرع خارجاً من الباب وقد أبدت المرأة زينتها، والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الباب على هذا النحو،

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الأمر فاكتمه حتى لا ينتشر الخبر وهو خطاب العزيز ليوسف، وأتبع ذلك أن طلب من زوجته الاستغفار لذنبها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ كانت كثيرة الخطأ فيما مضى من أعمالها، وهو أحد الأسباب الذي زاد من قناعته في براءة يوسف، ويبدو أنه كان رجلاً حليماً.

وها هنا فارق كبير بين القصة القرآنية وقصة سفر التكوين حيث يزعم الأخير أن العزيز صدّق امرأته وأودع يوسف السجن على الفور، كما أنه ليس في سفر التكوين التفاصيل المذكورة بالآيات (٣٠-٣٥)،

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ سَرَت القصة من قصر العزيز إلى المدينة حتى تداولتها ألسن النسوة، ونسوة: جمع تكسير للقلّة من النساء، وهنّ قلّة لأنهنّ من بيوتات كبار الدولة التي سرى إليها الخبر ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ عبّر عنه بالمضارع للدلالة على دوام المراودة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي شقّ حبُّه شغافَ قلبها، فملكَ عليها أمرها حتى أنها لا تبالي بما يكون من عاقبة عملها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لا يخفى على أحد، ولم يكن قول النسوة هذا إنكاراً لتهتكها وإنما هو مكرٌ بها كي يصل قولهنّ إليها فتبادر بدعوتهن لإبداء عذرها فيشاهدن يوسف بأنفسهنّ إرضاءً لفضولهنّ.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١)

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي باغتيابهنّ كما هو متوقّع، وكان من الطبيعي أن تسمع به لما هو معروف في أمثالهن من النميمة وتناقل الكلام فيما بينهنّ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنّ إلى وليمة في دارها ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ هيّأت لهنّ ما يتكئن عليه إذا جلسنَ على الأرائك، والمعنى مجلساً مريحاً ﴿وَآتَتْ

كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن به ما يأكلنَ من لحم وفاكهة، والظاهر أنها تعمدّت أن تكون السكاكين مشحوذة أكثر مما ينبغي ﴿وَقَالَتْ﴾ ليوسف، وهنّ مشغولات بالتقطيع بالسكاكين ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ إذ كان في غرفة داخلية محجوباً عنهنّ، ولو كان في مكان خارج لقالت: ادخل عليهنّ، وهكذا تعمدّت أن يفاجئهنّ وهنّ مشغولات بما يقطّعنه من اللحم أو الفاكهة، وما يكون لهذه المفاجأة من شدة الدهشة والذهول: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أعظمنه لشدة دهشتهنّ من جماله، أو لِما رأين على وجهه من نور الهيبة ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عمّا يعملن، والمعنى أنهنّ جرحنَ أيديهن بلا شعور منهنّ، ولِما مُلّكهنّ من الدهشة حتى أصبحت حركة الأيدي غير اختيارية فلم يشعرن بألم، وقد يكون كناية عن دهشتهنّ وذهولهنّ واستغراقهنّ في نوره ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز وتعجباً من قدرته جلّ وعلا على مثل ذلك الخلق البديع ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ ما هكذا يكون البشر، نفينَ عنه البشرية إعظاماً له ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ إذ لم يلتفت إليهنّ البتة، وقد رأين عليه مهابة النبوة وهيئة الملكية.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي ذلك هو واقع الحال الباهر الذي لم يكن في تصوّركن، ممّا أدّى بكنّ إلى ملامتي دون معرفة، ثمّ بعد أن أبدت عذرها في شدة عشقها ليوسف باحت ببقية سرّها بعد أن أقامت عليهنّ الحجّة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وهو إقرار منها ببراءته وعفّته، والاستعصام دلالة على شدة المبالغة في الامتناع والتحفظ، أي طلب العصمة وتمسك بها عاصياً أمري ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ به فيما سيأتي، إصراراً منها على رغبتها فيه ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أضافت على تهديدها بسجنه أن تجعله من الصاغرين، والصَغار ضد الكِبر، والمعنى أن تجعله في السجن من الأذلة المقهورين، وهو ما تأباه الأنفس الكبيرة، فاحتقار النفس أشقّ على

النفس العزيزة من العمل الشاق، وهذا التهديد ينم عن ثقتها بنفاذ رغباتها عند زوجها رغم علمه بأمرها واستعظامه كيدها.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿قَالَ﴾ مناجياً ربّه حين سمع مقالتها ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أسند الدعوة إلى النسوة جميعاً مما يدلّ أنهنّ انصرفن لمحاولة إقناعه بالامتثال لطاعة امرأة العزيز، وقد يكون إن كل واحدة منهنّ أرسلت إليه سرّاً تدعوه لنفسها، فلمّا رأى هذا الإجماع منهنّ والإصرار منها خاف على نفسه من تهديدها وشرّها فالتجأ إلى ربّه بالدعاء: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ من إجماعهنّ على الإيقاع بي، وفي تحبيب ذلك إليّ وتثبيتي عليه ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمِل إليهنّ، أو إلى رغبتهنّ بما يدعونني إليه من طاعة امرأة العزيز، والصبوة الميل إلى الهوى والشهوة ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بما يجب عليّ فعله.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم يصبّ إليهنّ، وثبّته على العصمة والعفّة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء عباده، المجيب لمن أخلص له الدعاء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال العباد وصدقهم وما يصلح لهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (٣٥)

٣٥- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ أي لمن بيدهم الأمر والنهي وهم العزيز وزوجته، بالإضافة لكبار القوم الذين خشوا على زوجاتهم من الوقوع في غرام يوسف، وبدا لهم أي ظهر لهم رأي ليسجننه ولو كان لا يستحق ذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ رأوا من الدلائل ما أقنعهم بإيداعه السجن رغم براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ والمعنى أنّ العزيز طاوعَ زوجته بما أرادت من سجن يوسف ليس لقناعته بأنّ يوسف ارتكب جرماً، وإنّما لكونه مطواعاً لزوجته، زمامُه في يدها، ولا

ريب أنّ العزيز من جانبه رأى في سجن يوسف فرصة للتخلص منه، فما دام أنه لا يستطيع السيطرة على نزوات زوجته فلا أقل من إبعاد محبوبها عنها ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ إلى أجل غير محدد، حتى تهدأ الفضيحة، أو حتى ينقطع رجاء المرأة فيه وعشقها له.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦)

٣٦- سجنوه بعد أن بدا لهم ذلك: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ صادف بتقديره تعالى أن دخل السجن معه فتيان من فِتيان الملك، الآية (٤٣)، أي من عمّاله، أحدهما كما سوف يأتي بيانه المسؤول عن شرابه، والآخر الخباز، وفي السجن رأى كلّ منهما رؤيا في المنام، ورؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته، فخاطبا يوسف قائلين: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي﴾ أي في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أعصر عنباً ليصبح خمراً، وهي تسمية الشيء بما يؤول إليه ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهي رؤيا الثاني، ثمّ قال كل واحد منهما ليوسف: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أخبرنا ما تؤول إليه هذه الرؤى، أي تفسيرها ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون تفسير الرؤى لِما خبروا ذلك منه بعد إقامتهم معاً في السجن لمدة من الزمن، وقد يكون المعنى إنّا نراك من المحسنين أي من كثيري الإحسان، وما قالا ذلك إلاّ نتيجة ما شاهدوه من كثرة أعماله الحميدة وحسن سيرته مع السجناء والسجّانين، فتعلّقت به آمالاهما واطمئنّا إليه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ تالياً ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتأويل ما رأيتم في المنام ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ الطعام، والمعنى سوف أنبئكم بتأويل ما طلبتم قبل أن تأتيكما وجبة طعامكم التالية، وفي حين أكد يوسف لهم الاستجابة

لطالبهم في القريب العاجل، حرصَ قبل ذلك على وعظهما وإرشادهما لما رأى فيهما من تقدير له، فاغتنم الفرصة وقال لهما: ﴿ذَلِكُمَا﴾ ذلك التأويل والكشف عن المغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالوحي والإلهام وليس من قبيل الكهانة والتنجيم ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وقد امتنعت عن ملّتهم، والإشارة لديانة الكنعانيين في فلسطين الذين أقام بينهم أولاً، أو ديانة الهكسوس الذين أقام بينهم بعد ذلك، وهم إما وثنيون أو مشركون ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ إما أنهم يكفرون بالآخرة، أو أنهم لا يؤمنون بها على الوجه الصحيح فيتخبطون في تفسيرها، ثم أتبع يوسف موعظته بأن شرح لهم أنه من سلالة الأنبياء وبيّنَ لهم رسالة التوحيد:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨)

٣٨- استمرار الخطاب أي امتنعت عن ملّة المشركين ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ مبيناً لهما أنه من سلالة الأنبياء ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ نحن معشر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ كائناً ما كان من البشر أو الملائكة أو الأصنام أو العجل أو الشمس ﴿ذَلِكَ﴾ التوحيد وعدم الشرك ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بأن هدانا إليه ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ بأن بعث فيهم الرسل، وكرّمهم برسالة التوحيد إذ حررهم من الخرافات، ولِما في الشرك من الحطّ من كرامة الإنسان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، بل يشركون بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وما يستتبع ذلك من هدر مكانتهم الإنسانية التي كرمهم تعالى بها، انظر [الإسراء ١٧/٧٠].

ومن جهة ثانية، يستفاد من الآية أن الهكسوس كانوا على علم ببعثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإلا ما كان هنالك معنى لإشارة يوسف إليهم في خطابه، كما يلاحظ التأكيد على أن محور بعثة هؤلاء الرسل هو التوحيد ونفي الشرك الأمر الذي لم يأتِ الكتاب اليهودي المقدس على ذكره في سياق القصة.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أي يا صاحبيّ في السجن، بحذف حرف الجر ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ في العدد والكثرة، تعبدونهم وتستعبدون أنفسكما لهم خلافاً لكل عقل ومنطق ﴿خَيْرٌ﴾ لكما؟ بما في ذلك من الاضطراب والانقسام فيكم ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي يستحيل أن يكون غيره بوجه من الوجوه، وقد خلقكم وكرّمكم ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على أمره، في مقابلة هؤلاء المتفرقين من أصنام وزعماء وقديسين وكواكب الذي سميتموهم أرباباً وهم مقهورون مغلوبون على أمرهم، ومع ذلك تذلّون أنفسكم وتضعونها لهم.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى ﴿إِلاَّ أَسْمَاءً﴾ هي مجرّد ألفاظ فارغة لا مسميات تحتها، ليس لها في الحقيقة من وجود ولا حول ولا قوة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ بمحض الجهل والتقليد ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ليس من حجة تدل على صحتها لا عقلاً ولا نقلاً ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ الحق في العقائد والعبادات والشرع ﴿إِلاَّ لِلَّهِ﴾ وحده، بوحيه لمن اصطفى من رسله، وليس لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وكلّ ما عداه خاضع لإرادته وسننه في أسباب المنافع والمضار ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلّت عليه البراهين، وجاءت به الرسل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حق العلم، أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فهم يعبدون بمجرد أسماء في حين أن المسمّى غير حاصل.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١)

٤١- بعد أن أكمل يوسف موعظته وإرشاده لهما، بدأ بتأويل رؤياهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ الذي رأى أنه يعصر خمراً ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾

ربّه بمعنى سيّده ومالك رقبته ﴿وَأَمَّا الآخَرُ﴾ الخباز الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ﴿فَيَصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهي الطيور الجارحة تأكل من لحم رأسه وهو مصلوب، وهذا التأويل قريب من رؤيا كل منهما، وهو من مكاشفات يوسف، ثم أضاف تأكيداً منه لهما وجواباً على ما قد يكون بدا منهما من الشك في فتواه هل هي ظنية أم قطعية: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي الأمر الذي أشكل عليكما وتستفتياني فيه قد قضي وبتّ فيه وانتهى حكمه، قال ذلك ليثقوا بأن تأويله من الوحي وليس من التنجيم، والاستفتاء في اللغة السؤال عن المجهول والمشكل، والفتوى جوابه سواء كان نبأً أم حكماً، ثم غلب استخدام الفتوى في المسائل الشرعية،

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ وهو الذي يعصر خمراً أي ساقي العزيز، والظانّ هو يوسف، وقد يكون الظن بمعنى اليقين ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي عند الملك، اذكر له خبري وأحوالي وما رأيت مني، فلعل الملك يعكس قرار العزيز بسجني ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أنسى الشيطانُ الساقيَ ذكر إخبار الملك بما طلب يوسف منه- بحذف المضاف- ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ منسياً مظلوماً بنتيجة نسيان الساقي لوصية يوسف،

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣)

٤٣- لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر رؤيا عجيبة هالته: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو أحد ملوك الهكسوس الستة الذين هيمنوا على شمال مصر خلال فترة (١٦٣٠ق م-١٥٢٠ ق م) راجع المقدمة ﴿إِنِّي أَرَى﴾ في المنام، وعبّر عنها بالمضارع أي كأني أراها الآن ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سمين وسمينة ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ سبع بقرات في غاية الضعف والهزال تأكل البقرات

السبع السمان ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبّها ﴿وَأُخَرَ﴾ وسبع أخر ﴿يَابِسَاتٍ﴾ اليابسات التوت على الخضر حتى غلبن عليها، والنتيجة أن الملك رأى في المنام: الناقص الضعيف يستولي على الكامل القوي، مما ينذر بشرّ مستطير تشوّق إلى معرفته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ والخطاب للأعيان والحكماء من حاشيته ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ أخبروني ما معناها وما يكون مآلها ﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تعبير الرؤيا الإخبار بعاقبتها وآخر أمرها،

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي هذه الرؤيا من جنس أضغاث الأحلام، أي أخلاط أحلام فيها من الخلط والخيال والاضطراب والباطل مما ليس له معنى، والأضغاث جمع ضِغْث، وهي الحزمة من النبات المختلط، فشبّه به الخلط والأباطيل ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ يعني أنهم لم يكونوا عالمين بتأويل أضغاث الأحلام كونها أخلاطاً باطلة لا معنى لها، وقد يعلمون تأويل الأحلام المعقولة الواضحة، ويحتمل أنهم نفوا علمهم بتأويل الأحلام إطلاقاً.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي﴾ (٤٥)

٤٥- بعد عجز الملأ عن تأويل رؤيا الملك قال لهم الساقي وهو يسمع الحوار إن في الحبس رجلاً فاضلاً صالحاً عالماً وطلب الإذن ليأتي منه بالتأويل: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ الساقي الذي نجا من الحبس ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، تذكر طلب يوسف إخبار الملك بحاله ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أخبركم بتأويل ما خفي عليكم بالتلقي ممّن عنده علم، لا من تلقاء نفسي، ولذا لم يقل أفتيكم ﴿فَأَرْسِلُونِي﴾ إلى مَن عنده علم التأويل، وهو بالطبع يوسف إلا أنه لم يصرح باسمه خشية أن يرسلوا غيره إليه، وحرصاً أن يكون هو المرسَل إلى يوسف، والخطاب بصيغة الجمع تبجيلاً للملك، أو قد يكون خطاباً للملك وملئه معاً.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦)

٤٦- بعد أن قال الساقي فأرسلوني: أرسلوه إليه فأتاه فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ البالغ في الصدق قولاً وعملاً ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أفتنا في رؤيا ذلك، وبيّن لنا مآله وحكمه: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ من أولي الأمر وأهل الحل والعقد فأُخبرهم، وعلّق أمر رجوعه لأنه لا يدري ما يكون ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويل الرؤيا.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧)

٤٧- أجاب يوسف بتأويل الرؤيا وجعل إجابته في صيغة الوصية أو الأمر الموجه لأهل الحل والعقد بما يجب عليهم عمله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ عليكم بالزراعة الدؤوب -أي المستمرة- سبع سنين بلا انقطاع حيث سيكون الماء وفيراً بفيضان النيل، فالتأويل جاءهم به خبراً بمعنى الأمر، لقّنه للساقي، وهذا من بلاغة أسلوب وإيجاز القرآن، فهو قد أفادهم بما يجب عليهم عمله لتلافي ما دلت عليه الرؤيا من الخطر الداهم قبل وقوع تأويلها أو مآلها، والدليل على كون خطابه بمعنى الأمر قوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ في كل عام من الأعوام السبع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ لئلا يفسد ويلحقه السوس، لأن بقاء الحبة في سنبلها يحفظها من الفساد ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ تستهلكونه للضرورة في كل سنة، مع الاقتصاد في الاستهلاك والاكتفاء بما يسد الرمق حرصاً على ادخار المحاصيل للمستقبل، فهذه السنين السبع هي تأويل البقرات السبع السمان، وكل سنبلة من السنبلات السبع الخضر تأويل لمحصول سنة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد السنين السبع ذات الخير الوفير ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سبع سنوات من القحط والجدب تشح خلالها مياه النيل فلا

يحصل الفيضان الذي تزرع به ضفافه ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ السنين العجاف تأكل مخزون سنوات الخير، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، والمعنى يأكل الناس خلال سنوات القحط ما تم ادخاره في سنوات الخير ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ما تدخرونه لأجل البذور، واشتقاقه من الحصن أو الحرز، فهذه السنين السبع من الجدب والقحط هي تأويل البقرات السبع العجاف، حيث يتم خلالها استهلاك محاصيل السنوات السبع الوفيرة، وكل سنبلة من السنبلات السبع اليابسة تستهلك واحدة من السنبلات السبع الخضر من ادخار سنوات الخير.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فيفيض النيل بهطول الأمطار في أعاليه، وتزرع السهول على ضفتيه وتكثر الخيرات ﴿وَفِيهِ﴾ أي في العام الثامن ﴿يَعْصِرُونَ﴾ ما شأنه أن يُعصر كالزيتون والعنب والقصب والسمسم والفواكه لكثرة المحصول، والإخبار بهذه الخاتمة بالتفصيل زيادة من عند يوسف لا علاقة لها بتأويل الرؤيا، وقد يكون علمها من الوحي.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠)

٥٠- الواضح أن الساقي أخبر الملك وملأه تأويل يوسف للرؤيا فاستحسنه الملك وطلب حضوره: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ لأسمع منه شخصياً فمثل هذا الرجل العالم جدير أن أعرفه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ وبلغه أمر الملك بالحضور ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى سيّدك الملك ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ قبل شخوصي إليه ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ما حقيقة أمرهنّ معي؟ قاله تلميحاً لا تصريحاً، أي ليستطلع الملك الموضوع ويعرف براءتي بنتيجة التحقيق سلفاً، حتى لا يكون خروجي من السجن مع ثبوت تهمة باطلة ضدي تشوه سمعتي وتبقى سيفاً مصلتاً فوق رقبتي، وأنا لا أقبل الخروج على سبيل العفو الملكي عن تهمة أنا بريء منها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الله تعالى ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فحسابهنّ على الله،

ويحتمل أن يكون قصدَ الملك بقوله ﴿ربي﴾ ويبدو أن قصة النسوة كانت فاضحة جداً حتى صارت الإيماءة لها كافية، ويُستبعد أن يكون قصد العزيز بقوله ﴿ربي﴾ لأن ذلك يكون استشهاداً به وتقريعاً له معاً، ويلاحظ أن يوسف لم يطعن في النسوة و لم يشهّر بهنّ واكتفى بوصفهن أنهن قطعن أيديهن و لم يصرح بمراودتهن له حفظاً لكرامتهنّ، كما تفادى ذكر امرأة العزيز بالذات تأدباً وتكرماً ومراعاةً لها ووفاءً لزوجها، وإنما كان كلامه في النسوة عاماً مبهماً فترك للملك أمر التحقيق بالتفاصيل.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١)

٥١- رجع الساقي إلى الملك وأخبره أن يوسف لا يستجيب لدعوته الخروج من السجن حتى يحقق مسألة النسوة، فأمر الملك بإحضار النسوة وقال لهنّ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الخطب الشأن العظيم ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فهل كان ذلك عن ميل منه إليكنّ ومغازلة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ من هذا القبيل أو غيره ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة مع باقي النسوة ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ثبت وظهر وتبين الحق، واشتقاقه من الحصة أي ظهرت حصة الحق من حصة الباطل ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وليس العكس ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ (٢٦).

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٢)

٥٢- استمرار كلام امرأة العزيز بقولها: ﴿ذَلِكَ﴾ الاعتراف مني بالواقع ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يوسف، إذ سوف يبلغه عني هذا الكلام ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فلم أقل فيه وهو لا يزال في السجن ما هو خلاف الواقع، كما أعترف، وهو غائب، ببراءته أمام الملك، مثلما لم أتهمه قبل أن يسجن، فقد صرحت لزميلاتي النسوة أني راودته عن نفسه واستعصم، و لم أتهمه عند العزيز بما ينافي الأخلاق والشرف ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا يهدي كيدهم إلى الفلاح

والتوفيق، بل تكون عاقبة كيدهم الفضيحة والخذلان، مثلما أننا كدنا له فلم يكن عاقبة كيدنا إلا الخذلان والفضيحة حتى شهدنا له في هذا المجلس، وأقررنا بالذنب على أنفسنا.

ويحتمل كلامها معنى آخر وهو: أن ذلك الذي اعترفت به ليعلم زوجي أني لم أخنه في خلوتي أو خلواتي مع يوسف وكل ما هنالك أني راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن برأت يوسف من الإثم فلا أبريء نفسي، -كما سيرد في تتمة الخطاب-.

وأما نسب خطاب هذه الآية ليوسف- كما يرى البعض- فلا يستقيم لأسباب: أولاً أن يوسف لم يكن حاضراً المجلس ليدلي بهذا الكلام، وثانياً أن العزيز كان مقتنعاً أصلاً أن يوسف لم يخنه بالغيب إذ شاهد قميصه قدّ من دبر فقال لامرأته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩)، وامرأة العزيز لم تتهم يوسف بل سبق أن اعترفت بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (٣٢)، وكررت اعترافها بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١)، وأما ما بدا لهم من سجنه فدفعاً للفضيحة وللحيلولة بين المرأة وبين يوسف لما كان يعتلج في صدرها من عشق شديد له، وثالثاً الكلام موصول بعضه ببعض من عبارة: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ فالقول أن بعضه كلام المرأة وتتمته كلام يوسف، وافتراض مجلسين منفصلين، كما افتراض تخلل الفواصل بين القولين لا مبرر له، ورابعاً تتمة القول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ في الآية التالية واضح أنه كلام اعتذار من المذنبة ولا يصح أن يصدر عن يوسف لأن البراهين قاطعة في براءته من الذنب.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ وهو اعتراف المرأة بذنبها صراحةً، ثم علّلت الذنب بقولها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ إشارة إلى أن النفس بطبعها كثيرة الميل إلى الشهوات، بل المعاصي، وهي أيضاً إشارة لضعف النفس البشرية

وصراعها مع نوازع الشر كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٤/٢٨]: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا النفوس التي رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استغفرت ربها واستوحمته مما ظهر منها.

وهنا نلاحظ أن رواية العهد القديم أغفلت جميع التفاصيل المذكورة في الآيات (٥٠-٥٣).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤)

٥٤- بعدما ظهر للملك من مزايا يوسف ما ظهر من سمو الخلق من أمانة واستقامة وطهارة قال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسي دون العزيز، أي ليكون ساعداً لي وحدي في الدولة والحكم، عقلاً مدبراً وإرادة تحسم أمور الدولة، وأمانة تحفظها ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أتوا به فكلمّه الملك وحاوره ورأى حسن جوابه ومنطقه ونقاشه ﴿قَالَ﴾ له الملك ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ لك المكانة التي تستطيع بها تنفيذ خطة الصلاح ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء، جدير بموقع المسؤولية، وذلك تكليف من الملك لم يطلبه يوسف لنفسه.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿قَالَ﴾ يوسف للملك مستجيباً لطلبه ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ أرض مصر، والمقصود اجعلني أميناً على خزائن أقوات مصر فأتصرف في الشأن المالي الاقتصادي وفي الموارد والمصادر وأحتاط خاصة قبل سني الجدب السبعة القادمة ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ عليها، بحكم أمانتي وإخلاصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بالتصرف بها وفق مصلحة الناس، بحكم كفاءتي ومعرفتي بالوسائل، مما يمكنني من تحقيق التوازن الاقتصادي للبلد في أوقات الجدب وأوقات الرخاء، فأكون في مستوى الثقة التي توسمتها فيّ، قال ذلك لكونه صاحب رسالة يريد من خلال

المنصب نشر دعوة التوحيد وتحقيق العدالة بين الناس ورعاية المستضعفين، لا لأجل مطامع شخصية مادية ولا مطامح ذاتية.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمكين البديع، ومن خلال العناية الإلهية ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ من سلطة مطلقة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ يتحرك فيها حيث يشاء مفوضاً بالحكم ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ومن رحمته تعالى نزول الوحي عليه ﴿ولا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنين قولاً وعملاً، يثيبهم تعالى إن في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا، لأن أجر الدنيا هيّن وقصير وزائل مهما كان عظيماً بالمقارنة مع النعيم الأبدي في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يتقون سوء العاقبة، فالإيمان مقرون بالعمل.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (٥٨)

٥٨- انقضت سنوات الخير السبعة وحلّت السنوات العجاف وعمّ الجدب مصر وما حولها من البلدان بما فيها فلسطين التي كان يقطنها يعقوب وعشيرته، ولكن الخطة التي اتبعها يوسف في مصر من الادخار من سنوات الخير لسنوات الجدب أدت لمخزون فائض من الحبوب وجعلت مصر بمنأى عن المجاعة التي عمت البلدان المجاورة، فصار الناس يقصدون مصر طلباً للقوت ومن ضمنهم إخوة يوسف جاؤوا يقايضون بضائعهم بالحبوب:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ لأنه كان هو المسؤول عن التصرف بفائض المخزون وتوزيعه والاتجار به مع الناس فلا يتم ذلك إلا بإذنه وتحت إشرافه ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لأن ملامحهم لم تزل في ذهنه منذ صغره وقد كانوا كباراً

عندما فارقهم وكان يترقب حضورهم تصديقاً للآية: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥)، ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم تركوه صغيراً وربما ظنوا أنه صار في عداد الأموات أو بيع في سوق النخاسة.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ بما يرغبون من الحبوب، وأزمعوا الرحيل والعودة إلى بلدهم وقد أدرك يوسف أنهم محتاجون للعودة إليه قريباً طلباً للمزيد من القوت لأن المجاعة سوف تستمر لفترة طويلة فقال لهم: ﴿قَالَ ائْتُونِي﴾ في المرة القادمة ﴿بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ فهو من أم غير أمهم، ويبدو أنهم حدثوه عنه وعن أبيهم الضرير، ولا بد أن يوسف كان في غاية الشوق لمعرفة أحوال أبيه وأخيه بنيامين من أبيه ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ للحاضرين دون احتكار، ويبدو أنه بسبب الأزمة الاقتصادية كان يوسف يكتفي بإعطاء حمل بعير واحد فقط لكل فرد ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ في استضافة الأغراب.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ في المرة القادمة ﴿وَلا تَقْرَبُونِ﴾ إن لم تفوا بهذا الشرط.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)

٦١- ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنخادعه عنه ونحتال ونجتهد حتى ننتزعه منه ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ قصارى ما في وسعنا.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ التي يقايضون بها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ حتى يكون ما أخذوه من الحبوب دون مقابل ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى

أَهْلِهِمْ﴾ لعلّهم يعرفون حق ردها، أو تكون مفاجأتهم بهذه المبادرة الكريمة حافزاً إضافياً لهم للعودة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتوقون للعودة إلى مصر مع أخيهم، ويحتمل أن يوسف خشي أن لا يتوافر لدى أبيه وإخوته من البضائع ما يقايضون عليه في المرة التالية لشدة القحط، كما أراد أن يكون ذلك الكرم وحسن الوفادة حافزاً لأبيه أن يبعث بنيامين إليه مع بقية إخوته.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ﴾ وحدثوه برحلتهم الناجحة وما أحضروه من المؤن وحديثهم مع العزيز ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ في المرات القادمة ما لم يذهب معنا أخونا، وهو شرط العزيز ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ المؤن له ولنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ قالوه لإزالة الشك والقلق من ذهن أبيهم.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ قد أكّدتم مثل ذلك من قبل في أخيه يوسف و لم تحفظوه، فما يؤمنني الآن منكم؟ ولكن ما الخيار لي أمام إلحاحكم في ظل ما نعيشه من مجاعة؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ منكم ﴿حافظاً﴾ أي حفظه تعالى لأخيكم خيرٌ من حفظكم له ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فليس لنا إلا رحمته التي وسعت كل شيء.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فكان ذلك حجة إضافية لهم أمام أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أيّ شيء نبغي فوق هذا الإكرام؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فما نبغي عند رجوعنا إليه بضاعة أخرى للمقايضة ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ بالمؤن ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ مما نخافه من السوء ﴿وَنَزْدَادُ

كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بوجوده معنا ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ على العزيز فهو يكيل لنا دون مقابل.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، فتقسموا: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا في حالة واحدة وهي أن يحاط بكم من كل جانب فتتعرضوا للهلاك دونه أو تُغلبوا وتُقهروا دونه، أي تستنفدوا كل وسائلكم لحمايته ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم من الله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شهيد عليكم موكل بالأمر، ثم زيادة في الحيطة أمرهم بما عليهم أن يتحذوه من الأسباب:

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ من جهة واحدة لما قد يسببه ذلك من إثارة الشكوك والريبة ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ من جهات متعددة فلا تلفتوا الأنظار لجمعكم، وإذا أصاب السوء بعضكم فلا يقع على الكل ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فتلك مجرد تدابير احترازية ولضرورة اتخاذ الأسباب الدنيوية بأقصى الجهد والمقدرة ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيما هو كائن وما سيكون من أموري وأموركم فهي واقعة لا محالة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري بعد أن اتخذت الأسباب بأقصى جهدي ومقدرتي، ولأن تدبير الأسباب غير مخل بالتوكل ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في إرجاع كل الأمور إليه تعالى.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي متفرقين ﴿مَا كَانَ يُغْنِي﴾ رأي يعقوب ﴿عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنّ الحذر لا ينجي من القدر، فكل ما يقع في الوجود بقضائه تعالى وسابق مشيئته وحكمته في علاقة الأسباب بالمسببات، وإذا أراد تعالى شيئاً هيّأ له أسبابه ﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي فيما كان يريده من الحيطة ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بكل ما ذكر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم مغترّون بالظواهر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩)

٦٩- وصل الإخوة إلى مصر ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ وسلّموا عليه وعرفوه على أخيهم ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين، فقربه إليه وتحدث معه بعاطفة حميمة وأسرّ إليه: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من المكائد فقد جاء الفرج، ثم إنه وضع خطة للاحتفاظ به عنده، ونلاحظ هنا أن يوسف كشف هويته لأخيه بنيامين فور لقائه وذلك خلافاً لرواية سفر التكوين التي تزعم أنه عرّف نفسه لجميع اخوته في آن واحد في نهاية القصة.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ من المؤن ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ أي وعاء الكيل، ويبدو أنه كان ذا قيمة ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ جعل السقاية ضمن متاع أخيه بنيامين، فلما أزمع الأخوة الرحيل: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى المنادي ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ أو أيتها القافلة ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ قال الرازي أن ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب لظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، وفي هذه قد يكون -كما يلزم أن نستنتج- أن يوسف وضع السقاية بشكل خفي في رحل بنيامين كهدية خاصة لأخيه المفضَّل دون أن يعرف خدمُه ذلك، وبالطبع لم يرد إعلام باقي إخوته العشرة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (٧١)

٧١- ﴿قَالُوا﴾ أي الأخوة ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أجابوا وهم مقبلون عائدون إلى عمال يوسف ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ حتى اتهمتمونا بالسرقة؟

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿قَالُوا﴾ أي خدم يوسف ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو صواع ذو قيمة لا يمكن التساهل به كما أنه مختص بالملك ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من المؤن، لأن الأمر في غاية الأهمية ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ الزعيم الكفيل، كما في الحديث: "الزعيم غارم"، والمعنى أنا أكفل مكافأة من يعيده بحمل بعير من المؤن، وفي ذلك تخفيف لوقع التهمة بالسرقة بما معناه أنه قد يكون هناك خطأ غير مقصود أدى إلى ضياع الصواع.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ علماً جازماً من سلوكنا معكم ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسرقة أو بغيرها ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قبل ذلك حتى نسرق الآن.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب يوسف ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي ما جزاء السارق عندكم وفي شريعتكم؟ فنحن لن نعاقب السارق بموجب شريعتنا بل نريد أن نلزمكم بما تفرضه شريعتكم تساهلاً وتكرماً من جانبنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿قَالُوا﴾ أي الأخوة ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ﴾ الصواع ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ ويكون سارقاً ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي يكون السارق نفسه هو جزاء جرم السرقة، بمعنى أنه يفقد حريته فيستعبد ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ في شريعتنا، وقد

يكون أن هذه العبارة الأخيرة من كلام أصحاب يوسف فهي من قبيل التأكيد والموافقة لكلام الأخوة.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿فَبَدَأَ﴾ المؤذّن البحث ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي قبل البحث في وعاء أخي يوسف، لأن بنيامين بدا صغير السن بريئاً بعيداً عن الشك خلافاً لمظهر باقي أخوته العشرة ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي دبّرنا له هذا التدبير للوصول إلى هذه النتيجة، والكيد التخطيط، وهو هنا التدبير الإلهي الخفي، ممّا يدلّ أن يوسف -على الرغم من محبته الشديدة لأخيه بنيامين- لم يكن يخطط لهذه النتيجة و لم يكن يتوقعها فقد كان يعلم أن على أخيه الصغير العودة مع باقي إخوته إلى أبيه المكلوم، ثم إنه لم يعلن حقيقة وضع الصواع في وعاء أخيه لأنه لم يرغب كشف هويته لإخوته العشرة حتى حين وإلى أن ينفضح غلهم وحسدهم له كما سيرد في الآية التالية ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ما كان بإمكان يوسف احتجاز أخيه على هذا النحو لأن شريعة الملك توجب الحبس والعقاب للسارق، ولكنه التدبير الإلهي أن ألزم الإخوة أنفسَهم سلفاً بما تفرضه شريعتهم ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيهيىء الأسباب لما يريد ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ رفعه بالعلم والتقوى حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يحيطون بعلمه إلا بما شاء.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿قَالُوا﴾ أي الإخوة ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يقصدون يوسف، وهكذا بهتوه واختلقوا الكذب عليه، فلا زالت قلوبهم

مليئة بالحسد والبغض له بعد كل هذه السنين، وهذا الاتهام من الأخوة ليوسف يفسر السبب الذي من أجله لم يكن يرغب يوسف كشف هويته لهم قبل الوقت المناسب ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ سكت عن مقالتهم وأسرّ في نفسه القول: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ لدوام حقدكم وحسدكم بعد مرّ السنين، وقد أسرّ هذا القول في نفسه حلماً وصفحاً عنهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ من الأكاذيب.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ طاعناً في السن لا يقوى على فراقه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ لأن أياً منّا ليس بمنزلة بنيامين عند أبيه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لجميع الناس على عادتك.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ ظاهر الكلام يفيد وجوب العمل بما تقتضيه الشريعة حسب مذهبهم، وباطن الكلام أنه تعالى ألهم يوسف الاحتفاظ بأخيه الصغير عنده لحكمة عليا خافية ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ أي إذا عملت بخلاف ذلك.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ﴾ يئسوا من اقناع يوسف بإطلاق بنيامين أو أخذ أحدهم مكانه ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ انفردوا للنجوى أي للتشاور فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حلفتم بالله عند أبيكم أن تحفظوا بنيامين ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ انتزعتم يوسف من أبيكم وتخلصتم منه، وهذه هي المرة الثانية، ولذلك: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أرض

مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالعودة إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أي لصالحي فأتمكن من استعادة أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ خيرٌ من حكم البشر إطلاقاً.

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١)

٨١- ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ له ﴿يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ بحسب قول العزيز وأصحابه ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي من ظاهر قولهم أن صواع الملك وُجد في رحل بنيامين ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ فكيف كان لنا أن نعلم سلفاً أنه سوف يسرق ويُحتجز؟ فالغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وزيادة في التأكد:

﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ اسأل أهل القرية، والقرية هي مصر، لأن القرية بمعنى القوم أو المجتمع، والمعنى: إن لم تثق بما نقول أرسل مَن تثق به إلى مصر فليسأل أهلها عما حدث ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أسأل أهل العير أيضاً، أي المسافرين معنا في القافلة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا لم نختلق شيئاً منه، كل ذلك كلام كبيرهم وهم يتشاورون، فرجعوا فقالوا لأبيهم ذلك فأجابهم:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زيّنت وسهّلت لكم أنفسكم أمراً عظيماً أدّى إلى فقدان بنيامين والنجاة بأنفسكم، يريد بذلك قولهم ليوسف: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ فالعزيز أخذ بنيامين بفتواهم له، ثم قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وبذلك أكدوا ثبوت التهمة على أخيهم و لم يستغربوها و لم يحاولوا إنكارها ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أولى من الجزع، أو بمعنى: فصبري صبر جميل، أي لا شكوى فيه إلا لله تعالى، وهو ذات قوله وقت فقد يوسف ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي يوسف

وبنيامين والأخ الأكبر الذي بقي بمصر، ونلاحظ أن يعقوب لا زال على يقين بأن يوسف حيّ يرزق فهو يتوقع تحقق رؤياه (الآيات ٤-٥-٦) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ يبتلي ويرفع البلاء بمقتضى الحكمة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم لبرهة من الزمن لا يريد أن يسمع المزيد من كلامهم، ومع أن الصدمة كانت بسبب فقد بنيامين فقد جددت أحزانه القديمة على يوسف إذ قال: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ رغم أنهم نقلوا إليه خبر بنيامين وليس يوسف ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ فلم يعد يبصر إذ انتابته رغبة قوية في العمى سيطرت على إرادته إذ لا يريد أن يرى الدنيا خالية من محبوبيه يوسف وبنيامين والنتيجة أن صدمة فقد الولد الثاني قد تكون أدّت به إلى عمى نفسي ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كاظم لأحاسيسه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ ما تفتؤ أي ما تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ فتصبح مريضاً لشدة حزنك، والحَرَض فساد الجسم ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ فتوافيك المنية من الغم، والمعنى أنك الآن في غمّ وهمّ وبلاء ونخشى أن يصيبك ما هو أعظم وهو الهلاك لشدة حزنك، أرادوا مواساته لعله يترك الحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي لا أشكو إليكم، وإنما شكواي لله وحده فدَعوني، والبث النشر ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى قوله بالآية ٦٧: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالله وحده يأتي بالفرج من حيث لا يحتسب، وذلك لعلمه أن يوسف لا زال حيّاً وهو ما كان موقناً به من البداية بدليل قوله لهم في الآية التالية:

﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ التحسّس استخدام الحواس في التعرف على الأمور والتنقيب عنها ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي من أخبارهما، ولم يذكر الثالث لأن خبره معروف وغيبته اختيارية ﴿وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي من تفريجه الكروب وتنفيسه الهموم ورحمته التي يحيا بها العباد ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وذلك لجهل الكفار بالله تعالى وصفاته، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف٧ /١٥٦]، ثم إن إخوة يوسف قبلوا وصية أبيهم وسارعوا للعودة إلى مصر بحجة المقايضة:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨)

٨٨- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ على يوسف وهم لا زالوا يجهلون هويته ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أصابنا الهزال بسبب الجفاف والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ اعتذروا أن بضاعتهم التي جاؤوا بها للمقايضة قليلة وقد تكون رديئة لا تليق بما يتوقعون مقابلها من الحبوب، وبضاعة مزجاة بمعنى لا يحرص المرء عليها لتفاهتها ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أتمم لنا ولا تنقصه بسبب قلة بضاعتنا أو رداءتها، والمقصود تساهل معنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بما يزيد عن قيمة بضاعتنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩)

٨٩- يحتمل أن يوسف بنظرته النبوية كان يعلم -علماً إجمالياً- موقف أبيه من إخوته ووصيته لهم أن يذهبوا فيتحسسوا من أخباره وأخبار أخيه، وخاصة بعدما علم من بنيامين أخبار أبيه وحزنه وتعاسته، فلذلك استغرب منهم تركيز كلامهم على البضاعة والكيل، ولا بد أيضاً أنه تأثر من وصفهم حالهم وحال

أهلهم -بمن فيهم أبوهم- بالضر وأشفق عليهم ورأى أن قد حان الوقت لإعلامهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي أما آن لكم أن تدركوا قبح ما فعلتم بهما ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي فعلتم ما فعلتم عندما كنتم في جهالة الأنانية والمصلحة العاجلة، فكأنه بذلك يجد عذراً لهم، وهكذا تأكد لهم بمقالته هذه أنه يوسف، وربّما عرفوه لوجود بنيامين معه في موقع التكريم والحفاوة وليس في مقام المستعبد، ولربما استشفوا فيه ملامح من صغره، فقالوا له:

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠)

٩٠- ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ اسألوه ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالسلامة والكرامة والعزة، وبالجمع بيننا بعد الفرقة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في التقوى والصبر.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١)

٩١- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ليس فقط بالملك والعلم والحلم والفضل، وإنما بمنصب النبوة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ متعمّدين للإثم فلم نتّقِ ولم نصبر، فلا غرابة أن آثرك الله علينا.

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي لا تقريع عليكم ولا تأنيب ولا عتب، تأدّباً منه وحفظاً لماء وجههم ﴿الْيَوْمَ﴾ ومن باب أولى في المستقبل ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهو دعاء لهم بالمغفرة منه تعالى ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ بمغفرته للتائبين.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أدرك يوسف عليه السلام -وهو الذي علّمه تعالى من تأويل الأحاديث- أن عمى أبيه

سببه الحزن الشديد على فقد ولديه وأنه بمجرد بشارته بوجودهما في أحسن حال يستعيد بصره بنتيجة رغبته العارمة لرؤية ولديه من جديد ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ جواباً على قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي فليأتوا جميعاً ويقيموا معي في رغد من العيش.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ﴾ غادرت القافلة مصر وفيها أولاد يعقوب ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حوله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي رائحته أو روحه كأنه أمامي، فقد كان يعقوب موقناً من الأصل بنجاة يوسف، وإن كان يقينه بذلك إجمالياً لا مفصّلاً، والآن أدرك تحقق الفرج ﴿لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِي﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف لصدّقتموني.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿قَالُوا﴾ وهم الحاضرون حوله ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لأنهم اعتقدوا أن يوسف مات منذ زمن طويل، ولذلك نسبوا قول يعقوب إلى الضلال ومجانبة الحقيقة، وهذا الكلام منهم دليل عدم اعتبار كثير من الأنبياء والرسل والعباقرة بين أقوامهم وأهليهم،

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو أحد إخوة يوسف ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ ألقى القميص على وجه أبيه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ لشدة المفاجأة السارة وكما توقع يوسف ﴿قَالَ﴾ يعقوب لمن حوله ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ إشارةً لقوله لهم في السابق: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وقوله: ﴿وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ إقرار منهم بذنبهم وخطئهم وطلب المغفرة، بعد أن استغفر لهم أخوهم يوسف من قبل.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨)

٩٨- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ لأن يوسف من جهته لا يحمل لهم أي ضغينة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ للتائبين من الذنب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالعباد.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (٩٩)

٩٩- في الخطاب إيجاز وتقديره أنهم استجابوا لدعوة أخيهم يوسف إذ قال لهم: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فسافر آل يعقوب بمحملهم إلى مصر ثم كانوا نواة لبني إسرائيل فيها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ كرّمهم وقرّبهم إليه ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ وأقيموا فيها ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ بمعنى على أنفسكم وأموالكم وأهلكم، وآمنين من القحط والفاقة والشدة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن تكريمهما ورفعة منزلتهما عنده ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ يعني الإخوة الأحد عشر والأبوين، كناية عن تواضعهم ليوسف، وقيل الضمير في (له) عائد إليه تعالى أي خرّوا سجّداً وشكراً لله تعالى ﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ إشارة لقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤)،

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي من البادية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفسد بيني وبينهم،

وقد نسب الإفساد إلى الشيطان وهذا في غاية اللياقة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ إذ حكمته خافية على معظم الخلق ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأحوال والاعتبارات ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله وقضائه، منزّه عن العبث والباطل.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)

١٠١- ثم دعا يوسف ربّه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ مِن: للتبعيض، لأن المُلك المطلق والسلطة المطلقة لله وحده ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ مِن التأويل، لأن مطلق التأويل والغيب لا يعلمه إلا الله عز وجلّ ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مبدعهما، والفَطر هو الشَقّ، فيقال فَطَرَه فانفَطَر أي انشقّ، وتَفَطّر أي تشَقّق، والفَطر أيضا الابتداء والابتداع، ونظرية العلماء اليوم أن الكون انفطر من كتلة صغيرة جداً كحجم الذرة، ذات كثافة لا متناهية، فكانت بداية الكون بما يسمونه الانفطار الكبير -الانفجار الكبير Big Bang- الذي لا يزال الكون بنتيجته يتسع حتى الآن، انظر [الأنعام ١/٦]، ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ متولّ أموري وتتولاّني بالنعمة في الدارين ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي بحيث أبقى طيلة حياتي على الإسلام مستسلماً لقضائه تعالى وقدره منشرح الصدر مطمئن البال ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من عبادك فأكون مثلهم في صلاحهم وما لهم.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكرنا لك من قصة يوسف ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ بخلاف عالم الشهادة الذي يشهده جميع الناس ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فلم يكن من سبيل لمعرفتك به إلا بطريق الوحي ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى أخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أن يجعلوه في غيابة الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بأخيهم مكر السيء، والمقصود أنّ هذا الإخبار عن الغيب من قبيل الإعجاز، فالنبي لم يقرأ

العهدين القديم والجديد اللذين لم يكونا متاحين بالعربية في عصره أصلاً كما لم يثبت أن كان هنالك مركز ثقافي مسيحي أو يهودي في جزيرة العرب ينشر ثقافة الديانتين، والقصة على أية حال جاءت مختلفة ومصححة لكثير من الغرائب المتناقضة الواردة في العهد القديم.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

١٠٣- ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لفساد استعدادهم لأن أكثرهم متمسك بالتقليد لا يكاد يقدر على التفكير المستقل، ولا يستطيع الانفلات من دائرة الجمود المتوارث عن الآباء والأجداد، وإن اقتنع بخلافها فهو يخاف على مكاسبه المادية بين قومه ومعارفه كما يخشى على مكانته الاجتماعية بينهم أن يقولوا خرج على معتقدات أهله وقومه، وهذا الأمر ليس مقتصراً على الناس وقت بعثة النبي ﷺ فهو عام في كل الأزمنة وقد تمر أجيال قبل أن تثمر جهود الداعية، وبعد الفتوحات الإسلامية بقي أكثر الناس في البلاد المفتوحة على دينهم إلى أن دخلوا الإسلام طواعية بالتدريج بعد أجيال عديدة، ويستثنى من هؤلاء الناس من لم تفسد فطرتهم باليهودية أو المسيحية ومثلها أي الباقون على فطرتهم الأصلية، كما هو شأن الوثنيين في أفريقية وجنوب أمريكا وشرق آسية حيث يجد المبشرون المسلمون والمسيحيون تربة خصبة وثمرات سريعة لنشاطهم.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على البلاغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ لأن الدعوة خالصة لوجهه تعالى ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وليس لأمة بعينها كما هي حال الكتب السابقة، وسمّي القرآن ذكراً لأنه يذكّر البشر بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم، انظر [الأعراف ١٧٢/٧] و [الرعد ١٩/١٣-٢٠].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

١٠٥- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من دلائل توحيد الخالق وقدرته وحكمته وبديع صنعه ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يجيئون ويذهبون ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليها ولا يكترثون لانهماكهم في دنياهم، فلا عجب أنهم لم يتأملوا في معجزات القرآن الكريم.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦)

١٠٦- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ كما هي حال المسيحية الذين يقولون بالتثليث، وكما هي حال الذين يأتمرون بأحبارهم وبرؤسائهم في الباطل، وكما هي حال المنافقين والمرائين، وحال المعتقدين بنفع أهل القبور والنذر لها.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتعمّهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ من حيث لم يتوقعوا فيفوت أوان توبتهم ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهم منغمسون في دنياهم لاهثون وراءها.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨)

١٠٨- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي طريقي وهو طريق التوحيد والقرآن والدعوة ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ إلى عبادة الله وحده ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي إن دعوتي لكم مبنية على البصيرة والحجة والبرهان، لأن القرآن يناشد العقل ويحث في الكثير من الآيات على التفكر في مضمونه، وأن ما أدعو إليه ليس فيه شيء من الغموض بل هو منسجم مع الفكر السليم ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أدعوكم إلى الإسلام، وهنالك معنى آخر ذكره الرازي فيمن يتصدّى للدعوة يشترط أن يكون على بصيرة ممّا يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض

الغرور ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيهاً له عمّا يشركون ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل أتبرأ من شرككم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ردّ على المتعجبين أن كيف يمكن نزول الوحي على بشر مثلهم؟ مع أن هذه السنة مطردة في الخلق أن جميع الرسل بشر ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ وأن الرسل يبعثون من مجتمعاتهم نفسها ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يتفكروا في السنن الكونية وتاريخ مَن قبلهم من الأمم ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من الدار الفانية ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أفلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستخدمون ما وهبكم الله من العقل للوصول إلى الطريق القويم؟

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠)

١١٠- ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم بعد أن طال عليهم العهد في دعوتهم، واضطهاد أقوامهم لهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ المعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر منه تعالى قد طالت حتى استشعر الرسل القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، وقد يكون الذين ظنّوا أنهم قد كُذبوا هم الأقوام يظنون لشدة تعنتهم وتمسكهم بالتقليد أن بلاغ الرسل لهم كذب ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فجأة ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ من المؤمنين ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فهو واقع بهم لا محالة، والآية تلخص سنته تعالى فيما سبق من بعث الرسل.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)

١١١- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي قصص الرسل، في إشارة للآية (٣)، ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ كما في قصة يوسف هذه من العبر، وما يؤول إليه الرسل عامة من النصر على مكذّبيهم، وهي نبوءة صدقتها الأحداث بحتمية نصر النبي ﷺ، والعبرة هي لأولي الألباب أي ذوي العقول، لأنهم هم الذين يعتبرون ويستخدمون عقولهم ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ إشارة لمصدره الإلهي ولاستحالة افترائه من قبل بشر، وفي ذلك إشارة للآيات (١-٢)، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأنّ القرآن يصدّق ما تبقى من الوحي الصحيح في الكتب السابقة، وهو معنى قوله: بين يديه، وفي قصة يوسف بالذات نلاحظ اختلاف القصة عن التشويه الذي لحق بها في العهد القديم ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاجه المرء للهداية ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم الذين يستفيدون من هدي القرآن.

* * *

سورة الرعد -١٣-

مختلف في كونها مكية أم مدنية

مُقَدِّمَة

هنالك خلاف ملحوظ بين العلماء حول كون هذه السورة مكية أم مدنية، ويميل البعض إلى اعتبار السورة مدنية مع كون بعض آياتها مكية، وبعضهم يقول إنها مكية ولكن بعض آياتها مدنية، أما الزمخشري فيكتفي بالقول إنه مختلف بها.

اسم السورة مشتق من ورود كلمة الرعد في الآية (١٣) وليس معنى ذلك أن الرعد موضوع السورة، إذ كما هي الحال في باقي سور القرآن الكريم فإن اسم السورة ليس سوى عنوان لها ولا يعني أنه موضوع السورة الرئيسي، ولذا قالوا عنها أيضاً: السورة التي يُذكر فيها الرعد.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة يوسف أن أكثر الناس يبقون على الكفر بالرغم من حرص المؤمنين على هدايتهم: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢/١٠٣)، وقد ختمت سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢/١١١)، ثم افتتحت سورة الرعد بقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٣/١)،

محور السورة

يبدو محور السورة واضحاً في الآية الأولى منها: ﴿الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)، فهي تركّز على حقيقة الوحدانية ومباديء الأخلاق الأساسية المتضمّنة في الوحي السماوي الذي نزل على البشر متتالياً عبر الرسل،

وتحشد السورة البراهين على الغيب، وتخاطب العقل الإنساني فتحضه على إدراك الحقيقة بشكل مستقل وتبين أن سبب كفر الكفار أنهم مكبّلون بأغلال التقليد: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ (٥)، ولأن: ﴿اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١١)، سوى أنه في نهاية المطاف لا بد من ظهور الحق وزوال الباطل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (١٧)،

وأن المشيئة الإلهية اقتضت أن يكون الناس أحراراً في خيارهم فلا يجبرهم تعالى على الهدى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٣١)، غير أنه لا يمكن لأحد أن يهمل أو يتجاهل الوحي دون أن يتحمل النتائج الطبيعية التي تترتب على مثل هذا الإهمال والإصرار على الكفر: ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١)،

فالمشركون في حالة من العجز الفكري إذ يؤمنون بالوهم: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ (٣٣)، لكن الذين أوتوا فهم الكتاب من ذوي الإدراك السليم والفكر المستقل يفرحون بما نزل من القرآن الكريم إذ يغربل الصحيح من الزائف في الكتب السابقة: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ (٣٦)، وأن كل رسالة

سماوية نزلت لتناسب عصرها إلى أن نسخت رسالة الإسلام ما قبلها: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

١- ﴿الر﴾ الله أعلم بمراده، راجع شرح آية [البقرة ١/٢]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ القرآن الكريم ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من الوحي هو ﴿الْحَقُّ﴾ المبين، ورغم ذلك: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ لتشنّجهم على التقليد وإعراضهم عن التفكير المستقل،

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢)

٢- ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ المشتملة على النظام الكوني الهائل بما فيه من المجرات والنجوم والكواكب التي لا تحصى ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لأن العَمَد التي ترفع النظام الكوني هي قوانين الفيزياء والجاذبية التي أوجدها الخالق عزّ وجل فهي لا تُرى بالعين، وإن كانت تُرى بالعلم فهي تعبير عن قدرته تعالى في النظام الكوني وتدبيره ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن مقدرته تعالى المطلقة في الخليقة وتدبيره وحفظه لها، وحرف ﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للتراخي الزمني، إنما للبعد المعنوي، وقد يفيد معنى العطف راجع إعراب القرآن للزجاج، فالزمن في هذا المقام لا معنى له، وليست هنالك حالة ولا هيئة لم تكن لله سبحانه وتعالى ثم كانت، فهو سبحانه منزّه عن الحدوث وعن الزمان والمكان، ونلاحظ أن الاستواء على العرش قد تكرر في القرآن سبع مرات في كل مرة يُذكر فيها خلق الكون، وهي [الأعراف ٥٤/٧]، [يونس ٣/١٠]، [الرعد ٢/١٣]، [طه ٥/٢٠]، [الفرقان ٥٩/٢٥]، [السجدة ٤/٣٢]، [الحديد ٤/٥٧]،

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لكي يكون هنالك حياة على الأرض بالحال الذي نعهده ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ في مسارات ثابتة وحدود مرسومة وفق النظام الكوني لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه ﴿لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فيكون الأجل النهائي الذي ينقطع بعده النظام، انظر [التكوير ٨١/١-٢]؛

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أمر الملكوت ضمن خطة حكيمة فلا يتركها عبثاً بعد الخلق ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ آيات الكتاب فتكون بينة واضحة، والآيات الكونية الدالة على الإعجاز ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلكم تتفكرون بهذه الآيات المفصّلة فتتوصلوا منها إلى العلم اليقيني بحتمية البعث والجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)

٣- استمرار الخطاب في الآيات الكونية: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ فجعلها صالحة للحياة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ حبالاً ﴿وَأَنْهَارًا﴾ تبعث الحياة ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وهي أعضاء التأنيث والتذكير في الزهور المتلاقحة، ففي غالب الأحوال تشتمل الزهرة التي تنبثق عنها الثمرة على عضوي التذكير والتأنيث معاً، وفي بعض الأحوال تكون أعضاء التذكير في زهور منفصلة عن زهور أعضاء التأنيث في النبتة نفسها، كما هنالك حالات تكون فيها الأشجار بالكامل مذكرة أو مونثة كما في النخيل العربي والبابايا الهندي ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ الإغشاء والتغشية إلباس الشيء بالشيء، والمعنى أن الليل يزحف على النهار فيغطيه تدريجياً في إحدى جهات الكرة الأرضية، في الوقت الذي يكون النهار زاحفاً على الليل فيغطيه تدريجياً في الجهات الأخرى، واللفظ يحتمل الحالتين معاً، وفيه دليل على كروية الأرض، انظر آية [الأعراف ٧/٥٤]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هم الذين يُعملون الفكر في المغزى من هذا الخلق البديع.

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤)

٤- ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ ولكنها مختلفة في طبيعة التربة وصلاحيتها للزرع ونوع الزرع الذي تُنبت ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ حدائق وبساتين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ من أشجار الكروم ﴿وَزَرْعٌ﴾ من كل نوع ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ ذات فروع مشتركة بجذر واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ منفردة بجذر واحد ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ لا اختلاف فيه سواء كان من المطر أو النهر أو الينابيع، ومع ذلك تختلف ثمارها: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ يختلف طعم بعض الأصناف عن طعم أصناف أخرى رغم وجود التشابه في ماء السقاية وتشابه التربة، وفي آيات [الأنعام ٦/٩٩،١٤١] مزيد من التفصيل وبيان مغزى الخلق والبعث ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ باهرة ومقنعة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستخدمون عقولهم على الوجه السليم.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥)

٥- ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ أيها النبي، أو أيها العاقل، أو أيها المؤمن، من معجزات الخلق هذه ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الأعجب من آيات الخلق كفر الكافر مع كل هذه المعجزات والآيات الباهرات التي يستطيع المرء أن يدركها بالملاحظة، والدالّة على وجود قدرة خالقة مهيمنة، والأكثر عجباً أولئك الذين قد يؤمنون بوجود الخالق غير أنهم يشكّون في البعث والجزاء -كما هي الحال عند بعض اليهود- فما دام أن الخالق أوجد الكون والحياة على النحو الذي نشاهد فما الذي يمنع من الخلق ثانية على نحو لا نستطيع الآن إدراكه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ دون حجة ولا برهان ﴿وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الآن في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة، فالأغلال الدنيوية كناية عن استسلامهم لأوهامهم واغترارهم بالحياة الدنيا وامتناعهم عن الإيمان وعبوديتهم

للمادة، فكأنهم مقيدون بقيود التقليد لا يرجى فكاكهم ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها نتيجةً طبيعية لما كانت عليه نفوسهم في الدنيا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦)

٦- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ يقولون ذلك إمعاناً في التحدي، ومن قبيل السخرية يطلبون نزول العقاب بهم -قبل أوانه- إنكاراً منهم لإمكانية حدوثه، وهذا التحدي منهم بلغ مبلغ الحماقة فقد أغلقوا عقولهم سلفاً وامتنعوا عن الحوار والفكر السليم، ولم يبقَ عندهم سوى العجز أمام الطرح الفكري للرسالة والإيمان فاختاروا لأنفسهم ما لا يتوافق مع مصلحتهم الحقيقية وإن كان قد يناسب مصالحهم الآنية ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ تحققت ﴿مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ العقوبات التي نزلت في الماضي بأمثالهم من الجاحدين فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ يغفر لهم رغم ظلمهم ويعطيهم فرص التوبة والإصلاح ولا يعاجلهم بالعقوبة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للمصرّين على الجحود والكفر الذين فسد استعدادهم فلا يرجى صلاحهم ولا توبتهم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)

٧- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو نوع آخر من أنواع التحدي والجهل والحمق يبديه المكابرون أو العاجزون عن استعمال عقولهم إذ يطلبون معجزة مادية تلمسها أيديهم، ولكن القرآن الكريم يبين في آيات عديدة أنّ أمثال هؤلاء المكابرين المصرين على الكفر لا يؤمنون حتى لو فتحت لهم أبواب السماء، انظر [الحجر ١٤/١٥-١٥]، وحتى لو عاد الموتى من الآخرة ليخبروهم بحقيقتها انظر [الأنعام ١١١/٦]، وحتى لو نزل الوحي عليهم في كتاب ملموس انظر [الأنعام ٧/٦]، وحتى لو جاءتهم كل آية من الآيات الباهرات، انظر [يونس ٩٦/١٠-٩٧] و [الأنعام ١٠٩/٦-١١٠]،

ولذا خاطب تعالى نبيه بقوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ فدور النبي - ومن ثمّ كل مسلم بعده- هو الدعوة والإنذار وليس القهر والإجبار، والهداية على الله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فالمنذر هو النبي ﷺ، والهادي هو الله تعالى وحده يهدي قلوبَ من يشاء من العباد، ويحتمل المعنى أيضاً أن النبي ﷺ منذر وهاد لكل قوم من الأقوام والأمم نظراً لعالمية الرسالة الإسلامية، وقد يكون الهداة أيضاً العلماء والدعاة من بعده.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨)

٨- المزيد من بيان الآيات بعد قولهم ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ ليس فقط ما تحمل من ذكر أو أنثى بل يعلم أيضاً مستقبل الحمل ومستقبل الولد وما سيكون من شأنه من الحياة إلى الممات، وما يكون من شأنه من إيمان أو كفر وجحود ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ فتجهض الحمل، لأن الغيض هو النقصان، أو ما تنقص عن تسعة شهور حتى سبعة الشهور ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ عن الشهور التسعة حتى قد تبلغ العشرة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بمقدار يتناسب مع الغرض الذي من أجله خُلق، ومع متطلبات الحياة ومع الدور المقدر له أن يلعبه في الخليقة، وهو شبيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٥٤/٤٩].

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩)

٩- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ يعلم ما يغيب عن حس البشر وإدراكهم ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ويعلم ما هو ضمن نطاق مشاهدتهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ بحسب قدرته وعلمه بلا حدود، وهذا يقتضي قدرته على البعث الذي أنكروه، وعلمه بالغيب الذي غاب عنهم ﴿الْمُتَعَالِ﴾ فوق أي مخلوق كائن أو ممكن، والمتنزه عن كل ما لا يجوز عليه، والمنزه عن كل ما لا ينبغي له، وهو أيضاً المتعالي عن أي تصور أو تخيل عن ماهيته.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠)

١٠- ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ علمُه تعالى فيهم واحد إذ يعلم سرهم وعلانيتهم ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ لرية ما فهو يخرج في الليل مستخفياً مختبئاً في ظلام الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ يخرج نهاراً فيظهر بلا ريبة لا يخشى شيئاً، كلاهما واحد، لأنه لا يستتر عنده تعالى شيء ولا يخفى عليه أحد.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١)

١١- ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ تحيط به من جميع جهاته بصورة مكشوفة وبصورة خفية ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي هو يظن -بزعمه- أن المعقبات يحفظونه من أمر الله ومن قَدَره، في حين أنه تعالى محيط بكل شيء، والخطاب استمرار من الآية السابقة فالضمير في ﴿له﴾ يعود لمن أسرّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، فليس فقط أن مثله لا يستتر ولا يخفى عن علمه تعالى، بل سواء أيضاً إن كان له معقّبات أي حرس يقومون بحراسته بصورة مكشوفة: ﴿من بين يديه﴾ أو بصورة خفية كالمخابرات: ﴿من خلفه﴾ ومثال ذلك ما يفعله بعض الزعماء وكبار القوم من قبيل الحرص على أنفسهم مع أن هؤلاء الحرس لا يستطيعون حفظهم من أمر الله ولا يستطيعون دفع القدر حال وقوعه، أي كل هذه الأساليب المصطنعة لا تفيد، وفي بيان السبب تعود السورة لموضوع الآيات (٥-٦-٧): ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ سلباً أو إيجاباً، قسراً أو اعتباطاً ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بملء إرادتهم وحريتهم، فالأقوام ليست مقهورة على أمرها لا تملك لنفسها التغيير والتبديل، بل هي تتحمل مسؤولية نفسها من واقع حرية أفرادها وسلوكهم وحضارتهم، لأن تغيير كل فرد لنفسه سلباً أو إيجاباً يكون سبباً لتغيير الأمة بأكملها سلباً أو إيجاباً أيضاً، وهذه سنة اجتماعية تخضع لها الأقوام فتمكنها من تغيير أحوالها نحو

الأفضل -إن لم تكن غافلة- وتغيير ما بالأنفس يشمل الأفكار والمفاهيم، والنتيجة أنه تعالى يغير ما بالقوم حتماً إن هم غيروا ما بنفوسهم، وقد منح تعالى الأفراد القدرة على تغيير ما بنفوسهم لكي تتغير أقوامهم فتنتقل من حالة إلى أخرى، وقد أشار القرآن الكريم لذلك في سورة الشمس بقوله تعالى :﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٩١/٧-١٠]،

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ بما كسبت أيديهم وما هي عليه نفوسهم ﴿فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ بخليهم تعالى لأنفسهم وعاقبة عملهم، فلا يملك أحد دفع السوء عنهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يلي أمرهم ويدفع السوء عنهم، لأن الأفراد في هذه الحالة يكونون قد فقدوا القدرة على تزكية نفوسهم بعد أن أفسدوها بما لا يرجى صلاحه وعجزوا عن العودة إلى جادة الصواب، وذلك معنى الطبع أو الختم على القلوب، فتهلك الأمة بالنتيجة، وصيرورة الأقوام على هذا النحو من السوء إنما هو بعملهم وسعيهم وليس أنه تعالى فرض ذلك عليهم ابتداءً.

ثم يعود خطاب السورة لبيان دلائل قدرته تعالى ووجود خطة إلهية كامنة في الخلق ومغزى منه:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢)

١٢- بيان المزيد من الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من صواعقه، كما سيرد في الآية التالية ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ المحمّل بالمطر.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (١٣)

١٣- ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ تعبيراً عن عظمته وتنزيهاً له عن كل نقص، ففي كل شيء في الخلق تجسيد لتسبيح الله لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ١٧/٤٤]، ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾

تسبّح ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ من عظمته وجلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ويصرفها عمّن يشاء، ومع كل ذلك: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ خبط عشواء، بين كافر ومشرك، من دون حجة ولا يقين ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ شديد القوة والقدرة لا يعجزه أحد منهم.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (١٤)

١٤- بعد بيان الآيات الباهرات تنتقل السورة إلى النتيجة الحتمية وهي أن دعوة الحق له وحده: ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لأن الله تعالى يُدعَى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤاله -إن كان فيه مصلحة له- فهو تعالى حقيق أن يُوجّه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع ولا يُجدي دعاؤه، ومن جهة ثانية فإن الحقّ هو الله تعالى فيحتمل المعنى أيضاً: له دعوة المدعو الحقّ الذي يسمع فيستجيب، لأن ما دونه من الآلهة باطل: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآلهة الذين يدعونهم الكفار ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ استجابة الآلهة لهم كاستجابة باسط كفيه إلى الماء يطلب منه أن يبلغ فاه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ فالماء جماد لا يشعر بالدعاء ولا ببسط الكف فلا يجيب الداعي ولا يبلغ فاه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ في ضياع لا منفعة فيه ولا جدوى منه، فالكفار إن دعوا الله تعالى لم يجبهم، وإن دعوا آلهتهم فلا تقدر على شيء.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (١٥)

١٥- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ لأن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع، فكل من في السماوات والأرض من كائنات حية وجماد ساجد له تعالى بهذا المعنى شاؤوا أم أبوا لا يقدرون على الامتناع، والكافر منقاد له تعالى لا يقدر على دفع الموت عن نفسه

ولا يقدر على دفع سننه تعالى فيه، حتى أن ظلالهم تنقاد له ﴿وَظِلالُهُمْ﴾ أيضاً محكومة بمشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال بحسب ارتفاع الشمس وميلها ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ قالوا إنه تعالى خص الغدو والآصال، أي الصباح والمساء، بالذكر لأن الظلال تمتد وتطول بين هذين الوقتين وبين وقت الظهيرة.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٦)

١٦- بعد أن حشدت السورة البراهين القاهرة على قدرته تعالى في الخلق وعلى دلائل التوحيد وأن كل من في السماوات والأرض منقاد له طوعاً أو كرهاً تنتقل هنا إلى الرد على المشركي:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي، أو أيها الداعية، للمشركين: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ليس سؤال استفهام بل سؤال إقرار ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فالموضوع ليس مجال إنكار منهم سوى أنهم مشركون يعتقدون أن للشركاء المزعومين حظوة عنده تعالى ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ مع كل هذه البراهين والآيات الكونية، تعبدونهم وتستنصرونهم وتدعونهم ﴿لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ فمن باب أولى أنهم لا يملكون لكم النفع أو الضرر ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ الكافر أو المشرك الذي تعمى عليه هذه الحجج ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ منفتح الذهن على الحقيقة ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ ظلمات الشرك والكفر ﴿وَالنُّورُ﴾ نور الإيمان والتوحيد ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ فالشركاء الموهومين في منتهى العجز حتى أنهم لا يقدرون على ما تقدر عليه المخلوقات، فضلاً عن مضاهاة قدرة الخالق ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فكيف تلتبس الأمور عليهم؟ فالله تعالى يخلق من العدم ولا يمكنهم ذلك ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا شريك له في الخلق ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ لا شريك له ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على أمره لا تتغير سننه في خلقه.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (١٧)

١٧- ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ كانت جافة، وهي بعض الأودية بحسب توزع المطر ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة، أو بمقدارها الذي أراده تعالى واقتضته حكمته ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ حَمَلَ ﴿زَبَدًا﴾ هو الغثاء الذي يطرحه الوادي عندما يضطرب موجه ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً منتفخاً فوق الماء ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ ابتداء جملة حديدة معطوفة على الجملة الأولى لضرب مثل آخر، وهو فلز المعادن تصهره النار ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ كحليّ الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني والمعدات والآلات من الحديد والنحاس وغيرهما ﴿زَبَدٌ﴾ وهو الخَبَث الذي يطفو على سطح الفلز المصهور ﴿مِّثْلُهُ﴾ مثل الزبد الطافي على سطح السيل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب البديع للأمثال ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ يضرب مَثَل الحقّ ﴿وَالْبَاطِلَ﴾ ويضرب مَثَل الباطل، فكأن المثل المضروب عين الحقّ والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الرابي على السيل أو الخَبَث الطافي على الفلز المصهور ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ مرميّاً به ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من ماء السيل الصافي، أو من جوهر المعدن الخالص ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ لأن الماء يسقي الخلق ويغذي الخزانات الجوفية والعيون، كما أن جوهر المعدن يستفاد منه في الأمور المعيشية وهو المراد من المكث في الأرض، وقالوا في تقديم الزبد على ما ينفع إن الزبد هو الظاهر المنظور وما ينفع باقٍ كامن مستمر في الوجود ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ وهو تمثيل الحق بالماء الذي يغذي عيون الأرض والآبار فينبت الزرع والثمار ويسقي الخلق، وكجوهر المعدن الخالص المستفاد منه والضروري لحياة البشر، وتمثيل الباطل بغثاء السيل الذي يضمحل ويزول بسرعة، وكخَبَث المعادن الزائل الذي يُرمى به فلا نفع منه ولا دوام له.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٨)

١٨- ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ استمرار الكلام من الآية السابقة، أي كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم الحُسنى، وهي الجنة ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ بل عاندوا الحق ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من أصناف المال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ مضاعفاً ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من هول العاقبة التي تنتظرهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ لأن كفرهم أحبط أعمالهم، فلا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم لقوله تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم ١٤/١٨]، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وهو ما مهدوا لأنفسهم من البوس.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٩)

١٩- هنا تعود السورة لموضوع الآية (١): ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من القرآن الذي مُثّل بالماء المنزّل من السماء وبجوهر المعدن الخالص في النفع والجدوى ﴿الْحَقُّ﴾ عَلِم أنه الحق فاستجاب له ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ البصيرة لم يدرك الحق، أو أدركه ولم يستجب له، فالعالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، لا يستويان ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول الصافية الخالصة من تقليد المألوف وقبول الأوهام، يأخذون العظة من آيات الله، ويتذكرون الميثاق الفطري المأخوذ عليهم [الأعراف ٧/١٧٢]، وهم الموصوفون في الآيات التالية (٢٠-٢٤) :

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وهو ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى [الأعراف ٧/١٧٢]، أو عهد الله تعالى عليهم في كتبه المنزّلة،

وكل ما أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة ﴿وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ويدخل في ذلك الوفاء بالعقود في المعاملات وأداء الأمانات، وباختصار الالتزام الأخلاقي والاجتماعي تجاه الآخرين.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ويدخل في ذلك جميع الروابط العائلية كصلة الرحم، وغير العائلية كصلة القرابة بسبب أخوة الإيمان، وحقوق الجوار ورعاية اليتيم والفقير، وفي الحالة العامة المسؤولية الأخلاقية للإنسان المنبثقة عن إيمانه بمغزى الخلق ومسؤوليته أن يعامل جميع مخلوقات الله بالشفقة والرأفة ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾ معصية ﴿رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على التكاليف وعلى كل ما تكرهه النفس من المصائب في المال والأبدان والأنفس، وتجاوزوا هوى النفس كالانتقام والحسد والغيبة وغيرها ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضا الله بلا رياء ولا سمعة ولا يطلبون من العباد جزاءً ولا شكوراً ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ على تمامها لشعورهم بالعبودية الكاملة له تعالى فيعيشون الحرية أمام العالم ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ كالزكاة والصدقة ﴿سِرًّا﴾ حيث يحسن السر ﴿وَعَلانِيَةً﴾ حيث تحسن العلانية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون الشر بالخير، ويجازون الإساءة بالإحسان ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ في الآخرة وهي جنات عدن كما سيرد في الآية التالية.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات النعيم الدائم ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الزوج في اللغة يشمل الذكر والأنثى، فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، كما أن الآباء تجمع الأبوين الأم والأب، والأجداد والجدات، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف١٢/٦]، والآية تبين أن الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الصلاح ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ فتنزل السكينة عليهم، وقالوا إن الأبواب كناية عن أبواب البر، فتقول الملائكة لهم:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة بالأمن والطمأنينة والصفاء ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بنتيجة صبركم في الدنيا على المكاره في السراء والضراء وحين البأس والعمل في سبيل الله ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ جنة الله أعدها لكم.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥)

٢٥- بعد أن ذكرت السورة صفات مَن يتذكّر مِن أولي الألباب ومآلهم في جنات عدن، (الآيات ٢٠-٢٤)، أتبعتها بالمقابل بذكر أحوال عُمي القلوب المذكورين بالآية (١٩)- ومآلهم في الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال الرازي إن عهد الله هو ما ألزم عباده بواسطة الأدلة العقلية والسمعية، فيكون المراد من نقض هذه العهد ألاّ ينظر المرء في الأدلة أصلاً، فحينئذٍ لا يمكنه العمل بموجبها، أو أن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه بها، أو أن ينظر في الشبهة فيعتقد خلاف الحق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يقطعون كل من له حق من ذوي الرحم وغيرهم، ويتراجعون عن التزامهم التعاقدي مع الناس بعد عهدهم الموثق معهم، فلا يحترمون كلمتهم وعهودهم مع الآخرين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم في النفوس والأموال وتخريب البلاد مستغلين إمكاناتهم ومواقعهم بإفساد الوضع

الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من رحمة الله بسبب أعمالهم ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ جهنم في الآخرة.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٢٦)

٢٦- بعد أن ذكرت الآية السابقة أن المفسدين في الأرض مآلهم اللعنة وسوء الدار، تبين هذه الآية أنه تعالى -مع ذلك- يبسط الرزق لمن يشاء في الحياة الدنيا مؤمناً كان أو كافراً فالدنيا دار امتحان: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من أولي الألباب، ومَن هو أعمى، يرزقهما على السواء بحسب سننه تعالى في ارتباط المسبَّبات بالأسباب ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق أو يعطي بقدر الكفاية ﴿وَفَرِحُوا﴾ المفسدون الغافلون عمي القلوب ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسطه تعالى لهم من الرزق فاستسلموا لها واستغرقوا فيها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة وبالمقارنة معها ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ متعة قليلة حقيرة، والمعنى أنهم فرحوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ناقضو العهد ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يريدون آية مادية حسية كمعجزات موسى وعيسى، لأنهم بعنادهم عطّلوا عقولهم عن التفكير بمعجزة القرآن، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩/٥١]، وتكرار السؤال عن طلب معجزة مادية -انظر الآية ٧- بعد الكلام عن الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، يفيد أنه استحال على ناقضي العهد إدراك المصدر الإلهي للقرآن الكريم كونهم أفسدوا فطرتهم الطبيعية بعد أن فرحوا بالحياة الدنيا واستغرقوا في تفاصيلها واستسلموا لها ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ يضل من يشاء الضلال فلا يجبره على الهدى لعلمه أنه لا ينفع فيه اللطف

والإرشاد فيتركه لخياره الحر الناتج عن سوء استعداده ومكابرته وعناده ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ إلى الله تعالى ورجع إليه، وهو وأمثاله من المذكورة صفاتهم في الآية التالية:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انتهى أمرهم إلى الإيمان، ثم تبين الآية التالية أن الإيمان يجب أن يقترن بالعمل الصالح ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ تستقر وتسكن قلوبهم بتلاوة الذكر الحكيم وهو القرآن، وتدبر آياته، واستخدام الفعل المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب دوام الذكر ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لأن القرآن المجيد معجزة باقية إلى يوم القيامة تطمئن القلوب بتلاوته وتدبُّر آياته، قال الألوسي: وفي ذلك إشعار أن الكفرة لا قلوب لهم وأفئدتهم هواء إذ لم يطمئنوا بالقرآن ولم يدركوا آياته، مع أنه أظهر الآيات على الإطلاق وأبهرها.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تأكيد على وجوب اقتران الإيمان بالأعمال الصالحة ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ فرح وقرة عين وغبطة والعيش الطيب لهم والسلام الروحاني ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ حسن المرجع والمستقر.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن، المصحوب بالمعجزة القرآنية الباهرة التي يهتدي بها المنيبون ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ مضت قبلها أمم كثيرة قد أُرسل لهم رسل ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الوحي الأخير ليفقهوه وليهتدوا بهديه ﴿وَهُمْ﴾ أي المصرّون على الكفر ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ بإنكار الإله أو بإنكار الهدي الإلهي أو بالشرك ﴿قُلْ هُوَ﴾ الرحمن ﴿رَبِّي﴾ خالقي ومتولّي أموري ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾

أي لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ إليه مرجعي وتوبتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١)

٣١- استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي كذلك أرسلناك بالوحي النهائي المعجز ومع ذلك فالمكابرون يصرّون على الكفر مهما بلغت المعجزة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ حتى لو سارت الجبال بالقرآن أو شُقّت به أنهار وعيون أو تصدّعت الأرض بالشقوق أو قام الموتى من قبورهم يتكلمون به يبقى المكابرون على عنادهم لأنهم مصمّمون سلفاً على إغلاق عقولهم عن أي منطق وفكر سليم، انظر آية (البقرة ٢/٧)، ﴿بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بأن جعل التكليف مبنياً على الاختيار بلا إلجاء ولا قهر ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ بأن ألجأهم إلى الإيمان إلجاءً وقسراً ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المصرّون على الكفر ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ تصيبهم الكوارث والنزاعات والحروب لسوء أعمالهم ولانهماكهم في المادة وخلو تعاملاتهم من البعد الروحي ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ فينتشر الفساد فيهم شيئاً فشيئاً ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بالنصر أو بحلول أجلهم أو بيوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ بما وعد به من البعث ونفاذ سننه في خلقه.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد، كما هي عادة أكثر البشر في السخرية والتهكم من الرسل لاعتقادهم باكتفائهم الذاتي بما لديهم من العلم

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمهلتهم و لم أعاجلهم بالعقوبة وأعطيتهم الفرص في المال والعمر، وأتحت لهم فرص التفكّر والنظر والتوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بسوء أعمالهم وبإصرارهم على الجحود والتحير والنكران ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إذ لم ينتفعوا بما كانوا عليه من نعمة العقل ونعمة الوحي الذي نزل على أنبيائهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿أَفَمَنْ هُوَ﴾ الله تعالى ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب مهيمن عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من الخير والشر فيجزيها وفق عملها حتى تتحقق العدالة على تمامها، ومع ذلك جعلوا له شركاء في منتهى العجز لا يقدرون على شيء: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ لا تضر ولا تنفع ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ إن شئتم، واطلقوا عليهم ما تشاؤون من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، فالشركاء من التفاهة والعجز المطلق مهما كانت أسماؤهم ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ أي بشركاء مستحقين للعبادة؟ وقد أحاط تعالى بكل شيء علماً، فيستحيل أن تعلموا بشيء وهو لايعلمه ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ مما لا حقيقة له كالشركاء ومن غير معنى متحقق في أسمائهم ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ فبدا لهم باطلهم حسناً ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فلا يجبره تعالى على الهدى بل يتركه ويخلّيه لنفسه وعناده.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

٣٤- ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالآفات التي تصيبهم نفسياً أو جسدياً ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يدفع عنهم العذاب.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥)

٣٥- بعد أن بيّن تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المثل لأن حقيقة الجنة في علم الغيب ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ قال الزمخشري: ذلك تمثيلٌ لما غاب عنّا بما نشاهد، أي بما نعرفه من المحسوس ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ فيما أعدّه تعالى لهم من النعيم ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ كنتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يحتمل أن يكون المراد بالكتاب القرآن الكريم، أو التوراة والإنجيل، والمقصود الذين أوتوا فهم الكتاب ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن لما عرفوا فيه من الحق والاستنارة ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾ من أتباع الديانات الأخرى ﴿مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ ينكرون بعض القرآن ما لايوافق كتبهم ولا يستطيعون إنكار بعضه الآخر لأنه مصدّقٌ لما بين يديهم من الكتاب ومهيمنٌ عليه، فهو يخزبل الصحيح في كتابهم من الزائف بما لا يستطيع إنكاره إلا المكابر ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ شيئاً، وقد تكون هذه إشارة إلى التثليث عند المسيحية ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ إلى عبادته ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ إشارة إلى الحشر والنشور والحساب.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم، أنزلنا عليك القرآن ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ لكي يفهمه العرب أولاً ومن خلالهم العالم أجمع لأنهم واسطة الوحي، ولأن الله لم يبعث نبياً إلا بلسان قومه ليبيّن لهم إبراهيم

٤/١٤]، وأما عالمية الرسالة الإسلامية فواضحة في كثير من الآيات، وأما كون القرآن حكماً فلكونه إرادة إلهية تحكم الحياة بالشريعة الشاملة، ولأنه مشتمل على الحكمة، ولكونه حاكماً على الأمور بما يمكّن من تمييز الغث من السمين ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ أيها المسلم، لأن الخطاب موجه إلى الأمة من خلال النبي ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ بقبول الحلول الوسط في العقيدة من الذين ينكرون بعض القرآن المشار إليهم بالآية السابقة ﴿بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ القرآني اليقيني الذي جاء حكماً عربياً ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولّى أمورك وينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك عاقبة السوء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً﴾ كثيرة ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ فليس من مبرر لإنكارهم بعث خاتم الأنبياء والرسل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فكانوا من جنس البشر و لم يكونوا ملائكة، والمغزى أن على الناس تقويم الرسالة الإلهية من حيث جدارتها وليس من حيث نزول الخوارق والمعجزات الحسية ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ برسالة سماوية ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حصراً، ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود بالآية المعجزة الحسية الخارقة التي يطلبها السذّج والمعاندون ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ وقت العمل بالتوراة والإنجيل مضى وانقضى وحان وقت العمل بالقرآن، بدليل الآية التالية.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الرسالات السابقة التي نزلت لتناسب وقتها وظروفها ﴿وَيُثْبِتُ﴾ رسالة الإسلام التي جاءت خاتمة لما سبقها، أنظر الآية [البقرة ١٠٦/٢] مع شرحها ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أم الكتاب منبع الوحي، وهو أيضاً علم الله تعالى القديم المحيط الأزلي الذي لا يكون شيء إلا وفق ما فيه.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من عذاب الحياة الدنيا المشار إليه بالآية (٣٤)، أو القارعة التي تصيبهم المشار إليها بالآية (٣١)، والكلام عن المصرين على الكفر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ فقط ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ لا عليك حسابهم ولا جزاؤهم، فالحساب على الله وحده.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١)

٤١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء الكفار والغافلون ﴿أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فلا تدوم على حال إذ تتحول من العمران والازدهار إلى الخراب والدمار، فلا يتم شيء إلا ويتحول إلى نقص، ولا شيء يبقى على حاله، ولا يدوم عزّ إلا ويصير إلى انحطاط، مما هو مشاهد ومحسوس في كثير من المجتمعات والدول، فكيف يأمن الضالون على أنفسهم من مثل ذلك؟ والأمر ليس مقتصراً على الخراب المادي والكوارث الاجتماعية بل يتعداه إلى اضمحلال القيم الأخلاقية وما يتلوها من انكماش وزوال الدول، لأن الأرض بمعنى الدولة، كما في قوله تعالى على لسان يوسف مخاطباً عزيز مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ [يوسف ٥٥/١٢] وقصد بها دولة مصر، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ليس من يعقب حكمه بالرد أو الإبطال، فلا رادّ لحكمه وسننه الكونية، وكل شيء خاضع للتغيير ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأن عواقب الأعمال من خير أو شر سرعان ما تتحلى.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لإبطال سنة الله في نصرة دينه وأنبيائه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لأن تدبيرهم لا شيء أمام تدبيره الخفي الذي يسير الكون بموجبه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيحيط بها من حيث لا تعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ لمن تكون العاقبة الحميدة إن كانت لهم أم لغيرهم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المصرون على الكفر ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ إنكاراً منهم لنبوته ﷺ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر للناس من الأدلة والحجج، وهي الشهادة الأولى ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهي الشهادة الثانية، والكتاب هو القرآن، لأن الذي يفقه القرآن حق الفقه لا بد له أن يقر بنبوته ﷺ، ويجوز أن يكون المقصود بالكتاب أيضاً التوراة والإنجيل لأن من يفقه ما تبقى فيهما من الحقيقة لا بد له أن يقر برسالة القرآن، وفي ذلك إشارة إلى قوله في الاية ٣٦: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

* * *

سورة إبراهيم -١٤-

مكية

مُقَدِّمَة

من أواخر السور المكية، واسمها مشتق من دعاء إبراهيم المذكور في الآيات ٣٥-٤١، وليس معنى ذلك أن السورة تختص بقصة إبراهيم عليه السلام، لأن العنوان هو مجرد اسم لتعريف السورة، أي السورة التي يُذكر فيها إبراهيم.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بينت سورة الرعد المتقدمة جوانباً من أوصاف القرآن: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ (٣٦/١٣)، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩/١٣)، وقوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣/١٣)، تبدأ سورة إبراهيم بالإشارة للكتاب بقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١/١٤)،

محور السورة

تضرب السورة مثلاً بكفر اليهود برسالة موسى، وكفر أقوام نوح وعاد وثمود وغيرهم، ثم تخلص إلى النتيجة أن أعمال الكفار تحبط وتذهب هباء يوم الحساب: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)، وأن الشيطان لم يكن له من سلطان على الناس سوى الغواية، فالذين استحقوا

العذاب إنما استحقوه بمحض حريتهم واختيارهم وعد الشيطان: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (٢٢)،

ولذا تقارن السورة مَثَل الكلمة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقيل هي القرآن، وقيل دعوة الإسلام، وقيل التسبيح والتنزيه، وقيل الثناء على الله تعالى، وقيل كل كلمة حسنة أي هي الكلمة الطيبة بأوسع معانيها فهي في جهة العلوّ،

مع مَثَل الكلمة الخبيثة: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦) التي هي كلمة الكفر، والدعاء إليه، والدعاء لغير الإسلام، أو الكذب، أي هي الكلمة الخبيثة بأوسع معانيها بما يتمثل فيها من معاني الكفر والضلال والإضلال والزيف والنفاق والأخلاق والصفات الذميمة الخبيثة، وتأثيرها موقت لأن الباطل إلى زوال، كما أن الكافر والخبيث لا يصعد له عمل ولا يُتقبّل منه شيء، (الآية ١٨)، وأمثالهم قد بدّلوا نعمة الله كفراً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨)، غير أن الله تعالى يمهلهم ولا يهملهم: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ (٤٢).

وفي الآيات (٣٥-٤١) تضرب السورة مثالاً جانباً من قصة إبراهيم ودعائه.

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿الر﴾ الله أعلم بمراده، وردت ﴿الر﴾ في ست سور متتالية هي (يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر) غير أنها وردت في سورة الرعد ﴿المر﴾ بزيادة حرف الميم، راجع شرح آية [البقرة ١/٢]، وشرح آية [يونس ١/١٠]،

﴿كِتَابٌ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أيها النبي ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ قاطبةً ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الجهل والشك والتخبط إلى نور الحقيقة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتوفيقه لمنفتحي الذهن، أما المصرّين على الكفر فسوف يلي الخطاب عنهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو النور المشار إليه، أي إلى طريق الله المستقيم، وهو دينه الذي ارتضاه لخلقه وشَرَعَه لهم، والمعنى أنه بعد أن يكون القرآن سبباً لخروج الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور الحقيقة عليه أن يتوجه بالعمل نحو صراط العزيز الحميد.

﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢)

٢- ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي هو وحده يملك جميع ما في السماوات وما في الأرض، فلا بد أيضاً أن يملك التصرف بشؤون عباده بإنزال الكتاب وإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرّين على الكفر ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقة أي إن العذاب ليس سوى نتيجة طبيعية للغفلة، وفي الآية التالية تعريف لهم ولخصالهم:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (٣)

٣- ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ معنى يستحبون أنهم في غاية المحبة لها دون غيرها، لأنهم غافلون عن الآخرة، وعن الحقيقة الغيبية ﴿عَلَى الآخِرَةِ﴾ تقدير الخطاب: ويؤثرونها على الآخرة، وذلك مكمن الضلال لأنهم جمعوا بين محبة الدنيا وإيثارها على الآخرة بخلاف من يحب الدنيا ولا يؤثرها على الآخرة ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي صفة ثانية من صفات الكفار أنهم يمنعون الآخرين من الوصول إلى دين الله فهم ضالين أولا ومضلون ثانياً ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يسعون إلى إلقاء الشكوك والشبهات حول الرسالة السماوية إمعاناً في الإضلال، فهم يبغون لها عوجاً أي اعوجاجاً وذلك غاية الإضلال، ولذا وصفتهم الآية أنهم في ضلال بعيد: ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ في أقصى مراتب الضلال مما لا يُرجى العودة منه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤)

٤- استمرار الخطاب من الآية (١): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ ليفقهوا ما يدعوهم إليه بسهولة من غير حاجة إلى ترجمة، ولم يخرج القرآن الكريم عن هذه القاعدة، انظر [فُصّلت ٤١/٤٤]، لأن المشككين قالوا ويقولون كيف تكون رسالة الإسلام عالمية مع أنها باللغة العربية، انظر [الشعراء ٢٦/١٩٨-١٩٩]، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يدعوهم إليه من الهداية السماوية ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لأنه تعالى لا يُضِل إلا مَن يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلاّ مَن يعلم أنه يؤمن، والمُراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية التوفيق واللطف، فالأمر متعلق بحرية اختيار المرء وميوله واستعداده وليس نتيجة جبر مفروض عليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شؤون عباده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥)

٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التي نزلت عليه في التوراة ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ استكمال الخطاب من الآية ﴿١﴾، أي كما أنزلنا عليك الكتاب يا محمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى قبلك بآياتنا ليخرج قومه من ظلمات الجهالة والوثنية إلى نور الإيمان والتوحيد ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي بيوم الحساب، واستعمال الجمع بدل المفرد بقوله ﴿أيام﴾ لأن مفهوم الزمن في الآخرة لا معنى له ولا علاقة له بمفهومنا الدنيوي له ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التذكير ﴿لآيَاتٍ﴾ إشارات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ يصبر على الابتلاء ﴿شَكُورٍ﴾ ويشكر النعم، أي لكل مؤمن لأن المؤمن هو الذي يصبر على الابتلاء ويشكر النعم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦)

٦- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ مذكراً إياهم بأيام الله السالفة في ابتلائهم ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من ظلمهم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بمختلف الوسائل ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بغرض الإبادة وخوفاً من نشوء جيل حديد منهم يقف في وجه طغيانهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يستبقونهنّ كي يستفيدوا منهنّ لخدمتهم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ اختبار لكم عظيم، والبلاء هو الابتلاء، وقد يكون ذلك بالنعمة تارة وبالنقمة تارة أخرى،

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧)

٧- تتمة خطاب موسى لقومه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ الأذان هو الإعلان، والمعنى هنا أنه تعالى جعله معلوماً لديهم: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ النعم بالإفادة منها في الطاعات والعمل الصالح، لأن الشكر ليس بالقول فقط وإنما بالعمل، وهو معنى العبادة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من النعم أكثر مما تستحقون ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ كفران النعم بالجحود ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ التعريض بالعذاب بعد التصريح بالإنعام.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨)

٨- ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا﴾ نعمه سبحانه ولم تشكروها بالعمل الصالح ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لم يتضرر سبحانه وتعالى بل يتضرر الجاحد بكفرانه النعم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكر الناس أجمعين، لأنه تعالى لا ينتفع من شكرهم ولا يتضرر من كفرانهم، فالمنفعة والضرر تعود إلى العابد لا إلى المعبود ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجب الحمد بذاته وإن لم يحمده أحد من الناس، وكأن موسى بثاقب نظره النبوي، وبما لمس منهم من المعاندة والنكوص إلى عبادة العجل الذهبي كان يتوقع مستقبلهم الحافل بالجرائم وبالارتكاس المتكرر نحو الوثنية.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٩)

٩- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ استمرار الخطاب من موسى لقومه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ لأنهم اندثروا من وجه الأرض و لم يبق لهم أثر ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحة والمعجزات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ جعل الكفار أيديهم على أفواه الرسل لمنعهم من الكلام وهو تعبير مجازي المقصود منه أنهم لا يريدون الاستماع لما ينافي ما اعتادوا عليه من العقائد القديمة التي انغلقت عليها عقولهم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي كفرنا بما تزعمون أنكم أرسلتم به، وذلك لعجزهم عن قبول حقيقة تناقض ما اعتادوا عليه من التقليد ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ لا نستطيع القطع في صحة دعوتكم ورسالتكم، والنفس غير مطمئنة إليها، وتلك محاولة منهم للتهرب من الالتزام بالرسالة الجديدة وما يترتب عليها من تبعات.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠)

١٠- ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أفي وجوده شك؟ فإن الفطرة السليمة شاهدة على وجوده ومجبولة على الإقرار به، ولكن قد يعرض لبعضها شك فتحتاج للنظر في الدليل ولهذا قالت الرسل ترشدهم إلى طريق المعرفة: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق، وعلى نظام أنيق دقيق في غاية الإعجاز ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يمهلكم إلى وقت الموت لعلكم تتوبوا عن كفركم وعن ذنوبكم ﴿قَالُوا﴾ لرسلهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون وتمشون في الأسواق فكيف تمتازون عنّا بتلقي الوحي؟ وهي الشبهة الأولى للكفار دوماً

﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فنحن متمسكون بتقليدهم لأنه كان فيهم الحكماء والعلماء ولا يعقل أنهم كانوا على خطأ، وهذه الشبهة الثانية، والمعنى أنهم رفضوا إعمال عقولهم في الرسالة واعتبروا عقول الآباء خيراً من عقولهم ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ فهل من معجزة خارجة عن استطاعة البشر تؤيد قولكم؟ وهي الشبهة الثالثة.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

١١- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إقرار أن الأنبياء ليسوا سوى بشر مثل غيرهم من الناس ثم لم يذكروا فضلهم على غيرهم تواضعاً منهم واقتصروا على القول: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الله تعالى يمنّ بالنبوة على من هم أهل لها من عباده ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ما جئنا به من الرسالة كافٍ لغير المكابر والمصر على التقليد، وهو حجة عقلية قاطعة، أما ما تطلبون من المعجزات القاهرة فقد تصبح نوعاً من الإلجاء الخارجي وعند ذلك يفقد الإيمان صفته الأخلاقية والفكرية والعقلية في حين على الإنسان أن يتوصل للإيمان بطريق الدليل والعقل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فما علينا إلا البلاغ،

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢)

١٢- ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ كيف يليق بنا وأي عذر لنا في ألاّ نتوكل على الله، وأي شيء يمنعنا من التوكل عليه بعد أن هدى كل واحد منا إلى الطريق الصحيح وعرّفنا الحق من الباطل ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ونتحمل الحرمان والاضطهاد لما تفرضه علينا مسؤولية الرسالة، ولا بد للحق أن ينتصر من الباطل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في دفع شرور الكفار، لأنه هو مالك الأمر كله، وهو يحمي العاملين المتوكلين عليه من أخطار المجهول.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ التهديد بالإخراج من الأرض بعد الإمعان في الإيذاء الذي سبقت الإشارة إليه وذلك منعاً لسريان فكر الرسالة بين ذوي الفطرة السليمة والتفكير السوي ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أيها الرسل فتصيروا على ما نحن عليه من التقليد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى الرسل عليهم السلام بعدما لحقهم من تهديد ﴿رَبُّهُمْ﴾ متولّي أمورهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكفار المفسدين الذين يظلم بعضهم بعضاً، وخصّ تعالى بالهلاك الظالمين من الذين كفروا، أما باقي الكفار من غير الظالمين فإنه تعالى يمهلهم لعلهم يتوبوا.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (١٤)

١٤- ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بمعنى أن الرسالات التي تنزل على الأنبياء تبقى بعد هلاك منتقديها وجاحديها ﴿ذَلِكَ﴾ الوعد لما قضى به تعالى من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم مختص بالمتقين ممن يخافون يوم الحساب ويخافون العذاب: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ في يوم الحساب ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ خاف سوء العاقبة.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)

١٥- ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي الكفار طلبوا الفتح والانتصار على الرسل ظناً منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل، وقيل الضمير عائد للرسل بمعنى أنهم هم الذين استنصروا الله تعالى على أعدائهم، وقد يكون الضمير عائد للرسل والكفار معاً استفتحوا جميعاً فنُصر الرسل وخاب كل جبار عنيد و لم يفلح باستفتاحه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متكبر عن الحق ﴿عَنِيدٍ﴾ معتد بما عنده من الباطل.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٦)

١٦- ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي هي مصيره ومآله يدخلها من خلال عمله السيء وحبوته وعناده عن الحق ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ لأن شدة كراهته تصدّ عن تناوله.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (١٧)

١٧- ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ الكافر عند إحساسه بالعطش ﴿وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ لأن نفسه لا تتقبله لما يثيره فيه من مشاعر القرف ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من خلال العذاب الغليظ ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ يتمنى الموت فلا يأتيه بل يبقى في العذاب: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ فيمكث فيه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

١٨- بعد أن وصفت السورة بالآيات (٣-١٧) عناد الكافرين ومكابرتهم تجاه رسلهم تبين هذه الآية أن أعمال الكفار في الحياة الدنيا تَحبُط في الآخرة ولا تفيدهم بشيء فهي كالرماد الذي تنثره الرياح العاصفة:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الأعمال التي كانوا يتقربون بواسطتها لآلهتهم باطلة، وكذا أعمال البر والخير لا يستفيدون من ثوابها ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ فحملت العاصفة الرماد وبعثرته حتى لم يبقَ منه شيء، وكذا أعمالهم ﴿لا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمال الدنيا ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ من الثواب، أي لا يجدون لها ثواباً في الآخرة ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ لأنهم ضلّوا ويحسبون أنهم على شيء،

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩)

١٩- استكمال الخطاب من الآية السابقة لأنّ الخطاب موجّه للكفار الذين في الضلال البعيد المشار إليهم آنفاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

بالْحَقِّ﴾ ذلك من الوضوح لذوي العقول النيرة حيث لا يمكن إنكاره إلا من قبل المكابر الجاحد الغافل ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ خيراً منكم.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ المذكور من إذهاب الكفار والإتيان بخلق جديد مكانهم ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ليس بمتعذر ولا بمتعسر.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، ومعنى برزوا أنه لا يخفى منهم أحد ولا تخفى منهم خافية بعد أن كانوا يستترون على ذنوبهم في الدنيا، واستخدام الفعل الماضي لبيان تحقق وقوعه لا محالة فكأنه وقع فعلاً ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي لرؤسائهم الذين كانوا يتبعونهم في الرأي والأمر والنهي، ويظنون فيهم العقل والرشاد ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي كنا أتباعكم في الحياة الدنيا نتبعكم في التقليد وفي تجميد عقولنا وفي تكذيبكم الرسل عليهم السلام ونبذ رسالاتهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع وملامة مريرة ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي بعض الشيء ﴿قَالُوا﴾ أي الزعماء والمستكبرون ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن ضللنا فضللناكم معنا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ فلا ينفع الجزع ولا الصبر في ذلك اليوم، ونحن وإياكم سواء في سوء العاقبة ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ ليس لنا مكان نحن ولا أنتم ننجو به من هذه العاقبة التي استوجبناها لأنفسنا، وقد فات أوان التوبة بعد كشف الحُجُب،

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا

أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الذي أضل الفريقين من الأتباع والمتبوعين ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فوقع الحساب و لم يعد هنالك من فرصة لتصحيح الماضي الذي وقع وانصرم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الذي لا يُخلف وقد أنجز وعده في البعث والجزاء على الأعمال ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل بأن لا بعث ولا حساب، وإن كانا فأوهمتكم أن الأصنام والشركاء يشفعون لكم ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي وظهر بطلانه وكذبه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ من سلطة أجبركم بها على تصديق وعودي والعمل بموجبها ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلى الضلال ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فأسرعتم بالاستجابة لي من تلقاء أنفسكم ظالمي عقولكم وأنفسكم ﴿فَلا تَلُومُونِي﴾ بوعدي الكاذب لكم إذ لم يكن بطاقتي قسركم ولا إلجاؤكم إلى الباطل، ولكنكم اخترتم ما اخترتم لأنفسكم بمحض الوسوسة التي وسوستها لكم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ حيث استجبتم لوسواس السوء، وبمحض حريتكم اخترتم الضلال دون حجة ولا دليل وإنما بنتيجة سوء استعدادكم وانبهاركم بتزيين المعصية لكم، وكان الأحرى أن تستجيبوا لربكم إذ دعاكم إلى الحق المقرون بالبينات والحجج ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وأصله من الصراخ كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ مما أنا فيه، أي إنه هو محتاج إلى الإصراخ فمن باب أولى أن لا يمكنه إصراخ الغير ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي إنني من الأصل أنكرت توهمكم خلال حياتكم الدنيا أن هنالك شركاً حقيقياً ولكنكم جعلتموني شريكاً لله عز وجل في الطاعة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾،

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي بخلاف الذين ضلّوا والذين ضلّلوا من الأتباع والمتبوعين المشار إليهم آنفاً ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ سلام الطمأنينة الروحانية.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤)

٢٤- بعد أن بينت الآية (١٨) أن أعمال الكفار تذهب هباءً منثوراً، ثم بينت الآيات (٢١-٢٢) أن الذين استحقوا العذاب إنما استحقوه بمحض اختيارهم وحريتهم، وفي الآية (٢٣) أن المؤمنين الذين عملوا الصالحات يدخلون الجنة بسلام، تضرب الآيات (٢٤-٢٧) مثلاً بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي شهادة التوحيد، وقيل هي القرآن، وقيل دعوة الإسلام، وقيل التسبيح والتنزيه، وقيل الثناء على الله تعالى، وقيل كل كلمة حسنة أي هي الكلمة الطيبة بأوسع معانيها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي طيبة الثمار والمنظر والرائحة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ جذورها ضاربة في الأرض لا تقتلعها العواصف والشدائد ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي فروعها أو أعلاها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي في جهة العلوّ.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ ثمارها الدنيوية والأخروية ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ على الدوام ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بأمره ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادة تفهيم وتذكير للناس فهو تصوير المعاني العقلية بصور المحسوسات.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر، وقيل هي الدعاء إليه، والدعاء لغير الإسلام، أو الكذب، أي هي الكلمة الخبيثة بأوسع معانيها بما يتمثل فيها

من معاني الكفر والضلال والإضلال والزيف والنفاق والأخلاق والصفات الذميمة الخبيثة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ضارة لا يطيب لها ثمر ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ استؤصلت من سطح الأرض والمعنى أن تأثيرها موقت لأن الباطل إلى زوال ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ما لها من ثبات كما هو الزيف والضلال، وقد تكون براقة خلابة تجذب إليها مؤقتاً ولكنها سامة وعاقبتها إلى الزوال، كما أن الكافر والخبيث لا يصعد له عمل ولا يُتقبّل منه شيء راجع الآية (١٨).

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ يثبتهم بالكلمة الطيبة المشار لها والتي تمكنت في قلوبهم وثبتت لديهم بالحجة والبرهان واطمأنت وارتاحت إليها نفوسهم فلا ينهارون أمام الفتن والاضطهاد والإغراء ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يثبتهم طيلة مكثهم في الحياة الدنيا ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ ويثبتهم أيضاً في الآخرة في مواقف الهول يوم القيامة ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ بحسب إرادتهم واختيارهم الناشيء عن سوء استعدادهم فيتركهم وشأنهم، وهم الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وإفساد الفطرة السليمة وبتقليد كبارهم وشيوخهم والإعراض عن الحجة السليمة والبينات الواضحة ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما تقتضيه الحكمة العلوية في تدبير شؤون العباد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المؤمن أو أيها العاقل ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ وهم أصحاب الكلمة الخبيثة المشار لها آنفاً، لأن الله تعالى أنعم عليهم ببعث الرسول ونزول القرآن فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ بأن صدّوا ضعاف العقول عن الإيمان ودعوهم إلى الكفر، ودار البوار أي الهلاك وهي جهنم كما سيرد في الآية التالية.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي بئس المستقر.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿وَجَعَلُوا﴾ الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أشباهاً بما ابتدعوه من آلهة ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ قومهم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ عن سبيل الله القويم وهو التوحيد، وقد ذكر الرازي أن اللام في قوله ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ هي لام العاقبة، وخاصة إذا قُرئت بفتح الياء، والسبب أن المشار لهم مشركون لا يعتقدون أنهم في ضلال بل يزعمون أنهم مهتدون ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ وخذوا حريتكم في ما تتقلبون به من حياة وصحة وأمان واستسلموا لحاضركم وأنتم في غفلتكم عن الغيب، فإن حالكم الآن ليست سوى تمتع بالمقارنة مع ما سوف تصلون إليه، فكأنهم لا يملكون لأنفسهم سوى الامتثال لأمر الشهوة التي تأمرهم بالتمتع، وهذا الأمر قد يكون مجازاً عن التخلية والخذلان كما ذكر الزمخشري ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ لأنها النهاية الطبيعية لتلك البداية.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١)

٣١- ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مقابل الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وجعلوا لله أنداداً ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لأن الإيمان ليس بنطق الشهادتين فقط ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ليعيشوا معنى العبادة تطبيقاً عملياً ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بإخفاء صدقة التطوع وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فلا يفيد المال شيئاً ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ فلا يغني فيه أحد عن أحد.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾

٣٢- بعد أن أسهبت السورة في وصف أحوال المؤمنين وأحوال الكفار، ولما كان ذلك كله متعلقاً بمعرفة الله تعالى، تبين الآيات ٣٢-٣٤ بعض الدلائل على وجود الخالق وكمال قدرته وعلمه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بما

فيها من أكوان وخلائق ونظم وقوانين ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فسلكه ينابيع في الأرض ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ كوسيلة من وسائل الحياة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ بما أودع في البحر من سنن ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ تكون لكم شرياناً للحياة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ لا يفتران ولا ينقطعان عن الحركة في نظام كوني بديع يترتب عليه ما يترتب من فصول السنة وتغير المناخ وقوانين الفيزياء ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان في تنظيمهما لحياة الإنسان فيهدأ الإنسان ليلاً وينطلق نهاراً في تحصيل معاشه.

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من للتبعيض، ومن كل ما سألتموه بحسب الحكمة والمصلحة ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ بحذف المضاف والتقدير إن تعدّوا آثار نعمة الله لا تحصوها لكثرتها ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ جنس الإنسان ﴿لَظَلُومٌ﴾ يظلم نفسه بالجحود والمعصية ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران للنعم ولا يؤديها حقها من الشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ (٣٥)

٣٥- بعد الآيات ٢٤-٣٤ التي ضرب تعالى فيها مثل الكلمة الطيبة ومثل الكلمة الخبيثة، وأنه تعالى يثبّت المؤمنين بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ويضلّ الظالمين الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، وبعد الحض على الإنفاق وبيان دلائل التوحيد في السماوات والأرض، تأتي هذه الآيات (٣٥-٤١) لتضرب مثالاً قصة إبراهيم عليه السلام فتروي جانباً منها ويأتي خلالها دعاء إبراهيم استكمالاً لخطاب السورة ولبيان أن الطريق الوحيد للاستقامة هو طريق اليقين بوجود الله عز وجل وحده لا شريك له ونبذ الاعتقاد بأية "سلطة مشاركة" لله في الألوهية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ والبلد هو مكة بعد أن بنى فيه إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام، أراده إبراهيم بلد أمن وسلام واطمئنان، يشعر فيه الناس بالأمان من أي عدوان بغض النظر عن خلافاتهم، ويحرم فيه القتال ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أي ثبتني وذريتي على تجنب عبادتها وعلى الإسلام، وهذا الدعاء طلباً للسلام الروحاني الناتج عن التوحيد وتأكيداً لعدم الانحراف نحو الشرك سواء بالتقليد الأعمى للآباء والأجداد وبظلم العقل أو بالوقوع تحت تأثير الزعماء أو المتسلطين أو المفسدين الضالين والمضلّين وسواء كانت الأصنام من البشر أو الجماد،

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأصنام ومَن بمنزلتها كما سبق وصفه ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ ممّن لا يملكون الوعي الصحيح أو لا يدققون في الأفكار التي تطرح عليهم ويقلدون غيرهم فيما لا يعقلون ولا يعلمون ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ من الناس فيما أنا عليه من اليقين والتوحيد المحض ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي في ديني واعتقادي ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ واستكبر مع وصول الدعوة إليه ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترحم الناس وتمهلهم وتُمتّعهم في الدنيا ولا تعاجلهم بالعقوبة، وتغفر لمن استحق المغفرة منهم، وتعاقب مَن استوجب لنفسه العقوبة،

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ وهم إسماعيل وذريته الذين استقروا في مكة ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وادٍ صحري قاحل وهو وادي مكة، فإسكان ذريته هنالك لم يكن طلباً في مكاسب دنيوية مادية لأن الأرض لا توفر ذلك ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرّم الله تعالى التعرض له والتهاون به ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وهو الغرض من ترك ذريته في هذا الموقع المبارك أي ليقيموا العبادة في

البيت الحرام، هم ومَن بعدهم، متبركين بتلك البقعة المباركة من الأرض ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ وهم المسلمون ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تميل إلى الحج في البيت الحرام، وتنجذب بعاطفتها الروحية إلى هذه الأرض المباركة فتكون لهم قاعدة روحية دينية ثقافية وتجارية، ويكون ذلك سبباً في رزقهم ورزق أهل مكة ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي بعض الثمرات التي ترد عليهم من تقاطر الوفود والحجاج ومن عمارة القرى حولهم وزراعتها، لكي يطمئنوا لرعاية الله لهم وتدبيره فيشكروا نعمه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فيزدادوا عبادة وإخلاصاً وعملاً ودعوةً إلى ديانة التوحيد.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ من نوايا وأفكار ومشاعر وطموحات وحاجات، فلا يخفى عليك سبحانك شيء مهما حاولنا إخفاءه في قلوبنا، وإنما ندعوك ونبتهل إليك تضرعاً وعبادةً وخشوعاً ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ فمن باب أولى أنه لا تخفى عليه حاجاتنا الخفية والظاهرة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي مع كبر سني ويأسي أن يكون لي ولد ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالك أموري ومتوليها ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ يسمع دعاء عباده المخلصين، فيستجيب لهم بحسب مصالحهم.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (٤٠)

٤٠- بعد أن حمد الله تعالى على أن وهبه الذرية دعاه أن يكون وذريته مقيماً للصلاة: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ مواظباً عليها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ من للتبعيض أي اجعل بعضاً من ذريتي مقيماً للصلاة، لأن البعض الآخر من الذرية

قد يكون كافراً أو مؤمناً لا يصلّي، فجاء من ذريته بنو إسماعيل الذين خرجت منهم قريش وبُعث فيهم خاتم الأنبياء والرسل، ومن ذريته أيضاً بنو إسرائيل من إسحاق الذين توهمت غالبيتهم أنهم الشعب المختار دائماً وأبداً على مرّ الزمن مهما انغمسوا في الكفر والإجرام وانتكسوا إلى الوثنية، وهذا من سننه تعالى في خلقه ومن تكريمه بني آدم أن ترك لهم حرية الخيار في الحياة الدنيا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ بجعلي وجعل بعضٍ من ذريتي مقيمي الصلاة.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١)

٤١- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ ما فرط من ذنوبي ﴿وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ وفي هذا الدعاء عبرة كي لا يعيش الإنسان في دائرة ذاتية قاصرة على نفسه، فلا يقتصر بالدعاء لنفسه فقط، بل يكون منفتحاً على الآخرين فيدعو لوالديه وللمؤمنين من أمّته، فيحب لإخوانه ما يحب لنفسه.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ (٤٢)

٤٢- بعد أن طلب ابراهيم المغفرة من الله تعالى يوم يقوم الحساب نُنبّه هذه الآية إلى يوم الحساب الذي تشخص فيه الأبصار: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي في حال رأيتهم يتمتّعون بالحياة الدنيا دون عقاب على ظلمهم فلا تظن أنهم ناجون ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ وهو يوم الحساب، والمعنى أنه تعالى يمهلهم في الحياة الدنيا لعلهم يثوبوا إلى رشدهم، ولأن حكمته تعالى اقتضت أن تكون للناس حرية الإرادة والاختيار في الحياة الدنيا بما يترتب على ذلك من مسؤولية، فإذا انقضى أجلهم وانقطعت فرصة توبتهم كان حسابهم يوم القيامة على حالقهم، يوم تشخص أبصارهم في حالة من الذهول والعجز والدهشة والحيرة أمام أهوال القيامة.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (٤٣)

43. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي برغم شخوص أبصارهم وذهولهم فإنهم مهطعين، أي مسرعين نحو البلاء الذي ينتظرهم ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعي رؤوسهم أمام

الهول الكبير بخلاف المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه كي لا يراه ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي نظرهم، ما يفيد دوام الشخوص والذهول ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي قلوبهم خالية من من أي خواطر وأفكار ومن كل رجاء وأمل سوى ما استحقوه لأنفسهم من عذاب محتوم يشخصون إليه بأعينهم.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ حتى لا يستمروا في الغفلة فيظنوا أنفسهم في مأمن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر وبالمعصية وظلموا الآخرين بهضم حقوقهم ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ بعد معاينة أهوال القيامة يطلبون العودة إلى دار التكليف لإصلاح ما فاتهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي أن غفلتكم كانت بملء إرادتكم وتعمدتم التهرب من الحقيقة الواضحة التي جاء بها الرسل وزعمتم أن الدنيا نهاية المطاف ولا زوال عنها إلى حياة آخرة.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ (٤٥)

٤٥- ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي سكنتم في بيئتهم وبلادهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بنتيجة تجاهلهم بعث الرسل وإنكارهم مكارم الأخلاق ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ لكي تفكروا وتعتبروا بغيركم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ بشركهم وافترائهم الكذب وفي سلوكهم ومكائدهم لمجابهة الحق ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ لا يغيب عنه تعالى شيء من مؤامراتهم وخططهم الخبيثة فهو لهم بالمرصاد ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي لشدة خبثهم ودهائهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي في نصرة أنبيائه ورسالاتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا غالب إلا هو ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ ينتقم لأولياء الحق من أولياء الباطل.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أي يوم القيامة، في إشارة للتغير الكوني الرهيب عما اعتاد عليه البشر، وانكشاف حُجُب الغيب بما يفوق مقدرة الإنسان على التحمل ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي ظهروا ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ﴾ ليس له من شريك في ملكه ﴿الْقَهَّارِ﴾ الغالب على أمره.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ الأصفاد هي القيود، وكونهم مقرّنين في الأصفاد أي كل كافر يقرن في القيد مع أعماله الشريرة، وقيل يقرن الكافر مع شيطانه، وقيل تقرن الأيدي والأرجل إلى الرقاب بالقيود، وكل ذلك مجاز لما يلقاه المجرمون عقاباً ليس لجرائمهم فقط، وإنما لما ترتب عليها أيضاً من معاناة وسلبيات في حياة البلاد والعباد.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ ثيابهم من مادة شديدة الاشتعال ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ يتصاعد لهيبها ليغطي وجوههم، وهو تصوير غيبي، بما يعرفه الإنسان من المحسوس، للعقاب الرهيب الذي ينتظر المجرمين.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١)

٥١- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ لأن العقاب ليس كيفياً ولا اعتباطاً وإنما بما كسبته كل نفس بما عملت من خير أو شر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الله تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذي يستحقونه،

﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ فلا يكون هنالك جهل ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ لكي تكون عواقب الأمور من خير وشر واضحة لهم ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فلا يغترّوا بشركاء موهومين ولا بالزعماء والرؤساء والأولياء ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ البلاغ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول السليمة والتفكير المستقل المتحرر من التقليد، ليتذكّروا الإعراض عن الباطل والإقبال على الخير والصلاح والإصلاح.

* * *

سورة الحجر -١٥-

مكية

مُقَدِّمَة

نزلت سورة الحجر في أثناء السنة الأخيرة من إقامة النبي ﷺ في مكة قبل هجرته إلى المدينة، واشتق اسمها من الإشارة إلى أصحاب الحجر بالآية (٨٠)، وليس معنى ذلك أن أصحاب الحجر موضوعها الرئيسي بل فقط هي السورة التي يُذكر فيها أصحاب الحجر.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة إبراهيم المتقدمة بقوله تعالى: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (١٤/٥٢)، وتفتتح سورة الحجر بقوله تعالى مبيناً ماهية البلاغ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١٥/١)،

وفي سورة إبراهيم أن الله تعالى يمهل ولا يهمل: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ (١٤/٤٢)، ثم في سورة الحجر أن لكل أمة أجل: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (١٥/٥)،

وفي سورة إبراهيم أن الشيطان لم يكن له من سلطان على الناس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (١٤/٢٢)، وفي سورة الحجر قوله تعالى مخاطباً إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٥/٤٢)،

وفي سورة إبراهيم حمده لله أن وهبه على الكبر إسماعيل وإسحاق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١٤/٣٩)، وفي سور الحجر بشارة الملائكة له بإسحاق: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ (١٥/٥٤)،

محور السورة

إنّ الله تعالى لا يترك المجتمعات البشرية تائهة بلا بعث الرسل إليها: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤)، حتى اكتملت الرسالات السماوية بنزول القرآن الكريم للعالمين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩)، ولكن المصرّين على الكفر لا يستفيدون من الهدي الإلهي حتى لو فُتحت لهم حُجُب الغيب: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (١٤-١٥)،

وإن وساوس الشيطان تمكّن الإنسان من ممارسة الخيار الأخلاقي بين الخير والشر، والإيمان والكفر، بلا إكراه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢)، سوى أنّ عقاب الغاوين قد ينزل بهم في الدنيا قبل الآخرة: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٢-٧٣)، ما يدل أنّ خلق السماوات والأرض ليس عبثاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥)، ما هو واضح في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧)، لكنّ جهود الجاهدين في تعضية القرآن الكريم تذهب بهم بعيداً في الضلال: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩١-٩٣)،

وتضرب السورة مثلاً حانياً من قصص إبراهيم ولوط، وقوم شعيب أصحاب الأيكة، وقوم ثمود أصحاب الحجر، وبعض العبر المترتبة منها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١)

١- هذه آخر السور الستة: (يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر) في الترتيب القرآني التي تفتتح بالحروف المقطعة: ﴿الر﴾ وهي في سورة الرعد بزيادة حرف الميم ﴿الْمر﴾، الله أعلم بمراده، أنظر شرح آية [البقرة ٢/١]، وشرح آية [يونس ١٠/١]،

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي الوحي الذي نزل على خاتم الأنبياء والرسل يختم الرسالات ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي وهو قرآن مبين، وكونه مبيناً لأنه المعيار الواضح لبيان الحق من الباطل ما يجعل الكفار يودّون لو كانوا مسلمين كما سيرد في الآية التالية،

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢)

٢- ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ بعض المصرّين على الكفر يودّون في قرارة نفوسهم لو كانوا مسلمين، لأنهم يدركون تمام الإدراك أصالة القرآن وبيانه الحق من الباطل بالآية السابقة-، وإنما يمنعهم من ذلك القيود الاجتماعية التي تكبّلهم، كما يمنعهم الخوف من فوات الزعامات والمراكز الاجتماعية والامتيازات التي يتمتعون بها، كما يمنعهم الاستكبار، ويحتمل المعنى أيضاً أن لا بد من مجيء زمن على المصرّين على الكفر يندمون فيه ويودّون لو كانوا مسلمين في ما سبق من حياتهم الدنيوية، وقد يكون ذلك عند الموت أو قبله أو يوم القيامة.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣)

٣- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ على الداعي، بعد إنذارهم وإصرارهم على الجحود، أن يتركهم لحرية خيارهم لأنّ إصرارهم على الكفر يجعل الاستمرار في دعوتهم عديم الجدوى ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ الكاذب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة خيارهم وسوء صنيعهم عندما يحين الوقت.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤)

٤- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي مجتمع ﴿إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ لأن الله تعالى لا يهلك المجتمعات قبل إنذارها، ثم يمهلها لعلها تتوب وتتوب إلى رشدها،

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٥)

٥- ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ كما هي الحال في الدول والحضارات حيث تمر بمراحل الصعود ثم الانحطاط حتى إذا أمعنت في الضلال فقدت مبررات وجودها،

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦)

٦- ﴿وَقَالُوا﴾ المشار إليهم بالآية ٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ المغرى أنهم مقرّون في نفوسهم أن القرآن ذكر يذكّرهم بالميثاق الفطري، ولكنهم جاحدون مكابرون يتهمون النبي بالجنون: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وقد يكون معنى الاتهام أيضاً: إنك لمجنون إذ تدّعي نزول الذكر عليك، وهذا الاتهام وإن كان موجهاً من المشركين إلى النبي في عصره إلا أنه يتكرر منهم في كل العصور إلى يومنا هذا،

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧)

٧- ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهو طلب فيه من السخرية كما فيه من الإحجام عن تحكيم العقل في فحوى الرسالة.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ (٨)

٨- ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ لأن نزولها يسبق القيامة، انظر آية (الفرقان ٢٥/٢٥)، ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ فلا تفيدهم التوبة وقتئذٍ عند انكشاف حجب الغيب.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩)

٩- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ مفرّقاً على مدى ٢٣ عاماً من البعثة النبوية وما في ذلك من الإعجاز ما يفحم كل مكابر ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من التغيير والتبديل

والحذف والإضافة، على العكس مما حدث للكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، وهذه الآية جواب على اتهامهم النبي بالجنون لتنزّل الذكر عليه (الآية ٦)،

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ (١٠)

١٠- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ لكل أمة رسولها، فما وجه الغرابة في بعث خاتم الأنبياء والرسل إلى الناس قاطبة؟

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١)

١١- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما استهزأ كفار قريش ببعثة النبي الأحمد، وكما يستهزيء بها الكفار في كل عصر.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢)

١٢- ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أي الاستهزاء ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالنظر لسوء جبلّتهم وإصرارهم على الضلال وتشنّج عقولهم، فلا يفيدهم العقل السليم،

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ في أن الله تعالى يهلك المكذّبين، الآية (٥).

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء المعاندين المكابرين ﴿بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ لو أتيحت لهم فرصة الصعود إلى السماء وانكشاف بعض حجب الغيب لهم،

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (١٥)

١٥- ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ لشدة عنادهم ومكابرتهم يظنّون انقطاع الرؤية السليمة عن أعينهم، وسكر البصر كالسكر الذي يسد مجرى الماء، أو السكر الناتج عن الثمالة ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ ويظنون السحر

بأنفسهم لاختلاط الأمور عليهم وعدم تفريقهم بين حقيقة الوحي وبين الوهم والسحر، والنتيجة أنه لتشبث عقولهم بما هي عليه من الضلال لا ينفعهم شيء حتى لو انكشفت حجب الغيب لهم، لذا تشير الآيات التالية إلى بعض معجزات الكون كبرهان من براهين وجود الخالق ومقدرته، ما يجب التفكر بها، ما هم عنها عَمون.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦)

١٦- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ وفي ذلك من الإعجاز الهائل والآيات ما هو أكثر من كافٍ لغير المكابرين المجرمين المشار إليهم بالآية (١٢)،

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧)

١٧- ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ شياطين الإنس والجن الذين يحاولون الرجم بالغيب عن طريق التنجيم ما يحرمه الإسلام قطعياً،

﴿إِلاَّ مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٨)

١٨- ﴿إِلاَّ مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ بمعنى أن كل محاولة شيطانية للرجم بالغيب ومعرفة المستقبل بطرق ملتوية تعود على صاحبها بأسوأ العواقب.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩)

١٩- ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ما فيه مزيد من دلائل القدرة الإلهية في خلق متجدد وبيئة طبيعية متوازنة يخل بها الإنسان في تخريبه المستمر لها باسم الحضارة، انظر سورة التكاثر،

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ جميع الحيوانات والنباتات ما لا يرزقها الإنسان وإنما يرزقها الله وحده، في دليل قاطع أن جميع المخلوقات بمن فيها الإنسان نفسه معتمدة على الرزق الإلهي فقط دون غيره،

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الرزق ﴿إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ بحسب الحكمة والمصلحة وللوظيفة التي خلقت لأجلها،

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ للنبات وللسحاب ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ لأنه في حالة استمرار القحط لا تنفع كل وسائل التخزين البشرية.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ وعند الله وحده علم أحوال ما سبق خلقه من البشر أو مَن مات منهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ وأحوال مَن سيُخلق ويموت، فلا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب جميعاً المستقدمين منهم والمستأخرين ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ لأن الحكمة تقتضي وجوب الحشر والحساب ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم،

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي من الطين الأسود المنتن المتغير على مر السنين، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة ٢٥٩/٢]، وذلك جانب آخر من جوانب الإعجاز العديدة في الخلق التي بدأت الإشارة إليها في الآية (١٦)،

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل آدم ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من غير المادة الجسمية، وسمي الجان لاختفائه عن الأعين، ومَن كان كافراً منهم سمي شيطاناً، انظر آية [الجن ٧٢/١٤-١٥]،

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨)

٢٨- بعد بيان بعض معجزات الكون الآيات (١٦-٢٧)، ينتقل الخطاب لبيان مغزى الخليقة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ سبق أن وردت هذه القصة الرمزية في سورتي [البقرة ٢/٣٤-٣٦] و[الأعراف ٧/١١-١٨]، وهي تتكرر في القرآن الكريم بمجمله سبع مرات في سور (البقرة-الأعراف-الحجر-الإسراء-الكهف-طه-ص) من زوايا وعبر متنوعة،

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ لما خلقته له ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته، قال الزمخشري: ليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل للإحياء، وقال الألوسي: ليس هناك نفخ حقيقة، وقد يُكنّى بالسبب عن الفعل المستفاد الذي يحصل منه على سبيل المجاز ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ لما كرّمته عليكم بأن علّمته الأسماء كلها،

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢) ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٨)

٣٠-٣٨- المقصود من هذه القصة الرمزية أن معصية الشيطان تؤدي وظيفة معينة في الخطة الإلهية وأن إنظاره إلى يوم الدين لأن وساوس الشيطان هي التي تمكن الإنسان من ممارسة الخيار الأخلاقي.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) ﴿قَالَ هَـذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢)

٣٩-٤٢- المعنى أن وقوع إبليس في الغواية كان باختياره، كما أنه لا يملك للناس سوى وساوس الشر لقوله ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم ٢٢/١٤]، وهو سبب وقوع المجرمين في الغواية، الآيات (٢-١٥)،

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهي النتيجة الطبيعية لِمن يقع في الغواية بمحض اختياره،

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ فيكون عذاب المجرمين في جهنم بحسب مستوى جرائمهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ (٤٦)

٤٥-٤٦- هم المشار إليهم بالآية: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠)، لم يستجيبوا لوساوس الشيطان و لم يقعوا في الغواية،

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ لأنّ الغلّ وهو الحقد الكامن في القلب يتغلغل في صدر صاحبه فيعكّر عليه صفوه ومعيشته ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ لا يعكّر صفوهم النفسي شيء،

﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب جسمي ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بعد أن نفت الآية السابقة عن المتقين ما يعكّر عليهم صفوهم النفسي من الغلّ تنفي هذه الآية عنهم المضار المادية،

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠)

٤٩- ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ذكر الرازي من لطائف الآية أنه تعالى لمّا ذكر المغفرة والرحمة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: أولها قوله ﴿أَنِّي﴾ وثانيها قوله ﴿أَنَا﴾ وثالثها إدخال الألف واللام على قوله ﴿الغفور الرحيم﴾، ثم لم يذكر ذلك في العذاب، الآية التالية: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ للمصرّين على الضلال،

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١)

٥١- ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وردت هذه القصة بمزيد من التفصيل في سورة هود بالآيات (٦٩-٨٣) ومناسبتها مع ما قبلها أن الآيتين السابقتين تؤكدان على مغفرته تعالى من جهة وعذابه من جهة، ثمّ في قصة إبراهيم قوله: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (٥٦) في إشارة للآية (٤٩)، ثم وصف العذاب الذي لحق بقوم لوط في إشارة للآية (٥٠)،

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي الملائكة جاؤوه في صورة بشر ﴿فَقَالُوا سَلاَمًا﴾ أي قولاً سلاماً ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، قالها لامتناعهم عن الأكل كما ورد في سورة هود الآية (٧٠)، ولأن الضيف إذا أكل عند مضيفه امتنع إيذاؤه،

﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحق، وعليم لكونه نبياً،

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ (٥٤)

٥٤- ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ لأنه بلغ من العمر ما يزيد عن مائة عام ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فبأي أعجوبة تبشّروني؟ ما يفيد دهشته من البشارة،

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بما سيكون لا محالة ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ فلا تقطع الرجاء،

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ لأن القنوط من رحمته تعالى لا يحصل إلا عند الضلال، وفي الحديث أن اليأس من روح الله تعالى من الكبائر، ذكره الألوسي،

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ وأي شيء آخر حتتم لأجله سوى البشارة؟ لأنهم كانوا جمعاً من الملائكة بصورة بشر،

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، انظر آيات [هود ٧٧-٨٣]،

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أهل بيته ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بلا استثناء إلا امرأته،

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ من أهل بيته ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ المهلكين لإصرارها على الضلال، وقد أسند الملائكة التقدير إلى أنفسهم مع إنه من فعل الله تعالى بما يفيد علمه المسبق بما هو كائن وما سيكون من سلوك العباد وخيارهم،

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١)

٦١- ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ وصول الملائكة إلى أهل بيته،

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ تعبيراً عن خشيته من شذوذ قومه تجاههم وخوفه ألاّ يستطيع حمايتهم، أنظر سورة هود الآية (٧٧)،

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ لأنهم كانوا يشككون بالقضاء الذي هو نتيجة حتمية للإجرام المتعمَّد، وتلك هي العبرة من تكرار قصة لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر في هذه السورة، ويلاحظ أن هؤلاء الأقوام الثلاثة استوطنوا المناطق على الطريق بين الحجاز والشام بحيث يرى آثارهم كفار قريش في غدوّهم ورواحهم مما يوجب الاعتبار بهم، الآية (٧٥)،

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بتحقق وقوع عذاب الاستئصال بهم لا محالة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقول،

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ اتبع آثار بناتك وأهلك بحيث تكون آخر من يمشي وراءهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ الالتفات مجاز، والمعنى اقطعوا كل صلة لكم بالقوم ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ حيث تكون نجاتكم،

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ إلى لوط ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ الدابر الآخر، والمعنى استئصالهم عن آخرهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فيكون ذلك وقت دخول الصبح، وهو سبب الأمر أن يغادروا بقطع من الليل،

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبغون فعل الفاحشة في الضيوف حسب ظنهم،

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بأن تتعرضوا لهم بسوء،

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في عملكم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ فتسببوا لي الذل والهوان،

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي عن إجارة أحد منهم، لأنهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بسوء،

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١)

٧١- ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساء القوم لأنهم بناته مجازاً، أو بناته حقيقةً، وفي الخطاب محذوف تقديره فتزوجوهنّ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم مصرّين على قضاء الشهوة فلتكن في الحلال،

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قيل الخطاب من الملائكة إلى لوط، وقيل بل الخطاب للنبي عليه السلام ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في غوايتهم وشدة غلمتهم التي أزالت عقولهم يتخبطون في العمه وهو عمى البصيرة، فأنّى يسمعون النصح؟

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ قد يكون أنها صوت الزلازل البركانية التي قلبت بلادهم عاليها سافلها كما سيرد في الآية التالية ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس،

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ السجّيل من السجل وهو الكتاب، أي ما كتبه تعالى عليهم من الأزل لعلمه المسبق بسوء صنيعهم وسوء جبلّتهم،

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي للمعتبرين الذين يُعمِلون عقولهم في ظواهر الأمور فيعلموا بواطنها وحقيقتها،

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ على الطريق بين الحجاز وبلاد الشام إلى الشرق من البحر الميت لا تزال آثاره باقية مقيمة إلى اليوم،

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله تعالى ورسله، تكفيهم آية من الآيات،

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب، والأيكة الغيضة كثيفة الشجر وهي أرض مدين، انظر [الأعراف ٧/٨٥-٩٣]، ﴿لَظَالِمِينَ﴾ بكفرهم وشركهم وسوء صنيعهم،

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ على الطريق إلى بلاد الشام إلى الشرق من خليج العقبة والبحر الميت،

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ يعني ثمود وهم الأنباط، والحجر بين الحجاز والشام، انظر شرح آية [الأعراف ٧/٧٤]، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذّبوا رسولهم صالح فكانوا كَمَن كذّب الأنبياء جميعاً،

﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١)

٨١- ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ كآية الناقة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فلم ينظروا فيها ولم يستدلّوا بها لتشنّع عقولهم على التقليد،

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ آمنين من نزول العذاب بهم، معتمدين على حولهم وقوتهم متحصنين في بيوتهم المنحوتة في الجبال،

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فأهلكتهم في وضح النهار،

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من القوة والثروة والتجبّر،

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥)

٨٥- نتيجة السورة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ بمغزى وهدف معين بلا عبث ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ فيتم فيها الحساب وتتحقق العدالة على أكمل وجه ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ عن الكفار في هذه الدنيا لأنها دار مرور واختبار وليست دار قرار، وفي ذلك تأكيد للآية (٣)، في إشارة للمذكورين بالآيات (٢-١٥)، فيلاقوا سوء عاقبتهم إن في الدنيا كما حدث لقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، أو في الآخرة،

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ خالق العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ عليم بأحوالهم ودوافعهم، فيمهلهم حتى يتوبوا أو ينزل بهم البلاء،

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧)

٨٧- وخلافاً لما زعموا من جنون النبي ﷺ بالآية (٦)، فقد آتاه الله القرآن العظيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أيها النبي ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ وفي ذلك إشارة لموضوع الآيتين (١) و (٩)، وقالوا أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة لكونها "أم الكتاب" وجوهره، وهي سبعة آيات بما فيها البسملة، يثنى بعدها ما يُقرأ في الصلاة ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ عطف العام على الخاص، وفيه دلالة على امتياز الخاص،

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)

٨٨- ولأنّ الذي آتيناك من السبع المثاني والقرآن العظيم يفوق متاع الدنيا فلذلك: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أيها النبي، وأيها المسلم ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ من الكفار والمترفين، فما ذلك إلاّ متاع الدنيا لنفتنهم فيه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لجحودهم وإصرارهم على الكفر ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كناية عن الرفق واللين والتواضع لهم،

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿وَقُلْ﴾ للناس كافة ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ المذكور في كتب اليهود والنصارى، وهو سبب استخدام أل التعريف،

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١)

٩٠-٩١- ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ عطف على الآية (٨٧)، والمعنى: آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على المقتسمين، وقيل إنهم

اليهود والنصارى نزل عليهم التوراة والإنجيل فآمنوا بالقسم القليل منهما وشوّهوا الباقي بحسب هواهم، ثم لمّا نزل القرآن عموا عنه وحاولوا تمزيق معانيه: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ التعضية: التفرقة والتجزئة، وفي الحديث: "لا تعضية في ميراث إلاّ فيما احتمل القسمة"، و﴿المقتسمين﴾ أيضاً يأخذون من القرآن ما يناسب آراءهم ويتركون ما يناقض أهواءهم، فبذلك يقطّعون القرآن الكريم إرباً، عمداً أو سهواً، بسبب نظرتهم الجزئية إليه آية آية، فتضيع عليهم معانيه لافتقادهم النظرة الشمولية التي بدونها يعجزون عن فهم القرآن، وفي ذلك أيضاً إشارة إلى الذين يتعمّدون تعضيته من المستشرقين والمغرضين لقوله تعالى في الآية (١٢): ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾،

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ جميع هذه الأصناف من المقتسمين المذكورة آنفاً، سوف يكونون في موقع المسؤولية،

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنهم في موقع المسؤولية بعد أن بلغتهم الرسالة،

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أظهره جهاراً أيها النبي، وأيها المسلم ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تلتفت لما يقولون، ونظيره قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [المائدة ٥/١٠٥]،

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك أو بهذه الرسالة فلا يضروك شيئاً، وهم المشار إليهم بالآية (١١)،

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وهم كفار قريش والمشركون في كل العصور ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة عملهم، أو سوف يعلمون الحقيقة في نهاية المطاف،

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ضيق الصدر عكس الشرح، والعرب تسمي الغمّ والهمّ ضيقَ صدر، والمعنى أن النبي عليه السلام، والمسلم عامة، يضيق صدره بما يقول الكفار، وعلاج ذلك مبيّن بالآية التالية:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨)

٩٨- ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ اللجوء للتسبيح والحمد والصلاة لنفي ضيق الصدر،

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩)

٩٩- ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قالوا إنّ اليقين هو الموت لتيقن وقوعه، والمعنى داوم على العبادة ما دمت حيّاً،

* * *

سورة النحل -١٦-

مكية

نزلت في مكة خلال الشهور الأخيرة التي سبقت هجرته إلى المدينة، وقيل إن الآيات الثلاث الأخيرة منها نزلت في المدينة، واشتق اسم السورة من الإشارة في الآية (٦٨) إلى واحدة من عجائب الخلق وهي النحل،

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة الحجر المتقدمة بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [٩٩/١٥]، ثم افتتحت سورة النحل بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١/١٦]، وتفصيله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨/١٦]، ثم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٣٢/١٦]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٣٣/١٦]،

وفي سورة الحجر نزول القرآن الكريم بختم الرسالات: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٩/١٥]، وتفصيله قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٤٤/١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٦٤/١٦]،

وفي سورة الحجر بعثُ الرسل في الأمم السابقة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ [١٠/١٥]، وتفصيله قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [٣٦/١٦]، وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٦٣/١٦]،

وفي سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [٨٥/١٥]، ثم في سورة النحل: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٣/١٦]،

وفي سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [٦/١٥]، وتفصيله في سورة النحل: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [٤/١٦]،

وفي سورة الحجر الأمر بترك المشركين إن هم أصرّوا على الكفر: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٣/١٥]، وفي سورة النحل أن لو شاء الله لهداهم أجمعين: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٣٧/١٦]،

محور السورة

إن الله تعالى بيّن للناس طريق الهداية من الضلال وكرّمهم بالخيار: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩)، ثم كان استكبار الكفار سبباً في إنكارهم الآخرة: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢)، إذ لم يعتبروا بمصير أمثالهم من سابقيهم: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦)، وأن ذلك من موجبات البعث: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (٣٩)، وأن كل ابن آدم خطّاء لكن الله تعالى يعطي

الناس فرص التوبة، فوجب اغتنامها قبل الفوات: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١)،

وتدحض السورة عقيدة المثنوية: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥١)، وتبيّن أن بعث الرسل قد تعالى في الأمم البائدة: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)، ثم لزم الأمر نزول القرآن الكريم لحسم الخلاف بين الناس: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤)، سوى أنه لا سبيل لهدي المصرّين على الكفر: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)، وأنّ من مقاصد الدين العمل بمكارم الأخلاق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)، وأنّ الله تعالى كرّم الناسَ بحرية الخيار ما يوجب تحمّلهم المسؤولية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)،

وأن رسالة الإسلام نسخت الرسالات السابقة: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١)، وأن المسلمين على ملة إبراهيم الحنيف: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣)، وبعد نسخ الرسالات السابقة وجبت الدعوة للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بأحسن الأساليب: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

١- ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ المراد به يوم القيامة، واستخدام الفعل الماضي لتأكيد تحققه لا محالة فكأنه وقع، وقد يكون المراد به العذاب المشار إليه بالآية (٢٦) المترتب على تفسخ المجتمعات الجاحدة وفسادها وانهيارها ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لأن الكفار والمشككين في موقع التحدي والسخرية، وقت البعثة، وفي كل عصر، لأنه بنزول العذاب تنتهي فترة اختبار الإنسان ويصبح الإيمان إلجاءً فيخلو من أي خيار أخلاقي، فالاستعجال إذن من شأن الجاهلين والحمقى،

ومع ذلك فالكفار مصرّون على الشرك: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والشرك هنا بمعنى التهالك على الدنيا والمادة وطلب الجاه والزعامات وتكديس المال والثروات واعتبارها هدفاً نهائياً بذاتها، وأيضاً إعجاب ذي الرأي برأيه، فأمثال هؤلاء المشركين منكرون للآخرة والمسؤولية والحساب، عسابدون لشهواتهم ودنياهم وأهوائهم.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢)

٢- المشركون المشار إليهم آنفاً حريصون على دنياهم، غافلون عن الوحي الذي نزل على الرسل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ الروح هو الوحي لأنه يحيي النفوس التي ماتت بالشرك والجهل والتهالك على الدنيا والغفلة ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ في الوحي، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، لأن الوحي لا يتنزّل بكل أمور الغيب، وإنما فقط بما يحتاجه العباد لدنياهم وآخرتهم ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ الرسل جميعاً جاؤوا برسالة التوحيد ما يوجب التقوى من الشرك: ﴿فَاتَّقُونِ﴾،

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣)

٣- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ على النقيض مما يظن المشركون العابثون فإنّ الخلق تمّ بالحق، أي هو ذو معنى ومغزى، وليس من صدفة في شيء ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به تعالى من دنياهم، من أوهام، ومن شركاء ووسطاء وشفعاء وهميين لا يقدرون على شيء،

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٤)

٤- ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ الذي كرّمه تعالى على سائر المخلوقات بالفكر المجرّد فعلّمه الأسماء كلها، وكرّمه بالحرية الفكرية [السجدة ٣٢/١٣]، الآية (٩)، وسخّر له من مخلوقاته، الآيات (٥-١٨)، وأرشده إلى الطريق القويم، الآية (٩)،

﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ من بداية وضيعة بسيطة جداً ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ من بداية النطفة المتواضعة إلى مخلوق قادر على المنطق والمحاجّة، ممّا قد يرتفع به فكرياً إلى أعلا علّيين، أو يهبط به أسفل سافلين دون أن يفقه شيئاً من مغزى الخلق فيتحدّى ويستعجل العذاب، الآية (١)، وفي الانتقال من البداية البسيطة المتواضعة إلى تمام الخلق من الإعجاز ما فيه، ما يدحض شرك المشركين وحججهم المخاصمين،

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥)

٥- ﴿وَالأَنْعَامَ﴾ وهي الضأن والمعز والإبل والبقر، انظر آيتي [الأنعام ٦/١٤٣-١٤٤]، ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ من وبرها وصوفها كما هو مفصّل في الآية (٨٠)، ﴿وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وما في ذلك مزيد من دلائل الإعجاز من جهة، وتكريم الإنسان بتسخير المخلوقات له من جهة ثانية، وأكثر الناس غافلون عن ذلك،

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦)

٦- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ للتأمل والتفكّر ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ في المساء ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ بها نهاراً للرعي،

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٧)

٧- ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ فضلاً عن أن تحملكم على ظهورها، كما في الإبل ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ تصلون إليه بكل جهد ومشقة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وذلك من جملة نعمه عليكم،

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٨)

٨- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ خلقها بالإضافة للأنعام المشار إليها بالآية (٥)، ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ليس فقط لمنافعها في المواصلات، بل للزينة كما في الخيل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من وسائل المواصلات في المستقبل، وهو ما نعرفه اليوم من مركبات وطائرات وسفن وغيرها، وهذا التطور في تقدم وسائل المواصلات ينطبق على كل زمن في الماضي والحاضر والمستقبل، وقد نسبَ تعالى خلقها إلى ذاته العلية، لأنه هو الذي أودع في الإنسان المقدرة على التفكير والإبداع والاختراع،

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩)

٩- بعد أن ذكر تعالى أنّ خلق السماوات والأرض ذو مغزى، الآية (٣)، وأنه خلَقَ الإنسان وكرّمَهُ بمنحه المنطق والمحاجّة، الآية (٤)، وسخّر له المخلوقات، الآيات (٥-٨)، تضيف هذه الآية أن الله تعالى لم يترك الإنسان يتخبط على غير هدى، وهو القصد من الوحي المشار إليه بالآية (٢):

﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ لبيان الطريق المستقيم منها ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومن هذه الطرق ما هو منحرف عن الطريق الحق، فالله تعالى ترك للناس حرية اتباع المستقيم منها من الجائر ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قسراً، دونما حرية من جهتكم، لولا أنّ مغزى الخلق مرتبط بالمسؤولية الأخلاقية وبحرية الخيار الأخلاقي للإنسان المشار إليه بالآية (٤)، والغافلون عن النعم والإعجاز في الخلق لا يهتدون،

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠)

١٠- ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ من الماء شراب ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه ينبت الشجر ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون فيه مواشيكم،

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١)

١١- وينبت به الزرع: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ لمجرّد نزول المطر من السماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتفكّرون في هذا الإعجاز العجيب الذي يراه البعض نوعاً من المسلّمات العادية ويغفلون عن عظمته،

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢)

١٢- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ سخّرها لمعيشة الإنسان ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ وباقي النجوم مسخّراتٌ بأمره تعالى، لحكمةٍ يعلمُها وحده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ باهرات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الذين يستفيدون من طاقاتهم العقلية على النحو السوي،

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ نشرَ لكم فيها من المخلوقات الجماد، وغير الجماد ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ ألوان الطيف المختلفة الرائعة المنعكسة منه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ الذين يذّكرون قدرته تعالى على الخلق بلا حدود، ويذّكرون الميثاق الفطري المأخوذ عليهم،

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فضلاً عمّا سخّر لكم على اليابسة المشار إليها آنفاً ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ

مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ دليلاً على ما أودعه تعالى في الإنسان من المقدرة على الاختراع والتقانة ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتسهيل معاشكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم، قولاً وعملاً،

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥)

١٥- ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ وهي الجبال ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تميد الأرض بكم، أي لئلا تهتز وتضطرب، والمقصود أنّ الجبال تساهم في توازن القشرة الأرضية، فهي متوازنة على اللافا المنصهرة في باطن الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ ٧/٧٨]، ولا يمنع ذلك حدوث الزلازل وانفجار البراكين أحياناً، وذلك أيضاً من مظاهر الإعجاز التي لا يعقلها إلاّ العالمون ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً﴾ من المعالم الطبيعية والجغرافية والجيولوجية على سطح الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعالم الطرق هذه، أو لعلكم تهتدون إلى الإيمان بالخالق الأحد، بدليل الآية (١٧)،

﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦)

١٦- ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ الله تعالى جعل هذه المعالم الطبيعية المشار إليها آنفاً علامات يستفاد منها في الأسفار ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وهي معالم طبيعية في السماء يستفاد منها لمعرفة الاتجاهات في البحار والصحاري، بالإضافة إلى المعالم الأرضية المشار إليها،

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧)

١٧- ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ كل هذه العجائب المذهلة المشار إليها بالآيات (٣-١٦) المتقدمة ﴿كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ شيئاً، من الشركاء المزعومين المشار إليهم بالآيات (١) و (٣)، ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ حقائق الأمور؟

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨)

١٨- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ أيها المجادلون والمخاصمون بالمشار إليهم بالآية (٤) ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ آثار أو تجلّيات نعمة الله عليكم ﴿لا تُحْصُوهَا﴾ فما سبق ذكره

منها على سبيل المثال لا الحصر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعباده، لا يعاجل المستعجلين، الآية (١)، والجاحدين والمشركين والكفار بالعقوبة، بل يمهلهم بمزيد من الوقت والفرص لعلهم يتوبون،

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩)

١٩- استمرار الخطاب للمجادلين المخاصمين: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ من المكائد ضد الإسلام ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ منها، فيحاسبكم على ما تخرجون منها إلى حيّز التنفيذ،

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآلهة الوهمية والوسطاء والشفعاء والأولياء المزعومين الذين يدعونهم الكفار والمشركون ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ تدبّ فيه الحياة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فالله تعالى خالقهم، وليس لهم من صفات الألوهية شيء،

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١)

٢١- ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فهم أعجز من عَبَدَتِهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ آلهتهم جاهلون بالغيب، بل لا يعلمون وقت بعث عابديهم،

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وقد ثبت ذلك من الأدلة القاهرة المتقدمة المشار إليها ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ رغم البراهين والأدلة القاهرة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ الكفار ينكرون الآخرة من موقع الاستكبار الزائف وليس من موقع القناعة الفكرية، لأنهم يرفضون الإقرار باعتمادهم الكلي على الخالق ومسؤوليتهم الأخلاقية تجاهه،

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿لا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من العناد والتكبر في عقلهم الباطن ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من نظريات فكرية منحرفة يتسترون بها على

عنادهم وتمردهم ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ لأن الاستكبار انحراف فكري يترتب عليه الكفر واضطهاد إنسانية الآخرين،

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ بمعنى لا تغفلوا عن الوحي الإلهي الذي نزل على الرسل ﴿قَالُوا﴾ من موقع الاستكبار والسخرية ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يزعمون أنه أساطير وليس وحياً إلهياً، وهذا من مظاهر استكبارهم أن تعمى بصائرهم فيمتنعون عن تحكيم الفكر والعقل بقيمة الوحي، ويعجزون عن تقويمه من حيث جدارته،

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي آثامهم، لأن الوزر هو الحمل، فكأنهم يحملون أثقال آثامهم على ظهورهم ﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فتلك العاقبة الطبيعية لهم، لأن ما قدّموه من عمل في دنياهم مرتبط بعاقبتهم في الآخرة كارتباط السبب بالمسبّب، ولذا قالوا إن اللام في قوله ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ هي لام العاقبة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ يحملون أيضاً من أوزار الذين يضلّونهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير علم ولا فهم من العوام والجاهلين الذين ضلّوا بسببهم ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ما أسوأ هذا النوع من الحمل الذي يحملون من دنياهم لآخرتهم،

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل مكرهم السيىء، فضلّوا، بزعمهم أن الوحي مجرّد أساطير وأنكروا الآخرة والحساب، الآيات (٤ و ٢٢ و ٢٤)، وهذه ظاهرة تتكرر على مر العصور، لأنّ الإنسان مكرّم بالعقل من جهة وبحرية الخيار من جهة ثانية، فإذا هو خصيم مبين ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ في الآية من المجاز الواضح والتمثيل ما فيها، فهي

تشير إلى سننه تعالى في المجتمعات والأمم التي تخفق في الاستفادة من العقل والوحي والحرية على النحو السوي فتتفسّخ ويحين أجلها الدنيوي، فتنهار المجتمعات والحضارات والدول ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي كانوا يستعجلون وقوعه تحدّياً وتهكّماً، الآية (١)، ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ إذ الفساد يتغلغل فيهم شيئاً فشيئاً، ويدبّ الشرك الخفي فيهم فيستكبرون، ويلهثون وراء دنياهم ويعبدون شهواتهم ودنياهم وأوهامهم، وهم غارقون في غفلتهم من حيث لا يشعرون،

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ فضلاً عن الخزي الذي لحقهم في الحياة الدنيا المشار إليه آنفاً ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ في زعمكم واعتقادكم؟ ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ فجعلتم أنفسكم وأوهامكم وعبوديتكم للمادة في شقّ، والمؤمنون والإيمان والوحي في شقّ آخر، فيمتنع الجواب عليهم، فيقول الذين أوتوا العلم: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين استفادوا من الدلائل العقلية والوحي ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهي العاقبة الطبيعية لما كانوا عليه في دنياهم من الجحود والغفلة،

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨)

٢٨- استمرار الخطاب من الآية المتقدمة أي: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهُم:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظلموا أنفسهم بالجحود والنكران وعبادة الدنيا، حتى حان أجلهم قبل أن يتوبوا، فعرّضوا أنفسهم للعذاب المقيم في الآخرة ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ بخلاف ما كانوا عليه في دنياهم من الشقاق والتكبّر، لم يكن بوسعهم سوى الاستسلام والانقياد والخضوع في أول

دخولهم عالم الغيب، وخروجهم من عالم المشاهدة، فيقولون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يظنّون أنهم كانوا مصلحين في الأرض، أو يقولون هذا القول وهم يكذبون على أنفسهم ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حيث أخرجتم نواياكم السيئة إلى نطاق العمل، فلن تنفعكم اليوم أعذاركم الفاسدة،

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ نتيجةً لازمة لما كنتم في دنياكم، فلا ينفع الإيمان والإقرار بعد الفوات ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس الاستكبار الذي أوردكم هذا المورد،

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٠)

٣٠- بعد أن أوضحت الآيات (٢٢-٢٩) أحوال المستكبرين منكري الآخرة، توضح بالمقابل الآيات (٣٠-٣٢) أحوال المتقين:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ كما قيل للمستكبرين منكري الآخرة، الآية (٢٤)، ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ لأنّ الوحي هو الخير المطلق، في حين زَعَمَ الجاحدون أنه أساطير الأولين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العمل ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ولا يشترط كون هذه الحسنة مادية، فالمؤمنون يتمتعون في دنياهم بالسكينة والطمأنينة والسلام الروحاني ما لا يعرفه الكفار والغافلون ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار النعيم المقيم في الآخرة كما سيأتي وصفه:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣١)

٣١- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ النعيم الدائم ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الهوى والغفلة والتشنج الفكري، وهُم الموصوفون في الآية التالية:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في حالة من الطهارة الروحية الداخلية ﴿يَقُولُونَ﴾ لهم وقت خروجهم من الدنيا ودخولهم عالم الغيب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ انعموا بالسلام، لا خوفٌ عليكم في الآخرة، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الخير في دنياكم، لأن العبرة بالعمل وليست العبرة بالأقوال والتمنّي،

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣)

٣٣- بعد أن أوضحت الآيات (٣٠-٣٢) مآل المتّقين الطيبين بعد الوفاة، يعود الخطاب لبيان أحوال الكفار المشار إليهم بالآيات (٢٤-٢٩):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الموت فيفوت أوان التوبة ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فيحين قضاؤه المشار إليه بالآية (١)، والمغزى أنّ الأجل أقرب بعيد، فالواجب الإفاقة من الغفلة قبل الفوت ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المعاندين المنكرين، أصرّوا على الغفلة والتشنّج حتى جاءتهم ملائكة الموت ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ لأن العاقبة مترتبة على العدل، انظر الآية (٢٨)، ﴿وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالعناد والاستكبار والجحود والنكران،

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ انعكس عملهم السيء عليهم سلباً فدمّر إمكاناتهم الروحية والأخلاقية حتى انتهى بهم إلى عذاب الآخرة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الرسالات السماوية والوحي،

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥)

٣٥- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لم يكتف المشركون بإنكار الآخرة، الآية (٢٢)، والزعم أنّ القرآن الكريم أساطير الأولين، الآية (٢٤)، بل أضافوا التشكيك بحرية الخيار التي منحها تعالى للبشر، فزعموا، تهرباً من مسؤوليتهم الأخلاقية، أن لا خيار لهم فيما هم عليه من العقيدة، وأرجعوا شركهم إلى المشيئة الإلهية ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المصرّين على الضلال ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ليس على الرسل قهر الناس على الخيار الصحيح، لأنّ القهر يناقض الحكمة من التكليف، والمشيئة الإلهية المتمثلة في علم الله القديم الذي هو من صفات الألوهية لا يستوجب إلغاء الإرادة الفردية،

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ فلم يبقَ لأحد عذرٌ بالجهل، والخطاب مرتبط بالآية (٩) أن الله تعالى يرشد الناس إلى السبيل القويم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده، واتقوا الشرك بكل أشكاله لما فيه من حط لكرامة البشر، ولانعكاسه سلباً على نمو الإنسان الروحي والأخلاقي ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ من رؤوس الشر والضلال ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ بلطف الله وتوفيقه لمن حافظ على سلامة الفطرة فاستفاد من الهدي الإلهي ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ بعناده واستكباره وسوء استعداده فيخليه الله تعالى لنفسه ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لأن سننه تعالى في خلقه لا تتغير،

﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ أيها النبي، أو أيها الداعية، أو أيها المسلم في كل زمن وفي أي مكان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ لا يحبر المعاندين والمكابرين الذين حقّت عليهم الضلالة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ولا عبرة بما قد يكونون عليه من متاع الدنيا الزائل،

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مما يدلّ على أنهم مؤمنون بالله، سوى أن إيمانهم غامض لا يترتّب عليه شيء، فقد أشركوا مع الله أوهامهم وأهواءهم ودنياهم وجعلوا المادة منتهى همّهم ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ ينكرون البعث تعامياً عن مواجهة مسؤولياتهم الأخلاقية لكي يتصرفوا في الدنيا على هواهم ﴿بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس يعتمدون الظن والتخمين وينكرون الوحي، وقد يبتدعون في ذلك نظريات فلسفية ويدّعون ما يسمّونه "العلمانية"، مع أن العلمانية تفيد العلم بالشيء، وهي صفة المؤمنين العالمين بحقيقة الوحي،

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فتُحسم الأمور ويتبيّن على وجه اليقين الحق من الباطل ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ يظهر للكفار ما كانوا عليه من الكذب على أنفسهم، وهذان السببان من موجبات البعث،

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يعجزه تعالى شيء، فما وجه الغرابة في البعث من جديد؟

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

٤١- الذين هاجروا في أثناء البعثة النبوية من مكة إلى الحبشة أولاً، ثم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل فتح مكة في رمضان العام ٨ هجرية، هرباً من الاضطهاد الديني، وبعد ذلك صارت الهجرة تعبيراً عن ترك دار الكفر في أي زمن، وقد تكون هجرة روحانية بحتة، وليست هجرة مكانية بالضرورة من مكان إلى آخر:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾ فتركوا دار الكفر، وهي في هذه الحالة هجرة روحانية بحتة، لأن مقارنتهم مع المصرّين على الكفر المشار إليهم في الآيات (٣٧-٣٨)، العاملين في اضطهاد غيرهم من المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فينعمون بالراحة النفسية وبالسكينة وبالطمأنينة، وليس بالضرورة بالنعم المادية ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كان المصرّون على الكفر يعلمون ذلك لآمنوا،

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مشاقّ الهجرة ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بعد أن اتخذوا للأمور ما يستطيعون تدبيره دنيوياً، أرجعوا الأمور كلها إلى الله فيما لا يملكون من الإمكانات العادية،

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)

٤٣- بعد أن ذكرت السورة إصرار المشركين على الشرك، الآية (١٧)، وزعمهم أن القرآن ليس سوى أساطير الأولين، الآية (٢٤)، وأنهم مقيّدون بالجبرية وتقليد الآباء والأجداد، الآية (٣٥)، أضافوا القول إن محمداً ﷺ لم يكن سوى بشر فكيف يوحى إليه؟ وهو ما تجيب عليه الآية:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ الرسل المبعوثون إلى كل الأمم، كالمشار إليهم في الآية (٣٦)، لم يكونوا سوى بشر ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الذين أوتوا فهم الوحي في القرآن والكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين، بل تتخبّطون في الظنّ،

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة أي: ما أرسلنا قبلك، أيها النبيّ، إلاّ رجالاً نوحي إليهم بالآيات البينات، وبالزُّبر، وهي الكتب المقدّسة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وهو القرآن الكريم تذكيراً بالميثاق المأخوذ على الناس في الأصلاب ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فتفصّل للناس ما أجمله القرآن ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في معانيه،

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥)

٤٥- ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ بابتداع النظريات الفلسفية التي تنكر وجود الله، وتنكر الأخلاق والقيم ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ فيكون دمارهم كاملاً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ فيتغلغل الفساد فيهم شيئاً فشيئاً،

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ فجأةً، وهم يتقلّبون في شؤون حياتهم المعتادة ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لا يستطيعون تفادي نهايتهم المحتومة،

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ التخوّف التنقّص، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء ٢١/٤٤]، أي إن الأمم والدول الفاسدة اجتماعياً وأخلاقياً تتعرض للانكماش والنقصان

شيئاً فشيئاً حتى يحين أجلها المحتوم ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ كرّم الناس بالعقل وبعث الرسل وبيّن الحق من الباطل، وأمهل الكفار لعلهم يتفكرون ويتوبون قبل الفوات،

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨)

٤٨- وهنا تنتقل الآيات (٤٨-٥٠) لبيان بعض مظاهر الإعجاز في الخلق، التي غفل عنها الذين مكروا السيئات المشار إليهم آنفاً:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ معجزة الظلال التي تتحرك مع حركة دوران الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق، فيتحرك نور الشمس من الشرق إلى الغرب، وتتحرك الظلال من المغرب نحو المشرق في أثناء الفترة ما بين الشروق إلى الغروب ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ منقادون لقدرة الله تعالى وتدبيره ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، منقادون لسننه تعالى،

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩)

٤٩- بعد أن ذكرت الآية السابقة انقياد المخلوقات الجماد لسننه تعالى فيها، تذكر هذه الآية انقياد كافة المخلوقات الحية أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ سجود انقياد لسننه تعالى في خلقه ﴿مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ المخلوقات من الدواب ذوات الأجسام المادية، والمخلوقات غير المادية كالملائكة، كلها منقادة له تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ منقادون لخالقهم بلا خلاف،

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لأن ذلك من طبيعة خلقهم، ودوافعهم الذاتية، بخلاف الإنسان الذي يتمتع بحرية الإرادة، إذ يستطيع

الاختيار بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل، فهو لذلك غالباً ما يخطىء ويرتكب الآثام، ومع ذلك فهو خاضع لسنة الله في خلقه لجهة السبب والمسبّب، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد ١٣/١٥]،

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥١)

٥١- بعد أن ذكرت الآية (٢) إنذار الوحي للناس أن لا إله إلاّ الله، والآيات (١٦) و (٢٠) أن الآلهة المزعومة لا تقدر على شيء من الخلق، تضرب هذه الآية مثلاً بعقيدة المثنوية:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ كما هي الحال في العقيدة الزرادشتية عند الفرس الذين كانوا يعتقدون بثنائية الآلهة: إله النور: أهورامازدا، وإله الظلام أهريمان، وفي هذه الآية من الإعجاز، لأن عقيدة المثنوية لم تكن معروفة في جزيرة العرب وقت البعثة النبوية، ولم يطلع عليها العرب إلا بعد الفتوحات ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله إلاّ هو ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ الله وحده يستحق الطاعة والرهبة، بخلاف الآلهة الخيالية المزعومة التي لا تقدر على شيء، والآيات التالية (٥٢-٦١) تحشد البراهين على ذلك:

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كل مخلوق معتمد عليه بالكلية ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي دائماً، ويقال واظب على الشيء وواصب عليه أي داوم، والدين بمعنى الانقياد ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ لأن الآلهة الوهمية في منتهى العجز،

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وحده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ من مرض أو بلاء ﴿فَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَجْأَرُونَ﴾ تتضرّعون إليه بالدعاء، وتنسون ما تشركون،

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٥٤)

٥٤- ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ رَفَعَ ما مسّكم من الضرّ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يتجدد إشراكهم به تعالى، بعبادة آلهة وهمية، أو بالجري وراء أطماع دنيوية بحتة، وينسبون كشف الضرّ إلى حولهم وقوّتهم، أو إلى "الحظ"، أو إلى أسباب مادية بحتة،

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم المادية والروحانية، ونعمة كشف الضرّ عنهم، واللام لام العاقبة، أي عاقبة تضرعهم لم تكن إلاّ كفراً ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بكشف الضر عنكم حتى حين، لأن الله تعالى يمهلهم للتوبة، ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم،

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦)

٥٦- الخطاب متعلق بالآيات الثلاث السابقة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يعلمون أن الله تعالى خالقهم ويضرّهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون من الآلهة الوهمية، نصيباً في الألوهية، فيعتقدون أنها تضرهم وتنفعهم ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ لأن الإنسان في موقع المسؤولية، فسوف يحاسب المفترون على افترائهم الكذب،

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ لأنهم زعموا في الجاهلية أن آلهتهم الوهمية، اللات والعزّى ومناة، بنات الله، كما زعموا أن الملائكة بنات الله أيضاً، وهذا الزعم يتكرر عند المسيحية بشكل آخر، إذ يقولون إن عيسى المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له تعالى عن نسبة الولد إليه ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الأولاد الذكور، أو من متاع الدنيا الزائل الذي يلهثون وراءه،

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى﴾ وهي بشارة تليق أن تكون سارّة، لأن المولود ذكراً كان أم أنثى، هبة منه تعالى تستحق عطف الوالدين ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ سواد الوجه كناية عن الغم والحزن والكراهية ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يكظم غيظه،

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ يختفي عن الأنظار ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ بزعمه، لأنهم كانوا يكرهون الأناث خوف الفقر والعار ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أيمسك ما بُشّر به؟ أي الأنثى، على هون منه لها، أو يرضى بهوان نفسه رغم أنفه ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يلسّ ما بُشّر به، أي الأنثى، فيخفيها في التراب، وهي عادة وأد البنات في الجاهلية ﴿أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ من كراهيتهم الأنثى، وعادة وأد البنات، فليس أسوأ من حكمهم فيها،

ومع أن الآيات (٥٧-٥٨-٥٩) تدور حول عادة وأد البنات في الجاهلية إلاّ أنها ذات مغزى أعمّ ينطبق في كل العصور، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧)، أي إنّ الكفار أو المشركين في كل العصور يريدون أن تسير الأمور على هواهم بلا رادع أخلاقي، ولا مسؤولية ولا حساب، ولذلك فإنهم ينكرون البعث والحساب والآخرة تهرباً من مسؤولياتهم الأخلاقية التي يواجههم بها القرآن، وهو ما تشير إليه الآية التالية:

﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي لهم صفة السوء بنتيجة إنكارهم الآخرة والمسؤولية، وما يترتب على ذلك من اتباع الهوى وارتكاب قبائح الأعمال ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي صفة العلوّ مطلقاً عن صفات المخلوقين، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنفرد بكمال

القدرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ يفعل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة، كما هو مشار إليه في الآية التالية:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١)

٦١- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ المراد بالدابة الكافر، لقوله: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف ١٧٩/٧]، أي لهلكوا على الفور بلا إمهال ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لعلهم يتوبون، ويرجعون عن غيّهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ منتهى العمر ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقتئذٍ يفوتهم أوان التوبة، فيلاقوا الجزاء المترتب على أعمالهم،

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ليس فقط أنهم ينسبون البنات لله تعالى، وهو ما يكرهونه لأنفسهم، بل ينسبون له من الشركاء المزعومين، ما يكرهونه لأنفسهم أيضاً، فهم يكرهون أن يشاركهم أحد في زعاماتهم ومناصبهم ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ وهذا من قبيل التمني، إذ يعتبرون أفكارهم الدينية، أو اللادينية، جيدة في نظرهم، بالرغم من سخافتها وتهافتها، ويكذبون على أنفسهم أن الله تعالى سوف يكافئهم عليها، في حال كانت هنالك آخرة، والآية التالية تشرح حالهم بأن الشيطان زيّن لهم أعمالهم فجعلها تبدو جيدة في نظرهم ﴿لا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ نتيجةً طبيعية لكذبهم على أنفسهم ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ مفرطون على أنفسهم بارتكاب الذنوب، ولذلك هم مفرَطون في النار، أي متروكون فيها،

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إرسال الرسل إلى الأقوام كان مستمراً منذ الخليقة، فما وجه الغرابة في بعثة خاتم الأنبياء والرسل إلى الناس

كافةً؟ ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ جعل أعمالهم وأفكارهم ونظرياتهم الفلسفية تبدو حسنة في نظرهم، وهي لا تعدو إنكار الآخرة والحساب والمسؤولية الفردية، كي يتصرفوا في الدنيا على هواهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة، وأيضاً هو وليّ كفار قريش اليوم أي وقت البعثة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذاب مرتبط بسلوكهم الدنيوي كارتباط السبب بالمسبّب،

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فليس من مبرر لمعارضتهم القرآن بل كان يجدر بهم، كما يجدر بذوي العقول السليمة في كل الأوقات أن يتقبلوه بصدر رحب لأن ما فيه يطابق العقل السليم، ما يمنع الاختلاف والتخبط في نظريات فاسدة ﴿وَهُدًى﴾ يبين طريق الهداية من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ الرحمة هي الوحي، انظر آية [هود ١١/٦٣]، لأنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ منفتحو الذهن الذين لديهم قابلية للإيمان، أما المكابرون والمعاندون، فأولئك لهم شأن آخر،

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٥)

٦٥- بعد أن بينت الآيات السابقة أن الكفار والمشركين يريدون أن تسير الأمور على هواهم بالمطلق، لذا يخشون مواجهة مسؤولياتهم الأخلاقية فينكرون الآخرة والحساب، ويتخبطون بابتداع النظريات الفلسفية من عندهم، ينتقل الخطاب هنا في الآيات (٦٥-٨١) لبيان آيات الله الآفاقية وما فيها من الإعجاز المذهل ما يراه الغافلون أموراً بديهية مسلماً بها:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فما الذي يمنع بعث الإنسان بعد موته؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يسمعون سماع فهم وتفكّر،

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ لمن يتأمل ويفكّر في معجزتها ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي نسقيكم مما في بعض بطونه اللبن ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ من بين المواد التي يطرحها الجسم، وبين الدم الذي يغذي الدورة الدموية ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾ تفرزه الغدد ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ تستسيغه أذواق الشاربين،

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السَّكَر الخمر، وسمّيت بالمصدر من سكرَ سَكَراً وسُكْراً، والمقارنة هنا بين منافع النخيل والأعناب، فمنها ما يستخرج منه الخمر، ومنها ما يكون رزقاً حسناً، فألمحت الآية أن الخمر ليس بالرزق الحسن، وهذا أول ما ورد في القرآن الكريم من التدرج نحو تحريم الخمر، وقد نزلت بعدها آيات [البقرة ٢/٢١٩] و [النساء ٤/٤٣] وآية [المائدة ٥/٩٠] التي حرمت الخمر نهائياً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ معجزة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذوو العقول المنفتحة،

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨)

٦٨- وهذا مزيد من معجزاته تعالى في خلقه: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ فجعل ذلك الوحي من غريزتها ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ومن العرائش أيضاً اتخذي بيوتاً، ومن للتبعيض، فهي ليست في كل جبل وشجرة وعريشة، والبيوت المشار إليها مكوّنة من شهد العسل الذي ينيبه النحل على أشكال هندسية مخروطية سداسية رائعة الشكل، وهي اقتصادية جداً في الحجم وفي المواد المكوّنة لها،

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من أزهارها وطلعها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ في الطرق التي ألهمك تعالى صنع العسل ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ وهو العسل تختلف ألوانه باختلاف أنواع الزهور وأعمار النحل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يشفي الكثير من الأمراض، وتنكير ﴿شِفَاءٌ﴾ بمعنى أن ليس كل الأمراض يشفيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ معجزة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتفكرون في هذا الإعجاز وكيفية حدوثه، ما يغفل عنه الغافلون،

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠)

٧٠- مزيد من بيان الإعجاز في خلق الإنسان: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ في أجلكم المحدد في علم الله القديم، فيأتيكم الأجل في سن الشباب أو الكهولة ﴿وَمِنْكُمْ﴾ من للتبعيض، أي ليس كل الناس يردّون إلى أرذل العمر ﴿مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الهرم عندما يستولي الضعف على الجسم والعقل والذاكرة ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فيفقد التركيز وينسى كل معلوماته أو أكثرها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ مهيمن عليها،

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١)

٧١- هذه الآية مثل ضربه الله تعالى للذين جعلوا له شركاء يدعونهم من دونه:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الناس متفاوتون في أرزاقهم وغناهم تبعاً لحركة الأسباب والمسببات ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ما ملكت أيمانهم هم أسارى الحرب الدينية الدفاعية في سبيل الله، الذين آلَ مصيرهم إلى العبودية، وفي الوقت الحاضر هم الذين

يعتمدون على غيرهم في معاشهم، كالعمال الذين يصبحون من مسؤولية أرباب العمل، فإذا كان الله قد فضّل بعضهم على بعض في الأرزاق، فالذين فُضّلوا لا يقبلون التنازل عمّا يملكون من امتيازات للذين فُضّلوا عليهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ حتى يصبحوا هم وما ملكت أيمانهم على مستوى واحد في الرزق، فمن البديهي أنهم لا يقبلون ذلك، فكيف للمشركين أن يساووا الله تعالى الذي بيده مقاليد الأمور كلها مع الشركاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ كيف لهم إنكار النعمة التي فضّل بعضهم على بعضٍ بها؟ في حين لا يقبلون التنازل عن امتيازاتهم للذين فُضّلوا عليهم؟

ومع ذلك فقد أوضح الحديث الشريف أن الذين فُضّلوا على غيرهم بالرزق يجب أن يعاملوا الذين فُضّلوا عليهم كإخوان لهم، فقد روى البخاري وغيره عن النبي ﷺ قوله: «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليُعنه عليه».

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

٧٢- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ المرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، كلاهما زوج الآخر ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الرزق الطيب الحلال ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يؤمنون رغم ذلك بالأصنام وبالأوهام وبالشركاء المزعومين؟ ويحرّمون الطيبات على أنفسهم ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ويكفرون بما أنعم عليهم الله تعالى من الرزق؟ بل قد يزعمون أن الرزق جاءهم عن طريق الشركاء الذين يتوهمون؟

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣)

٧٣- استمرار الخطاب من الآية السابقة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأصنام والشركاء والأوهام ﴿مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا﴾ المعبودون لا يملكون شيئاً من الرزق المادي أو المعنوي ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ شيئاً البتة،

﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ لا تشبهوه بخلقه، سبحانه وتعالى عمّا يصفون، فهو أعلى وأجلّ أن يحيط به أي تعريف ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ علم اليقين ﴿وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ العلم الحقيقي،

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ عاجز عن القيام بأي شيء، فهو مملوك من جهة، وليس من شيء يتصرف به من جهة أخرى، وإمكاناته العقلية والمادية تقارب الصفر ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ينفق من رزق الله المادي والمعنوي ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الجواب الواضح أنهم لا يستوون، فإن كان الأمر كذلك، كيف للكفار أن يدّعوا المساواة بين الله تعالى الذي له مقاليد الأمور، وله ما في السماوات والأرض، يرزق عباده من مؤمن وكافر، وبين الأصنام العاجزة التي لا تقدر على شيء؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنهم لا يستطيعون إنكار ذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ بل هم جهلة، يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم شيئاً، ولا يستطيع لهم ضرّاً ولا نفعاً،

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ مفيد ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ هو عبء عليه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فلا يستفاد منه بشيء البتة ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ الجواب بالنفي طبعاً، فكيف يحكمون بأن الصنم الجماد، أو الأموات، أو الأضرحة التي يعبدونها، مساوية لرب العالمين في استحقاق العبادة؟

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧)

٧٧- هذه الآية مرتبطة بالآية (٧٤) التي تنص أن الله تعالى محيط بالعلم الحقيقي ما لا يحيط به بشر: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فما يعلمه الإنسان من عالم الغيب أقل القليل، وهو ما ذكره القرآن في الآيات المتشابهات ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ لقوله تعالى: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ [الأعراف ١٨٧/٧]، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ لعدم وجود أي فارق زمني بين قوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وبين وقوعها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، والآيات التالية تبين المزيد من دلائل القدرة:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

٧٨- مزيد من دلائل القدرة والإعجاز: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أطفال عاجزون معتمدون بالكامل على أمهاتهم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ أنشأكم من تلك الطفولة العاجزة إلى إنسان بالغ عاقل يتمتع بالسمع العادي، وسمع الفهم، والإبصار العادي، والاستبصار، والعقل والتحليل الفكري ما يمكنه من السيطرة على البيئة من حوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بالشكر القولي والعملي لهذه النعم التي ترونها مسلّماً بها،

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ خاضعون لقوانينه تعالى في الطبيعة، وقد جعل لكل شيء سنة من سننه ترتبط

فيها المسببات بأسبابها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لديهم قابلية للإيمان، غير جاحدين، ولا مكابرين ومعاندين،

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ تميلون فيها إلى السكينة والطمأنينة وراحة الجسد والروح، وجعل للسكن حرمة معنوية، انظر آية [النور ٢٤/٢٧] ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ كما هي الحال عند البدو ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ فهي خفيفة الحمل في أسفاركم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ عندما تقيمون فيها ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا﴾ تتخذون منها فرشاً وبسطاً وثياباً وكسوةً ﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ تتمتعون بها حتى تبلى،

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

٨١- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ تقيكم أشعة الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ الكهوف والمغاور ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ ثياباً ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وتقي البرد أيضاً، لأن ما يقي الحر يقي البرد ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ وهي الدروع ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أموركم لله وتخضعوا له،

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الرسالة، بعد كل هذه الدلائل القاهرة المشار إليها في الآيات المتقدمة (٦٥-٨١) ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ أيها الرسول، أو أيها الداعية، أو أيها المسلم ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وليس عليك إلجاء الآخرين إلى الإيمان قسراً لأن الله تعالى كرّم الإنسان بحرية الاختيار،

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ نعمه الكثيرة المشار إلى بعضها آنفاً ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ جحوداً واستكباراً ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الأكثرية يغطّون الحقيقة عن أنفسهم،

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤)

٨٤- بعد أن بينت الآية السابقة أن أكثر الناس كافرون يتعامون عن الحقيقة، تصف الآيات (٨٤-٨٩) مآلهم بعد خروجهم من الدنيا ودخولهم الآخرة:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهم الأنبياء يشهدون، رمزياً، على أممهم أنهم بلّغوا الرسالة فأصبح الحق واضحاً من الباطل ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يؤذن لهم التكلم بأعذار فاسدة ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يسمح لهم بالاستعتاب وهو طلب الرضا من الله تعالى، بالدعاء أو العمل يصححون به أخطاءهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، وباب الدعاء والعمل قد أغلق بالخروج من الدنيا وبالدخول في الآخرة،

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ المترتب على أعمالهم في الدنيا، لأن الآخرة ليست سوى استمرار لها ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ بمقتضى العدالة، لأن حجم العذاب يتناسب وحجم المعصية والانحراف ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يُمهَلون للعودة إلى الدنيا، وأوان التوبة قد فات،

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، أو ينسبون لهم من صفات الألوهية، أو زعماءهم الذين كانوا يطيعونهم في

التحليل والتحريم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ أضلّونا وأكرهونا على الشرك، وزيّنوا لنا سوء أعمالنا ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كنتم تكذبون على أنفسكم، لأن الأتباع جحدوا نعمتيْ العقل والوحي، فتبرّأ المتبوعون من الأتباع، و لم يتحمّلوا أية مسؤولية عنهم،

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ استسلم الأتباع والمتبوعون إلى الله من موقع العجز، بعد أن كانوا يرفضون أوامره ونواهيه في الدنيا في ظل حرية الإرادة التي كانوا يتمتعون بها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من نظريات فلسفية كانوا يتلاعبون بها، أو ما كانوا يفترون من صفات الألوهية في شركائهم،

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

٨٨- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لم يكتفوا بكفرهم بل أضافوا إليه أن صدّوا الآخرين عن سبيل الله، عن طريق البعثات التبشيرية، أو عن طريق القسر والإكراه والاضطهاد ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ العذاب الذي يقتضيه كفرهم، والعذاب المترتب عن إضلال الآخرين ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بنتيجة إفسادهم في الأرض، ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد ٤٧/١]، فتذهب أعمالهم هباءً، حتى "الحسنة" منها،

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم القيامة تشهد الرسل على الأمم بأن الرسالة بلغتها ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أيها النبي ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء﴾ على أمة الإسلام ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بعد أن

نزّلنا عليك القرآن تدريجياً، بياناً لكل ما يحتاجه الناس في حياتهم، في التفريق بين الحق والباطل، بالمعنى الفردي والاجتماعي لذلك ﴿وَهُدًى﴾ إلى الطريق المستقيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ منه تعالى، لأن الرحمة أيضاً بمعنى الوحي ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا أمرهم لله، بما ينتظرهم في الآخرة،

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)

٩٠- بعد أن ذكرت الآية المتقدمة أن القرآن الكريم نزل على البشرية تبياناً لكل شيء من الحق والباطل، تفصّل الآيات (٩٠-٩٧) بعضاً من ذلك:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ حتى لو كان صاحب الحق كافراً يُعطى حقه ﴿وَالإِحْسَانِ﴾ في العمل، وفي الحديث أن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ العطاء لهم، ودائرة ذوي القربى على درجات، تبدأ من قرابة الدم، إلى قرابة المصاهرة، وتتسع لتشمل العطاء للمحتاجين من كل جنس ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ الأفعال والأقوال القبيحة التي تتجاوز العُرف ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ وهو ما يقابل العُرف، ومضمونه الفعل أو القول الذي تستنكره العقول لقبحه، أو لمفسدته، وضرره ﴿وَالْبَغْيِ﴾ العدوان بالكلام أو بالفعل على الناس ظلماً ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مسؤولياتكم،

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١)

٩١- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ إذا عاهدتم الآخرين وحلفتم الأيمان على عهودكم، كان ذلك بمثابة عهد أمام الله، انظر شرح آية [البقرة ٢/٢٧] ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ لأن من حلف بالله تعالى فكأنه جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب حلفه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيحاسبكم على ما يصدر من أعمالكم إلى حيز التنفيذ،

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ لأن من يبرم العهد مع الآخرين، ويحلف عليه أمام الله ليثقوا في عهده ثم ينقضه، يكون حاله كحال المرأة الحمقاء التي تجهد نفسها بغزل الصوف ثم تنقضه بعد ذلك، فكأنها نقضت غزلها أنكاثاً، أي نكثت أنكاثاً، والنتيجة أن أعمالكم تذهب هباءً ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تتخذون الأيمان وسيلة لخداع الناس وخيانتهم، إذ تعاهدونهم وتحلفون الأيمان بنيّة النكث ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من أجل التفاضل فيما بينكم بأساليب الخداع والغش والخيانة لأغراض دنيوية محضة ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم الله تعالى بحرصكم على مادة الدنيا إذ تتهالكون عليها ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير أو شرّ، فيحاسبكم عليه،

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الخير، فلا يكون منكم من يحلف الأيمان ثم ينقض العهد جرياً وراء مكاسب الدنيا الفانية، ولكن ذلك يصبح أمراً قهرياً منافياً للحكمة الإلهية من خلق الإنسان مختاراً ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ فلا يجبره على الهدى، بل يخلّيه لنفسه ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الهداية، فيوفقه إليها ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن الحساب مترتّب على العمل الذي يخرج من حيز التفكير والتخطيط إلى حيز التنفيذ،

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ هذه الآية تبيّن أن من يتخذ الأيمان الكاذبة وسيلة للوصول إلى مكاسب دنيوية عن طريق خداع الأخرين، يوول به ذلك إلى الزلل، والمعنى أنه ينحطّ إلى خُلُق حديد يَسِم شخصيته بالسوء ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ بالمقابل ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بسبب صدّكم عن سبيل الله بأساليبكم الملتوية، وبسبب خيانتكم ودجلكم، فأفسدتم العقيدة والسلوك، وساهمتم في التفسخ والفساد الأخلاقي للمجتمع ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إن في الدنيا بنتيجة فساد المجتمعات وتفسخها، أو في الآخرة عذاباً عظيماً متناسباً مع حجم الجريمة، أو كلاهما معاً،

﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بحلف الأيمان الكاذبة ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من حطام الدنيا الزائل ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب والأجر على المحافظة على العهد، والاستقامة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من نكث العهود ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين،

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من متاع الدنيا ﴿يَنْفَدُ﴾ بحلول الأجل، أو قبله ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر والثواب ﴿بَاقٍ﴾ لكم في خلود الأخرة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أجر الصابرين على مصاعب الدنيا متناسب مع أحسن أعمالهم إطلاقاً، وهذه مزيّة كبرى للصبر،

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ اشترط الإيمان مع العمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ

سَرِيعُ الْحِسَابِ [النور ٣٩/٢٤]، أي إنّ العمل "الصالح" مع الكفر يذهب هباءً، وذلك ارتباط هذه الآية مع ما قبلها لأن الذين نقضوا عهد الله بحلف الأيمان الكاذبة صاروا بمنزلة الكفار لا ينفعهم عملهم "الصالح"،

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ينعم فيها بالسكينة والطمأنينة، وليس بالضرورة بالمتاع الدنيوي الزائل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما يتناسب مع أحسن أعمالهم، وليس أقلّها،

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨)

٩٨- بعد أنْ فصّلت الآيات (٩٠-٩٧) بعض ما ذكرته الآية (٨٩) أن الله تعالى نزّل القرآن تبياناً لكل شيء، تبيّن هذه الآية أن قراءة القرآن يجب أن تكون بعيدة عن وساوس السوء لكي يُفهم القرآن على وجهه الصحيح: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ﴾ وسواس ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾،

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩)

٩٩- ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فلا يستطيع قهرهم على إرادتهم ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بعد أن يتخذوا للأمور عدتها الدنيوية،

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يخضعون له ولوساوسه، وما يثيره فيهم من قيم زائفة، وأخلاق ومناهج فاسدة يتّبعونها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ فيعبدون المادة الدنيوية والزعامة والسلطة،

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١)

١٠١- عودة الخطاب إلى الآية (٢)، وإلى الآية (٨٩) أن الله تعالى نزّل القرآن تبياناً لكل شيء، ومن ذلك ما ذكرته الآيات (٩٠-٩٧)، وما أمرت به الآيات (٩٨-١٠٠) من النهي عن تولّي الشيطان، والاستعاذة من وساوسه لدى قراءة القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ رسالة سماوية مكان أخرى، انظر شرح آية [البقرة ٢/١٠٦]، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من القرآن الكريم الذي نسخ ما قبله من الرسالات ﴿قَالُوا﴾ قال الكفار للنبي ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي افتريت القرآن، وجئت به من عندك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ بل يتّبعون الظن والتخمين، ولا يقرؤون القرآن قراءة جدية لتقويمه من حيث جدارته، ومعرفة مصدره الحقيقي، كما سوف يرد في الآية التالية:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ متضمّناً الحق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا وجههم لله،

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٣)

١٠٣- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ زعموا أن النبي ﷺ تعلّم القرآن من بشر، أي من كاهن يهودي أو نصراني، في حين أنّ: ﴿لِسَانُ﴾ الكتاب المقدّس عند اليهود والنصارى، بقسميه العهد القديم، والعهد الجديد ﴿الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يميلون إليه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ لأنه وقت البعثة النبوية لم يكن العهدان القديم والجديد مترجمين إلى اللغة العربية، فالعهد الجديد كان متاحاً إمّا باللغة السريانية، طبعة البسيطة، أو باللاتينية، طبعة الفالجيت الشائعة، أمّا الترجمة العربية الأولى للعهد الجديد فتمت بتاريخ ١٠٦٠م، أي بعد البعثة النبوية بأكثر من أربعة قرون، وهي طبعة موجودة الآن في روسية بمكتبة سان بطرسبرج، ومن باب أولى أنه لم يكن هنالك ترجمة عربية للعهد القديم، مع العلم أن النبي ﷺ كان أمياً على أية حال،

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران ٩٣/٣]، فمعناه من جهة، أنه لم يكن يوجد من العرب من غير اليهود من يقرأ التوراة باللغة اليونانية، وهي الترجمة السبعينية للعهد القديم، ولا مَن يقرأها بالعبرية، ومن جهة أخرى تحداهم القرآن أن يأتوا بتوراة موسى الأصلية، وليس الكتب التي أُلِّفوها من عندهم فلم يبقَ لديهم من أصل الوحي إلاّ أقلّ القليل، ومن إعجاز القرآن أنه أخبر بهذه الأمور مع أنه لم يكن في جزيرة العرب مركز ثقافي ديني ليقوم بنشر أفكار الكتاب المقدس التي طرقها القرآن، وفي ذلك نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت ٤٨/٢٩]،

﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ بإعجازه وإحكامه يستحيل أن يكون من كلام البشر إطلاقاً، ومن باب أولى يستحيل أن يتقوله أحد من غير العرب،

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استكباراً، وتعامياً عن الحقيقة، وتقليداً لآبائهم وأجدادهم ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ مضت سنته تعالى في أمثالهم أنهم لا يهتدون، من تلقاء أنفسهم، والله تعالى لا يجبرهم على الهدى قسراً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ متناسب مع كفرهم، والإصرار عليه،

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٠٥)

١٠٥- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المصرّون على إنكار الألوهية ونبوة الأنبياء ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يفترون الكذب بزعمهم أن القرآن مفترى،

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦)

١٠٦- بعد أن بينت الآية السابقة حال مَن يفترون الكذب، فينكرون الألوهية والأنبياء، ترخّص هذه الآية بذلك لَمِن هُم تحت التهديد القسري،

صوناً لنفوسهم من القتل أو التعذيب لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وبالمقابل تبين الآيات (١٠٧-١٠٩) حال من باع آخرته بدنياه:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فانحرف من موقع الحق إلى موقع الباطل ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ مَن كان كفره ظاهرياً بسبب القسر والتهديد والتعذيب، فلا يؤاخذه الله تعالى عليه، لأن القلب بقي مطمئناً بالإيمان ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ مَن انشرح صدرُه للكفر ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأنهم ارتدّوا عن الإسلام تفضيلاً لدنياهم على آخرتهم، رغم قناعتهم الداخلية بصحة الرسالة الإسلامية،

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ استسلموا لإغراءات الكفر وامتيازاته وشهواته، وفضّلوا دنياهم على آخرتهم، وحاضرهم الفاني على مستقبلهم الذي لا يفنى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ مضت سنته تعالى أن يترك أمثال هؤلاء لخيارهم الحر بسبب خبث سرائرهم ونفوسهم فلا يقسرهم على الهدى،

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨)

١٠٨- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ نسبَ تعالى الطبع إلى ذاته العليّة، مع أن ذلك كان بنتيجة خيارهم الحر، والسبب أنّ الله تعالى هو الذي أوجد السنن في الخلق بأنّ من يعتاد سلوك الطرق المنحرفة، واتخاذ الخيارات الخاطئة، يكون كَمَنْ طبع على قلبه وسمعه وبصره، وليس أن الله تعالى طبع عليهم ابتداءً، انظر آية [البقرة ٢/٧]، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عن حقائق الأمور،

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿لا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم اشتروا دنياهم الفانية بأخراهم،

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٠)

١١٠- بعد أن ذكرت الآيات (١٠٦-١٠٩) حال من أكرهوا على الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، وحال من كفر وقلبه منشرح لمكاسب الدنيا، تذكر هذه الآية حال من يضطر للهجرة بسبب الاضطهاد الديني:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ الفتنة هنا بمعنى الوقوع تحت الاضطهاد الديني مما اضطرهم للهجرة، انظر أيضاً شرح آية [الأنفال ٨/٢٥] في تعريف الفتنة، وقد يكون أنهم هاجروا هجرة روحية، وليس بالضرورة هجرة مكانية ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ ليس بالضرورة جهاداً قتالياً، ولكن جهاد دعوة وإقناع بالحجة والقدوة الحسنة، لقوله تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان ٢٥/٥٢]، ﴿وَصَبَرُوا﴾ على مشاق الدعوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوبهم، ويرحمهم، ويلطف بهم،

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (١١١)

١١١- فارتقبوا أيها الناس: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ يوم القيامة حيث المسؤولية فردية ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ إن خيراً بخير، بفضله تعالى وامتنانه، أو شراً بشرّ مترتباً على العدالة، وليس على الانتقام ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ لأن الله تعالى غير محتاج لظلم عباده،

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢)

١١٢- بعد أن بينت الآيات (١٠١-١١١) مآل الكفار الذين استحبوا الدنيا على الآخرة وأنكروا الوحي والنبوات، تضرب هذه الآية مثلاً بعاقبة المجتمعات التي تكفر نعم الله:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ القرية في التعبير القرآني هي المجتمع، والمعنى أن هذا المجتمع المطمئن الآمن كان يتمتع بأنعم الله الكثيرة، على سبيل الكفاية والترف ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ لم تشكر الله على نعمه، بل ادّعت وزعمت أن كل هذه النعم والرغد ناتجة من استحقاقها وجدارتها وحذاقتها لا غير، بل إنها أنكرت الديانات والرسل، وزعمت ما تسميه "العلمانية" مع العلم أن العلمانية تقتضي العلم بالشيء لا الجهل به وهو ما يأمر به الإسلام ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ تكون العاقبة الطبيعية لمثل هذه المجتمعات التفسخ والفساد الاجتماعي والأخلاقي، فالانهيار، وهو ما نشاهده اليوم في كثير من المجتمعات الغنية المتقدمة، أي إن العقاب يحل بها في الدنيا قبل الآخرة بسبب تغليبها القوانين الوضعية على الشرع الإلهي، ومن ذلك مثلاً أنهم يحلّون اللواط بل يسمحون بالزواج المثلي في كنائسهم، وفي كل ذلك نقض لعهد الله من بعد ميثاقه،

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٣)

١١٣- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ من كل أمة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وزعموا أنهم مكتفون بذواتهم، وخضعوا لقوانين وضعية ابتدعوها ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كنتيجة طبيعية لارتباط السبب بالمسبب ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسهم،

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤)

١١٤- ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا﴾ ولا تبتدعوا التحليل والتحريم من عند أنفسكم، أو بقوانين وتفاسير وضعية ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولا تكونوا كالقرية المشار إليها بالآية (١١٢)،

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٥)

١١٥- استمراراً للآية (١١٢) وما بعدها، تضرب الآيات (١١٥-١١٩) مثالاً من التحليل والتحريم، وتنهى عن التحليل والتحريم الكيفي بلا دليل:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ من الأوثان والنُصُب، انظر بهذا المعنى آية [الأنعام ١٤٥/٦]، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ لا يبتغيه ولا يستسيغه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ لا يتعدّى فيه حاجته أو أو ما يسد رمقه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن الضرورات تبيح المحظورات،

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١١٦)

١١٦- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ الزيف ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ تحللون وتحرمون من عندكم، فتتخذون لأنفسكم حق التشريع ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ما لم يأذن به ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجحون في دنياهم قبل آخرتهم،

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٧)

١١٧- ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يتمتعون في الدنيا فيما استحلّوا من الحرام ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة،

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨)

١١٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ انظر شرح آية [الأنعام ١٤٦/٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتشديد في تحريم ما حرّموه على أنفسهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وفي الحديث: «لا تشدّدوا على أنفسكم، فيُشَدّد عليكم»،

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩)

١١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ عملوا السوء من موقع الجهل، وليس من موقع التمرد والمعصية ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عن معصيتهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد توبتهم ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب التائبين، ويرحمهم،

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠)

١٢٠- هذه الآية متعلقة بالآية (١١٨)، لأن اليهود يدّعون الانتساب إليه، ويزعمون لذلك أنهم الشعب المختار، وهو ما ينفيه القرآن الكريم تماماً أن الاكتفاء بالنسب وحده لا يفيد:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ اجتمعت فيه كل الفضائل، فحقّ أن يسمّى أمّة يؤتمّ به ﴿قَانِتًا﴾ مطيعاً ﴿لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ مستقيماً، مائلاً عن الباطل إلى الحق ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل عاش التوحيد في فكره وروحه ووجدانه،

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١)

١٢١- ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ تعالى ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اختاره الله واصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله، والترغيب في الدين الحق،

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢)

١٢٢- ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي النبوة، حتى أن كل أهل الأديان يقرون به ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣)

١٢٣- ﴿ثُمَّ﴾ عندما بلغ الوحي على الإنسانية ذروته ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أيها النبي ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كل ما هو باطل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المقصود إحياء شرعة إبراهيم في التوحيد،

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤)

١٢٤- وهنا يعود النص إلى فحوى الآية (١٠١) إنّ القرآن الكريم نسخ ما قبله من الرسالات:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ﴾ تعظيم ﴿السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهم اليهود، وقد بالغوا في تعظيمه حتى منعوا عمل الخير فيه، وحتى شفاء المرضى جعلوه محرماً في السبت، حتى قال لهم عيسى عليه السلام: هل جُعل السبت من أجل الإنسان؟ أم الإنسان من أجل السبت؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهو زعمهم أنهم شعب الله المختار، استعلاءً واستكباراً على غيرهم من الأمم، وإن المسؤولية فردية لا علاقة لها بالنسب والسلالة،

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

١٢٥- بعد بلوغ الوحي السماوي ذروته بنزول القرآن الكريم، الذي نسخ الرسالة اليهودية (الآية ١٠١)، وبعد أن كفر بنو إسرائيل بعثة آخر أنبيائهم العظام عيسى عليه السلام، لم يبقَ سوى بيان طريقة الدعوة إلى الإسلام، بما يتناسب مع قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦]:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ بما يتناسب مع كل حالة من الحالات، ومع المستوى الفكري للطرف الذي أنتم بصدد دعوته، بعيداً عن الجمود والتشنج الفكري ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الرفق في الموعظة لتأليف القلوب النافرة، والبعد عن الزجر والتأنيب ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالابتعاد عن الطعن في كبرياء الآخرين وكرامتهم، فالجدل ليس مباراة فكرية القصد منها إحراج الآخرين والشعور بالتفوق عليهم، بل كسب الخصوم إلى صف الدعوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ المعنى أن الداعي

الكفو مكلف بالدعوة بإحدى هذه الأساليب الثلاثة، ثم تنتهي مهمته، وأما حصول الهداية فلا يتعلق به، لأنّ الله تعالى أعلم بالمصرّين على الضلال، وأعلم بالذين لديهم قابلية للهدى،

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦)

١٢٦- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة: والمعنى إن اضطررتم إلى الرد على التهجّم الفكري من قبل مَن تدعونهم إلى الإسلام ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فليكن ضبط النفس رائدكم بعيداً عن الحمق، وأن يكون الرد عليهم متناسباً مع قولهم دون زيادة ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ على مزاعمهم وتهجّمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من حيث النتيجة، لأن الأولى ترك الانتقام، والرحمة أفضل من القسوة،

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧)

١٢٧- ﴿وَاصْبِرْ﴾ وهو أمر جازم بوجوب الصبر في مثل هذه الحالات ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ أي بتوفيقه ومعونته ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تحزن بسبب فوت استجابتهم لك ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا يضيق صدرك من مكائدهم ضد الدعوة،

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨)

١٢٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ العدوان والحمق ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ بترك الانتقام،

* * *

سورة الإسراء -١٧-
مكية

مُقَدِّمَة:

نزلت في السنة الأخيرة من الفترة المكية وذلك ظاهر من الإشارة للإسراء في الآية الأولى منها، وقيل بعض آياتها مدنية، وتسمى أيضاً سورة بني إسرائيل،

الإسراء والمعراج

الإسراء والمعراج مرحلتان من خبرة داخلية روحية غيبية واحدة للنبي ﷺ ممّا لم يحصل لغيره البتّة، وقد كانت رؤيا عيان، لا رؤيا منام، انظر قوله تعالى في الآية (٦٠)، إذ رافق جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ ليلة إسرائه من المسجد الحرام في مكة، إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، حيث صلّى النبيُّ إماماً بالأنبياء الذين خلوْا من قبله، ما يفيد أن الإسلام الذي بُعثَ به محمد كان تتويجاً للرسالات السماوية التي سبقته، فنسخ الإسلامُ منها ما نسخ، وبلغ منها حد الكمال، وبذلك خُتمت الديانات، واكتمل التطور الديني للبشرية قاطبةً بمبعث خاتم الأنبياء والرسل ﷺ،

واختلفوا في كون إسرائه ﷺ بالروح فقط، أم بالروح والجسد معاً، فأغلبية الصحابة على أنه كان بالروح والجسد معاً، والقلة، ومنهم أم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين أم هانيء، ومعاوية، والتابعي الحسن البصري، على إن الإسراء كان بالروح فقط، ولعل القائلين إن الإسراء تم بالجسد والروح اعتبروا أن البديل لذلك أن يكون ما رآه النبي ﷺ قد يكون مناماً، ما يقلل كثيراً من أهميته، و لم

يأخذوا بالاعتبار أن خروج روح النبي ﷺ من جسده مؤقتاً في أثناء الإسراء والمعراج، هو إعجاز هائل في حد ذاته، يفوق كثيراً الإسراء بالجسد والروح معاً، لأن خروج الروح من الجسد لا يكون عادة إلا بعد الموت، كما كانت الحال مع الأنبياء الذين صلّى بهم النبي إماماً، ثم التقاهم أثناء معراجه، فقد التقى بهم أرواحاً بعد موتهم، أما هو فقد كان روحاً لا يزال على قيد الحياة الدنيوية، فلا يقلل من واقعية هذه الخبرة الروحية الغيبية العجيبة للنبي ﷺ في إسرائه ومعراجه، قيد شعرة أنها كانت بالروح فقط عمّا لو كانت بالروح والجسد معاً، لا بل إنها تفوق عليها بكثير،

وقد قيل الكثير من الإسرائيليات في تفصيل قصة إسرائه ومعراجه ﷺ، مما لا يقبله عقل، قال الرازي: ومن ذلك ما رُويَ من شقّ بطنه وتطهيره بماء زمزم، وهو بعيد، لأن ما يغسله الماء هو النجاسات العينية، ولا تأثير لذلك في تطهير القلب من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، ومنها ما رُويَ من ركوب البراق وهو بعيد أيضاً، لأنه تعالى لمّا سيّره من هذا العالم إلى عالم الأفلاك، فأي حاجة إلى البراق؟ ومنها ما رُوي أنه تعالى أوجب خمسين صلاةً على المسلمين في اليوم والليلة، ثم إنّ محمداً لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى حتى أصبحت الخمسون خمسة، وهذا يقتضي نسخ الحكم قبل حضوره، وأنه يوجب البداء على الله تعالى وهو محال، فثبت أن هذا الحديث مشتمل على ما لا يجوز قبوله عقلاً فكان مردوداً، وغيرُه كثير، انظر أيضاً كتاب زكريا بن خليفة المخرمي: "قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث" صفحة (٢٤٦-٢٥٠)،

اتصال السورة بما قبلها

في أواخر سورة النحل أن رسالة الإسلام نسخت الرسالات السابقة: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١/١٦)، ومن ذلك نسخ السبت عند اليهود: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦/١٢٤)، ثم تفتتح هذه السورة بذكر الإسراء بالنبي ﷺ إلى مهد رسالة موسى وعيسى عليهما السلام في إشارة ضمنية لنسخ رسالتيهما: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١٧/١)، ثمّ الإشارة لمعراجه ﷺ حيث صلّى إماماً بالإنبياء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (١٧/٦٠)، وتبيّن أن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم من الكتب السابقة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١٧/٩)، فيستحيل أن يكون القرآن مُفترى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (١٧/٨٨)،

وفي سورة النحل استكبار منكري الآخرة: ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٦/٢٢)، ثم في سورة الإسراء بيان عاقبتهم بعد الإشارة من طرف خفي أنهم اليهود: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧/١٠)،

وفي سورة النحل أن مكر المكذّبين أدّى بهم إلى دمار مجتمعاتهم: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦/٢٦)، وتفصيله قوله تعالى بسورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٧/١٦)، وقوله تعالى عن المجتمعات الكافرة: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (١٧/٥٨)،

وفي سورة النحل أن لم تخلُ أمةٌ من بعث الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ (١٦/٣٦)، ثم في سورة الإسراء أن الأمم تصبح مسؤولة بعد بلاغها: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٧/١٥)

وفي سورة النحل أن متاع الكفار في الدنيا زائل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٥٥/١٦]، وتفصيله قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨/١٧)،

وفي سورة النحل أن مشركي قريش كانوا ينسبون البنات لله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧/١٦)، وتفصيله في سورة الإسراء أنهم جعلوا الملائكة بنات الله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ (٤٠/١٦)،

وفي سورة النحل الأمر بإيتاء ذي القربى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (٩٠/١٦)، وفي سورة الإسراء أن ذلك حقّ لهم: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ (٢٦/١٧)، وفي سورة النحل أن الله تعالى ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠/١٦)، وتفصيله قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً * وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٣٢/١٧-٣٥)،

وفي سورة النحل النهي عن التقليد الأعمى للآباء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥/١٧)، وفي سورة الإسراء بيان البديل عن التقليد في الأمر باستخدام العقل السليم والحواس: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (٣٦/١٧)،

وفي سورة النحل النهي عن عبادة إلهين اثنين ،كما في عقيدة المثنوية-: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥١/١٦)، وفي سورة الإسراء بيان عاقبة ذلك: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (٣٩/١٧)،

محور السورة

الإسراء بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١/١٧) ومعراجه ﷺ إلى السماء السابعة حيث صلّى إماماً بالأنبياء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (٦٠/١٧)، ما هو دليل على نسخ الكتب السماوية السابقة بالقرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم من الكتب السابقة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٩/١٧)،

فبنو إسرائيل أفسدوا ويفسدون في الأرض خلال حقبتين طويلتين من الزمن على الأقل و لم يستفيدوا من التوراة: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤/١٧)، وينكرون الآخرة: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٠/١٧)، وإنكار اليهود للآخرة مذكور في آيات[الدخان ٣٤/٤٤-٣٥] و [المجادلة ١٤/٥٨] و [الممتحنة ١٣/٦٠]، ومذكور أيضاً في كتبهم التي يزعمون أنها مقدسة، ما اقتضى عزلهم عن حمل عبء رسالة التوحيد وتحميل العبء العرب من بني إسماعيل، انظر آية [آل عمران ٢٦/٣]،

وأن معجزة القرآن الفكرية من السمو والعظمة، على مدى الدهر، بحيث يستحيل على الإنس والجن مجتمعين الإتيان بمثله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

ظَهِيرًا﴾ (٨٨/١٧)، في حين كانت معجزات موسى عليه السلام مادية محضة بما يناسب عقول الناس في عصره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (١٠١/١٧)، ومع ذلك فالمصرّون على التكذيب يغلقون عقولهم سلفاً عن استيعاب معاني القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٥/١٧-١٦)، فهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً لأنفسهم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (٨٢/١٧)، وقد فصّل وكرّر للناس الحقائق من كل جانب: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٨٩/١٧)،

وأن الله تعالى لا يهلك المجتمعات قبل أن يبيّن لها الحق من الباطل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٥/١٧-١٦)، فالإنسان مسؤول عن استخدام حواسه ومَلَكاته العقلية على النحو السليم: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (٣٦/١٧)، وأن الله تعالى كرّم بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٧٠/١٧)، كما كرّمه بالعلم، انظر آية (البقرة ٢/٣١)، وكرّمه بحرية الخيار، وليس لإبليس من سلطان على البشر سوى وساوس الشر: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (٦٥/١٧)،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)

١- ﴿سُبْحَانَ﴾ تنزيهاً له تعالى عن كل ما لا يليق بقُدسه ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ محمد، وتعبير ﴿بِعَبْدِهِ﴾ إشارة لكونه ﷺ بشراً، وليس فوق جنس البشر، بالرغم من الإعجاز في إسرائه ومعراجه ﴿لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ الأقصى، أي الأبعد بالنسبة للمسجد الحرام، وهو موقع مسجد سليمان في بيت المقدس، وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ إشارةٌ إلى مبعث العدد الكبير من أنبياء بني إسرائيل في فلسطين، آخرهم عيسى المسيح عليه السلام، والمقابلة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى بما يفيد أن الإسلام ليس ديناً جديداً، بل استمراراً وتتويجاً وختماً لما سبقه من الرسالات السماوية ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ لكي يرى محمدٌ بعضاً من آيات ربّه، وليس كلها، لأنّ ﴿مِنْ﴾ تفيد التبعيض، ومما يدلّ أن عالم الغيب بمحمله لا يطّلع عليه أحد، بمن فيهم خاتم الأنبياء والرسل ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ الله تعالى ﴿السَّمِيعُ﴾ لدعاء عباده ﴿الْبَصِيرُ﴾ البصير بأحوالهم،

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ (٢)

٢- يلاحظ في الآية المتقدمة وفي هذه الآية انتقال الخطاب من ضمائر الغائب إلى الحاضر إلى الغائب إلى الحاضر، في إشارة إلى أن الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا تحيط به الضمائر التي تستخدم للبشر،

ويبدو تعلق هذه الآية بما قبلها واضحاً لجهة الربط بين الإسراء بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، وبين نزول الكتاب على موسى عليه السلام، فالإسراء من ذات المرتبة الروحية السامية التي تقابل نزول الكتاب على موسى، وهو من التكريم للنبيّ أيضاً ما يقابل تكليمه تعالى لموسى، انظر آية [النساء ٤/١٦٤]، وآية [الأعراف ٧/١٤٤]:

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ بما فيه من التأكيد على رسالة التوحيد،

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٣﴾

٣- ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة وتقديره: لا تتخذوا ذرّية مَن حملنا مع نوحٍ من دوني وكيلاً ﴿إِنَّهُ﴾ نوح ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ بعيداً عن الشرك، فاقتدوا به،

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤)

٤- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في علم الله القديم المحيط الشامل، ومنه ما هو مذكور في كتبهم بالعهد القديم، انظر (سفر اللاويين ٢٦/١٤-٣٩) و(سفر التثنية ٢٨/١٥-٦٨)، ويتضمن العواقب الوخيمة جداً - المذكورة بالتفصيل- التي تنتظرهم في حال معصيتهم وعدم استجابتهم للرسالة الإلهية،

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ نكصَ بنو إسرائيل إلى الفساد والإفساد بالرغم من أنه تعالى جعل التوراة هدىً لهم، الآية (٢)، وإفسادهم في الأرض مرّتين ليس بالضرورة مقتصراً على مرّتين بالعدد، وإنما إفسادهم خلال حقبتين طويلتين من تاريخهم، بدليل أن القرآن الكريم والكتاب المقدّس يذكران الكثير من معاصيهم وجرائمهم المستمرة، ليس أقلّها عبادتهم آلهة وثنية، وتحويل معبد القدس إلى معبد آشوري في عهد ملوكهم آحاز Ahaz، ومنسّى Manassch (٦٨٧-٦٤٢ق م)، وتسطيرهم في العهد القديم من المخازي والفساد والإفساد ما يفوق الحصر ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ من موقع الاستكبار والاستعلاء بظنّهم إنهم شعب الله المختار تفضيلاً وعنصريةً على غيرهم من الأمم، دون أن يستوعبوا أن الرسالة السماوية مسؤوليةٌ وعبءٌ، وليست امتيازاً،

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾ (٥)

٥- ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ أولى حقبتي الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ عباده تعالى ليسوا بالضرورة أنهم من المؤمنين لأن الخلق كلهم عباد الله، طوعاً أو كرهاً ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾ يبدو أن المرة الأولى تشير إلى الآشوريين بقيادة سرجون الثاني الذين اجتاحوا فلسطين وقضوا على مملكة إسرائيل الشمالية (٧٢١ ق م) ونفوا وشتتوا قبائل إسرائيل العشرة نهائياً إلى غير رجعة، ثم بعد ذلك بحوالي ١٣٥ عاماً اجتاح البابليون بقيادة نبوخذنصّر مملكة يهوذا الجنوبية ودمّروا القدس والمعبد وأخذوا ما تبقّى من بني إسرائيل إلى ما صار يعرف بالنفي البابلي (٥٨٦ ق م)، وكل ذلك يفيده معنى قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ تخلّلوا فيها جيئةً وذهاباً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾ تحقّق وانقضى.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦)

٦- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أيها اليهود ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ بعد اجتياح الفرس لبابل (٥٣٧ ق م)، سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة لفلسطين حيث أعادوا بناء المعبد،

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٧)

٧- ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بمقتضى سننه تعالى في خلقه إن عاقبة الإحسان والسوء تعود على أصحابها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ مرة الإفساد الثانية ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فيصيبكم من الإذلال منهم منتهاه ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ مسجد سليمان ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما دخله البابليون في المرة الأولى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ يدمّرون القدس والمعبد الثاني دماراً تاماً، وقد تمّ ذلك على إثر هزيمة اليهود ونفيهم وتشتيتهم نهائياً في أنحاء الأرض بعد دخول الجيوش الرومانية القدس بقيادة تيطوس شمشرث (٧٠م)، وأخرى في العام (١٣٥م) بقيادة أدريانوس،

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٨)

٨- ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بأن يذيقكم عذاب الدنيا قبل الآخرة ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إلى الفساد والافساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقابكم ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ كلّما تكررت جرائمكم ومعصيتكم وإفسادكم عُدنا إلى عقابكم، وتلك سنّته تعالى في الخلق وفي نظام الأسباب والمسبَّبات من حيث إنّ الأمم التي تطغى وتنشر الفساد تؤول عاقبتها إلى الدمار والزوال وعذاب الدنيا، قبل ما ينتظرها من عذاب الآخرة،

غير أن الأستاذ بسام جرار رأى في كتابه ﴿زوال إسرائيل﴾ أن المرة الثانية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ متعلقة بدولة إسرائيل الحالية، لأنه بعد زوال دولتهم في نهاية المرة الأولى بالعام (٥٨٦ ق م) لم تقم لليهود دولة بالمعنى الكامل إلا في العصر الحديث اعتباراً من العام ١٩٤٨، صحيح أنهم عادوا من النفي البابلي إلى فلسطين عام (٥٣٧ ق م) عندما سمح لهم قورش ملك الفرس بذلك لكنهم بقوا تحت حكم الفرس، ثم تحت حكم اليونان عند احتياح الإسكندر الكبير لشرق المتوسط، وتبعه حكم السلوقيين إلى أن احتلت روما فلسطين، العام ٦٢ ق م، وخلال تلك الفترة كلها لم يكادوا يحققوا سوى حكماً ذاتياً بسيطاً تحت زعمائهم المكابيين منذ العام ١٦٤ ق م حتى احتياح روما لهم عام ٦٢ ق م، ومن الصعوبة أن ينطبق على تلك الفترة نصّ الآية: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (٦)، أو نصّ الآية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٠٤)، بقدر ما تنطبق هذه الآيات على دولة إسرائيل الحالية ما يدل أن النبوءة: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٧) سوف تتحقق بدخول المسلمين بيت المقدس لتصبح لهم اليد العليا فتظهر سوءات اليهود للعالم وتنفضح صورتهم الإعلامية المزيفة.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩)

٩- بعد أن ذكرت الآية (٢) أن الله تعالى جعل التوراة هدىً لبني إسرائيل، ثم ذكرت الآيات (٤-٨) فساد وإفساد بني إسرائيل في الأرض، تعود الآية التالية (٩) إلى موضوع بداية السورة، وهو الإسراء بالنبي ﷺ، والمعنى أنه بعد فشل بنو إسرائيل في حمل رسالة التوحيد، فقد انتقل هذا العبء إلى بنو عمومتهم العرب من ذرية إسماعيل، على قاعدة: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام ٨٩/٦]، ولم تذكر السورة بعثة عيسى المسيح لأنه كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل خاصةً، إذ كان آخر فرصة لهم لإصلاح فسادهم فكفروا به، ثم انشقت المسيحية عن بعثته واتبعت ديانة بولس:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ من الكتب السابقة، وهو ناسخ لها، انظر آية [البقرة ١٠٦/٢]، وسوف نلاحظ التركيز على مزايا القرآن في تتمة السورة وخاصة بالآيات: (٤١، ٤٥، ٤٦، ٨٢-٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)،

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بشارة الأجر الكبير مرتبطة بالإيمان الذي يرافق العمل الصالح،

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٠)

١٠- ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذه إشارة إلى اليهود الذين خلت كتبهم التي ألفوها من أي إشارة للآخرة، تعامياً عن مسؤولياتهم الأخلاقية، سوى إشارة واحدة في سفر دانيال، والمعروف أن إحدى طوائفهم المسماة "السدوقيين ش د د ع ص ع ث "تنكر الآخرة بتاتاً،

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (١١)

١١- بعد أن بيّنت الآية (٩) أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الكتب السابقة، يستمر الخطاب من هذه الآية وحتى آخر السورة، عدا الآيات (١٠١-١٠٤)، بتفصيل ذلك:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ مع أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وإن الوحي الإلهي هو المعيار الوحيد لمعرفة الحق من الباطل، فالإنسان يتخبط على غير هدى، وقد يدعو ما ليس في صالحه، فيستعجل الشر ظاناً أنه خير، انظر قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة ٢/٢١٦]، فلا بد من الصبر وتحمّل المعاناة واستبعاد العجلة،

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (١٢)

١٢- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ دليلين قاطعين على التوحيد ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ كناية عن الجهل ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ كما هي في القرآن الكريم يخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ الزمنية، ولتذكروا منها فترة بقائكم المؤقتة في دنياكم ﴿وَالْحِسَابَ﴾ فتعدّوا العدّة لآخرتكم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ كلّ ما تحتاجونه في مصالح دينكم وأخلاقكم ودنياكم فصّلناه، وهكذا أزيحت عنكم الأعذار والعلل، فأصبحتم في موقع المسؤولية كما هو مذكور في الآية التالية:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣)

١٣- ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ لأن العرب في الجاهلية كانت تطلق الطير فإن طار يمنةً تفاءلت، وإن طار يسرةً تشاءمت، فصار الطير عندهم بمنزلة الفأل أو الحظ، ولما كثُر ذلك عندهم سُمّيَ الخير والشر بالطائر، فخاطبهم تعالى بما تعارفوا عليه، وأخبرهم أنّ مسؤولية الإنسان فردية مرتبطة بعمله وتنبثق من خياره الأخلاقي فتطوّق عنقه، أي تحيط به، وهو مُلزم بها يحاسب عليها وفق عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ بأعماله ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ واضحاً بيّناً،

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤)

١٤- ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ كتاب أعمالك ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فانظر تحقق العدالة بنتيجة ما تراه من كتاب أعمالك،

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥)

١٥- ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن ثواب العمل الصالح مختصّ بفاعله ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وبال ضلاله يعود عليه لا يتعدّاه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الوزر في اللغة هو الحمل، ثم استخدم للإثم لأنه يثقل ظهر حامله، والمعنى إنّ كل أحد مختص بذنب نفسه، فلا يستطيع أن يحمل من ذنوب غيره، ولا الآخرين يستطيعون أن يحملوا من ذنوبه، لأنّ المقلّدين زعموا أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلّدوهم، جاهلين أن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، وبالمناسبة فإنّ هذه القاعدة تنفي زعم المسيحية إن المسيح تحمّل أخطاء البشرية سلفاً نيابةً عنها، كما تنفي زعم اليهود إنهم شعب الله المختار وإنّ ذنوبهم مغفورة بدعوى نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أحداً على ذنوبه ﴿حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يبيّن للناس الحق من الباطل، فتنزاح الأعذار عنهم سلفاً،

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦)

١٦- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ القرية في لغة القرآن هي المجتمع أو الأمّة ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالاستقامة وفق ما جاءت به الرسل المشار إليها في الآية السابقة، وقوله ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ لأنهم، في العادة، يكونون مالكين لمقاليد الأمور في مجتمعاتهم ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ خرجوا عن الحق، واتّبعوا أهواءهم ومقاييسهم الوضعية، وتمسّكوا بالتقليد بدلاً من اتباع ما أُمروا من الاستقامة ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ بنتيجة معصيتها وفسادها ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ تدميراً مرتبطاً بفسادها وفسقها، كارتباط السبب بالمسبّب،

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)

١٧- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من أمثال تلك القرى المشار إليها آنفاً ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فيحاسبهم عليها،

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨)

١٨- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ وهي الدنيا الفانية، يريدها مكتفياً بها، وجاعلها منتهى أمله، ناسياً آخرته ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من متاع الدنيا ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ من الضُلاّل والجاحدين، والمعنى أنّ الله تعالى يرزق المؤمن والكافر على السواء بحب سننه في الخلق، ولو اقتصر الرزق على المؤمنين دون غيرهم لأصبح الإيمان إلجاءً ممّا ينافي التكليف، وقوله ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ يفيد أن الكثير من الضالّين يُعرضون عن الدين طلباً للدنيا، فيخسرون الدين والدنيا معاً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ جزاءً وفاقاً ﴿مَذْمُومًا﴾ على ما كان عليه من طلب الدنيا ونسيان الآخرة ﴿مَدْحُورًا﴾ عاجزاً لا يقدر على شيء،

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩)

١٩- ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ في مقابلة مَن أراد الدنيا فقط ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ السعي للآخرة مرتبط بالإيمان، فيكون السعي الدنيوي وفق الضوابط القرآنية ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ يثابون عليه،

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ﴾ ممّن يريد العاجلة ﴿وَهَؤُلَاءِ﴾ ممّن يريد الآخرة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ لأن الدنيا دار ابتلاء وتكليف، والكل مخلوقون في دار العمل ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ عن الطرفين من طلاب الدنيا أو طلاب الآخرة، وإلاّ لصار الإيمان إلجاءً، ومن اتبع سنن الله في الخلق وصل، مؤمناً كان أم كافراً،

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (٢١)

٢١- ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بنتيجة سعيهم الدنيوي وتفاضلهم في العقول واتّباعهم سنة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام ٦/١٦٥]، ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ من درجات الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ لأن العبرة تكون وقتئذٍ بالعمل الصالح الذي ارتبط مع الإيمان،

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾ (٢٢)

٢٢- بعد أن فصّلت الآيات (١١-٢١) قواعد السعي الدنيوي، تؤكّد هذه الآية أن لا سعيَ يفيد مع الشرك:

﴿لا تَجْعَلْ﴾ أيها الإنسان ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ تجعله شريكاً في الألوهية، وهؤلاء الشركاء غير مقتصرين على الأصنام، أو زعماء الدين، أو القديسين، أو الشفعاء الموهومين، بل يدخل فيهم الاعتقاد بالقيم الزائفة ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ بين الناس ﴿مَخْذُولاً﴾ في الآخرة،

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أتبع الأمر بعبادة الله وتوحيده، بالأمر ببر الوالدين، فالله تعالى هو الخالق، والسبب الظاهري لوجود الإنسان أبواه، فأمر تعالى بتعظيم السبب الحقيقي أولاً، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ وقد يتغير مزاجهما سلباً بسبب التقدم في السن ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ حرّمت الآية أبسط تعبير عن التذمّر من الوالدين، فضلاً عن تحريم زجرهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ بالكلام اللطيف المقرون بالتعظيم والاحترام،

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ المبالغة في التواضع تجاههما، لأن خفض الجناح كناية عن التواضع، كما يخفض الطير جناحيه فوق فراخه ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ وأحسن إليهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ كما أحسنا في تربيتي صغيراً،

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (٢٥)

٢٥- بعد أن أمرت الآيات المتقدمة بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ثم أتبعت بالأمر ببر الوالدين، تبيّن هذه الآية إنّ الله تعالى مطّلع على ما يضمره الناس في نفوسهم من الإخلاص أو الرياء: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ إن كنتم صالحين مخلصين ترجعون إلى الله على الدوام في أعمالكم، فالله تعالى يتجاوز عن سيئاتكم، وقوله: ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ يفيد كثرة رجوع المؤمنين إليه تعالى بالتوبة والمداومة عليها،

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦)

٢٦- يلاحظ التدرج في الخطاب، فبعد الأمر بعبادة الله وحده، ثم الأمر ببر الوالدين، ينتقل الخطاب هنا إلى الأمر ببر ذوي القربى، الأقرب فالأقرب وغيرهم: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ يلاحظ الدقة في التعبير إذ جعلّ تعالى أعطيات ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقّاً لهم، وليس مِنّة، وفي العصر الحديث يشمل تعبير "أبناء السبيل" اللاجئين الذين انقطعت بهم السبل ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ في غير طاعة الله، أو تنفق في الباطل، أو فيما لا جدوى منه،

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ لأن التبذير بلا طائل، أو في الفساد والافساد، يفيد الاستخفاف بنعم الله، فكأن المبذّر يتّبع وسواس الشياطين في سُبُل الإنفاق،

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ عن ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل، المشار لهم بالآية (٢٦)، أي تمتنع عن عطائهم ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ بسبب قلة إمكاناتك المادية، وأنت تأمل تحسّنها قريباً، وقد سمّت الآية الرزقَ الماديّ رحمةً، وفي آيات أخرى قد يكون رزقاً معنويّاً ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا﴾ كلاماً لطيفاً لعلّك تتمكّن من عطائهم فيما بعد،

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ كناية عن منتهى البخل والشح، فكأنما اليد مربوطة إلى العنق منعاً للإنفاق ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فيبلغ إنفاقك منتهاه بحيث لا يبقى عندك شيء ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ من قِبَل مَن هُم بحاجة إليك من أهلك وأولادك ﴿مَحْسُورًا﴾ عمّا تحتاجه من المال،

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ بلا حدود ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أو يرزقهم ضمن الحدود الدنيا، وفق المصلحة والحكمة الخافية على معظم البشر، أو وفق سننه تعالى في خلقه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ بحاجياتهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأحوالهم،

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١)

٣١- استمرار الخطاب من الآية المتقدمة: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ﴾ الأناث والذكور من صغاركم ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ خشية الفقر، ومن ذلك أنهم كانوا في الجاهلية يئدون البنات أي يقتلونهنّ في صغرهنّ خشية الفقر والعار، وهذا التحريم في العصر الحاضر قد يطال الإجهاض المبني على أسباب اقتصادية بحتة ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ الأرزاق بيده تعالى ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ إثماً كبيراً لا ينسجم مع احترام إنسانية الولد، ولأن لحياة الإنسان عامة حرمة في

الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ﴿٧٠﴾، وهذا الفهم قد لا يعني إغلاق إجراءات تنظيم النسل المبني على مبررات صحية وتربوية واجتماعية،

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ نهي عن مجرّد الاقتراب منه، وهو أشد من التحريم ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ ما يعظم قبحه من الفعل أو القول ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ هو أسوأ السبل لقضاء الشهوة الجنسية عن طريق الحرام،

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ للنفوس، مؤمنة أم كافرة، حُرمة في الإسلام ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كما في حال تشريع القصاص، ولا يكون تنفيذه إلا عن طريق الحكومة، وليس لآحاد الناس أن يحكم به أو يقوم به، وقد يُضطر إليه المرء في حالة الدفاع عن النفس أو العرض أو المال أو المستضعفين، أو في حال حرب دفاعية قائمة ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير وجه حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ الذي يليه في القربى، والمسؤول عنه ﴿سُلْطَانًا﴾ سلّطنا وليّه على قتله أو العفو عنه، ضمن تشريع القصاص القضائي ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فلا يقتل غير القاتل، ولا يتجاوزه إلى غيره ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ فيما جعله الله له من حق و ولاية على القتيل، فلا يميل إلى الانتقام والعجلة،

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فتأخذوا منه شيئاً ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بقصد تنميته ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فيصبح بالغاً عاقلاً، انظر شرح آية [النساء ٤/٢]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الوفاء بالعهود قاعدة إسلامية مهمة تنتظم بها الحياة، انظر شرح آية [المائدة ٥/١]، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يُسأل عنه المرء ويُحاسب عليه،

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٣٥)

٣٥- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ الكيل المادي والمعنوي فيما يتعلق بأداء الحقوق ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ بلا غبن ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم كأفراد ومجتمعات ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ الأحسن لكم مآلاً وعاقبةً، في الدنيا والآخرة،

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَلا تَقْفُ﴾ أيها الإنسان ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا تتّبع ولا تقتفِ، ولا تتّبع أثر ما لا علم لك به معتمداً على الظن والتخمين والأقاويل ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ﴾ أجهزة الحواس التي أنعم بها الله عليك ﴿وَالْفُؤَادَ﴾ كناية عن العقل الذي كرّمك به الله تعالى ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ كلّ ملَكاتك الحسيّة والعقلية أن تستخدمها على الوجه السليم في سبيل التوصّل إلى الحقيقة ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ مسؤولاً أن تتّبع علم اليقين في السلوك والعمل والعقيدة، وليس القيل والقال والإشاعات والتقليد،

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ تواضَعْ، ولا تتكبّر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ فإنك خلق ضعيف مهما أعجبتك نفسُك، ومهما ظننت بها الكِبَر،

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ ما تقدّم من الأشياء السيئة المذكورة، أي الأخلاق السلبية ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ من العمل القبيح والمعصية ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ الله تعالى يكره كل قبيح من الأعمال لعبيده،

﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿ذَٰلِكَ﴾ المنهج الأخلاقي العملي الذي بيّنته الآيات المتقدّمة (٢٢-٣٨)، ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ بعض ما أوحي إليك ربّك من الحكمة، وهي معرفة الصواب من الخطأ، على ضوء المقاييس الأخلاقية التي نزل بها الوحي ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ من الآلهة الخيالية المزعومة وتنسب لها من المقاييس الأخلاقية الوضعية المناقضة للحكمة ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك ﴿مَدْحُورًا﴾ لا حول لك ولا قوّة،

وهكذا يكتمل الخطاب، كما بدأ بالآية (٢٢)، بالدعوة إلى التوحيد،

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠)

٤٠- وهذه الآية حتى الآية (٤٤) أمثلة على ضحالة الشرك: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ أفخصّكم ﴿رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ إشارة لزعمهم في الجاهلية أن الملائكة بنات الله، رغم أنهم، في تناقض فاضح لسلوكهم، كانوا يئدون البنات ويستبْقون الذكور، وفي المعنى العام للآية بيان ضحالة الفكر الذي ينسب من صفات الألوهية لغير الله تعالى، انظر آيات [الأنعام ٦/١٠٠-١٠١]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ قولاً مقيتاً لا يقبله العقل السليم، انظر آيات [مريم ١٩/٨٨-٩٢]،

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١)

٤١- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ قلّبنا وأوضحنا لهم من كل الوجوه، في إشارة للآية (٩)، ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ما فُطروا عليه من الإيمان ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ شبّههم الآية بالحُمُر النافرة، لشدّة تمسّكهم بالتقليد، وتشنّج عقولهم عليه،

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ لو كان زعم المشركين صحيحاً في نسبهم من صفات الألوهية لشركائهم الذين يزعمون فيهم الوساطة أو

الشفاعة مع الله تعالى ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا﴾ هولاء الشركاء المزعومون ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ لطلبوا الشفاعة لأنفسهم من الله تعالى، وذلك لمنتهى عجزهم، فضلاً أن يستطيعوا طلب الشفاعة أو الوساطة لغيرهم، وقوله تعالى ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ يفيد أن كل ما في الكون واقع تحت هيمنته لا يشاركه ولا يعجزه فيه أحدٌ البتّة،

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له تعالى عما لا يليق به من الصفات ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من المزاعم والأوهام ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ شتّان ما بين ضحالة أقاويلهم وبين عظمته تعالى التي لا يرقى إليها ولا يحيط بها وصف،

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ﴾ الأنظمة الكونية العديدة، لأن السماء هنا بمعنى النظام الكوني، والسبع في اللغة العربية، كما في اللغات السامية تفيد التعدد وليس العدد سبعة بالضرورة ﴿وَالْأَرْضُ﴾ ولا يمنع ذلك أن هنالك أرضين كثيرة في الأنظمة الكونية المتعددة، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق ٦٥/١٢]، ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ من مخلوقات ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ في الكائنات ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ رغم أن كلّ ما في الكائنات يشهد شهادة قاهرة على وجود خالق جبّار مهيمن فإن أكثر الناس عَمون عن ذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ يمهل عباده للتوصل إلى الحقيقة ﴿غَفُورًا﴾ يغفر لهم جهلهم وتقصيرهم،

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٤٥)

٤٥- عودة الخطاب إلى الآية (٤١):

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أيها النبي ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ حجاباً نفسياً معنوياً غير مادي، أي لشدة إنكارهم الآخرة لا تفيدهم تلاوة القرآن،

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦)

٤٦- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية معنوية ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفقهوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلا في السمع، فالقرآن ثقيل على أسماعهم، لا تنفتح له عقولهم، وقد نسب تعالى تغطية قلوبهم عن الفهم، وأسماعهم عن السمع إلى ذاته العلية مع أن ذلك من أعمالهم الاختيارية، والمعنى أن الله تعالى خلاّهم لأنفسهم و لم يجبرهم على الهدى ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ إلهاً واحداً منزّهاً عن الشرك والشركاء ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ أداروا ظهورهم لمفهوم التوحيد ونفروا منه، لأنهم مصرّون على ما اعتادوا عليه من الشرك، وتقليد الآباء والأجداد، وجمود عقولهم على ذلك،

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ إذ صمّمت عقولهم سلفاً على ما فيها ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي إنّ ما يستمعون به من القرآن وما يصرّون على ما في عقولهم المنغلقة سلفاً، خلاف ما يُتلى عليهم ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ يتكلمون سرّاً فيما بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ لبعضهم البعض،ولمن يميل منهم إلى الإيمان ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾ لشدة انبهارهم بالقرآن يتخبّطون ويختلقون شتى الأعذار للصدّ عنه،

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ للتهرب من الحقيقة ﴿فَضَلُّوا﴾ عن السبيل القويم ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ بسبب العناد والمكابرة،

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بالياً مفتتاً ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وذلك لشدة ماديتهم، إذ يعتقدون أن الإنسان ليس سوى جسد مادي لا غير،

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ المغزى أنكم تنكرون الروح، والعبرة ليست بمادة الجسد،

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١)

٥١- ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ مادياً ﴿مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ مما يستحيل بعثه حسب ظنكم ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ في إنكار واضح للخالق ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فهو قادر على خلقكم من جديد ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يحركون رؤوسهم غير مصدّقين، فينتقلون من سؤال لآخر في تهرب واضح من الحجج القاطعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ يسألون عن توقيت البعث لأن عقولهم قاصرة عن مفهوم الزمن المطلق، ويقيسون الأمور بالزمن الدنيوي النسبي ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ كما هو مبيّن في الآية التالية:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ مغزى الاستجابة بحمده أنه لا يبقى لديهم وقتئذٍ أدنى شك في وجود الخالق وفي عظمته ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستقلّون مدة لبثكم في الدنيا بعد أن زال عنكم مفهوم الزمن الدنيوي،

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا﴾ للذين لا يشاطرونهم عقيدة الإسلام ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إذ لا إكراه في الدين، والجدال يجب أن يكون بالحسنى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يفسد بين الناس ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ﴾ من الأزل، ولا يزال ﴿لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ يستفزهم إلى الحماقات وإلى الشر، انظر آية [مريم ٨٣/١٩].

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ ﴿٥٤﴾

٥٤- ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فيوفق من يشاء الهداية من الناس إلى الهدى ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيخلّي العصاة لأنفسهم ويتركهم لحرية خيارهم فلا يجبرهم على الهدى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ﴾ أيها النبي ﴿وَكِيلاً﴾ لستَ مسؤولاً عن سلوكهم، ولا عن مصيرهم، أما الدعوة فلا بد أن تكون باللين والرفق،

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿وَرَبُّكَ﴾ أيها النبي، أو أيها الداعية، أو أيها المسلم ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الله تعالى أعلم بما يدور في عقول عباده من أفكار ونظريات وعقائد، ولا بدّ من التعامل معها بالحرية الفكرية والحوار في مجال الدعوة ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بختم النبوّات بمحمد ﷺ ونزول القرآن الكريم عليه، كما قال الزمخشري ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ الكتاب المقدس الذي أوحي إليه، ويُلاحظ في المقابلة بين خاتم الأنبياء والرسل ﷺ، وبين داودعليه السلام عودة إلى الآيات (١-٢)، ما فيه إشارة لانتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل،

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الملائكة والأوهام والشفعاء المزعومين ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ في إشارة واضحة للمسيحية التي تؤمن بفكرة الفداء بالنيابة،

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الملائكة والشفعاء ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يبتغون طريق التقرّب إلى الله ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ حتى كبار الملائكة والأنبياء منهم ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ تعالى ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ مما يحذره العاقل ويحترس منه،

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ مجتمع من المجتمعات ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لأن كل شيء على هذه الأرض فانٍ وذو طبيعة مؤقتة، والخلود في الآخرة فقط ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالجوع والخوف ونقص من الأموال والثمرات، كما في آية [البقرة ١٥٥/٢]، وبما تكسب أيدي المستكبرين والمترفين ويتّبعهم عليها المستضعفون، لأن سنته تعالى في خلقه جرت على ربط النتائج بالمقدمات، والمسببات بالأسباب ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ فيما قدّره الله في علمه القديم الشامل، في كتاب التكوين الذي أخضع الحياة لقوانين وضوابط،

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ المعجزات المادية التي تؤيد الأنبياء ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ من الأقوام البدائية التي لم تصل إلى مرحلة من النضوج الفكري، كما هي الحال في المعجزات المادية الكثيرة التي لم تفد بني إسرائيل، كتظليل الغمام لهم في سيناء، ونزول المن والسلوى عليهم، ومع ذلك عاندوا موسى وكذّبوه، وقالوا أرنا الله جهرةً، ثم ارتكسوا بعده إلى الوثنية ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ ذات دلالة واضحة عند مَن يبصر المغزى منها

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ظلموا أنفسهم بعقرها، انظر آيات [الشمس ٩١/١١-١٥]، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ﴾ المعجزات المادية ﴿إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ تأييداً للرسل،

والمغزى العام من الآية أنّ القرآن الكريم نزل على البشرية، ختماً للرسالات، معجزة خالدة على مر العصور، يخاطب عقول الناس بعد أن ارتقت البشرية إلى مرحلة كافية من النضوج الفكري، فلم يبقَ من حاجة لمعجزات مادية ملموسة،

وفي الآية عودة لتزكيز السورة على إعجاز القرآن الكريم، انظر الآيات: (٩، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٨٢- ٨٨، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)،

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠)

٦٠- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ أيها الرسول ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ بعظمته وقدرته وعلمه القديم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ رؤيا الإسراء والمعراج ﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ اختباراً لهم، فيهتز بها إيمان ضعاف العقول وأنصاف المؤمنين بنبوّة محمد ﷺ، وتنكشف أمورهم، أما الذين آمنوا إيمان اليقين فيزداد يقينهم ويبتهجوا بما أنعم الله على رسوله من رؤيا الإسراء والمعراج ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ جعلناها فتنة للناس أيضاً، وهي شجرة الزقّوم التي ترمز إلى جهنم، انظر [الصافات ٣٧/٦٢-٦٥]، وقد وُصفت بالملعونة أي المُبعَدة من رحمة الله، لأنّ مَن يؤول مصيرُهم إلى جهنم مُبعَدون من رحمته تعالى ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بمثل هذه الآيات المتشابهات، انظر [آل عمران ٣/٧]، ونصوّر لهم عذاب الآخرة تصويرات حسيّة تناسب عقولهم الدنيوية ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا التخويف ﴿إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ طغيان المصرّين على الكفر،

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٦١)

٦١- بعد أن فصّلت الآيات (٤٠-٦٠) في عناد المشركين وإصرارهم على الكفر رغم الآيات الباهرات المحيطة بهم، تنتقل هذه الآية إلى قصة الخلق الرمزية، ولبيان أن الإنسان في دنياه يكابد الصراع بين الخير والشر، في خيار حرّ بينهما، وقد وردت هذه القصة الرمزية بأوجُه وعِبَر متنوعة في سُوَر سبع من القرآن الكريم وهي (البقرة، الأعراف، الحِجر، الإسراء، الكهف، طه، ص)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ لجنس البشر ﴿فَسَجَدُوا﴾ سجود تكريم له بعد أن علّمه الله تعالى الأسماءَ كلّها، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ رمز الشر ووساوس السوء ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أبى إبليس أن ينقاد للحقّ، بل صمّم على القيام بدوره، ما يجعل الدنيا مسرحاً لصراع الحق والباطل،

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ بيان أسجدت له الملائكة ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِي﴾ أمهلتني ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ المعنى أضعُ في حَنَكِهِ الكثيرين من الناس لجاماً أقودهم منه كالدواب، فيطيعونني طاعةً عمياء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهم المشار لهم بالآية (٦٥)،

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿اذْهَبْ﴾ في سبيلك الذي اخترتَه من الشر ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من الضُلاّل ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ جزاء عادلاً موتّباً على ما يختارونه لأنفسهم،

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ في الخطاب كناية، والمعنى: استخدم كل ما لديك من استطاعة وإمكانات مادية ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ﴾ بتحريضهم أن يأكلوا من أموال الآخرين بالسرقات والرشوات، وإنفاق الأموال في اللهو والمعاملات الفاسدة ﴿وَالأَوْلادِ﴾ ما يفيد استخدام إمكاناته المعنوية أيضاً في إفساد الذرية وحضّها على الفساد والعقوق ﴿وَعِدْهُمْ﴾ من المواعيد والأماني الباطلة، كأن لا آخرة ولا حساب ولا مسؤولية ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ ما يضلّل به العقول،

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المخلَصين، من أهل الفضل والعلم والإيمان ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فلا تستطيع التغرير بهم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ عليهم يعصمهم من وساوس الشيطان،

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦)

٦٦- بعد انتهاء قصة الخليقة، وبيان مكابدة الإنسان بين عناصر الخير والشر، تعود السورة لبيان أن الإنسان بين الخوف والرجاء: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي﴾ يسيّر ﴿لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ ويسهّل عيكم علوم التحكم بها ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ابتغاء رزقه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ بما يمكن العباد من تحصيل رزقهم باتّباع سننه في خلقه،

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ بهياج البحر، وإشرافكم على الهلاك، في أثناء ابتغائكم الرزق والمعاش أو الأبحاث ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ لجأتم

إلى الله تعالى وحده في دعائكم، ونسيتم شركاءكم المزعومين، وهذا الأمر ينطبق اليوم على مَن يركب الطائرات أيضاً ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ برحمةٍ منه، أو استجابةً لدعائكم ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الدعاء والتوحيد، بعد أن أمنتم، ونسيتم نجاتكم إلى حولكم وقوتكم، أو إلى محاسن الصدف ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ به نزعةٌ إلى كفران النعم،

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي حتىّ لو وصل الإنسان إلى بر الأمان، فهو ليس بأمان مطلق، لأن الأرض قد تخسف بالزلازل والبراكين ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ ربّكم ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ من الرياح العاتية والأعاصير التي تحمل كل ما في طريقها من مواد وحصباء فتحصب به الناس ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا﴾ في هذه الحالات ﴿لَكُمْ وَكِيلاً﴾ يحميكم من قدرته تعالى،

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ تعودون لركوب البحر في رحلاتكم القادمة ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ فيقصف سفنكم بالأعاصير ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ فتغرقوا بما كفرتم، وبما كسبت أيديكم من الفساد والجحود، وبما نسيتم لأنفسكم من إمكانات الجبروت والسيطرة على الدنيا بواسطة التقانة ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ليس مَن يحاسب على ما وقع، فالله تعالى لا يُسألُ عمّا يفعلُ، وهم يُسألون،

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٧٠)

٧٠- وهنا تعود السورة إلى موضوع الآية (٦١)، وما ورد في قصة الخلق من تكريم بني آدم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بأن علّمه تعالى الأسماء كلها، فأمكنه من التفكير المجرّد من بين جميع المخلوقات، ومنحه حرية الفكر والخيار والعقيدة، ولذلك أسجَد له الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بما أودع تعالى في عقولهم من وسائل العلوم والمعرفة يخترعون بواسطتها شتّى أنواع المركبات والسفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بما جعل في الكون من سُنن مَن سار عليها وصل إلى مراده ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ من حيوانات يقتصر فكرها على إشباع غرائزها البهيمية، وليس لها من ميّزات الإنسان المذكورة شيء ﴿تَفْضِيلاً﴾ كثيراً واضحاً بيّناً،

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (٧١)

٧١- ﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ بعد ما ذكرته الآية السابقة من تكريمه تعالى لبني آدم، تبيّن هذه الآية أنه يوم القيامة سوف يُدعى كلّ أناسٍ بإمامهم، وهو ما فسّره الرازي بتزكية المرء الأخلاقية، أو اللاأخلاقية، التي كانت تسوقه في دنياه، فمنها شخصية الأخلاق الفاضلة والكرم وطلب العلم والزهد، ومنها شهوة طاغية للمال، أو شهوة طاغية للسلطة والتسلط، ومنها شخصية الحقد والحسد والتخريب، وشخصية الإجرام، فهذه كلها بمثابة إمام للفرد يقتديه، ويُدعى بموجبه في الآخرة، وفي الحديث: «لكلّ امرىء ما نوى»، ويدخل في ذلك الأعمال التي يفترض أن قام بها المرء فتركها ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ كناية عن حسن الطالع، لأن العرب تقول ميمون وأيمن ﴿فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ كتاب أعمالهم وهم في حالة من السرور، لِما كانوا

عيه من الاستقامة في دنياهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ مقدار شعرة، وذلك ينطبق على أصحاب اليمين، كما ينطبق على المجرمين من أصحاب الشمال،

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ القلب ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ القلب أيضاً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ عمّا كان عليه في دنياه، والمعنى أنّ نوعية الحياة الآخرة ليست فقط مترتّبة على ما كان عليه المرء في دنياه، بل هي في الواقع امتداد لها،

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ (٧٣)

٧٣- استمرار الخطاب من الآيات (٧٠-٧٢)، لأنه من نتائج تكريم بني آدم بالفكر المجرّد وبالحرية الفكرية، ضلال الكثيرين من الناس، كما تبيّنه الآيات (٧٣-٧٧):

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يغرونك أيها النبي بشتى وسائل الإغراء ﴿عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ يريدون أن يطابق الوحي الإلاهي مقاييسهم الدنيوية وما توارثوه عن أحدادهم بالتقليد، وبمعنى آخر أرادوا التوصّل إلى حلول "وسط" مع النبي ﷺ، كي يقبلوا نبوّته، ومن جهته يفتري قرآناً من عنده بزعمهم ﴿وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ وهو ما رفضه النبي ﷺ قطعياً،

﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ المغزى أن الإيمان الشديد الذي كان يتمتع به النبي ﷺ، جعل من المستحيل عليه قبول عروضهم "الوسط"،

﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي عذاب الضعف في الدنيا والآخرة، أولاً بسبب ضلاله عن الوحي الموحى إليه، وثانياً بسبب ضلال أتباعه من بعده، وهو المعصوم عليه الصلاة والسلام، وعلى أية حال ففي الآية مغزى عام، وهو أنه لا يمكن التغاضي عن أية نية مبيّتة ضد حقيقة إلهية، مالم يقع صاحبها في خطيئة لا تغتفر ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ لا أحد ينصرك من دون الله في مثل هذه الحالات،

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أيها النبيّ، بعد أن فشلوا في إقناعك بالتخلّي عن رسالة الإسلام ﴿مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ من أرض مكة، لأن السورة مكية، واضطهاد قريش ضد الرسالة في مكة كان على أشدّه ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تحققت هذه النبوءة بعد أكثر من سنتين بقليل، أي في رمضان بالعام ٢ للهجرة عندما قُتل أكابر قريش في وقعة بدر، وقوله تعالى: ﴿خِلَافَكَ﴾ يفيد بنتيجة مخالفتهم لك، أي تلك النتيجة الطبيعية لمخالفة خاتم الأنبياء والرسل، وهو أيضاً بمعنى بعدك أو خلفك،

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ سنّته تعالى في نصرة أنبيائه لا تتغيّر ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ فقد لاقى أكثر مَن شاركوا في إخراج النبي من مكة مصيرهم المحتوم في بدر أو في مكة،

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨)

٧٨- تتمة الخطاب من الآيات السابقة، أي إذا كان الأمر كذلك من تثبيت الله تعالى لرسله ونصرتهم، الآيات (٧٣-٧٧)، فلا بد من مداومته ﷺ، ومداومة أمّته على الصلاة، لدوام التثبيت، ودوام الشكر:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أيها النبي، وأيها المسلم ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ هذه الآية تفيد الصلوات الخمسة، وقد فصّلتها السنّة الشريفة، وقالوا دلوك الشمس معناه زوالها في منتصف النهار، فيكون المعنى: أقم الصلاة من زوال الشمس في منتصف النهار، حتى غسق الليل، فيدخل في ذلك صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم قوله ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يفيد صلاة الفجر ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ لأن النبي ﷺ كان يطيل قراءة القرآن وقت صلاة الفجر تركيزاً على أهميتها الخاصة، وقد رأى الرازي في أهميتها من الإلهام يطرق قلب المؤمن عندما يبدأ نور الفجر بالانبلاج عن ظلام الليل ممّا يعزز تركيزه على الحقيقة الروحية،

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ قيام الليل ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ زيادة عن الصلوات المفروضة، ندباً وليس فرضاً ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ في الدار الآخرة،

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿وَقُلْ﴾ في صلاتك، وفي دعائك، وفي عملك، وفي ذهابك ومجيئك ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ في كلّ ما أقوم به من صلاة وعمل في سبيلك ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أخرجني من الصلاة، ومن كل أعمال الدنيا، ومن جميع المواقف، بالصدق والإخلاص وحضور الذكر ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي اجعل لي حجّة بيّنة تنصرني بها على أعدائي، فيكون نصري بالاقناع والحجج السليمة، على قلوبهم، وليس على أجسادهم،

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

٨١- ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ بنصرة الإسلام وقرب انتشاره في مشارق الأرض ومغاربها بالقدوة والموعظة الحسنة والحجج الفكرية السليمة، على قاعدة: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠)، وقاعدة: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٥٣)،

وقد تحققت هذه النبوءة خلال أقل من مئة عام من البعثة النبوية الشريفة بانتشار الإسلام من الصين شرقاً حتى الأندلس غرباً ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ من طبيعة الباطل أن يزول على أسرع الوجوه، وإن كانت له دولة وجولة، لأنه لا يحمل في طياته عناصر البقاء الضرورية للبقاء والاستمرار،

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (٨٢)

٨٢- بعد أن ذكرت الآية (٧٨) أن قرآن الفجر كان مشهوداً، يعود الخطاب للتركيز على قوامة القرآن على ما سبقه من الكتب، انظر الآيات: (٩، ٤١، ٤٥، ٤٦):

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من الشك والحيرة والتقلب والجهل ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يتوصّلون للإيمان بفهم القرآن وتدبّر معانيه، ووعيها، والعمل بها بجدية ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يعيشون حياة اللامبالاة والتسويف وخداع النفس والمادية البحتة ﴿إِلاَّ خَسَارًا﴾ قد يخسرون طريقتهم في الحياة، عدا خسارة آخرتهم، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ٦/٢٠]،

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣)

٨٣- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ﴾ من نوع الظالمين المشار إليهم بالآية السابقة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الهدى، وظنّ أن ما توصّل إليه من نعم الدنيا ناتج عن حوله وقوّته لا غير ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ كناية عن استكباره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من فقر أو مرض أو مصيبة من المصائب ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ كان شديد اليأس من رحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف ٨٧/١٢].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ على استعداده، أي بحسب ميوله ومكوّناته الشخصية، وما شاكَلَ جوهر نفسه من طهارتها أو كَدَرِها وخِستها ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ الله تعالى أعلم بمَن يسير على الاستقامة، أو ينحرف نحو الغشّ والضلال وخداع النفس، فأنّى للآخرين قسره على الهداية،

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيها النبي ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ أي عن الوحي القرآني وطبيعته وماهيّته، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى ٥٢/٤٢]، فسمّى الوحي روحاً، ولأنّ النظْم من الآية (٨٢) حتى الآية (٨٩) يدور كله حول الوحي ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ في علمه واستئثاره ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ما لا يمكّن الإنسان من الإحاطة إلاّ بجزء قليل من الغيبيّات،

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهذه الآية جواب على سؤالهم بالآية (٨٥) عن طبيعة الوحي، والمعنى أنّه من دون الوحي الإلهي يبقى

الجنس البشري تائهاً يتخبّط في البحث عن المقاييس الأخلاقية المطلقة ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا﴾ أيها الإنسان ﴿وَكِيلاً﴾ تكلُ أمورك إليه، أو تعتمد عليه في معرفة الحق من الباطل،

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استمرار الخطاب من الآية المتقدّمة، لأنّ الرحمة أيضاً بمعنى الوحي، انظر آيات [هود ١١/٢٨،٦٣]، حيث سمّى الوحي رحمةً، والمعنى: لولا الوحي لما استقامت أمور الإنسان ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أيها النبي، وأيها الإنسان، لأن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمة العقل من جهة، وبنعمة الوحي الإلهي من جهة ثانية،

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨)

٨٨- ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ بكلّ ما يملكون من طاقات الفكر العلمية والتقنية والأدبية ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في أسلوبه المعجز، ومحتواه العميق المتنوع، وإيحاءاته الروحية المبهرة، ونظمه المحكم ﴿لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو كانوا يعضدون وينصرون بعضهم بعضاً، لأن المسألة ليست مشروطة بتكامل الطاقات في سبيل تكامل النص في إبداعه، بل مرتبطة بالسر الخفيّ وراءه،

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٨٩)

٨٩- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ كرّرنا وقلّبنا المعاني القرآنية من كلّ الوجوه والأساليب، ليصبح القرآن قريباً من الأفهام ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ لأنّ فهم أكثر الناس سطحي وضحل ومقتصر على مادية الدنيا، كما سيرد في الآية التالية:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠)

٩٠- ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ يريدون معجزات مادية تلمسها أيديهم بسبب قصور عقولهم عن تقويم القرآن من حيث جدارته،

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١)

٩١- ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا﴾ وهذا من قبيل التعجيز، والتهكّم، والتهرّب من مواجهة معجزة القرآن،

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ يقولون ذلك بلهجة من التحدّي، في إشارة لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور ٥٢/٤٤]، أي يستعجلون العذاب بسقوط السماء عليهم قطعاً ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ وبمزيد من التهكّم والتحدّي يريدون أن يظهر الله تعالى لهم مع ملائكته جماعةً،

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ من الذهب ﴿أَوْ تَرْقَى﴾ تصعد ﴿فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لصعودك في السماء حتى لا تسحرنا بطريقة من الطرق ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ هكذا بطريقة مادية بحتة ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ الجواب أنّ كل ذلك ليس في طاقتي، وما أنا إلاّ بشر مثلكم مُرسل من الله، وعليكم استخدام ما حباكم الله به من نعمة العقل، وليس تعطيل عقولكم، ولا التفكير بمثل هذه الطلبات الصبيانية،

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾ في عقلية بدائية تتطلّب الخوارق للإيمان، ما يجمع المتناقضات من كون الرُسل ملائكةً والمُرسَل إليهم بشراً،

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾ لأن المُرسَل إليهم يجب أن يكون من جنسهم، ليتناسب فكره مع فكرهم، وقدراته العملية مع قدراتهم،

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فيما أدّعيه من الرسالة، وما أبلّغه للناس من الوحي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فهو أعلم بعباده من مهتدين وضالّين،

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧)

٩٧- بعد أن أسهبت الآيات (٨٢-٩٦) في تأكيد أصالة الوحي القرآني، وتحدي ذوي العقول البدائية له بشتى الأساليب الصبيانية، تنتقل هذه الآية والآيات التي تليها (٩٧-١٠٠) لبيان أنّ الإنسان بالخيار أن يستفيد من مَلَكاته العقلية، أو أنْ يهدرها، وفي الحالتين يلقى عاقبته نتيجةً طبيعية لما اختاره من الهدى أو الضلال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ مَن يختار الهداية يوفّقه الله تعالى لها ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ مَن يختار الضلال فالله تعالى يخلّيه لنفسه ولا يقسره على الهدى ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ ينصرونهم مِن دون الله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى

وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ يُحشرون بالحالة التي كانوا عليها في دنياهم إذ أهدروا إمكاناتهم العقلية والفكرية ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾،

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨)

٩٨- ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن إنكارهم البعث والجزاء ليس سوى إنكار لجبروت الخالق وعظمته، بل إنكار لوجوده،

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٩٩)

٩٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فكيف ينكرون البعث ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يستطيعون تجاوزه، ولا يستطيعون تحقيق ما يطمحون إليه من الخلود في دنياهم ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا﴾ رغم كل الآيات القاهرات،

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ بما منَّ على الإنسان من نعمة العقل، ونعمة الوحي، ونعمة الأرزاق المادية ﴿إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ رغم كل ما بكم من النِعَم، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ بما جُبِل عليه من خوف المستقبل، ظانّاً أنه يخلد أمداً طويلاً، فلا ينفتح على خير،

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ (١٠١)

١٠١- بعد أن فصّلت الآيات (٩-١٠٠) في قرامة القرآن على غيره من الكتب السابقة، يعود الخطاب في الآيات (١٠١-١٠٤) إلى أول السورة الآيات (٢-٨):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ في بعثته إلى فرعون ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ آيات مادية بيّنة تُناسب المستوى الفكري لقوم فرعون ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أيها النبيّ فيتأكّدوا مطابقة الوحي القرآني لما جاء في كتبهم عن هذا الموضوع ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ موسى ينقذهم من عبودية الفراعنة ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ أو ساحراً، لِما اعتاد عليه فرعون من خداع قومه بفنون السحر، وقد وردت القصة بمزيد من التفصيل في آيات [الأعراف ٧/١٠٣-١٣٧]، وآيات [طه ٢٠/٤٩-٧٩]،

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات البيّنات المادية المحسوسات الخارقات، ما لا علاقة لها بالسحر ﴿إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ هيَ دلائل وحجج كأنها بصائر للعقول، تفتح العيون على الإيمان ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ هالكاً، بما تصرّ عليه من الضلال،

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٣﴾

١٠٣- ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ أن يمحق بني إسرائيل من أرض مصر، أو أن يزعجهم في أرزاقهم فيها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وهو في طريق مطاردته لهم، عند انفلاق البحر لموسى وقومه ثم انغلاقه على فرعون وجيشه، انظر آية [يونس ١٠/٩٠]،

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ يعني اسكنوا أرض فلسطين مؤقتاً، وليست موائاً أبدياً لهم، فلم يستقم الحكم لهم فيها سوى حوالي أربعة قرون، من القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن السادس قبل الميلاد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ المشار إليها بالآية (٧)، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ بأعداد كبيرة، لتلاقوا مصيركم المخزي فيها،

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥)

١٠٥- استكملت الآيات (١٠١-١٠٤) بإيجاز ما سيكون عليه بنو إسرائيل عندما يجيء وعد الآخرة، وهنا يعود الخطاب لإكمال تركيز السورة على فضائل القرآن الكريم وختمه للرسالات السابقة:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ما يفيد الحصر، أي نزل القرآن بالحق لا غير ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ مشتملاً عليه كاملاً بلا نقصان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها النبي ﴿إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ بلا إكراه،

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (١٠٦)

١٠٦- ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ تتمة الخطاب بمعنى فرقناه قرآناً، أي فصّلناه ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أيها النبي ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ بتمهّلٍ وتأنٍّ ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ مفرّقاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من البعثة النبوية، ومع ذلك فهو في منتهى الإحكام والإعجاز في ترتيب توقيفي مغاير لترتيب النزول الزمني، وهذا الواقع يوجب قراءة القرآن متكاملاً، وحدة شاملة غير مجتزأة، بعضَه على ضوء بعض، انظر آية [طه ١١٤/٢٠]،

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ فالأمر ليس متوقفاً عليكم، إذ هو معجز بذاته ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين فهموا حقيقة الوحي الإلهي في التوراة والإنجيل ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ لما فهموا فيه من الإعجاز وختم الرسالات، وقد دخل الإسلام الكثيرون منهم، ولا يزال الكثير من مفكّريهم يدخلون الإسلام حتى اليوم،

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ ﴿١٠٨﴾

١٠٨- ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ تنزّهَ عن كل ما لا يليق به ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ بتحقق نبوءات الكتب السابقة في القرآن،

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ كلّما ازدادوا فيه فهماً وتعمّقاً،

قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴿١١٠﴾

١١٠- استكمال الخطاب من الآيات (١٠٥-١٠٩)، أي بعد أن فهمتم القرآن بتمهّلٍ وتأنٍّ فهماً شمولياً، واستوعبتم إعجازه، كما فعل الذين أوتوا العلم من قبله، لم يبقَ سوى الدعاء بالحسنى:

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ﴾ بصفات الكمال ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ له وحده صفات الكمال ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ للمراءاة تجاه الآخرين، من مسلمين وغيرهم ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدعاء ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ وسَطاً، بأن يسمع المرءُ نفسَه،

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (١١١)

١١١- ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وهذه إشارة لزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم اليهود أن عزير ابن الله، انظر آية [التوبة ٩/٣٠]، وشرحها ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فكل ما عداه باطل ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ﴾ غنيّ عن كل ما سواه ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ عن الأنداد والشركاء المزعومين،

* * *

سورة الكهف -١٨-

مكية

مُقَدِّمَة

نزلت خلال السنة الأخيرة قبل الهجرة، واشتق اسمها من قصة أهل الكهف وهي واحدة من قصص رمزية أربعة وردت في السورة بمعانٍ مكملة بعضُها لبعضٍ،

اتصال السورة بما قبلها

كان تركيز سورة الإسراء في معظمها، وخاصة في الآيات (٤١، ٤٥، ٤٦، ٨٢-٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)،

على أصالة القرآن الكريم وهدايته لما هو أقوم من الكتب السابقة، وتفتتح سورة الكهف بحمده تعالى أن أنزل الكتاب على عبده محمد و لم يجعل له عوجاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ (١/١٨)، فبخلاف الكتب السابقة قد حفظه تعالى من التغيير والتحريف،

وفي سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٩/١٧)، وفي سورة الكهف قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ (٢/١٨)،

واختتمت سورة الإسراء بالأمر بحمده تعالى وتنزيهه عمّا لا يليق: ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (١١١/١٧)، ثم تفتتح سورة الكهف بحمده تعالى

وتبين أن من أغراض القرآن إنذار الذين زعموا لله ولداً: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (١٨/٤)،

وفي سورة الإسراء نهي عن اقتفاء ما ليس للإنسان به علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (١٧/٣٦)، ثم في سورة الكهف أنهم يتخبطون في صفات الله تعالى بلا علم: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (١٨/٥)، وتنهى عن الإدعاء إلا بما يعلمه الإنسان يقيناً: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ (١٨/٢٢)،

وفي سورة الإسراء أن أكثر الناس كفروا بالقرآن رغم إعجازه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (١٧/٨٩)، ثم تبين سورة الكهف سبب ذلك في طبيعة الإنسان الجدلية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (١٨/٥٤)،

وفي سورة الإسراء أنه تعالى يرزق المؤمن والكافر على السواء: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١٧/٢٠)، والسبب تبينه سورة الكهف بأن الدنيا دار ابتلاء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١٨/٧)، وأن الله تعالى يمهل الكفار لعلهم يتوبون: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ (١٨/٥٨)،

﴿وفي سورة الإسراء أن الكفار أنكروا البعث: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١٧/٩٨)، ثم في سورة الكهف حتمية البعث: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ

زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨/١٨)، وأنه واقع لا محالة: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ (٥٨/١٨)،

وفي سورة الإسراء أن ليس لإبليس من سلطان حقيقي على الناس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥)، ثم في سورة الكهف أن الضالين اتخذوا إبليس وأتباعه أولياءَ بمحض اختيارهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠/١٨)،

محور السورة

أنّ الدنيا دار ابتلاء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧/١٨)، ما يوجب تغافي الغفلة وعدم اتباع الأهواء: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨/١٨)، وأن أمد الدنيا زائل وقصير: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (٤٥/١٨)، والمال والبنون زينة زائلة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦/١٨)، والدنيا ليس لها من وجود حقيقي في جنب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧/١٨)،

أمّا المجتمعات فتهلك بظلمها: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٥٩/١٨)، والمجرمون لا يفيقون من غفلتهم إلا على عذاب الآخرة: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي

غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٨/١٠٠-١٠١)، وأن أعمال الكفار تحبط يوم القيامة، حتى "الصالح" منها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (١٨/١٠٥)، والمقادير لا تسير دوماً بحسب تخطيط الإنسان لها: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (١٨/٢٣-٢٤)،

وتبرز هذه الحقائق في السورة من خلال أربع قصص رمزية تُظهر نسبية الزمن الدنيوي: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (١٨/١٩) ﴿قصة أصحاب الكهف﴾،

واغترار الإنسان بظاهر الحياة الدنيا: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (١٨/٣٥) (قصة الرجلين)،

وزيف الظاهر من حيث إنه لا يطابق الواقع بالضرورة: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (١٨/٧٨) (قصة موسى مع الخضر)،

وضعف التدبير البشري تجاه الخطة الإلهية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ (١٨/٩٨)، وأن مادية الدنيا ومباهجها لا تتناقض بالضرورة مع الإيمان والاستقامة والعمل ما دامت تذكّرَ الإنسان مرحلية الدنيا وقصرها: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ (١٨/٩٥) ﴿قصة ذي القرنين﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ (١)

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾ للقرآن ﴿عِوَجَا﴾ لأنّ القرآن واضح خالٍ من الغموض، متماسك ومتناسق ومحكم، غير ملتبس،

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٢)

٢- ﴿قَيِّمًا﴾ على الإنسان، كما هو قيّم في ذاته ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ للمحرمين والكافرين برسله وبكتبه ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ الذين قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح،

﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٣)

٣- ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾ في الأجر ﴿أَبَدًا﴾ نعيمهم غير محدود بزمن دنيوي، بل هو زمن مطلق بلا نهاية،

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤)

٤- ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ممن فيهم المسيحية التي زعمت إن المسيح ابن الله،

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥)

٥- ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ ليس لهم من علم حقيقي بالله تعالى، ولا بكماله وصفاته، ولا علم لهم بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع إذ ينسبون إليه الولد ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لما فيها من كفر وافتراء ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يستحيل أن يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً،

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦)

٦- ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ أيها النبي، أو أيها المؤمن الموقن، أو أيها الداعية المسلم ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ مهلكها حزناً ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ بعد تولّيهم عن الإيمان ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ الجليل الشأن، وهو القرآن الكريم ﴿أَسَفًا﴾ على عدم استجابتهم، وعدم استيعابهم لعظمة الدعوة والرسالة،

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (٧)

٧- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ﴾ مِن نِعم وخيرات ﴿زِينَةً لَهَا﴾ فانية ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ لأنّ الدنيا دار اختبار، وليست دار مقام، والخطاب استمرار من الآية السابقة، بمعنى أنْ لا مبرر لأن يهلك المؤمن نفسه حزناً على المصرّين على الكفر، فالله تعالى أتاح للأفراد أن تظهر شخصيّاتُهم وتوجهاتهم الحقيقية، أخلاقية وغير أخلاقية تجاه ما تزخر به الدنيا من المادة، والنتيجة: التعلّق الأعمى بها من قبل البعض، مقترناً بكبرياء زالف من قبل البعض الآخر لما تمكّنوا فيها من إنجازات،

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)

٨- ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ مِن زينة المادة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تراباً لا نبات فيه، فالدنيا زينة طارئة، وحالة عابرة،

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩)

٩- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ استمرار الخطاب، أي ما دامت الدنيا زينة ابتلاء، فكيف تظنّ أن معجزة أصحاب الكهف، التي سوف ترد، أكثر عجباً من باقي معجزات الخلق؟ فآياتنا كلها عجب، وهذه بداية القصة الأولى في السورة:

والرقيم بمعنى المرقوم، أي السجلّ، وللقصة أصول يهودية تعود إلى الفترة التي عاصرت بعثة عيسى عليه السلام مباشرة، وقد تكون الإشارة لطائفة الإسنيين اليهودية Essenes ، وهي طائفة اتسمت بالطهارة والزهد، وقيل كان ينتمي إليها عيسى المسيح نفسه، وقد اعتزلت في كهوف الجبال غربي البحر الميت هرباً من الاضطهاد الروماني خلال القرن الأول الميلادي، واستغرقت في كتابة وحفظ السجلات التي أحضرتها معها من القدس، وقد يكون أيضاً أن تلك

السجلات هي التي تم اكتشافها في العام ١٩٤٥ في الكهوف شرقي البحر الميت وعُرفت باسم وثائق قمران، وهذه الطائفة حافظت على النصرانية التي جاء بها عيسى و لم تنحرف إلى مسيحية بولس، انظر كتاب "المسيحية والإسلام والاستشراق"،

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١٠)

١٠- ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ فتية الطائفة المذكورة ﴿إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ من الرزق والأمن ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي هجرنا فيه دار الكفر ﴿رَشَدًا﴾ نهتدي لمعرفة الصواب من الخطأ،

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١)

١١- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ جعلنا عليها حجاباً يمنع السماع، كناية عن النوم ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ معدودة، الآية (٢٥)،

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (١٢)

١٢- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ إلى ما كانوا عليه من الحياة في دنياهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ المعنى: مَن مِن وجهيْ النظر منهم أحصى للمدة الزمنية التي قضوها رقوداً، إذ وقع الخلاف بينهم في تحديد المدة، الآية (١٩)، أو أن الخلاف وقع بين مَن عثر عليهم من الناس، الآية (٢١)، وحيث أنّ علمه تعالى يشمل الماضي و الحاضر والمستقبل فيكون المقصود ظهور ذلك العلم لخلقه، وما به من إعجاز،

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣)

١٣- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بعيداً عن التخمين وعن الأساطير التي أحاطت بقصتهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فاهتدوا إليه ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾

على أساس السنة الإلهية التي تمدّ المؤمنين بالفيض الروحاني، فالإيمان أولاً ثم اللطف الإلهي،

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (١٤)

١٤- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ شددنا عليها وقوّينا عزائمهم ﴿إِذْ قَامُوا﴾ في مجتمعهم تجاه الطغاة والمصرّين على الكفر والانحراف عن رسالة عيسى المسيح ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ لا نعبد من دونه إلهاً آخر ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ لو فعلنا، لقلنا قولاً خارجاً عن حدود المعقول، مفرطاً في البعد عن الحق،

﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥)

١٥- ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارةٌ إلى المسيحية التي ابتدعها بولس وانحرف بها عن ديانة المسيح، وزعمَ أن المسيح إله أو ابن الله ﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجّة واضحة الدلالة على دعواهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشرك والشركاء إليه تعالى، أو نسبة الألوهية لغيره،

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ (١٦)

١٦- ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ اعتزلتم قومكم الكفار ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ واعتزلتم ما يعبدون من دون الله ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ وحده فلم تعتزلوه، ولم تعتزلوا عبادته، وكلّ ذلك قول الفتية بعضهم لبعض ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ التجئوا إليه ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يبسط لكم ويوسّع عليكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم بصدده ﴿مِرْفَقًا﴾ ترتفقون وتنتفعون به، من الرفق واللطف واليسر،

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧)

١٧- هذه الآية وصف لجانب من جوانب الإعجاز في رقود الفتية مئات السنين، والمفهوم منها أنهم كانوا في متّسع من كهف، فوّهته متّجهة نحو الشمال الجغرافي: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ﴾ تميل ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ من جهة المشرق ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ تعدل عنهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ من جهة المغرب ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ في متّسع من الكهف، تنالهم منه التهوية الكافية دون أن يصيبهم قيظ الشمس مباشرةً أو يؤذيهم، ولا عفونة تطالهم أو تبلي ثيابهم ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الآفاقية الكثيرة، وهو أيضاً من آيات الله أنْ هداهم للرقود في مثل هذا الكهف ذي التهوية والتكييف الطبيعي ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ بتوفيقه ولطفه ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ فيخلّيه تعالى لنفسه ولإصراره، ولسوء استعداده ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ يتولّى حمايته ويبيّن له طريق الصواب،

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٨)

١٨- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم كثيراً، لأنّ التقليب يفيد كثرة التكرار ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ لجهة أيمانهم ﴿وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ لجهة شمائلهم، واقتضت حكمتُه تعالى ذلك كي لا تأكل الأرض أبدانَهم بل يكون حفظُها بما جرت به العادة في نومهم من التقلّب يميناً وشمالاً، وإظهاراً لعظيم قدرته تعالى في شأنهم، إذ جمعَ فيهم الإنامة الثقيلة والتقليب الكثير ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ في فناء الكهف بحالة استرخاء ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ لأنه لا بد للمُشاهد أن يلحظ

حولهم سرّاً خفيّاً مريعاً غير معتاد، وما هو إلاّ هالة روحية مهيبة محيطة بهم، تثير الروعة في الناظر إليها، فتوحي إليه أنه يقف أمام نخبة مختارة من عباد الله،

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩)

١٩- ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ بعد هذه الإنامة الطويلة ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ اهتمّ أحدهم بمعرفة المدة "الفعلية" التي انقضت ما بين نومهم وإفاقتهم، وغاب عنه نسبية الزمن الدنيوي ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ الواضح من إجابة الباقين أنهم كانوا مستوعبين لحقيقة أنّ الزمن الدنيوي لا حقيقة "فعلية" له، ولا معنى، في جنب الزمن المطلق، وما بين وجهيْ النظر هاتيْن بين الزمن الدنيوي والزمن المطلق إشارة لقوله تعالى بالآية (١٢): ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾،

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ بدراهمكم ﴿هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ظنّوا الزمن الدنيوي متوقفاً خلال فترة رقودهم، كما في حالة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، انظر آية [البقرة ٢/٢٥٩]،

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١)

٢١- ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ كما أنمناهم وبعثناهم، لفتنا نظر الناس لقصتهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ بالموت والنشور ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ الذين اكتشفوا أمرهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾

صرحاً يكون علامة لما حلّ بهم من رقود، وبعث، ثم موت ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ وهكذا تنتهي القصة هنا فجأةً، كعادة القرآن الكريم، حيث لا يروي القصص لمجرّد التأريخ بل لبيان العبر منها،

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢).

٢٢- ﴿سَيَقُولُونَ﴾ في المستقبل بعد مرور الزمن، ممّا يدلّ أن قصة أهل الكهف شغلت أذهان الناس لمدة طويلة ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من العارفين قطعاً ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ لا تجادل في موضوعهم إلّا بجدال واضح ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ لا تطلب المعرفة من القصّاصين والخائضين فيما لا يعلمون،

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ أيها النبي، أو أيها الإنسان ﴿لِشَيْءٍ﴾ تعزم عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ لأنّ الغد ليس في سيطرة البشر في كينونته أو عدمها، وفي ذلك عودة لمفهوم الزمن الذي أوردته القصة،

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يحين الغد، فيفعل المرءُ ما شاء اللهُ أن يُفعل ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ أيها المؤمن ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ وجوب إرجاع الأمور إليه تعالى ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أقرب ممّا أنا عليه من الرشد،

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ من السنين، وهي الفرق بين حساب السنوات الشمسية والقمرية،

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾(٢٦)

٢٦- ﴿قُلِ﴾ للخائضين في الموضوع ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وحده يعلم الغيب ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ لا تحيطون بسمعه وبصره جلّ جلاله ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يستطيع نصرهم ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ممّن زعموا من الشركاء،

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧)

٢٧- تتمة الخطاب من الآية السابقة: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ بيّنه للناس ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا تبديل فيه ولا نسخ ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ لا ملجأ منه تعالى إلاّ إليه،

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)

٢٨- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أيها الرسول، وأيها الداعية، وأيها المؤمن ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وهم ضعفاء القوم، لا تحتقرهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يبتغون رضاه سبحانه وتعالى دون الرياء والسمعة ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ إلى كبار القوم ووجهائهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلب مجالسة الأغنياء وأصحاب الدنيا ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أغفلناه بالخذلان

والتحلية، لبطلان استعداده للذكر ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في ترك الإيمان ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي ضياعاً وهلاكاً،

ومغزى الآية عام ينطبق في كل الأزمنة بمعنى أنّ على المسلم ألاّ يتشدد مع الآخرين إن كانت أفكارهم لا تطابق العقيدة تماماً، بل يتسامح ويصبر معهم في شرح المبادىء القرآنية،

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩)

٢٩- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ نزل به القرآن ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ بلا إكراه، لأن رسالة الإسلام تناشد العقول السليمة ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ كناية عن استحالة الفكاك منها ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح بحسب القاعدة القرآنية ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ لا ينفعهم إيمانهم من دون الإحسان في العمل،

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١)

٣١- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات الخلود ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ جزاء وفاقاً لما كانوا عليه في دنياهم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ

ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ تفضّلاً منه تعالى،

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٣٢)

٣٢- بهذه الآية تبدأ القصة الثانية في السورة، وهي قصة رمزية، أي مَثَل، وفي الخطاب عودة إلى مغزى الآيات (٧-٨) إن الدنيا دار اختبار وهي زينة زائلة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ حديقتين، أو بستانين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ﴾ لم تنقص ﴿شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وفير ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ على سبيل المفاخرة والاعتداد بالمادة ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ في تلميح ساخر إلى ما هو عليه من الكفر، ونِعَم الدنيا معاً،

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥)

٣٥- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ حديقته ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بحسبانه أن ما فيها من ثمر وفير، وغلال، كان بحوله وقوته لا غير، أي بوسائل الزراعة والري التي نفّذها ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ناسياً أو متناسياً السرّ الخفيّ وراء خلق المادة الحيّة،

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (٣٦)

٣٦- ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ إمعاناً في الانكار، معتبراً دنيا المادة نهاية المطاف ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ قالها على مسمع من صاحبه المؤمن، وفي كلامه من التعريض والسخرية ما فيه،

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (٣٧)

٣٧- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ لأن الحوار والمنطق السليم هو القاعدة عند المؤمنين، وليس التهجّم والتشنّج الفكري ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ فكيف يمكن للعقل السليم أن ينسى أو يتناسى أبسط مراحل الخلق البيّنة في إعجازها الهائل؟

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨)

٣٨- ﴿لَكِنَّا﴾ لكن أنا ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ وحده منبع الخلق والتكوين ﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ لا أشرك به المادة ولا الدنيا الزائلة، التي ظننت أنها لن تبيد أبداً،

﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ (٣٩)

٣٩- ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي هلاّ قلتَ؟ وفيه حضّ صاحبه على القول ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿لا قُوَّةَ﴾ حقيقية ﴿إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ بتقدير الله ﴿إِن تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ أي اعترف بعجزك، وأنّ ما بك من مادة الدنيا كان بتقدير الله،

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠)

٤٠- ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ قد يحصل ذلك بفضله وكرمه، وتقديره، وسننه في خلقه ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على حديقتك ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ مقدّراً من السماء، محسوباً في علم الله القديم منذ خلق السماوات والأرض، كالصواعق والحرائق والآفات ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ تراباً لا نبات فيه، تنزلق عليه الأقدام لنعومته،

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٤١)

٤١- ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض بفعل عوامل التصدّعات والشقوق الأرضية الجوفية ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ لأنّ المياه الجوفية في هذه الحالة تسلك لنفسها جرياناً باتجاهات متغيّرة،

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أحاط الدمار به كاملاً بسبب آفة من الآفات ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ندماً وتحسّراً ﴿عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ في حراثتها وزراعتها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ خالية ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ سقوفها من عرائش وما تتسلق وتتكىء عليه الكروم والنباتات ﴿وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ تذكّر، بعد فوات الأوان، موعظة صاحبه بالآية (٣٨)،

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (٤٣)

٤٣- ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ صارَ في حالة من العجز التام الناجز، لا رجعة فيه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ لا أحد يستطيع نصرَه، فضلاً عن أنْ ينصر نفسَه بنفسِه،

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿هُنَالِكَ﴾ في هذه الدنيا، كما في الآخرة ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ وحده ينصر عباده ويتولّى أمورهم، وما عداه باطل ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ في العاقبة،

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (٤٥)

٤٥- ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي بعد كلّ ما تقدّم من قصة الرجلين، وما تبيّن منها من العبر، اضرب لهم مثل الدنيا عموماً، تشبيهاً لها بالمطر يُنبت النبات، ثمّ لا يلبث النبات أن يصبح يابساً متفتتاً تفرّقه الرياح، وكذا حال الدنيا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ منذ الأزل، ولا يزال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ في الدنيا، وعلى البعث في الآخرة،

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦)

٤٦- تتمة الخطاب من الآية المتقدمة، والمغزى نهي عن الغرور بالدنيا: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية، فلا يغترّ بهما أحد ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ من الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أجراً ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لمن يأمل الآخرة ويرجوها، ولا يقتصر أمله على دنياه،

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧)

٤٧- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ يوم القيامة، فتتخلّى الأرض عن حقيقتها الظاهرية ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي من العباد، مؤمنهم وكافرهم،

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨)

٤٨- ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ لا يفوت منهم أحد ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وهذا القول للكفار الذين في حياتهم أنكروا حقيقة الآخرة،

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩)

٤٩- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ كتاب الأعمال ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا، أي يتمنّون الهلاك ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ سجلّ الأعمال ﴿لا يُغَادِرُ﴾ لا يترك ﴿صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ من الذنوب ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في دنياهم ﴿حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لأن الجزاء من جنس العمل، ومُترتّب عليه،

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ (٥٠)

٥٠- عودة الخطاب لقصة الخليقة الرمزية، ومعصية إبليس، مرتبط بما قبله، باعتبار المجرمين المشار إليهم آنفاً قد مارسوا الخيار الأخلاقي الخاطىء في دنياهم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ سجود تكريم، لِما حباه الله من الفكر المجرّد ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ كناية عن عناصر الشر التي سوف يكابدها الإنسان في الدنيا ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ أي بدلاً من الخيار الأخلاقي الصحيح الواجب اتّباعه،

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١)

٥١- ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ لأنهم مجرّد مخلوقات كانوا في دائرة العدم ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فأي حاجة لله تعالى إلى مخلوقاته؟

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥٢)

٥٢- ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله تعالى يوم القيامة للمشركين ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الألوهية كذباً وبهتاناً ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأنهم في منتهى العجز، لا يستطيعون نصرة أدعيائهم، ناهيك عن نصرة أنفسهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ حاجزاً عريضاً من الهلاك، والمغزى أيضاً وجود حاجز معنوي كبير كان، في دنياهم، يفصل بين خيالهم وبين الواقع، أو يفصل بين خيالهم وبين ما كانوا يعبدون من مخلوقات لا تستحق العبادة،

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ ظنّ اليقين ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ واقعون بها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ينصرفون إليه،

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (٤)

٥٤- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ قلّبنا لهم وكرّرنا من كلّ الوجوه ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ كما ورد آنفاً، وفي الآيات المتشابهات، انظر [آل عمران ٣/٧]، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ رغم وضوح الحق من الباطل،

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي لم يومنوا بسبب طبيعتهم الجدلية المشار إليها، بالرغم من بعث الرسل إليهم بالهداية ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ بالتوبة ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ فهل ينتظرون نزول العذاب بهم؟ كما حدث لأسلافهم من الأمم البائدة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ وجهاً لوجه، فعندئذٍ لا يكون لإيمانهم قيمة أخلاقية،

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦)

٥٦- ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بلا إكراه ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما صمّمت عليه عقولهم من الباطل، وما انطوت عليه نفوسهم من طبيعة الجدال ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ تهرّباً من المنطق السليم، ومن مسؤولياتهم الأخلاقية،

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧)

٥٧- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ لأن الموضوع ليس سوى ذكرى لِما وقرَ في الإنسان من إقراره بربوبية الله وحده ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ عن الذكرى ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشرور ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية معنوية ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ لئلاّ يفقهوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلاً، فلا يسمعوا الموعظة ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لسوء استعدادهم وسوء جبلّتهم، وإصرارهم على الضلال،

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ وسعت رحمته المؤمنين والعصاة على السواء ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ المغزى: إنّ الله تعالى يعطيهم الفرص لعلهم يتوبون ويُصلحون ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ لا منجاً ينحون إليه، بعد نقطة اللاعودة، والموعد قد يكون بوفاتهم في الدنيا، كما هو مذكور بالآية التالية:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٥٩)

٥٩- ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ المجتمعات ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بإصرار، ولأزمان طويلة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ وقتاً عندما يحين لا يستأخرون عنه، فلا تستمر شرورهم بلا عقاب،

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠)

٦٠- وهذه القصة الثالثة في السورة، ويلاحظ ارتباط الخطاب مع الآية (٥٤) بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، ما معناه أيضاً أن العلوم لا متناهية وخاصة الروحانية منها، ومن ذلك قصة موسى مع الخضر في بحثه عن العلم، وكما في معظم قصص القرآن الكريم نلاحظ التركيز على العبر المستخلصة من القصة، فهي تُروى في إطار مجرّد من التأريخ ومن المكان:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ لخادمه ﴿لا أَبْرَحُ﴾ لا أنفكُّ، ولا أزال أسير حتى ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قيل هما التقاء خليج العقبة مع خليج السويس في جنوب سيناء، ونسب البعض لمجمع البحرين تفسيراً صوفياً، كما ذكر البيضاوي، حيث قال: هُما علم الظاهر الذي تتعلمه من عالم المشاهدة، وعلم الباطن الذي كان يسعى إليه موسى ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ زماناً طويلاً في السعي وراءه،

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٦١)

٦١- ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ مجمع بين البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسيا ما كان بشأن السمكة، ويبدو أنها كانت علامة لِما هُم بصدده من البحث عن المطلوب ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي سلك طريقه في البحر، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد ١٣/١٠]

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٦٢)

٦٢- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ تعباً وإعياءً،

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٦٣)

٦٣- ﴿قَالَ﴾ فتاه ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ التي لجأنا إليها وأقمنا عندها ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ عندها ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بوساوس السوء ﴿وَاتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قالها مستغرباً،

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤)

٦٤- ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ما كنا نطلبه من علامة، للفوز بالمطلوب ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يقصّان أثرهما قصصاً وهما يعودان أدراجهما،

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الجمهور على أنه الخضر، وهو نبي من الأنبياء كان متمكناً في علوم الباطن، ذو نظرة صوفية ثاقبة في بواطن الأمور كأقصى ما يمكن لإنسان أن يتمتع به من هذا النوع ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾

الرحمة هي الوحي، كما وردت في سورة هود، الآيات [هود ١١/٢٨،٦٣]، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ علماً من عند الله، بالإضافة لما نزل عليه من الوحي، ويبدو أنّ هذا العلم ممّا لم يؤته الله لغير الخضر في الإحاطة ببواطن الأمور،

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦)

٦٦- ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ استئذاناً منه لنفسه ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ ممّا لا أعلم ﴿رُشْدًا﴾ علماً ذا رشد، يرشدني لأحسن ممّا أنا عليه،

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧)

٦٧- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لأنني أنظر في عواقب الأمور قبل وقوعها، وأما أنت فنظرتك جزئية محدودة لا تتجاوز ما أنت عليه في حاضرك، فهنالك فارق زمني داخلي بين نظرتينا،

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨)

٦٨- ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ المعنى إنك لن تستطيع فهم الأمور والأشياء على حقيقتها سلفاً، فالظواهر والحقائق قد لا تتطابق دوماً، حتى بالنسبة إلى الأنبياء كموسى، فالمرء قد يشاهد أموراً من أمور الغيب ليس لها مقابل في ما اعتاد عليه في ذهنه،

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩)

٦٩- ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ بلا اعتراض،

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٧٠)

٧٠- ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أذِنَ الخضر لموسى بمرافقته شريطة أن لا يبادره موسى بالسؤال عن شيء قبل أن يبدأه الخضر بالكلام أو البيان،

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١)

٧١- ﴿فَانطَلَقَا﴾ موسى والخضر معاً ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ جعلَ الخضر فيها ثقباً لتعطيلها مؤقتاً عن الملاحة ﴿قَالَ﴾ موسى مستغرباً ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ شيئاً داهياً منكراً،

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢)

٧٢- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ المعنى إنّ هذا من جملة الأمور الظاهرية التي تستعصي على فهمك الفوري،

﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣)

٧٣- ﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بما أخبرتني به من قبل ﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ بما نسيت من وصيتك بعدم المبادرة إلى السؤال،

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤)

٧٤- ﴿فَانطَلَقَا﴾ في مسيرهما ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾ الخضر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير حقّ القصاص ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ منكراً جداً،

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فهذا أيضاً من ظواهر الأمور التي خفيت عواقبها عليك،

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي﴾ سأله موسى أن يعطيه فرصة أخيرة، إن تكرر منه السؤال يترك صحبته ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قد سمعت كثيراً من الأعذار منّي،

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧)

٧٧- ﴿فَانطَلَقَا﴾ معاً متابعين السير ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ طلبا الطعام من أهل القرية ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بعكس قواعد الضيافة المعروفة عند البدو، ولعلّ أخلاق أهل القرية كانت مغايرة لأخلاق البدو في الكرم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾ جداراً كان على وشك الانهيار ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر، وأعاد بناءه ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أجراً قد نشتري به طعاماً،

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨)

٧٨- ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذا نهاية المطاف فيما سبق واتفقنا عليه من صحبتك لي ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ بما سوف تؤول إليه الأمور في عاقبتها ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ممّا لم تستطع الصبر عليه لمعرفة العواقب، وممّا هو خارج إدراكك،

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩)

٧٩- ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يكسبون منها معاشهم ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ مؤقتاً ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ كي لا يغتصبها الملك منهم إذ يجدها غير صالحة للملاحة،

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠)

٨٠- ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وهو لم يكن مثلهما، بل كان طاغياً عاقّاً لوالديه ﴿فَخَشِينَا﴾ الخشية من قبل الخضر معناها علم اليقين، بسبب نظرته الثاقبة لبواطن وعواقب الأمور ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بطغيانه وكفره،

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١)

٨١- ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ فيكون زكياً طاهراً بخلاف أخيه الطاغية الكافر ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وأكثر صلة رحم مع أبويه،

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٨٢﴾

٨٢- ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بهما ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ عن رأيي واجتهادي، بل كل ما فعلته في هذه الحالة، والحالات التي قبلها كان بدافع يفوقني بكثير، وهذا ما يفسّر استخدام ضمير الجمع من قِبَله في الآيات (٨٠-٨١)، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ تفسير ومآل ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ من خبراتك المحدودة بالظاهر،

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٣)

٨٣- وهذه القصة الرابعة في السورة، وبها يعود الخطاب مرة أخرى إلى الآية (٥٤)، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيها النبيّ ﴿عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ لإبراز بعض العبر من قصّته، واختلف المفسّرون في شخصية ذي القرنين المشار

إليه في هذه القصة، فهو في القصة رجل مؤمن موحّد، ومن المؤكد إنّه ليس الإسكندر المقدوني الذي خرج من اليونان وغزا المشرق في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد، لأنه كان وثنياً، وهو قطعاً ليس أحد ملوك حِمْيَر اليمنيين الوثنيين كما ظنّ بعضهم، وبما أن معظم القصص القرآنية تضع نفسها خارج إطار الزمان والمكان، وأنها لا تُروى قط لمجرّد التأريخ بل لإبراز العبر منها، فليس من فائدة لتقصّي شخصية تاريخية لذي القرنين، ولنا أنْ نعتبر إنّ القصّة رمزية بحتة، تمشياً مع الآية (٥٤) إنه تعالى صرّف في القرآن من كلّ مَثَل:

والقرنان في القصة قد يرمزان إلى مصدرين متفاوتين، ومتكاملين من مصادر القوة، إحداهما القوة المادية الدنيوية، والثانية القوة الروحانية المنبثقة من شدة الإيمان بالله تعالى، وهو ما تمتّع به ذو القرنين المشار إليه،

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤)

٨٤- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا التمكين هو جانب القوة المادية الدنيوية ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ آتاه الله تعالى كل الوسائل التي يحتاجها ذو القرنين للتوصّل إلى غاياته،

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٥)

٨٥- ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي استخدم الأسلوب الصحيح في التوصّل إلى ما يبغيه، والمغزى أنّ ذي القرنين لم يستخدم قطّ طرقاً ملتوية للتوصّل إلى غاياته الشريفة،

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أقصى رحلته غرباً ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عَكِرة، وقد تكون كناية عن شاطيء المحيط الأطلسي الذي

كانت العرب تسميه بحر الظلمات، وقد تكون إحدى البحيرات الضخمة العكرة، حيث يخيّل للناظر وقت الغروب إنّ الشمس تغرب فيها بسبب كروية الأرض ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ من من الواضح إنّ هؤلاء القوم كانوا منغمسين في كل أنواع الشرور والفساد بدليل تتمة الآية: ﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ تعذّبهم بسبب ما هم عليه من الفساد ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أو تصلحهم بالحسنى، فترك له باب الاجتهاد مفتوحاً يجتهد برأيه، وهذه عبرة مستفادة من القصة،

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وأصرّ على الظلم ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ في دنياه لعله يتوب ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ في الآخرة، وقوله نُكراً أو منكراً يفيد إنّ مدارك الإنسان الدنيوية تعجز عن مجرّد تخيّل الآخرة،

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٨)

٨٨- ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ للصالحين من القوم ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ المعنى إنّ ذي القرنين لن يطلب منهم تحمّل ما لا يطيقون، فالعمل الصالح هو الشيء الطبيعي المتوقّع من الصالحين، والدين يسر وليس عسراً،

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿٨٩﴾

٨٩- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ مرة ثانية، اتّخذ الأسلوب الصحيح للتوصّل إلى الغاية الصحيحة،

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠)

٩٠- ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أقصى المشرق من حملته ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ يحتمل إنّه لم يكن ما يقيهم من

أشعة الشمس، من ثياب أو خيام، بل كانوا يعيشون حياة بدائية جداً، في سهولهم، أوغاباتهم، فتركهم على ما هم فيه، غير راغب في إفساد بيئتهم وما هم عليه من طريقة العيش، دون أن يسبب لهم البؤس، ولا إفساد خلق الله، وهي عبرة أخرى من القصة،

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٩١)

٩١- ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ من عزمه على عدم إفساد البيئة الطبيعية، أو أحطنا بما لديه من حسن التلقّي وجودة العمل،

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (٩٢)

٩٢- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ مرة ثالثة، اتّخذ الأسلوب الصحيح للتوصّل إلى الغاية الصحيحة،

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ توجّه إلى وجهة أخرى، مكوّنة من سلسلتي جبال، ليس من المهم تقصّيها جغرافياً ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ من دون السدّين ﴿قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ يتكلمون لغاتٍ مختلفة، أو إنهم كانوا شديدي السذاجة والبساطة،

﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤)

٩٤- ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ يغيرون علينا ويسلبون أموالنا ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ مالاً يكون أجراً لك ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ حاجزاً حائلاً بيننا وبينهم،

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ من أي خرج تعرضونه عليّ، فالله تعالى قد أنعم علي بالرزق الروحاني، فضلاً عن نعمه الدنيوية ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أساعدكم لوجهه تعالى ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً بين الجبلين من الردم فلا يصلون إليكم،

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ فلزّات الحديد ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ صدفي الجبل ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ لإضرام النار ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ متوهّجة تذيبه ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ﴾ أصبّ ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ من فلزّات النحاس،

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧)

٩٧- ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ يأجوج ومأجوج، بعد ذلك ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يتجاوزوه على ظهره بالنظر لارتفاعه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ولا أن يجعلوا فيه فتحات يدخلوا منها،

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨)

٩٨- ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ للعباد، إذ يمنع العدوان ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يوم القيامة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أرضاً مستوية، مدكوكاً مسوّى بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ واقعاً لا محالة، وهنا تنتهي فجأةً قصة ذي القرنين، ليستأنف الخطاب في الآيات التالية بما تكون عليه الحال يوم القيامة، وأما يأجوج ومأجوج فقد حيكت حولهم الكثير من الأساطير، وزعم البعض أنهم المغول والتتار، أو قبائل شرق آسيوية غيرهم، ولم يثبت ذلك، والظاهر أنها إشارة لا تنطبق على أقوام بعينهم، وإنما إلى مجموعة من الأقوام والأحداث والكوارث تهدم الحضارات وتسبق وقوع الساعة، انظر آيات [الأنبياء ٢١/٩٦-٩٧]

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩)

٩٩- الواو في بداية الآية واو الاستئناف، وليست واو العطف، لأنّ الآية بداية لخطاب جديد بعد انتهاء قصة ذي القرنين: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ الناس جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحشر والحساب،

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ حتى لم يبقَ عندهم أيّ شك بها بعد كشف الغطاء،

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١)

١٠١- ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ لأنّ دنيا المادة أعمتْهم ﴿وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لشدة انهماكهم في اللهاث وراء المال والسلطة والتسلّط، نسوا الآخرة و لم تنفع فيهم المواعظ فكأنما بهم صمم،

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ (١٠٢)

١٠٢- ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ كما فعلت المسيحية بتأليه عيسى المسيح ووالدته مريم عليهما السلام ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين أصرّوا على الكفر بلا توبة ﴿نُزُلاً﴾ في آخرتهم،

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ (١٠٣)

١٠٣- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ الذين تذهب أعمالُهم هباءً منثوراً،

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤)

١٠٤- ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وهم المشار إليهم بالآيات (١٠١-١٠٢) نسوا الله، وعبدوا الدنيا، وأشركوا الأوهام، وعموا عن الآخرة، ثمّ هُم مغتبطون بما هُم عليه من الضلال،

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (١٠٥)

١٠٥- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أنكروا الآيات والبعث والحساب ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ حتى "الحسنة" منها ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ لأنه مهما قاموا في الدنيا من أعمال "صالحة" فإنها تحبط، وتصبح لا شيء، تجاه ما كانوا عليه من شرك وضلال،

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (١٠٦)

١٠٦- ﴿ذَلِكَ﴾ الاحباط في أعمالهم ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ لأنهم أصرّوا على الكفر ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ فلا يفيدهم مع الضلال شيء،

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٠٧)

١٠٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ القاعدة القرآنية بقرن العمل الصالح مع الإيمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولأنّ العمل الصالح يحبط مع الكفر كما تقدّم ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ في آخرتهم،

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (١٠٨)

١٠٨- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ لا يأسفون على ما تركوا من دنياهم، بخلاف الكفار يتوقون للعودة إلى الدنيا، لعله تكون فرصة أخرى لهم فلا يستطيعون،

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿١٠٩﴾

١٠٩- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ البحار جميعاً، لأن البحر اسم جنس ﴿مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لأن الخلق في تجدد دائم ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ لأنّ البحار مهما اتّسعت فهي متناهية، أمّا كلمات الله وعلومه وحكمته فغير متناهية، فيستحيل أن يفي المتناهي بغير المتناهي،

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠)

١١٠- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فلا شيء ينفع مع الشرك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ مَن كان يوقن بالآخرة والبعث والحساب ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهي القاعدة القرآنية النهائية،

* * *